

٢٠٠٢

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

د. عمرو عبد السميع



على ضفاف الثقافة

الأعمال الخاصة

حوارات حول المستقبل























على ضفاف الثقافة

حوارات حول المستقبل

على ضفاف الثقافة

حوارات حول المستقبل

د. عمرو عبد السميع

طبعة خاصة
تصدرها الدار المصر[illegible]
ضمن مشروع مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
سلسلة الأعمال الخاصة

على ضفاف الثقافة

حوارات حول المستقبل

د. عمرو عبدالسميع

الغلاف

والإشراف الفنى:

الـفنـان : **محمـود الهندى**

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سـمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى **«مكتبة الأسرة»** .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

إهـــــداء

إلى أبى..

الفنان العملاق..

الذى علمنى الانحياز إلى

الوطن والفقراء..

والإبداع المعبر عن كليهما.

عمرو

بارقٌ يلمع فى جنح الليالى!

لا أتأمل أكوام آلاف الأوراق، التى تمثلها هذه المجموعة من الحوارات، والتى أجريتها على شاطئ المحيط فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، عبر سنوات ثمانٍ، بوصفها محض ذكريات عبرت أفق خيالى..

ولكننى أنظر إليها على أنها جزء من مشروع حياة، راكمت فيه ـ عبر الحوار ـ عددا لا بأس به من الملفات المهمة، التى رأيت أنها يجب أن تكون بعض شواغل الناس، فى زمن الالتهاء بالخبز والسيرك، أو فلنقل الخبز والديش!

فمنذ عقود ثلاثة، وأنا أعتنق عقيدة مهنية، تؤمن بشكل قاطع وعميق، بأن الفكر الإنسانى والإبداع بجميع مستوياته وساحاته، لا يمكن أن يتخلق أو يتحقق واقعا مستقرا على الأرض، وعبر عملية تغيير جسور، إلا بأن يكون قطبا فى جدل أو طرفا فى حوار.

....

السمة الوحيدة الثابتة فى حياة البشر هى التغيير، ولكن ندرة من الناس هى التى تفهم طبيعة التغيير على نحو صحيح.

التغيير ـ كما فهمته ـ هو السعى لإخراج الناس من غربتهم، سواء كانت غربة ثقافية ناجمة عن التفاوت الثقافى والفكرى، أو كانت غربة اجتماعية كغربة الفقر فى الوطن، أو كانت غربة فى الغربة لهؤلاء القلقين المهمومين بالبحث فى أفكار فلسفية جبارة وعملاقة، والذين يرتحلون من الحاضر إلى المستقبل، أو يهاجرون من الحالى إلى الماضى، كعملية دينامية لا يغنى أحد أرقامها عن الآخر، وإلا يصبح استبدال الماضى أو المستقبل بالحاضر، عملية معلقة من شواشيها أو جذورها فى الهواء، تتحدث عن التغيير طوال الوقت من دون صلة بالواقع الذى ينبغى تغييره.. من دون علاقة بالناس الذين سيكونون أداة لذلك التغيير!!

وأعرف أن إقصاء الناس عن أن يشاركوا فى العمليات الكبرى التى شهدتها مجتمعاتنا على المستويات السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية أو الإعلامية، قد أصبح وكأنه من لزوميات هذه العمليات الكبرى، يجرى التخطيط له، ويجرى إقراره، ثم فرضه من قِبل الجماعة الثقافية، مع سبق الإصرار والترصد.

والواقع أن هذا الإقصاء لم يُنتج سوى بناءات نظرية مشوهة وناقصة تفتقر إلى تلك الحيوية الدافقة، التى يحققها دخول الناس كرقم من أرقام معادلات هذه البُنى، كما لم يفرز هذا الإقصاء غيرِ مزيد من الغربة يعيش فيها الناس، بل وتعيش فيهم!

وهذا الجزء من «حوارات التغريبتين» ـ إذا جاز التعبير ـ رأيت أن يكون عنوانه: (على ضفاف الثقافة)، ولم أطمح ـ بعد ـ فى أن يكون عبورا إلى هذه الثقافة أو وصولا لها، إلا بمقدار تأكدى من مشاركة حقيقية من الناس تتفسر أمامنا، ونلمسها بأيدينا، مدركين ومتأكدين أن الثقافة هى لفظ كلى مرادف للحضارة، يتضمن فيما يتضمن العمل المهنى والجهد البدنى لهؤلاء الناس، ومن ثم فإن دخولهم إلى ساحة العمليات الفكرية الكبرى فى مجتمعنا، يعد دخولا لطرف أصيل، بل ربما هو دخول للطرف الأصيل (مع التعريف بالألف واللام).

هذا الجزء من «حوارات التغريبتين» يتعرض ـ واقعيا وفعليا ـ لما يمكن تسميته مشكلة ثقافية عربية، ويحاول أن يخترق ذلك السور الذى يفصل الناس عن الدخول إلى دقائق وحقائق هذه المشكلة، ويحاول أن يغافل ديدابانات العزلة، التى ترغب فى فصل وحجب وحصار الناس، والذين سيظل السور مخفورا بهم، إلى حين لحظة نتمكن فيها من أن يدخل أحدنا لهؤلاء الناس، ويتحدث إليهم، ويلاغيهم، ويستنطقهم، ويسهم فى إطلاقهم طاقة تغيير كبرى على قدر مقام البلد والشعب العبقريين!

العمل الاجتماعى، الاهتمام بالطفولة، الوضع الاقتصادى، مواجهة التطرف، إشكالية المعاصرة، هجرة الزمان والمكان، الشاعر والسلطان، النيل والأرض..

هذه كلها بعض زوايا الملف الذى نطرحه الآن تحت عنوان: «على ضفاف الثقافة»، وهى جزء من محاولة تجرب وضع الحوار العام على مسار التعرض لمفهوم (المشكلة الثقافية) بأكثر منه تساوقا مع السائد، من وضع هذا الحوار العام على مسار التعرض لمفهوم (منطق أيديولوچى).

إذ إن المنطق الأيديولوچى - بطبيعته وبحكم التعريف - يُسهِل سيادة فكر وثقافة الخندقة، والتقوقع، أو - فى أحسن الفروض - ينزع إلى الاستقطاب والمواجهة الأيديولوچيين بأكثر من الحوار والممازجة الإنسانيين.

وقد اعتدنا - مع كثير الأسف - أن تكون حواراتنا - ولسنوات طويلة - ذات طابع أيديولوچى، قائمة على التناطح بالأفكار بأكثر منها حوارات حول مشاكل ثقافية، تحاول أن تحدد متوسطا حسابيا لرؤى وآراء الناس حولها، أو - بعبارة أخرى - تحدد ساحات اللقاء والالتقاء القومى العام.. وأظن أن هذا هو ما تتطلبه مرحلة النمو الاقتصادى الاجتماعى التى نعيش فيها، بل وما يفرضه نزوع الناس ومزاجهم السائد.

إلى ذلك، فإن الحوار - بالمفهوم الذى يحاول مشروعى السياسى والثقافى والمهنى أن يتبناه - يمكن أن يكون سكة لتجاوز أزمة أخرى غير الأيديولوچيا، ألا وهى التكنولوچيا.

فنحن نعيش فى غمار ثورة الإليكترونيات أو الثورة الصناعية الثالثة، وقد أصبحت الانفوميديا (المعلومات ووسائل الإعلام) هى السيد الجديد لكوكبنا، يعيد تشكيله غير آبه بأفكار - غدت بالية - عن السيادة السياسية أو الحمائية الاقتصادية والثقافية والفكرية.

غير أن هذه التكنولوچيا، بدلا من أن تساعد الإنسان - وبالذات فى مثل مجتمعاتنا - على إعادة اكتشاف نفسه، دفعته إلى أحد طريقين موحشين، فإما أن يعيد إنتاج أفكار الآخر فى حالة ببغاوية تعتمد منطق المحاكاة وتغتال ملكة الابتكار، وإما أن يخاصم هذا الآخر، ويبدأ فى التعلق بأستار أوهام عن

الماضى، وعن ضرورة سحب التراث والأصالة فى مواجهة غير ضرورية، وغير منطقية مع المعاصرة.

وبين الطريقين الموحشين، نعيش حالة من حالات السيولة الثقافية والفوضى، دفعت إلى ساحات الضوء ببعض الجهلة وشذاذ الآفاق، الذين يبحث كل منهم عن شخصية أو دور، ووجد أن أسهل الطرق إليه هو (التطرف) وصولا إلى نقطة الحد الأقصى فى أحد الطريقين: (المحاكاة) أو (المخاصمة)!!.. وعلى شاشات الفضائيات العربية كان مسرح سطوع، ثم تجلى هذه الظاهرة، التى توشك أن تصبح ثقافة جديدة وبديلة.

ومن هنا، كان أحد هموم هذه المجموعة من الحوارات هو محاولة فهم الفوضى الثقافية الحادثة، كخطوة أولى للسيطرة عليها، ومحاولة رصد التغيير الديناميكى الذى يحدث فى وحدات الحوار النمطية ذاتها، وذلك فى غمار التسارع الشديد الذى تفرضه ثورة الاتصال والمعلومات على إيقاع هذا التغيير.

وأحد الجوانب المهم رصدها فى الوحدات النمطية للحوار، هو عمليات الارتحال الفكرى التى يقوم بها المفكرون والمثقفون، وهم الطرف الآخر فى الحوار ذاته على نطاق واسع، وهى العمليات التى مهدت لها وسهلتها سيادة المنطق (الأيديولوچى) بدلا من (الإنسانى) على عملية الحوار نفسها.

فطرح القضايا بعيدا عن الناس.. الجماهير، جعل من اليسير التحرك المصلحى الانتهازى أو المتطور العياش، من جانب بعض مثقفى هذا الزمان، من دون تقديم مبررات أو مسوغات لهذا الحراك من مربع فكرى إلى مربع فكرى آخر، وبشكل يُصَعِّب من إجراء أى حوار مع أحدهم، إذ سينطلق هذا الحوار من أرضية ما هو معلوم عن هوية أحدهم السياسية والفكرية، والتى قد تكون تغيرت، وربما إلى النقيض.

فتكنولوچيا المعلومات، أصبحت على شفا خلق ثقافة جديدة كونية، ينزع بعض المثقفين العرب والمصريين إلى دخول بوابتها، نتيجة هزيمة عقائدهم

السياسية والفكرية السابقة بشكل منكر، أو رغبة فى الالتحاق بقطار الزمن الجديد، الذى لا يستطيع أحد أن يتنبأ بمحطته القادمة أو وجهته النهائية.

وفى الحالتين، فإن المثقف العربى الأيديولوچى يستغل جهل الناس بمنطقة انتمائه الأولى، ومنطقة ارتباطه الثانية، ليرتحل بينهما، غير مطالب بالقيام بدوره الواجب والصعب فى الشرح والتفسير، وخلق تيار وعى مؤيد فى الوسط الثقافى المتخلف والحائر الذى يعيش فى قلبه.

ومن هنا، فقد شكل هذا الوضع ـ بجملته وتفصيله ـ إحدى إشكاليات مشروعى للحوار، ووضع على أجندته تكليفا آخر، بتقصى حالات التغيير الديناميكى الذى يحدث فى وحدات الحوار النمطية ذاتها.

ثم كانت المشكلة الثالثة هى أن الحوار كنشاط إنسانى، يخضع لنفس القياسات التى تخضع لها أية عملية إبداعية أخرى.

فعلى المستوى التاريخى كانت معظم الإبداعات، وفى شتى المجالات فى الدولة العربية، تتم فى الأطراف بأكثر مما تتجلى فى المركز، إذ كان البعد عن القبضة المركزية الاجتماعية والثقافية والسياسية التى يمثلها المركز، مؤثرا من دون شك على طريقة طرح موضوعات الحوار، بحيث علت سقوفها، وترامت أطرافها، من دون حسابات أو تحسبات!!

ومن ثم، فإن سؤالا يجب أن يثور هنا حول مدى تمثيل هذه الآراء، التى أبدعتها حالة الحوار التى دارت بينى وبينهم فى الأطراف لنوع ومستوى الوضع الثقافى فى المركز.. بعبارة أخرى، هل كان الحوار الحر على شاطئ المحيط، يمثل انعكاسا لصورة الحوار فى مجتمعنا الأم؟!

والرد واضح، وهو أن أداة الضبط ـ هنا ـ كانت نشر هذه المجموعة من الحوارات فى «الأهرام» العتيدة، وهى الضامن ـ والحال كذلك ـ أن يكون هذا الإبداع الحر فى «إطار».

. . . .

هكذا كان إحساسى بهذه المجموعة من «حوارات التغريبتين»، وهكذا كان تصورى لما تمثله كجزء من مشروع حياة، ومشروع إبداع، آنسنى وواسانى فى الغربة، وألقى فى قلبى وعقلى بأفكار كانت تبدو بارقا يلمع فى جنح الليالى، أخذ بيدى إلى عوالم ما كنت أظن أننى سأخبرها يوما.

وهكذا لم تك أبدا نظرتى لأكوام آلاف الأوراق التى تمثلها هذه المجموعة من الحوارات، والتى أجريتها على شاطئ المحيط فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عبر سنوات ثمانٍ.. محض ذكريات عبرت أفق خيالى!!

د. عمرو عبد السميع

القاهرة - مصر الجديدة
٢٤ من مايو ٢٠٠٢



بعد زيارة مهمة وناجحة للعاصمة البريطانية ونشاط ثقافى وإنسانى كبير:

سـوزان مبـارك (١)

حلمى لحفيدى ولجيله هو كل ما نبنيه الآن على أرض مصر!

- بريطانيا كانت ساحة مثالية لإطلاق الجمعية المصرية/ البريطانية لإعانة الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة، وقد نكرر التجربة فى دول أخرى تتوافر لها نفس الظروف ونفس الاستجابة..
- نحن نواجه عادات وتقاليد تعوق التنمية ولا نعرف ما إذا كان أصلها فرعونيا أو أجنبيا، أو ندرك من أين جاءت!
- أقبل النقد وأشجعه.. ولكن طبيعة نشاطاتى تمثل حالة يميل إليها أى إنسان ويرتبط بها!
- التعليم هو الطريق الذى ينبغى أن يناقش الشباب عبره حقوق الإنسان أو الختان.. ولا يجب أن نخفى رؤوسنا فى الرمال!
- مشروع إسكان المستقبل هو المجهود الأهلى الذى يكمل جهد الحكومة فى مشروع مبارك لإسكان الشباب!

- أملى أن نقضى على العشوائية وتعود مصر جميلة ونظيفة!

- الشخص الذى لا يخدم.. لا يجد من يعارضه!

- أيام حرب أكتوبر كنت أشعر بالمسئولية تجاه أسرتى الصغيرة، أما اليوم- بنفس العطاء والحب- أشعر بمسئولية عن أسرة مكونة من ٦٢ مليونًا من الناس!

- عندما يكون لديك انتماء لاتحتاج أن تتعلم العطاء!

- فكرت فى كتابة تجربتى الذاتية ولكن لم يكن لدى وقت!

- أتمنى وحدة المرأة العربية!

- إذا كنا نتكلم عن المؤسسات للأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة، فيجب أن نتكلم- كذلك- عن تدريب العاملين فى هذه المؤسسات.

- نعم.. نحن فى عالم رجال ولكن المرأة ليست مظلومة بشكل مطلق.

أدلت السيدة سوزان مبارك قرينة السيد رئيس الجمهورية بحوار شامل لى فى دار السفير المصرى بالعاصمة البريطانية.

وقد جاء هذا الحوار فى نهاية زيارة ناجحة ومهمة قامت بها السيدة الأولى إلى لندن، وشهدت نشاطا ثقافيا وإنسانيا كبيرا شمل محاضرتها فى قاعة لوكارنو التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية، والحفل الخيرى الكبير مساء اليوم نفسه فى فندق دورشستر والذى أقامته الجمعية المصرية/ البريطانية والسفارة المصرية لجمع التبرعات للأطفال المصريين ذوى الاحتياجات الخاصة، وهو ما أعلن فيه قيام منظمة تحت القانون البريطانى لهذا الغرض.

وقد التقت السيدة الأولى الأميرة آن فى قصر باكنجهام، والسيدة شيرى بلير زوجة رئيس الوزراء، كما حضرت الأميرة ألكسندرا الحفل الخيرى فى فندق دورشستر.

كانت الزيارة تتويجا غير مسبوق للتقارب الكبير الذى شهدته العلاقات المصرية البريطانية فى الفترة الماضية، والذى انعكس فى أفواج المستثمرين البريطانيين التى جاءت إلى مصر فى زيارات رسمية وأهلية تعزز التجارة المشتركة، وكذلك الروح التى تبديها الدوائر البريطانية للتعاون فى مجالى العمل الإنسانى والاجتماعى فى مصر، باعتبار أن ذراعى التنمية فى مصر هما العمل الاقتصادى والعمل الاجتماعى.

وفى حديثها لى تناولت السيدة سوزان مبارك عددا كبيرا من القضايا ضمنها المنهج الذى يجب أن نواجه به تساؤلات الغرب عن قضايا، مثل: الختان أو

حقوق الإنسان، التغيير السلوكى اللازم لتحقيق التنمية الاجتماعية، قبولها وتشجيعها للنقد والرأى الآخر، المجهود الأهلى فى مشروع إسكان المستقبل، ضرورة تربية روح الانتماء والعطاء عند الشباب، خطتها للعمل إلى جوار الرئيس فى فترة رئاسة قادمة ـ وقتها ـ، فكرتها أن تكتب مذكراتها التى لم تجد ـ إلى الآن ـ وقتا لتنفيذها، رؤيتها للعالم اليوم كعالم رجال.. وأخيرا حلمها لحفيدها وجيله.

وهنا نص الحوار:

● **كان إطلاق الجمعية المصرية/ البريطانية تحت القانون البريطانى لرعاية الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة، ضمن نشاط ثقافى وإنسانى كبير لسيادتك فى لندن، عملا غير مسبوق، فهل سيصبح نموذجا يتكرر فى عواصم دولية أخرى؟**

○ هذه ـ بالفعل خطوة جديدة، وهى تدخل فى نطاق محاولاتنا المستمرة، لابتكار أساليب جديدة، تحقق تطوير عملنا الاجتماعى.

ولقد بدأنا ـ هنا ـ فى بريطانيا، لأنه مجتمع له تقاليد فى أعمال الخير، ووجود المنظمات الخيرية فيه قوى بالفعل.. ومن ثم فهو يشكل أرضية جيدة لهذه البداية.

فوق هذا، فإن العلاقات المصرية/ البريطانية، يسودها ـ الآن ـ قدر من الانسجام كبير، وقد رحبت الأوساط البريطانية الرسمية والأهلية، بالفكرة ترحيبا كبيرا، وبالذات مع ما تلحظونه جميعا من روح (الحنين) لكل ما هو مصرى، والموجودة لدى الإنجليز، بشكل شجعنا وحفزنا على طرح الفكرة.

هذه مجرد محاولة، وعندى أمل ـ إن شاء الله ـ أن تكون ناجحة، لأن هدفها نبيل جدا، وهو مساعدة الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة.. وأى إنسان سيجد عنده رغبة داخلية، بل احتياج داخلى لأن يدعم مثل هذا العمل.

لن نستعجل ونقول إننا سوف نعمم هذه التجربة فى العالم كله، ولكن ليس هناك مانع أن نكررها فى الدول التى نحس أنه ليس لديها مانع، أو لديها استجابة. . أو تتوافر فيها ظروف مثل تلك التى تحوط مناخ العلاقات الثنائية بين مصر وبريطانيا.

● سيادتك أشرت عدة مرات فى محاضرتك عن التنمية الاجتماعية فى قاعة لوكارنو بوزارة الخارجية البريطانية، وكذلك فى المناقشة التى أعقبتها إلى ضرورة حدوث تغيير سلوكى يساعد جهد التنمية.. ولقد كان لانتمائك لصعيد مصر (مطاى/ المنيا) تأثير فى معرفتك لطبيعة القيم والتقاليد، ومن ثم محاولة تطويرها على أرضية من التفهم الشديد لهذه القيم.. هل تعتقدين أن الفهم الخاطئ للقيم الدينية والاجتماعية مازال يلعب دورا فى إعاقة هذا التصويب؟.. وهل تعتقدين ـ مثلا ـ أن عدم وصول المرأة المصرية لمنصب القضاء خلافا لما هو حادث فى أكثر من سبع دول عربية يعد انعكاسا لهذا الوضع؟

○ من دون شك، ما ذكرت فى سؤالك يتصل بأفكار متوارثة جيل عن جيل، وهى لا تمت للدين بشىء، ولا تنبع من أية قاعدة دينية، ولكنها مجرد تقاليد وعادات تُتوارث، دون أن نعرف لها أصلا، ومن غير أن نعرف ما إذا كانت قيمية أو دينية أو فرعونية أو أجنبية، أو ندرك من أين جاءت!!

ولكن آن الآوان اليوم (مع كل البناء الكبير لقواعد الدولة الحديثة فى مصر، ومع كل ما يشهده العالم على أرضنا من تطورات تنتمى عضويا للمستقبل وآفاقه) أن نقف لنواجه السلبيات فى كل مفردات حياتنا، وأسلوبنا الذى نعيش به هذه الحياة، أو نفكر فيها، وفى عاداتنا المضرة، وفى ضرورة الاحتفاظ بعاداتنا الجيدة.

نقف وقفة علمية، ونختزل هذه السلبيات التى تؤثر فى سلوكياتنا وحياتنا

اليومية، لكن نضع مصر على الخط السليم فى كل الاتجاهات الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية، وأن نجعل مستوى التطور فى أى منها يلائم مستوى التطور فى بقيتها.

محظور!

● **سيادتك ذكرت حالا عبارة: (وضع مصر على الخط السليم) الذى - يتضمن فيما يتضمن - الاتصال بالجماعة الدولية، والحديث والمناقشة مع العالم.. وجزء من هذا المفهوم كان واردا فى محاضرتك فى وزارة الخارجية البريطانية، والتى لم تتجنبى فيها الإجابة عن أسئلة تتعلق بالختان، وبحقوق الإنسان.. ما هو النهج الذى تتصورى أن يتعامل به المصريون مع هذا النوع من القضايا؟**

○ التعليم هو الطريق لأن يفهم طلبتنا، ويدرك شبابنا معنى حقوق الإنسان، وهو أيضا الوسيلة لأن ندرس ونناقش العادات السائدة فى مصر، وخصوصا تلك التى نرى لها تأثيرا ضارا على صحة المرأة البدنية أو النفسية.

لابد أن نبدأ بالتعليم وبالتدريب. لن نحصل على النتائج بترسانات من القوانين، كما لن نحصل على شىء بالإجبار.

لابد أن يكون الفرد مقتنعا.. لابد أن يكون المجتمع مقتنعا بالتغيير الذى نطالب به.

لايوجد شىء محظور على المناقشة، وأسهل الأشياء أن يكون الإنسان سلبيا ولا يناقش، ويتذرع بأسباب غير موجودة، أو أن ينظر لمشكلة قائمة، على أنها أمر واقع.

لا يجب أن نخاف من شىء.

سنواجه أى سلبيات ـ نرى ضرورة مواجهتها ـ بالنقاش المفتوح، وبالتعليم، وبالتدريب.

● **الأسرة المصرية الجديدة الصغيرة، هى إحدى هموم السيدة سوزان مبارك ومن أجلها، كان مشروع إسكان المستقبل مكملا لمشروع مبارك لإسكان الشباب. هل يمكن اعتبار هذه النقلة تعبيرا عن اتساع مجال اهتمامك ليشمل الشباب بعد الطفولة؟**

○ الحقيقة.. هناك فارق، فمشروع مبارك لإسكان الشباب هو مشروع دولة، أو مشروع حكومة، وهى حكومة تعمل ـ بجد وبأقصى ما فى وسعها ـ على أن تقدم للشباب المصرى الذى يبدأ مستقبله الشقة الملائمة، التى يمكن أن يتحملها دخله الاقتصادى.

وإذا كانت الدولة، أو الحكومة تقوم بكل هذا الجهد، فقد آن الأوان (وأنا أعتبر نفسى ودورى جزءا من عمل الجهات الأهلية والقطاع الخاص) أن نعمل، ونقف إلى جوار الدولة، ونساند، وندعم عملها وحركتها.

وقد قلت مرارا: أن دخول القطاع الخاص لهذا العمل، وذلك على الرغم من عدم وجود عائد له، يعنى أنه ليس عملا خيريا، لأنه يساعد الدولة، ويتحمل نصف تكلفة الشقة للشخص الذى يسكنها، ومن ثم فهو عمل داعم لجهد الدولة بأكثر منه عمل خيرى.

لقد اخترنا مواقع مشروع إسكان المستقبل فى المدن الجديدة، كى نجعل من هذه المجتمعات كيانات متكاملة، تعيش فيها كل عناصر الخدمات التى تحتاجها هذه المجتمعات من مدرسين وأطباء وممرضات وغيرها.

ليس أمامنا غير أن نتحمل نصف تكلفة تمليك الوحدات، إلى أن يعود نظام الإيجار ـ يوما ـ لمصر.

هذا واحد من أكبر آمالى، وربما لا يفوقه سوى أن نقضى على الأحياء العشوائية، وننظف القاهرة، ونجمل بلدنا، لتعود كما نحبها.

مصر.. تستأهل كل خير!

إجمـــــاع!

● **قال المفكر الراحل لطفى الخولى - فى إحدى المناسبات - إن المصريين اختلفوا على كل شيء، ولكنهم أجمعوا على احترام شخصك، وتقدير جهودك، بمختلف طوائفهم السياسية، وانتماءاتهم الفكرية.. هل تتوخين - سيادتك - هذا الإجماع باستمرار، فى رؤية المثقفين لعملك ولدورك، أو تفضلين تعددية (الرأى) إذا جاز التعبير.. وتعددية (النقد) إذا جاز التعبير أيضا؟**

○ والله أنا أتقبل أى نقد فى أى وقت.

الإنسان يتعلم من النقد، وطالما أنه يسعى لأن يخدم، سيجد من ينقده، ومن يصوّبه، لأن الشخص الذى لا يخدم، لا أحد يعارضه، أو يوافقه، أو - حتى - يذكر سيرته!

أكرر.. كلما دخل أحدنا مجال الخدمة العامة، فهو لابد سيواجه النقد والاختلاف.. وأنا أسعى لنشر هذا المفهوم فى كل مكان أعمل فيه.

أعلم الشباب معنى الديمقراطية، معنى الرأى والرأى الآخر، وضرورة مساواة كل منهما فى الاحترام للرأى الذى يصدر عن أحدنا فى موقف، أو تجاه قضية.

الصدام، و«الخناق» لا ينفع.. الحوار والنقاش والاختلاف البناء هو ما ينفع البلد وينفع الناس.

لو أراد أى شخص أن ينقد أحد أعمالى، أو يختلف معى، فسأرحب بذلك تماما.. ولكن - إلى الآن والحمد لله - لم يختلف معى أحد.

● **وكيف - يافندم - يستطيع أى مواطن أن يجد قناة ينقل فيها إلى سيادتك اختلافه معك؟**

○ عبر القنوات الطبيعية التى تطرح فيها الأفكار فى المجتمع.

ومع ذلك دعنى أقول لك: إن طبيعة عملى ودورى تجعل من الصعب وجود اختلاف ـ بالمعنى الكبير ـ لأن العمل الذى أقوم به هو عمل لخدمة المحتاجين، ولخدمة مجالات الصحة، أو المرأة، أو الطفل، أو التعليم.

ما أحب أن أسمعه ـ فى هذا السياق ـ اقتراحات تعطينى أفكارا، أو تعطينى أساليب جديدة لتطوير العمل الاجتماعى فى مصر.. وأنا أرحب بهذا جدا.

● **مس حديث سيادتك عن ذكرياتك حول حرب أكتوبر مشاعر الناس بشكل غير مسبوق بسبب التلقائية العاطفية، والحس الوطنى الصادق، الذى تجلى فى كل كلمة فيه.. ولكننا ـ الآن ـ نخوض حرب تنمية متوازنة ومتواصلة، هل تشعرين أن دورك أو إحساسك قد اختلف فيها؟**

○ هذا سؤال ـ والله ـ يحتاج إلى بعض التفكير.

ففى أيام حرب أكتوبر، كنت مسئولة عن أسرتى الصغيرة، وكانت حياتى رهنا بأن أربى أولادى وأصون بيتى، وأحافظ على زوجى، وأساعده فى أن يتصدى لمهمته الكبيرة.

واليوم نفس الأحاسيس ـ بنفس روح العطاء والحب والانتماء ـ أشعر بها تجاه أسرتى الكبيرة المكونة من ٦٢ مليون مصرى!!

● **اسمحى لى ـ سيادتك ـ أن أعيدك إلى أسرتك الصغيرة مرة أخرى، وأسألك: ماذا تتمنين لحفيدك، أو لجيله؟**

○ حفيدى يحتاج إلى حوار لوحده!!

كل ما أستطيع أن أقوله لك فى سياق حديثنا: إن كل ما نبنيه ـ الآن ـ على أرض مصر، هو ما أحلم به لحفيدى ولجيله!!

نحن وضعنا لمصر فى العقد الأخير أساسا لكل شىء.

أساس لكى نبنى المستقبل.

نشيد المؤسسات، ونقويها.

نغرس المبادئ وندعمها.

نهتم ببناء تعليم قوى.. ثقافة قوية.

نبتكر ونخترع المفاهيم، ونلقن أولادنا أن يحبوا بلادهم.

أهم شىء أن يكون لدينا انتماء.

وعندما يكون لديك انتماء، فأنت لا تحتاج أن تتعلم العطاء.

وإن شاء الله نأمل أن نكون قد أسهمنا لأبنائنا وأحفادنا فى أن نجعل مصر أما للدنيا كما هى، وأحسن، وربنا يسترها معنا، ويسلم مصر!

وحـــدة!

● من هم سيدات المنطقة العربية اللاتى ربطتك بهن صلات قوية؟ وهل يشتركن فى بعض الجهود الطوعية التى تقودينها، وخصوصا أنك شاركت فى أعمال المجلس العربى للطفولة لفترة؟

○ عندما بدأنا العمل فى المجلس العربى للطفولة منذ عشر سنوات، كان الوضع مختلفا جدا بالنسبة للمرأة العربية.

كانت هناك دول ليس لها مشاركة على الإطلاق فى أعمالنا، وكانت هناك دول لم تدخل فيها المرأة مجال العمل الاجتماعى أساسا.

اليوم اختلف الوضع، ونرى ممثلات ممتازات لدول الخليج، وقيادات نسائية لجمعيات قوية تم تشكيلها.

أصبح للمرأة العربية صوت، وأصبح لها تواجد فى المحافل الدولية.

أنا أحلم بوحدة المرأة العربية!

مشاكل المرأة فى عالمنا العربى، بل ومشاكل المرأة فى العالم، كلها ـ تقريباً ـ واحدة، ولكن أسلوب معالجة هذه المشاكل هو الذى يختلف، باختلاف معطيات البيئة، أو عناصر الخصوصية الداخلية.

كلنا فى التنظيمات النسائية، أو فى المحافل الدولية نتجمع ـ فورا ـ تحت قبة واحدة، ونسير إلى الأمام.

● **السيدة سوزان مبارك، هل تعتقدين أن الوقت قد حان، لكى تكتبى تجربتك الذاتية، بما فيها من معاناة، وجهد، وإنجاز، لكى تكون تحت يد الأجيال الجديدة والمرأة العربية؟**

○ والله فكرت.. ولكن ليس عندى وقت.

● **ولا حتى بمساعدة فريق عمل؟**

○ لا.. لم يحن الوقت.. ليس عندى مساحة تسمح!

● **أسمع ـ كثيرا ـ من بعض من عملوا مع سيادتك أن عقلية السكولار (البحاثة) تحكم كل حركتك وأسلوبك فى العمل، ويستشهدون على ذلك، بالترتيب الفكرى لعدد كبير من محاضراتك فى المحافل الدولية والداخلية.. ووفقا لهذا المعنى، ما هى عناصر خطتك للعمل الاجتماعى والثقافى إلى جوار الرئيس فى فترة رئاسة مقبلة إن شاء الله؟**

○ إذا ربنا سهل، ستكون، إن شاء الله ـ تكملة لما قمنا به، وكما قلت فقد وضعنا الأساس لأشياء كثيرة، وبقى أن نواصل البناء ونتوسع ونحسن الخدمة، ونوصلها لعدد أكبر من أولادنا وشبابنا فى مجالات الثقافة والصحة والتعليم.

لابد أن نغير بعض المفاهيم فى إدارة المؤسسات المختصة بهذه الخدمات.

(الإدارة) و (التدريب) عنصران أساسيان فى نجاح جهود العمل الاجتماعى والخدمى.

إذا كنا نتكلم ـ مثلا ـ عن المؤسسات التى تخدم الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة، فمازلنا محتاجين ـ فى مصر ـ كذلك ـ أن ندرب العاملين والأساتذة والمدرسين، الذين يتعاملون مع هذه الفئات.

الأساس موجود.

وعملنا فى المستقبل هو الاستمرار والتطوير والتجويد.

● نجحت حملتك ـ إلى حد بعيد ـ فى مجال الصحة الوقائية (التطعيمات) حتى أصبحت مصر بلدا خاليا من شلل الأطفال.. لماذا لم يتحقق نفس النجاح على مستوى التعليم.. ظاهرة التسرب المدرسى قائمة.. كما أن نسبة الأمية لم تتناقص بالشكل المرجو رغم كل الجهود المبذولة فى هذا الاتجاه؟

○ التعليم أصعب بكثير!

إذا كانت لدىَّ الإمكانيات أن أقوم بتطعيم مليون طفل، فسوف أطعمهم، ولكن لكى أعلم مليون طفل فالنتيجة لن تظهر فى يوم وليلة.

كل العمل الذى قمنا به فى مجال تطوير التعليم لن نحصد ثماره إلا بعد خمس سنوات.

وعلى الرغم من كل ما يقال عن أن جهود التعليم لم تثمر بعد، فإن هناك جهدا ضخما وطفرة رهيبة تحققت فى مجال التعليم.

● هل تعتقدين أن عالمنا هو عالم رجال؟ وهل مثل هذه القناعة تؤكد أن المرأة مظلومة فى الشرق الأوسط وفى مصر؟

○ هو عالم رجال بلا شك.. ولكن المرأة ليست مظلومة بشكل مطلق، فقد أخذت حقوقها فى بعض الحالات، ومازالت مظلومة فى بعض الحالات!

● مثل ماذا يافندم؟

○ انظر إلى القوانين فى مصر، ستجد أن المرأة المصرية حصلت على حقوقها فى القوانين، ولا توجد أية مشكلة، وتوجد مساواة حقيقية.

أما الذين يتذرعون بالإسلام كى لا تحصل المرأة على حقوقها مخطئون، فلو فهمنا صحيح الدين، سنجد أنه أعطى المرأة حقوقها، وأشاع الحب والتسامح، وأقر رعاية الزوجة.

ومن هنا، فإن الممارسة تختلف عن الوضع الشرعى أو القانونى، وهى ترجع إلى العادات الخاطئة والموروثات الدخيلة علينا.. وهى الأشياء التى يجب أن نقف أمامها، وننفض اشتباكها مع المجتمع، ونمشى فى طريق التنمية الاجتماعية وحقوق المرأة بشكل سلس لا عوائق فيه.

● هل تعتقدين أن وضعك كزوجة لزعيم وقائد أثر فى اهتماماتك بالمشاكل الدولية والسياسة العالمية، أم أنك تؤمنين بشريحة محددة من العمل الاجتماعى فقط؟

○ لا يوجد ـ اليوم ـ شىء اسمه سياسة بمفردها، أو اقتصاد واجتماع بمفردهما.

اليوم توجد تنمية مجتمع، وهى تشمل: الصحة والتعليم والثقافة والبيئة.

وبدون أمن فى الداخل، وسلام فى الشرق الأوسط، وبدون ديمقراطية وحرية وحقوق إنسان لن ننجز شيئا.

هذه هى المفاهيم التى تسود حركة الفكر العالمى والنقاش الدولى.. ولو لم يكن كل هذا موجودا فى مصر، لم يكن باستطاعتنا أن نعدد أمام الناس ما فعلناه بفرح فخور.

مقومات التنمية ـ بمعناها الشامل ـ مرتبطة بالسياسة الداخلية والسياسة الخارجية، ولو لم نكن قد استوفينا شروط هذه التنمية الشاملة، ما كان أحد فى العالم قد ساعدنا، ولا كانت مصر ـ اليوم ـ على الخريطة الدولية.

اليوم ـ ولله الحمد ـ نظرة العالم لنا كبيرة جدا.

والرئيس ـ لتوه ـ قد عاد من ألمانيا وإيطاليا، وأى شىء نطلبه من هذه الدول كمساعدة، يصادف تلبية فورية، سواء كانت مساعدة فنية أو غيرها..

الجميع يعلمون مكانة مصر، ويعرفون بالإنجاز الذى حققته، ويعرفون أنها قوية.. وآمنة، وهو الأمر الذى يعود أثره ليس عليها فقط، ولكن على الأمة العربية، وعلى المنطقة كلها، وعلى السلام والأمن الدوليين.

- ١٩٩٩ -

❑ ❑ ❑



سوزان مبارك (٢)

أشعر بالرضا إذا منحت أطفال مصر ولو يوما واحدا سعيدا

- لا أحب أن أرى صورى على أغلفة المجلات فوق الأرصفة، ولكننى أحب أن أرى عملى فى كل مكان فى مصر.
- أعد كل خطاب أو كلمة بأسلوب بحثى أكاديمى، واستغرق إعدادى لمحاضرتى فى أكسفورد شهرا كاملا.
- كل مجالات دراستى ـ قبل تولى الرئيس مبارك ـ أعدتنى بصدفة قدرية عجيبة لدورى العام الآن.
- زرت متحف الطفل ٣٠٠ مرة قبل افتتاحه!!
- وحدات الرعاية والتعليم الصحى للأمهات مشروعنا الجديد بعد شلل الأطفال.
- أنا فخوره برجال الأعمال فى مصر الذين يعطون مصر ـ بمبادرة وروح ـ مثلما أعطتهم، وهم قدوة للعمل والإحساس بمسئوليتهم.
- دورى العام حددته طبيعتى الشخصية ولا شىء آخر.

- القراءة هى الأساس حتى فى عصر ثورة الاتصال وانفجار المعلومات.
- مازلت أبحث عن الأماكن والإمكانيات والتمويل وكل من يقف ليساند مشروعى للقراءة.
- الطفل المصرى محظوظ فى هذا العهد بكل ما يقدم له.
- لست حزبية، ومعظم عملى قومى فوق الأحزاب.
- المرأة المصرية موجودة، وإذا تراجعت عن دورها العام ينهار المجتمع، ونحن لا ندفع إلى خروجها للعمل أو بقائها فى المنزل، ولكننا ندافع عن حرية اختيارها!
- رغم كل إنجازاتنا فى التعليم، المشوار مازال طويلا جدا، ويبدا - أساسا - بالنهوض بالمعلم.
- نجحنا لأول مرة - فى العام الماضى - فى إدخال بند مستقل إلى الخطة الخمسية للدولة اسمه: (الأمومة والطفولة) وسنسعى لأن يكون هناك بند للمرأة فى الخطة المقبلة.
- العطاء لا يحتاج أزمات.. ومصر تحتاج الاستمرارية.
- أحمد الله لأننى - دائماً - موفقة فى اختيارى للناس.

أدلت السيدة سوزان مبارك بحديث شامل لى حول قضايا العمل الاجتماعى العام فى مصر، وحدود الدور الذى تضطلع به فى مجالات ثقافة الطفل وتعليمه، والرعاية الصحية، وحقوق المرأة.

وهو الدور الذى أصبح يمثل حالة إجماع قومية مصرية، تتضافر على مساندتها ودعمها كل القوى والتيارات، عبر مؤسسات ومجالس وهيئات وجمعيات، أسستها السيدة الأولى، أوشملتها برعاية رؤوم وجهد لا يعرف التوقف.

وهو كذلك الدور الذى أصبح حالة / نموذج لإسهام رجال الأعمال والقوى الاقتصادية الجديدة فى مصر، بما يحقق فكرة المسئولية الاجتماعية عند نقطة حدها الأقصى، كما يدفع بالمجتمع كله إلى إنجاز غير مسبوق فى مجال التنمية البشرية.

وقد لقيت السيدة سوزان مبارك فى دار السفارة المصرية فى ساوث أودلى بمنطقة ماى فير فى وسط لندن، التى زارتها عام ١٩٩٦ بمناسبة المحاضرة التى ألقتها فى كلية سان أنطونى بجامعة أكسفورد عن المرأة المصرية وقضايا التنمية.

وهنا نص الحوار:

● **فى عصر ثورة وسائل الاتصال وانفجار المعلومات، وجدناك حين ساندت برعاية رؤوم ثقافة الطفل، تعودين إلى الطريقة الأدوم والأكثر تقليدية فى تحقيق الثقافة ألا وهى القراءة والكتاب.. ماهى فكرتك وراء هذا؟**

○ عندما بدأت مشروعى (منذ حوالى ١٥ أو ٢٠ عاما)، كان هدفى إثارة

اهتمام الطفل منذ الصغر بالقراءة، وخلق هذه العادة لديه، بحيث يحب الكتاب، ويحتفل به، ويلجأ إليه.

ولن يكون هذا ـ بالطبع ـ إلا بخلق ذات الاهتمام عند الأسرة، التى بدأت تعرف أن الكتاب وسيلة لتربية الطفل، وأن ارتباطه بالكتاب هو صنو لحب الاستطلاع وللتعلم.

لقد كان الهدف أن ندعم فكرة أن التعليم ليس فى المدرسة فقط.

وبمرور السنين، وظهور وسائل المعرفة الحديثة ذات الطابع التكنولوجى المتقدم، سألنى كثيرون: «هل مازلت مصممة على الكتاب؟»، وكان ردى دائما: «إن الطفل الذى لا يتعلم حب القراءة من مصدرها الأولى التقليدى لن يستطيع أن يستعمل أسطوانة (سى. دى)، أو يستفيد بثروة المعلومات التى مازالت هى الأساس، والكتاب ـ فى اعتقادى ـ هو المصدر، وسيظل هو الأساس للمعلومات وخصوصا للسن الصغير.

● ما هى ملامح التقدم التى لاحظتيها على أطفال مصر الذين اعتمدوا على هذه الوسيلة التقليدية فى بناء أساسهم المعرفى؟

○ أفخر بهم كثيرا.

ولقد بدأنا مشروعنا صغارا بفكرة، أو بحلم أن يكون فى داخل كل مدرسة مكتبة صغيرة، أو حتى مكتبة فصل، ولكن الفكرة الآن أصبحت عملا كبيرا، فقد بدأت بمكتبة فصل، ثم مكتبة طفل، ثم مكتبة متنقلة، ثم مكتبات محمولة تذهب إلى الريف والأحياء الشعبية، ثم مكتبات عامة، مثل: مكتبة القاهرة، ومكتبة مبارك بالجيزة.

الوضع العام الآن ـ بشأن هذا المشروع ـ هو تتويج لعمل استمر على مدى عشرين عاما.

ومازلت أبحث عن الأماكن، وعن الإمكانيات، وعن التمويل، وعن كل من يقف ليساندنى حتى أوصل الكتاب للقارئ.

لقد عاشت مصر فترة، كاد الكتاب أن يختفى فيها، وسمعنا آراء كثيرة تتكلم عن تخفيض ثمن الكتاب لضمان وصوله إلى الناس، والحقيقة أن ذلك كان صعبا، لأن معناه أن ندعم الكتاب، ولا يمكن أن ندعم كل الكتب، لأن الورق غالٍ، والطباعة غالية، وكذلك الحبر، فضلا عن رسوم التصدير أو الجمارك، ومهما ضغطنا واستطعنا تخفيض ثمن الكتاب، فإن ذلك ـ فى نهاية المطاف ـ لا يضمن وصوله إلى الريف، وإلى الأسر المحتاجة التى لا تتوافر لها الإمكانيات.

وكانت فكرتى هى أن الطريقة الوحيدة، هى أن نساند وصول الكتاب إلى الناس عن طريق المكتبات، سواء كانت المكتبة المحمولة، أو المكتبة المتنقلة، أو المكتبات العامة، ولابد أن نعترف أننا نجحنا والحمد لله.

الآن، هناك منافسة حامية وشريفة بين كل المحافظات فى هذا المجال، وكل محافظة تريد أن تؤسس مكتبة فى المدارس والنوادى والمساكن الشعبية.

نعم.. الحمد لله نجحنا.

حق المرأة

● من جهة أخرى فقد كانت جهودك فى مساندة المشروع القومى لمحو الأمية ذات تأثير كبير، وبالذات فيما يخص أمية النساء، بل إنك طورت هذا المفهوم حين انتقلت به إلى أفق مناقشة محو الأمية السياسية، وأصريت على تسجيل النساء فى جداول الانتخابات.

ولكن هناك لونا من (الأمية الاجتماعية) أحسب أنه يحتاج إلى إسهامك من جديد، وأعنى به تلك الأمية التى تضع العوائق أمام ممارسة النساء لدورهم العام فى تحقيق النهضة وبناء البلد.. كيف تتصورين حدود إسهامك فى هذه القضية؟

○ الحديث عن المرأة، يفضى إلى الكلام عن تناقض كبير جدا نراه فى مجتمعنا.

وسأحكى لك مثلين شعرت بهما من خلال عملى الميدانى مباشرة يؤكدان هذا التناقض.

فى زياراتى للريف، فى العيادات الصحية، أجلس مع الأمهات وأكلمهن فى كل شىء، وذات مرة توافق مع إحدى زياراتى أن كانت فى وقت الإعداد لانتخابات برلمانية، وقلت لهن: «نحن الآن فى وقت انتخابات.. فمن منكن ستذهب لتدلى بصوتها؟»، وردت علىّ إحداهن قائلة، «هوه أنا ممكن أنتخب»؟!

هذا مثل من الريف، وربما نجد العذر فيه بأن هذه الأم ليس عندها وعيا كافيا بحقوقها، وأن من حقها أن يكون لديها بطاقة انتخابات، ومن حقها أن تذهب إلى الصندوق لتعبر عن رأيها.

ولكن الموقف الرهيب الآخر الذى واجهته من خلال عملى الميدانى، كان فى مجتمع مختلف نهائيا وكلية.. فى القاهرة، فى اجتماع ضم حوالى ٣٠٠ سيدة من أعلى المستويات الثقافية والمهنية، وكنا نتكلم - أيضا - فى وقت انتخابات، ومحور حديثنا كان - كذلك - حقوق المرأة المصرية وواجباتها.

فقد سألت هذا الجمع الكبير: «كم من الحاضرات لديهن بطاقات انتخابية؟».

ولقد ذهلتُ أن نسبة ضئيلة جدا من هؤلاء السيدات المتعلمات المثقفات اللاتى ليس لديهن حجة، هن - فقط - الذين يمتلكون بطاقات انتخابية.

هذا التناقض بين المستويين، لم يمنع وحدة الظاهرة، وهى الإحجام الذى يأخذ شكل عدم الدراية بالحقوق والواجبات فى مجتمع ريفى بسيط، ويأخذ شكل السلبية القطيعة فى مجتمع المثقفات فى المدينة اللاتى يعرفن حقوقهن وواجباتهن ولكنهن لا يمارسن هذه الحقوق.

ومنذ عدة سنوات ونحن نعمل فى اتجاهات عديدة ـ فى هذا السياق ـ فعندنا لجنة المرأة فى الحزب الوطنى الديمقراطى التى تقوم بمجهود كبير جدا فى تثقيف المرأة المصريه وتسهيل توصيل المعلومة إليها على كل المستويات المختلفة وتلقنها حقوقها السياسية.

وعندنا كذلك اللجنة القومية للمرأة، وهى كيان فوق الأحزاب، وبالطبع أنا لست حزبية، ومن هنا فمعظم عملى قومى يتجاوز إطار أى حزب.

وتلعب هذه اللجنة نفس الدور فى التثقيف، وتعريف المرأة بحقوقها.

ويذهب أفراد اللجنة إلى الريف، لحضور الاجتماعات واللقاءات العامة للتوعية السياسية، ومن أجل أن نحرك جموع النساء نحو معرفة حقوقهن السياسية وأهمية الإدلاء بأصواتهن.

المرأة المصرية مازالت لها مطالب عديدة، فكيف يمكن أن تطالب، إذا لم تك موجودة فى المؤسسات التى تتخذ القرارات المتعلقة باهتماماتها ومطالبها؟!

وعندنا كذلك المجلس القومى للأمومة والطفولة، وهو جهاز مهم جدا، وتعبنا جدا لكى نؤسسه، وهو يقود ـ كذلك ـ النزول للجمهور، والقيام بالتدريب، واللقاءات والندوات على مستوى المحافظة والمركز والقرية، وهو يقوم بشغل منظم وممتاز.

كل هذه المؤسسات موجودة ـ أساسا ـ لتثقيف وتنشيط المرأة، وقد أثمر عملها ما نشعر به ـ الآن ـ من فارق كبير فى الوعى والإدراك العام، وبالذات خلال السنوات الخمس الماضية.

● وماذا عن الأمية الاجتماعية، التى تحاول منع المرأة من أدائها لدورها العام؟

○ هذه آراء تجاوزها الزمن.. فالمرأة المصرية موجودة ـ بالفعل ـ فى كل ساحات المجتمع.

وقبل ـ حتى ـ أن تحقق المرأة دورا سياسيا فى مصر، فهى موجودة فى جميع المجالات سواء بدورها الاجتماعى، أو الاقتصادى، أو الثقافى، أو من خلال الجمعيات، أو كمهنية.

كيف نقول ـ اليوم ـ بأن ترجع المرأة إلى البيت؟!

لو حدث ذلك لانهار المجتمع فى مصر، لأنها متواجدة وبقوة فى عصب كل نشاطات هذا المجتمع.

ربما توجد مجتمعات أخرى ـ يجوز ـ أن تستغنى عن دور المرأة، طبقا لظروفها ومراحل نموها. أما الاستغناء عن دور المرأة فى مصر فصعب، وصعب جدا أيضا.

فى الريف المصرى اليوم ـ على سبيل المثال ـ ٨٠٪ من النساء خارج البيت، ومنذ مئات، بل وآلاف السنين، والمرأة المصرية الريفية لها دور كبير جدا فى المجال الاقتصادى خارج المنزل، حين تقف إلى جوار زوجها فى الحقل مثلا، وإذا نظرنا للحضر ـ كذلك ـ فسوف نجد أن الأسرة المصرية تحتاج إلى دخل الزوجة، إذا أرادت أن تعيش حياه سليمة وكريمة، لأن دخل الزوج لا يكفى.

اليوم تمارس كل العاملات أعمالهن بموافقة الأزواج، بل وبتشجيعهم أيضا، لأن هذا العمل يعود بالنفع على الأسرة كلها.

ومن هنا، فإن المفهوم الذى ينادى بأن تعود المرأة للمنزل لا يتجاوب مع حقائق الحياة اليومية التى نعيشها.

ومع ذلك، فأنا لا أقول: «يجب على كل امرأة مصرية أن تعمل أو لاتعمل»، ولكننى أطالب وأدافع عن حقها فى الاختيار.

أنا ـ مثلا ـ لم أعمل فى حياتى، لأننى لم أك محتاجة، ولم أفكر فى أن أعمل، فتزوجت وخلفت، وقعدت لأربى أولادى، ثم أكملت دراستى.

وأنا أفهم أن عمل المرأة ليس ـ بالضرورة ـ وظيفة تجلس فيها على مكتب،

ولكن عمل المرأة قد يعنى إسهامها فى العمل العام، وهو مجال متسع رهيب، فيه مساحة تحتاج إلى من يشغلها.

المجال الاجتماعى، فيه فرصة واسعة، للإسهام وتأدية الخدمة العامة، وهذا هو ما فعلت، وأيضا ما فعلته كثير من النساء المصريات بخطوات متقدمة جدا.

ولتلخيص هذا الموضوع نقول: إن المرأة لها الحق فى التعليم والرعاية الصحية، ولابد أن تعلم ـ أيضا ـ ما هى واجباتها وحقوقها، وفى النهاية لها (حرية الاختيار).

المشوار طويل

● تحتل جهود رعاية الطفل المصرية مكانة متميزة بين مثيلاتها فى العالم، باعتبار أن هذه الرعاية عنصر هام من عناصر التنمية البشرية، وواحد من أكبر الاستثمارات التى يمكن لدولة فى حجمنا القيام بها.

فى تقدير ـ سيادتك ـ ما هى آفاق هذه الجهود والمجالات الجديدة التى ستشهد إسهامك فيها؟

○ لقد قمنا للطفل المصرى بأعمال كبيرة جدا.

ولقد بدأت عملى العام ـ أساسا ـ مع الطفل المصرى.

وأرجع لأقول: إن التعليم والتطوير الذى طرأ على التعليم خلال السنوات العشر الماضية كان عاملا أساسيا فى هذا السياق.

لقد شهد التعليم طفرة كبيرة، تقوم على تغيير المناهج وأسلوب التعليم نفسه، وفى البنية الأساسية، المتمثلة فى بناء مدارس جديدة بمواصفات خاصة، وإدخال الكومبيوتر فى المدارس، وتطوير المعامل، والاعتماد على تقنيات معرفية متقدمة جدا، بالإضافة إلى العناية بالملاعب.. كل هذا فى إطار فكرى محدد ومقصود يحمل عنوان: «تطوير التعليم».

وبالرغم من كل هذا، فأنا مازلت أقول: إن أمامنا مشوار كبير جدا.. جدا في مساندة مشروع التعليم.

وقد حضرت مؤتمرا في القاهرة، قبل أن أجيء إلى لندن مباشرة يدور حول النهوض بالمعلم، لأن هذا هو الأساس، وقلت في كلمتي أمام هذا المؤتمر: إننا مهما أنشأنا مدارس، ومهما غيرنا في مناهج، أو طورنا في معامل ومبان وملاعب، فلابد أن يكون المدرس ـ نفسه ـ مقتنعاً بالتغيير والتطور، وإلا فلن يحدث شيء.

● أحسب أنه بالتوازي مع هذا الجهد في التعليم، فإن جهدا مماثلا في التنشئة يحقق الهدف وهو بعض ما رأيناه في مؤتمر الطفل بمحافظة الغربية، من مشاركة ديمقراطية للأطفال في إعداد أوراق المؤتمر وإدارة أعماله.

○ بالضبط، وهذا هو معنى تحركنا على الجبهتين معا: جبهة إعداد المعلم، وجبهة إعداد الطفل.

ومن خلال أول مؤتمر قومي للطفل الذي عقد في مدينة طنطا، كنت أشعر بالزهو بأطفال مصر الذين أنجزوا كل أعمال المؤتمر، ورأيت فيهم صورة تملأ النفس بالأمل.

وأقول: إن الطفل المصري ـ حقيقة ـ محظوظ في هذا العهد، لأنه أخذ من الرعاية والعناية الكثير.

لقد تمكنا ـ لأول مرة ـ في السنة الماضية أن نُدخل في الخطة ـ الخمسية للدولة بندا اسمه: (الطفولة والأمومة)، وهو أمر لم يك واردا من قبل.

أصبح للأمومة والطفولة ميزانية مخصوصة، بعدما كان الإنفاق على نشاطات وبرامج هذا العنوان مُتضَمنا في ميزانية التعليم أو ميزانية الصحة، حسب خطط الوزارة.

وسوف نسعى فى الخطة المقبلة لأن ندخل بندا مخصصا للمرأة بحيث يكون هناك برنامج مستقل لرعاية الطفل وآخر للمرأة مستقلان ومعروفة ـ بالضبط ـ ميزانية كل منهما.

رجال أعمال

● ترعين جهدا أهليا ممتازا فى النهوض بمشروعات الطفولة أو التعليم، ربما كان أبرز أمثلته مشروع بناء المدارس بعد زلزال ١٩٩٢.

ماهى المجالات ـ فى تقديرك ـ التى مازالت تحتاج إلى إسهام أعرض من رجال الأعمال المصريين؟.. وكيف يمكن أن يصبح هذا الإسهام جزءا من عقيدة لديهم تكرس فكرة المسئولية الاجتماعية، بأكثر من أن يكون ـ ولتسمحى لى ـ جزءا من التزامهم الشخصى أمام سيادتك؟

○ أنا فخورة جدا برجال الأعمال فى مصر.

فلدينا فى مصر ١٤ ألف جمعية خيرية، لم تعد ـ بالضبط ـ كيانات لها هذا الطابع الخيرى فحسب، ولكنها تطورت لتمارس دورا عاما أكبر بكثير، وهى ما أصبحنا نطلق عليه المنظمات غير الحكومية، وكل هذه الجمعيات تعتمد ـ أساسا ـ على التبرعات، وهذه التبرعات تأتى من رجال الأعمال، الذين منحهم التحول الاقتصادى الكبير فى مصر فرصة واسعة للعمل وللكسب، وأصبحوا أساسا لطبقة وسطى نشيطة وفعالة، وتربى لديهم إحساس عميق بمسئوليتهم الاجتماعية.

رجال الأعمال لايتأخرون، ليس بالنسبة لى فقط، ولكن بالنسبة لبلدهم ككل، وهم قدوة للعمل، ولإحساسهم بوطنيتهم، وحبهم لمصر.. ودائما ما أسمعهم يرددون أن الرئيس مبارك دعم دورهم وشجعهم، وأنهم مدينون بكل ما حققوا له، ومن ثم فهم جاهزون لأى شىء تطلبه مصر منهم.

ولم يتجسد هذا الموقف ـ فقط ـ فى مشروع بناء المائة مدرسة ـ ولكن فى كل مجال، ففى حالة الزلزال كنا فى أزمة، ولكن العطاء لا يحتاج أزمات، ومصر تحتاج الاستمرارية فى مساندة كل مشاريعها القومية سواء التعليم أو المدارس أو المكتبات أو زراعة الصحراء. . وهو ما يفعله رجال الأعمال، ومن أجل هذا فإننى ـ حقيقة ـ أشكرهم.

● **جاء المشروع القومى لمواجهة شلل الأطفال بنتائج ممتازة، ما هى الخطط المستقبلية فى ذهن السيدة حرم رئيس الجمهورية للنهوض بصحة الطفل المصرى؟**

○ أنت تعرف أن مواجهة مرض شلل الأطفال كانت تعتمد على الحملات (حملة للتطعيم. . وحملة للتوعية والتثقيف الصحى للأم وللأسرة. . وهكذا).

وأهم شىء فى نجاح مثل هذه الحملات هو الاستمرارية والمتابعة، وهو ما فعلناه سواء فى حملة مكافحة الجفاف، أو حملة شلل الأطفال.

وإذا توقفنا، فإن الخطر سيعود ليطل برأسه من جديد.

ونحن نجدد الحملات، من خلال التعليم الصحى للأمهات عبر المراكز العديدة المنتشرة لرعاية الأمومة والطفولة.

ومشروعنا الجديد الذى تقوم به وزارة الصحة، هو إنشاء مائة وحدة صحية تخدم الأمهات فقط (تعليما وتثقيفا وصحة).

فإذا أصبحت الأم لديها الوعى والفهم والإدراك، وإذا أصبحت متعلمة ومتنورة فلا يمكن أن تتأخر فى تطعيم طفلها أو رعايته كما ينبغى.

دورى العام

● **منذ أطلقت جمعية الرعاية المتكاملة، كان ذلك إيذانا بالعمل التطوعى الهادئ الذى اتسم به ظهورك العام، واسمحى لى أن أسألك ـ فى هذا الإطار ـ سؤالا شخصيا عن عناصر معادلة**

أدائك العام، والتى جاءت مختلفة عما عرفناه عند زوجات الرؤساء من الكمون أو التوقف فى بعض الحالات، أو الظهور الزائد فى حالات أخرى.. هل حددت ذلك ـ فى ذهنك ـ منذ اللحظة الأولى لإقدامك على دورك العام.. أم أنك كنت تؤدين بشكل يتواءم مع معطيات الواقع فحسب؟

○ الحقيقة أن هذه الأمور تجيء بشكل طبيعى، وأى واحد فينا له اهتمامات فى مجالات معينة، تفرضها طبيعة شخصيته، وهو يعبر عنها فى عمله المهنى، وفى عمله العام.

لم أحاول أن أرسم شكلا لدورى العام، ولكنه جاء تعبيرا عن شخصيتى، وربما فى بعض الأحيان أضع حدودا له بما يتوافق مع هذه الشخصية.

● **مثل ماذا يا فندم؟**

○ مثلا حين أُدلى بأحاديث صحفية، مثلما نفعل الآن، ففى كثير من الأحيان إذا طلب منى أحد الصحفيين أن يجرى حديثا فى مجلة، ويسألنى أن يضع صورتى على الغلاف. . أرفض!

● **لماذا ترفضين سيادتك ـ إذا كان حجم الدور العام يساوى هذا الظهور الإعلامى؟**

○ ربما يعود هذا إلى طبيعتى الشخصية.

أنا لا أحب أن أرى صورى على أغلفة المجلات فوق الأرصفة، ولكننى أحب أن أرى عملى فى كل مكان فى مصر.

أُفضّل أن يشار إلى حديث لى فى الصفحة الأولى أو الغلاف، على حين يجد القارئ صورتى منشورة فى الداخل.

أنا أترك الصفحة الأولى للنجمات والممثلات، ولكن ما يهمنى هو الجوهر والمضمون وليس الغلاف أو الصورة!

أحب أن أعمل بهدوء، ولا أُفضّل أن أتعرض لأضواء الإعلام.

● **وماذا أيضا تضعين ـ سيادتك ـ له حدودا فى عملك العام؟**

○ أنا لا أفرض، ولكنى أشجع نفسى على الاختيار.

وقد جاء اختيارى للطفوله تعبيرا عن رغبة شخصية، ليصبح هذا الموضوع هو محور دورى العام.

وطريقتى فى العمل هى أن أبدأ بالشىء صغيرا، فإذا ما نجح، فلابأس أن أقوم بالدعاية له. ومن هنا أتجنب المبالغات الإعلامية.

ومثال ذلك: قضية المكتبات، فعندما تحركنا فى هذا المجال بدأنا بمشروع مكتبة صغيرة، فلما نجح وحقق إقبالا، بدأنا نتكلم عن المشروع وليس عن شخصى.

وهكذا ـ أيضا ـ فعلنا فى متحف الطفل، فمنذ ثمانى سنوات وأنا أعمل من أجل متحف الطفل، وأشترك مع مجموعة فى اجتماعات أسبوعية لهذا الغرض، بعضها يستمر لست وسبع ساعات، ولم يعرف أحد شيئا عن حجم العمل، أو سمع عن هذا المتحف إلا يوم الافتتاح.

وعندما ذهبت لقص شريط افتتاح متحف الطفل، كنت قد زرته أثناء الإعداد ٣٠٠ مرة، وهذا رقم لا مبالغة فيه، لأنه مسجل فى سجلات متحف الطفل.

كنت أدخل فى كل التفاصيل (شكل المبنى ـ لون الجدران.. كل شىء)، بالضبط مثلما فعلت فى المكتبات.

وعندما أذهب لافتتاح عمل من هذه الأعمال، أضحك فى سرى، لأننى كنت فى موقع العمل أمس، وأول أمس، وكل يوم.

نبنى (طوبة.. طوبة) دون دعاية، ودون أن يشعر أحد، لكننى بعد أن أفرغ من العمل أسمح بأن يحضر الإعلام ويصور ويتكلم.

هذه كلها سمات تنبع من شخصية كل واحد فينا، وهكذا كان عملى يعكس شخصيتى.

لو كان بيدى

● **هل نمت بذور الاتصال بقضايا الأمومة لديك من خلال دراستك المتعمقة لعلم الاجتماع، أم أنها وليدة تجربة إنسانية، جعلتك المسئولة الأولى عن تربية أولادك، الذين كان أبيهم مقاتلا ملتصقا بعمله بالكامل تقريبا؟**

○ لا أعتقد أنه توجد امرأة لا تحب الأطفال.

ولكن إلى جوار هذا يوجد إحساس مركب حتى بأطفال الآخرين.

لقد شغلتنى - طويلا - أفكار عن مدى احتياج الطفل المصرى لأن يعيش طفولته، ويتمتع بمدرسته وصحته ومكتبته.

وعندما كنت أزور بعض الأماكن الشعبية أو الفقيرة، كنت أردد فى نفسى: «الحمد لله الذى مكننى من تربية أولادى بشكل كريم»، وكنت أتأثر بشدة حين أجد طفلا محروما.

لو كان بيدى لأعطيت الطفل المصرى كل شىء يحبه، وهذا هو ما أحاوله، وأشعر بالرضا إذا منحت أطفال مصر ولو يوما واحدا سعيدا.

الطفل المصرى مازال محتاجا، والحياة أصبحت صعبة، ولكن مساندة الطفل تقف فى مرتبة أول الأولويات، لأنه المستقبل.

وحين أرى اليوم الابتسامة الجميلة لأطفالنا فى أى مكان أذهب إليه سواء كان مؤتمرا أو اجتماعا أو مكتبة، فإن سعادة كاملة تغمرنى، وهذا مجال العطاء فيه ليس له نهاية.

● **هل أثرت دراستك على نوع العمل العام الذى تقومين به؟**

○ لقد جاء هذا بشكل تلقائى، ربما منحتنى دراستى أصول المنهج العلمى دون أن أشعر، وعندما كنت أدرس لم أكن أعرف أن هذا سوف يكون دورى، فلم أكن أعرف أو أعلم، أو أفكر أن المستقبل ينطوى على هذا الدور.

كان الرئيس فى القوات الجوية، وبدأت دراستى فى الجامعة الأمريكية بالعلوم السياسية والاقتصاد، بما أعطانى خلفية مناسبة، ثم حولت على دراسة علم الاجتماع، ثم انتقلت ـ بعد ذلك ـ لدراسة سوسيولوچيا التعليم بالذات.

وكان هذا شيئا غريبا، ومصادفة قدرية عجيبة، إذ كانت دراستى ـ بالضبط ـ تتعلق بنوع الدور العام الذى مارسته بعد ذلك.

كل هذه المعارف تكون مخزونة داخل الإنسان،وليست محسوبة بالورقة والقلم، ليستدعيها حينما يريد، ولكنها تبرز حين الحاجة إليها من تلقاء نفسها.

أكاديميات:

- **أظن أنه لو لم يأخذك العمل العام على هذا النحو لكنت أكاديمية تنشغلين بالبحث العلمى.. هل مازلت تشعرين بحنين إلى مواصلة الطريق الأكاديمى الذى بدأتيه وأنت أم تنفقين الكثير من الوقت والمجهود لتربية أبنائك؟**

○ بعدما فرغت من مناقشة رسالة للماجيستير، جاءت علىَّ فترة كنت أفكر فى أن أعمل دكتوراه، ولكن لم يكن هناك وقت لهذا؛ لأن الريس كان قد تولى منصبه، ورأيت أن الوقت الذى سوف أعطيه للقراءة والتعليم سيكون أفيد للعمل الاجتماعى، وبخاصة أننى دخلت إلى هذا بالمعلومات التى درستها.

ولكننى مازلت أحب البحث، وأجد متعة كبيرة فى تجهيز أى كلمة أو خطاب أكون بصدد إلقائه، ولا توجد كلمة ألقيتها طوال ١٥ عاما إلا وكانت وليد مجهود بحثى حقيقى.

- **كم تستغرقين ـ سيادتك ـ من الوقت لإعداد محاضرة كتلك التى ألقيتها فى كلية سان أنطونى بجامعة أكسفورد؟**

○ لقد أخذت منى شهرا كاملا.

وفى حالات أخرى أستغرق وقتا أطول، وحينما أكون بصدد كتابة محاضرة أو كلمة، أجهز كتبى ومراجعى، وأستخرج منها كل المادة التى تفيدنى، كما تعلمت ـ فى الجامعة الأمريكية طريقة إعداد ورقة علمية بشكل مضبوط.

وعندما أبنى النص أحدد طريقة العرض أو التقديم، ثم جسم الورقة، ثم الاستخلاصات والنتائج ـ بالضبط ـ بالطريقة الأكاديمية.

أنا لا أحب ـ كما لم يحدث ـ أن أعطانى أحد كلمة لأقرأها، لأننى أجد متعة فى تحضيرها.

عن المـــرأة:

● أظن أن الكثير من قضايا المرأة التى تثار فى مصر الآن، سبق إثارتها فى مطلع القرن كما سبق فرزها، هل تعتقدين ـ سيادتك ـ أن العودة إلى مناقشة ما سبق وأن حسم المجتمع موقفه منه هو لون من الردة الاجتماعية، أم أنه دليل على حيوية المجتمع فى إعادة المراجعة وإعادة الاختبار؟

○ قضية المراجعة لعمرها لن تنتهى.

وأى فكرة جديدة تحتاج لأن نختبرها وفقا لديننا وتقاليدنا ولحقائق العصر وعناصره، وحتى النظر إلى قضايانا القديمة يحتاج لنفس الأسلوب، ولن يأتى وقت ـ أبدا ـ نقول فيه إننا وصلنا لكل ما نريد أن نصل له، وناقشنا كل المواضيع التى ينبغى مناقشتها، وإننا سنغلق أبواب الحوار، ولن يتكلم أحد أو يناقش.

هذا لن يكون مجتمعا!

طبيعة المجتمع أن تكون فيه حيوية، وفيه عمليات تبادلية داخلية للأفكار، ومن خلال ذلك، ربما يكتشف المجتمع أنه يريد أن يعود للخلف فى بعض القضايا، أو يثبت على التقدم الذى وصل إليه، أو يعتنق من الأفكار الجديدة ما يعد متقدما على ما وصل إليه من قبل، وهو ما نأمله، وبخاصة بعد ما وضحت رؤية مجتمعنا للتيارات أو الاتجاهات السليمة وغير السليمة فيما يخص الكثير من قضاياه.

● كيف تشكلين فريق العمل المساعد لك، وبأية مقاييس؟

○ أحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأننى دائما موفقة فى اختيارى للناس سواء فى المجموعة المساندة لعملى فى مجال الطفولة، أو فى مجال الصحة، أو فى أى مجال عملت فيه، اختياراتى موفقه دائما، والحمد لله، ولم آخذ «مقلبا» فى أى شخص تعاملت معه.

أختار من يساعدنى من أعلى مستويات التخصص فى القضية التى أنا بصدد التحرك من أجلها، فعندما شكلنا المجلس القومى للأمومة والطفولة، درسنا كل الأسماء المهمة فى مجالات الصحة والتعليم وغيرها، واخترنا ثلاثين اسما لسيدات ورجال، خبراء على القمة فى مجالات تخصصهم.

وكنت أنظر إليهم حين يتحلقون حول منضدة الاجتماعات، فأشعر أن مصر، بأفضل ما فيها ـ هى التى تتكلم، وأيضا لأنهم ممثلين لجميع الاتجاهات والآراء التى تموج بها الساحة فى بلدنا.

لدينا الآن حرية، والجميع يتكلمون ويعبرون عن اختلافاتهم، ولكنهم يتفقون على حب البلد، والارتباط بالقضية.

نحن نتكلم فى قضايا اجتماعية مهمة، وليست قضايا حكم، أو قضايا شخص، وهذا المناخ هو الذى يُشعر الإنسان ـ حقيقة ـ بالانتماء.

نحن نعيش فترة فى مصر فيها نوع من الأمل، والناس تريد أن تعطى وتساند، وهذه الروح تعطينى دفعة كبيرة، لأحاول أن أفعل أكثر وأتشجع أكثر.

● هل قوة المرأة فى المجتمع المصرى، معبر عنها تعبيرا حقيقيا من الناحية التمثيلية بما يساوى حجمها بالفعل؟

○ بالطبع لا.

● لماذا؟

○ لأنه مازال هناك من لا يحبون التغيير، ويوجد من يقاومون التطور،

وهناك من يرفضون نزول المرأة فى دائرة من الدوائر لأنها فى نظرهم غير مضمونة، وبالتالى يرشحون رجلا.. ربما لديهم حق فى بعض المناطق، ولكن هذا لا يصلح كمبدأ للتعميم.

على أية حال نحن نقول إنه لكى تنزل المرأة إلى الانتخابات وتنجح فلابد أن تبدأ فى العمل الاجتماعى على مستوى المركز، وأن يكون لها اسم، يسندها حين تطرح نفسها فى الانتخابات، ومازلنا نحتاج إلى دعم دور المرأة هذا من القاعدة، وهو ما نفعله.

ونحن نشعر أن مفهومنا فى مساندة قضايا الطفولة وقضايا المرأة، أصبح مستوعبا ـ الآن ـ لدى المحافظين، الذين يبدون تعاونا كبيرا فى هذا المجال، والمحافظون يساندون جهود اللجنة القومية للمرأة، والمجلس القومى للأمومة والطفولة، ويحضرون بأنفسهم الاجتماعات التى تهتم بقضايا الطفل والمرأة والصحة والتعليم والعمل الاجتماعى والعمل السياسى.

هذا تقدم تحقق بعد جهد، لأن هذا المجال كان يحتاج إلى هزة كبيرة، والحمد لله سوف نشهد قريبا ـ إن شاء الله ـ طفرة كبيرة جدا فى هذا المجال.

- **السيده سوزان مبارك.. حين تذهبين لإعطاء صوتك فى الانتخابات، هل تكون من العوامل المرجحة لديك أن تكون المرشحة سيدة أم لا؟؟**

○ بالطبع ليس العامل الوحيد أن تكون امرأة، ولكن هذا العامل إلى جوار عشرات من العوامل الأخرى يشكل موقفى.

المرأة تحتاج إلى دعم دورها، وإلى اقتناع الناس بهذا الدور، وهذا أمر يحتاج إلى تعبئة وتوعية كبيرة، ينبغى أن يساندها ـ فى المقام الأول ـ ثقة المرأة فى نفسها، وفى قدرتها على اقتحام مجال العمل العام والعمل السياسى فى مستوياته المختلفة.

- ١٩٩٦ -

❑ ❑ ❑





بعد حضوره اللقاء السنوى لمجلس العلاقات المصرية / الأمريكية:

د. أحمد زويل: (١)

● مكتبة الإسكندرية تستعيد دورا تاريخيا وحضاريا كبيرا لمصر.

● لا أوافق على ما قررته الإدارة الأمريكية الجديدة من إلغاء لاتفاقية كيوتو!

● صراع الحضارات هو الطريق المؤكد إلى التعصب والتطرف، والحل - لابد - اقتصادى.

● نحن نعيش «اللانظام» العالمى الجديد!

● إذا دخلت أمريكا إلى مشروع الدرع المضاد للصواريخ فسوف تفتح الباب أمام صراع كونى رهيب!

● الإعلام المصرى تقدم تكنولوجيا، واشترى ماكينات متقدمة، ولكن الدور (العلمى) للإعلام يعنى شيئا آخر تماما.

● سوف أطلب من المسئولين أن يكون لى برنامج تليفزيونى أتحدث فيه للمصريين عن حقائق العلم فى عالم اليوم.

- الناس فى مصر لا يريدون أن يغرقوا فى المسلسلات فقط، ولكنهم يريدون المعرفة، ويريدون المعلومات عن الجينوم البشرى وهبوط مركبة على المريخ!
- قرار جمهورى على وشك الصدور لتنظيم عمل جامعة مصر للتكنولوجيا.
- رفضت فتح حساب مصرفى للتبرعات للجامعة قبل اكتمال الإطار القانونى.
- المشاركة هى أبرز ملامح العلاقة بين العلم والديمقراطية.
- احترامى للنصوص الدينية المقدسة يجعلنى أبتعد عن تحميلها بتفاسير لكل ما تنتجه المعامل العلمية!
- فكرة الجامعة التكنولوجية أن تكون عالمية، وبالتالى فمن القصور الشديد ربطها بإسرائيل أو - حتى - ربطها بالعرب!!
- يجب أن نتوقف عن ممارسة مهنة الشكوى إزاء احتكار المعرفة!
- بليون دولار لمدة خمس سنوات، وسنرى النتيجة فى بناء قاعدة علمية، فجامعة كالتاك لديها ٢٫٥ بليون دولار منحة، وخرّجت حتى الآن ٢٨ حائزا على جائزه نوبل!
- لن تأتينا الشركات العملاقة لأن أصحابها يحبون الهرم، أو حمامات الشمس على الرمال، ولكن لتوافر ظروف موضوعية، كما حدث فى الهند التى أصبحت نمرة ٢ فى صناعات «السوفت وير» فى العالم.

أقام مجلس العلاقات المصرى الأمريكى حفله السنوى فى واشنطن، وكان ضيف شرف هذا الحفل هو العالم المصـرى الكبير د. أحمد زويل، وقد نقل نبيل فهمى سفير مصـر فى الولايات المتحدة الأمريكية رسالة شفهية من الرئيس مبارك إلى الاحتفال يحيى فيها زويل ويجدد تقديره لإنجازه العلمى، كما تلا الدكتور إبراهيم عويس رئيس مجلس العلاقات رسالة بذات المعنى من الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية، وكذا تلا السفير حسين حسونة رسالة من الدكتور عصمت عبد المجيد أمين عام جامعة الدول العربية (آنذاك).

وقد التقيت بالدكتور زويل بعد حضوره هذا اللقاء السنوى حيث أدلى بحديث خاص شامل عن مكتبة الإسكندرية، وتطورات مشروع جامعة مصر التكنولوچية، وأفكار المزاوجة بين العلم والدين، ودور الإعلام فى بناء التفكير العلمى، وأعلن فيه انزعاجه من انسحاب أمريكا من اتفاقية كيوتو البيئية، وكذلك من إقدامها على مشروع درع الدفاع الصاروخى، وحدد موقفه من ادعاءات البعض بأن سبب تأخرنا عن اللحاق بركب العلم هو احتكار الكبار للمعرفة.

وفيما يلى نص الحوار:

- **أصبحتم عضوا فى مجلس أمناء جامعة الإسكندرية، كيف تتصورون حدود الدور الذى ستلعبون، فى إطار هذه المؤسسة الثقافية الدولية الكبيرة التى جعلت هدفها نشر ثقافة الحوار وثقافة التسامح؟**

○ هذا المشروع لا يطلق عليه وصف (مصرى) أو (دولى) فحسب، فهو مشروع (تاريخى) كبير.

ولتوى فرغت من إلقاء محاضرة فى كامبردج فى إنجلترا، وتكلمت فيها عما قدمته الإسكندرية للدنيا، حوالى ٣٣٠ ق. م، مكتبة وجامعة ومتحفا قديما.

وما قدمته مكتبة الإسكندرية للحضارة العالمية ضخم جدا، بكل المقاييس الحضارية، ولكن الأهم من مبنى مكتبة الإسكندرية الجديدة أن نستعيد دور مكتبة الإسكندرية القديمة، وهذا ما أشعر به من الروح التى يتحدث بها المسئولون فى مصر.

نريد أن نستعيد جوهر الحضارة القديمة من خلال هذا المشروع العملاق.

سعيدٌ بتعيينى فى مجلس الأمناء، وأتمنى أن أقدر على المساعدة بأية طريقة، وسعيدٌ ـ أيضا ـ أنهم عينوا زميلا وأخا عزيزا هو الدكتور إسماعيل سراج الدين مشرفا على هذا المشروع.. ثم إن مكتبة الإسكندرية ـ برعاية رؤوم من السيدة سوزان مبارك ـ بالقطع ستكون مشروعا يتمتع باهتمام ورعاية كبيرة فى مصر، وأنا سعيد بأن أكون جزء منه.

قنابل!

- **منذ بداية التسعينيات وحتى اليوم، بدا وكأن البشرية تواجه ثلاث قنابل قابلة دوما للانفجار.. القنبلة الأولى هى القنبلة الإيكولوچية (متمثلة فى التحديات البيئية التى سببها تشرنوبيل أو ثقب الأوزون أو تلويث العراق للخليج العربى أثناء حرب الخليج)، والقنبلة الأيديولوچية (بانخراط الكثيرين فى تيارات متشددة تنحو بالبشرية نحو التطرف والإرهاب بأكثر من الوسطية والاعتدال)، وقنبلة أسلحة الدمار الشامل.. كيف ترى الخروج من هذه المآزق الثلاثة فى ظل نظام توزيع عالمى غير عادل لا يسمح للفقراء بامتلاك أداة العلم والتكنولوچيا المتقدمة؟**

○ (يضحك).. لو أجبتك على هذا السؤال، فسوف أستحق جائزة نوبل أخرى!!

على أية حال موضوع البيئة الكونية موضوع خطير. فإذا علمت أن درجة حرارة واحدة زيادة على سطح الكرة الأرضية، تؤدى إلى مشاكل إيكولوچية لكل الكوكب يمكن أن نتصور ما تعنيه تغيرات البيئة بالنسبة للإنسان، وكذلك ظهور فيروس جديد مثل الإيدز يمكن أن يضر باعتبارات الصحة والأمان الإنسانى إلى غير ماحدود.

ولقد كتبت مؤخرا مقالا فى مجلة (Nature) العالمية، خاطبت فيه الدول المتقدمة أنها لا يجب أن تفكر بأن هذه المشاكل بعيدة عنهم.. إفريقيا ليست بعيدة، وآخر نقطة فى الكون ليست بعيدة، وحامل فيروس الإيدز قد يأتى من تمبكتو ليعطيه لشخص آخر فى الولايات المتحدة الأمريكية.

مشاكل التغييرات الأرضية الكونية تحتاج إلى لون من ألوان المشاركة، التى يتكاتف فيها كل الناس الذين يدبون على كوكب الأرض.

من أجل هذا، فأنا لا أوافق على إلغاء الإدارة الأمريكية الجديدة لالتزامها باتفاقية كيوتو، التى تحدد لكل بلد حدود لا تتجاوزها فى تلويث الجو، وهو الأمر الذى إذا انفلت من عقاله فلن تستطيع البشرية بعد ذلك السيطرة عليه أو كبح جماحه، وإذا كان سعى الإدارة الجديدة ـ بعد ذلك ـ إلى إنتاج النفط وزيادته من ألاسكا سوف يحل مشكلة استهلاك البترول، فإنه سيعود على كل الأمريكيين ـ بعد ذلك ـ بأنصبة من أضرار التلوث والدمار البيئى.

هذه مسئولية وحقوق كل من يعيش على الكرة الأرضية، ولابد أن نتحمل هذه المسئولية وإلا فالإصابه بالضرر ستكون عامة. ثقب الأوزون مثل إلغاء اتفاقية كيوتو، مثل الإيدز كلها موضوعات كونية/ إنسانية، الحقوق فيها متساوية، وواجب المشاركة فى المواجهة واحد.

أما عن قنبلة الأيديولوچيا، فربما أهم ما أراه فيما يخصها، هو ما يسمى الآن

(صراع الحضارات)، وتأمل حجم ما يكتب عنه هذه الأيام يشعر الإنسان ـ حقيقة ـ بحجم الخطر الذى يمكن أن تسببه مثل هذه النظريات، فالتأكيد على هويات مغايرة لما كان سائدا فى الدنيا (مصريون.. إفريقيون.. إلخ)، واستبدالها بهويات أخرى (مسلمون.. مسيحيون.. يهود)، مع الإقرار بحقيقه أن العالم أصبح قرية صغيرة، وأن الإنسان يخشى بطبعه أن تذوب هويته العقائدية وسط عالم سقطت فيه الحدود أو تتلاشى، ومع الإقرار ـ أيضا ـ بأن النزوع الطبيعى لدى الناس هو التمسك بالهوية ذات الطابع الدينى.. كل هذا يؤدى إلى سيادة مزاج التعصب (Fanatism)، وظهور حركات ترفع مثل هذه الأفكار فى جميع أنحاء العالم.

وتصورى لحل هذا المشكل الإنسانى الكبير يأتى اقتصاديا فى المقام الأول، مهما عاد وزاد كل طرف عن أيديولوجيته وعقائده وأفكاره.

لو تخرج شاب متميز وعبقرى من الجامعة فى مصر، ولم يجد وظيفة، أو وسيلة للحياة، فما الذى نتصوره عن اتجاهه؟!

ببساطة، سيتحول إلى عامل مدمر فى المجتمع، أو يتجه إلى الارتباط بأفكار تعصب وتطرف دينية، فلديه إحساس بأنه يريد أن يعيش، ولكن لا يستطيع أن يعيش، ومن ثم فالطاقة المكبوتة داخله سوف تعبر عن نفسها بأحد الشكلين، فإما تدمير المجتمع بشكل مجرد وإما تدمير المجتمع من خلال فكر التعصب.

على أى حال فكلما تحسن الوضع الاقتصادى، قلت فرص التعصب، وما يحدث على مستوى مجتمع من المجتمعات، يحدث ايضا على مستوى الكوكب كله، على الرغم من أنف أفكار (صراع الحضارات) التى تحمل فى داخلها ـ أيضا ـ بذور تعصب وهاوية نزاع إنسانى ليس لها قرار.

أما فيما يخص أسلحة الدمار الشامل.. فالحقيقة أن هذا الموضوع يعكس حيرة أى إنسان فينا عند النظر إلى عالم اليوم، فأنا ـ مثلا ـ كنت أظن أننا نعيش فى ظل New world order أو نظام عالمى جديد، وأن الحرب الباردة قد انتهت،

وأن قوة عظمى واحدة أصبحت هى المهيمنة على العالم، ومن ثم فإن فرصتها فى تحقيق أحلام البشر فى التقدم والسلام أصبحت أكبر.

ولكن ذلك لم يحدث، وجاء الرئيس چورچ دبليو بوش يحمل رؤية مختلفة تماما، فهو يريد إلغاء اتفاقية الحد من الصواريخ الباليستيه ABM، ومناخ الحرب الباردة ومفرداتها يعود، والصين بدأت تظهر كقوة عظمى.. شىء من (اللخبطة) الحقيقية، ولذلك أنا أسمى ما يحدث The new world disorder أو اللانظام العالمى الجديد!

مسألة نوع التسليح ليست هى المحك فى مواجهة الأخطار التى تحيط بالإنسان، فقد كنا نتصور أن القنبلة النووية هى السلاح الوحيد القادر على التدمير الكبير وفرض إرادة طرف على طرف آخر، ولكن اليوم ـ أصبحنا نعرف أشكالا أخرى من التسليح قدمها العلم، سواء كانت أسلحة بيولوچية أو كيماوية، وهى لا تحتاج إلا إلى تقنية بسيطة جدا، ولكنها يمكن أن تدمر بلدا بحاله.

إذن، فالمهم ليس نوعا معينا من أسلحة الدمار الشامل.. المهم هو التفاهم الإنسانى والتبادل الفكرى والحضارى.

السؤال الذى يساوى مليون دولار ـ فى هذا الإطار ـ هو: هل نستطيع أن نجلس معا فى منظمة مثل الأمم المتحدة، ونحل المشاكل الكونية التى تواجه الإنسانية، ونعيش معا (ستة مليارات نسمة) من دون صراع.

بالطبع أنا أتكلم كعالم، ولكننى لا أعتقد أن الحل سهل، أو أنه يمكن أن يتحقق فى عشر سنوات، أو فى عشرين عاما، ولكن الذى يجب أن نعرفه هو أننا إذا لم نصل إلى الحل فسوف نعود إلى الحروب.

إذا دخلت أمريكا ـ فعليا ـ إلى مشروع الدرع المضاد للصواريخ فسوف تفتح الباب أمام صراع كونى رهيب على بناء ترسانات تسليحية من أنواع مختلفة، فإذا اتجهت أمريكا إلى بناء الدرع المضاد للصواريخ، فقد تتجه الصين ـ مثلا ـ إلى نوع آخر يستطيع مواجهة هذا الدرع، وسوف تلجأ دولة ثالثة إلى التوسع

فـى ترسانتـها البيولوچيـة والكيماويـة. . والعالـم ـ بالقطـع ـ لا يحتـاج إلـى هـذه الصراعات، أو إلى اندلاع حمى سـباق التسليـح مـن جديـد عـلى هـذا النحـو.

إعــلام:

● **إلى أى مدى تعتقد ـ يا دكتور زويل ـ أن سيادة معايير «المجاز» فى وسائل الإعلام المصرية، قد أثر على إمكانية تسييد قيم العلم فى عمليات التنشئة الاجتماعية فى البلد؟**

○ تقدم الإعلام المصرى فى آخر ١٥-٢٠ عاما تكنولوچيا بشكل كبير، واشترينا أقمارا صناعية ومعدات وماكينات متقدمة جدا.

ولكن الدور (العلمى) للإعلام يعنى شيئا آخر تماما، ولكى أقرب الصورة، سأحكى عن تجربة مررت بها مع تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C، فقد عزمت على نشر ورقة علمية مهمة فى مجلة أمريكية دولية بحثية شهيرة، اسمها علوم Science، وعادة ما تقوم هذه المجلة قبل أسبوع من صدورها بعمل نشرة إعلامية عن محتوياتها، ومن ثم فقد ضمنت نشرتها نبذة عن مقالى، وعلى الفور وجدت الـ B.B.C تتصل بى، وأرسلوا لى مندوبا من لندن إلى باسادينا ـ هنا فى الولايات المتحدة ـ ليجرى معى مقابلة حول موضوع البحث.

هذا هو ما يعنيه الحس العلمى لدى جهاز إعلامى، فأولا لديه خبراؤه الذين يعرفون ويستعملون وسائط مختلفة، للتعرف على آخر ما يدور على مستوى العلم فى الكون كله، ثم هم على استعداد لبذل مجهود حقيقى من أجل نقل تفاصيل هذا الذى يدور إلى الناس فى كل مكان.

بعبارة أخرى تقدم جهاز إعلامى علميا، مرهون بمدى علمية وتقدم مضمون رسائله، وبإدراكه لأهمية العلم والتكنولوچيا، وباحتضانه لشبكة من الخبراء تعرف ما الذى تتابعه، ومن الذين تتابعهم.

هذا الحس العلمى يحتاج إلى أن يتعمق فى مصر وفى العالم العربي، ولن يكون ذلك إلا بنشأة قاعدة علمية، تنقل وتعكس فكرة أهمية العلم إلى رجل الشارع العربى.

● دكتور زويل.. سؤالى مازال قائما.. هل سيادة ثقافة (المجاز) فى الإعلام المصرى أدت إلى محاصرة حجم وتأثير ثقافة (الحقائق)؟

○ الزخرفة اللفظية التى يعنى بها وتسميها أنت (ثقافة المجاز)، تؤدى إلى فقدان العمق فى إدراك الناس، أو حتى اهتمامهم بالموضوعات، أو التطورات ذات الطبيعية العلمية، وعلى سبيل المثال فقد كانت جامعة كالتاك فى باسادينا التى أعمل بها، هى صاحبة مشروع هبوط المركبة على سطح المريخ، وقد ذهبت إلى مصر فى هذا التوقيت، وفى الطريق توقفت فى لندن، فوجدت الدنيا مقلوبة، ولا حديث للإعلام أو الناس إلا عن هبوط المركبة على سطح المريخ.. ولكن فى مصر، وبما تسميه (ثقافة المجاز) أشير للموضوع، ولكن لم يتوقف عنده أحد ليحلله أو يفهم معناه، ومن ثم يشرحه.

وكذلك فى موضوع الجينوم البشرى وغيرها من الإنجازات الجبارة للإنسان فى عالم اليوم.

الناس فى مصر متشوقون جدا لمعرفة مثل هذه الأشياء، هم لا يريدون أن يغرقوا فى المسلسلات فقط.

لقد ألقيت محاضرة فى مصر عن موضوع الجينوم البشرى فى المسرح الكبير بدار الأوبرا ضمن برنامج صالون زويل، ولم يكن هناك موضع لقدم فى هذا المسرح، وقد تكلمت لمدة ساعتين، والناس يجلسون بكل انتباه، وإنصات، وتعطش حقيقى للمعرفة.

الشرح العلمى يحتاج ـ فى إعلامنا ـ أن يكون له مساحة، لكى ندخل إعلاميا بعمق فى طرح الموضوعات العلمية.

وسوف أطلب من المسئولين أن يكون لى برنامج على التليفزيون، أشرح فيه بعض حقائق العلم اليوم على غرار ما فعلوه فى إنجلترا لأبى الكهرباء العالم فاراداى، حين كان يقدم محاضرة أو اثنتين فى العام لكل المجتمع البريطانى وليس للمتخصصين فقط.

وربما تخلق مثل هذه المبادرة وسطا مهتما، بمعنى أن تدفع علماءنا إلى المشاركة فى مثل هذا الجهد، وتربى جيلا من الإعلاميين المتخصصين فى نواحى الاهتمام العلمى الكونية الكبيرة.

بعبارة أبسط، إن لم نك طرفا فى صناعة الإنجاز العلمى نفسه، فلنكن على معرفة بحدوثه، أو نعيش فى جوّه، ومن ثم نصبح جزءا من هذا الزمن، أو هذا العصر.

جامعة!؟

- **ماذا عن جامعة مصر للتكنولوچيا.. لقد سمعتك تذكر فى الاحتفال السنوى لمجلس العلاقات ـ المصرى ـ الأمريكى أن القانون المنظم لعلم هذا الجامعة على وشك الصدور، وكنت قد ذكرت لى هذا فى حوار منشور منذ عشرة شهور.. لماذا أصبح هذا الموضوع كحكايا الربابة، لانرى له خطوات فعلية متواترة على الأرض؟**

○ الجراح الذى يجرى عملية مهما كان ماهرا وباهرا، لا يستطيع أن يجرى هذه العملية إلا إذا كانت المستشفى جاهزة بالكهرباء والمعدات وغيره.

وأنا فى موضوع جامعة مصر للتكنولوچيا، أتعامل مع رئاسة الجمهورية، وقد أولانى الرئيس مبارك دعما كبيرا، وأظهر حماسة كاملة للموضوع، وبالفعل أعددت الهيكل الأكاديمى والمناهج والعلوم الأساسية فى مشروع موجود بالكامل فى الرئاسة.

فى عنقى أمانة تاريخية لمصر، ولا أستطيع أن أدفع بالموضوع وأنا ـ نفسيا ـ أشعر أنه لم يكتمل.

لا أستطيع أن أستبق خطوة قبل خطوة أخرى، لمجرد الرغبة فى الاحتفال!

وبالتالى لا أستطيع مثلا أن أبدأ فى جمع التبرعات قبل صدور الهيكل القانونى المنظم، وأنا أعلم ـ وأنتم أيضا تعلمون ـ كيف أن البيروقراطية فى بلدنا والأوضاع والنظام القانونى تستغرق وقتا ربما أكبر من تصورى حين بدأت هذا العمل بكثير.

الجزء الأساسى المنوط بى وهو الهيكل الأكاديمى والمناهج، مدروس وموجود بالكامل فى مؤسسة الرئاسة.

وقد أُبلغت ـ مؤخرا ـ من مكتب سيادة الرئيس أن قرارا جمهوريا بصدد الصدور قريبا، ليحمى هذه المؤسسة (الجامعة) من البيروقراطية الحكومية، ويعطيها طابعا عالميا يمكن أن تتحرك فيه.

وبعد ذلك تبدأ مرحلة التمويل.

وياليتنى كنت غنيا، لأضع كل ما أملك فى هذه الجامعة، ولكن هناك ـ بالقطع ـ من يستطيعون.

ولأن الجامعة هى مؤسسة (غير حكومية Non Governmental) و (غير قابلة للربح (Non Profit)، فسوف يحتاج تمويلها إلى إسهام كبير، ومن عقليات وشخصيات ينبغى أن تكون مؤمنة بالفكرة، مستوعبة لها.

لقد قمت بجولات فى العالم العربى، وجلست، وتناقشت، مع رجال أعمال مصريين كثيرين، ولدينا تصور لكيفية الحصول على التمويل، ولكن بمجرد صدور القرار الجمهورى، نستطيع البدء فى عملية التبرعات والتمويل.. أى نعم لقد أخذنا وقتا، ولكن هذا أفضل لنظهر على أسس علمية صحيحة، بدلا من أن نفتتح الجامعة، ثم ـ بعد خمس سنوات مثلا ـ يأتى من يقول: أنتم لستم على مستوى العالمية!

الموضوع ليس أن نشيد مبنى، ونعيّن موظفين، ونحدد كادرا حكوميا، ونعلق «يافطة».

الأساس فى الشغل ـ كما فى الغرب ـ أن المؤسسة نفسها ـ كقاعدة ـ تكون قوية، ومؤسساتها واضحة، وعندما ننجح فى ذلك، فليس من الضرورى أن يكون أحمد زويل ـ حتى ـ موجودا.

ولقد شهدت عملية بناء هذه القاعدة عملا كثيرا منذ حوارنا السابق، لقد حددنا ماهى العلوم التى سنركز عليها بالنسبة لجامعة العلوم والتكنولوچيا، وحددنا مجلس الأمناء، ووظيفته وما هى صلاحياته، واختصاصاته، وكل هذا يأخذ وقتا.

وكل شىء لدىَّ محفوظ فيما يخص مشروع الجامعة، لأننا فى الغرب نهتم بالتأريخ لمثل هذه المشروعات، وحتى لو كان الأمر مجرد فاكس إجرائى ستجده محفوظ عندى.

أنا من (يَمتِى) «ناحيتى» أعمل كل ما أستطيع عمله لمصر، وهو ـ بالدرجة الأولى ـ التركيبة العلمية ومجلس الأمناء، ولو جاءنى فى فاكس من مصر حول المشروع أرد عليه بعد يومين، فى حين أنه ـ بطبيعتنا فى مصر ـ لو أرسلت فاكسا يردون علىَّ بعد شهر.

على أية حال، الخطوة التى ستحدد مسار الانطلاق هى صدور القرار الجمهورى، لأن تنظيم عمل هذه الجامعة لابد أن يكون واضحا جدا، وهناك أشياء ينبغى ذكرها مثل الضرائب، ومثل معاملة الأجهزة العلمية جمركيا، فإذا افترضنا أن هناك أجهزة علمية بعدة ملايين من الجنيهات وصلت إلى الجمرك، فلا يجب أن نسقط فى دوامة عدم القدرة على إخراجها.

هذا المشروع أمانة فى عنقى، والتزامى فيه أمام ثقة السيد الرئيس وأمام ثقة الشعب المصرى كله. ومن هنا لا يجب أن يكون ساحة للشعارات، أو الاستجابة للرغبة العارمة فى الاحتفال، من دون أن يكون الإعداد أو البناء قد اكتمل.

لابد أن يكتمل مثلث (التصور الأكاديمى + التصور القانونى + التصور التمويلى) للجامعه، والتصور الأكاديمى انتهى تماما، والتصور القانونى على وشك الصدور، وبعده نبدأ فى مطالبة الممولين أن يضعوا مالا فى البنوك، ولقد اقترح علىَّ بعض رجال الأعمال أن أفتح حسابا فى البنك منذ ستة أشهر، ورفضت، إذ لا يمكن أن أسمح بهذا، وبأن تجمع أموال وأصحابها لا يعرفون ماذا نفعل، أو أين ذهبت أموالهم. . لابد أن تكون الأمور واضحة.

ديمقراطية!

● ما هو تقويمك - يادكتور زويل - للعلاقة الجدلية التبادلية فى مجتمعاتنا العربية بين الديمقراطية والعلم.. بعبارة أخرى، فهمك العلمى لنسبية الحقيقة وإطلاقيتها، وعلاقة أيهما بالديمقراطية؟

○ الديمقراطية مفهوم تشكل عبر التاريخ، بطرق - جد - مختلفة.

فهناك ديمقراطية الإغريق، وهناك ديمقراطية أمريكا، وهناك ديمقراطية إنجلترا.

وهناك بلاد كثيرة فى العالم العربى ليس لديها ديمقراطية، والبعض الآخر يحاول الحصول على الديمقراطية، ولكن لابد أن نضع فى إعتبارنا أن من هذه البلاد ما تصل فيه نسبة الأمية إلى ٥٠٪ أو أكثر، وبالتالى لا تستطيع أن تقفز دفعة واحدة إلى الشكل الكامل للديمقراطيات التى نعرفها، فيما الناس لا تفهم - حتى - معنى الكلمة بوضوح.

العلوم والتكنولوچيا لهما دور كبير جدا فى تحقيق وترسيخ معنى المشاركة (Participation).

وسأحكى لك مثالا: فأنا - شخصيا - أعقد اجتماعا أسبوعيا يوم الجمعة، طالما كنت فى كالتاك، مع طلبتى الذين يدرسون للدكتوراه، نشرب الشاى ونتحدث فى كل المشروعات العلمية المتقدمة التى نعمل عليها فى جامعتنا، وكل واحد يقول رأيه، هل معنى ذلك أنهم لا يحترموننى؟، بالقطع لا، وهل معنى

هذا أننى لو قلت شيئا فلن ينفذ؟، بالطبع سوف ينفذ، ولكنه سيطعم بآراء هؤلاء، فربما يظهر لى فى هذه القعدة شاب جديد قرأ شيئا لم أقرأه، أو صاحب رؤية طازجة بريئة مختلفة عن رؤيتى المثقلة بالحسابات، والتى يفرضها وضعى العلمى والمعنوى.

الاحترام المتبادل، والتراضى على تعريف لمعنى الحرية والديمقراطية، ووجود (نظام) يعمل الإنسان فى إطاره، ثم المشاركة فى التفكير وفى اتخاذ القرار، هذا هو الطريق إلى النجاح.

هناك ثلاثية مهمة جدا هى (العلم/ التكنولوچيا/ المجتمع)، وهذه الثلاثية هى من العوامل المؤثرة جدا على موضوع العلاقة التبادلية بين العلم والديمقراطية.

إذ لا يمكن أن تفرض فكرة معينة على المجتمع بمجرد قرار.

ففى قضية الاستنساخ البشرى مثلا، من الذى يقررها للمجتمع الأمريكى؟ هل هو وزير الصحة مثلا؟ بالطبع لا، فهو ليس العالم العلامة الذى يفهم فى كل شىء، ثم لو كان - حتى - هو العالم العلامة الذى يفهم فى كل شىء، فإنه فى النهاية فرد ولديه تصور من نوع معين، ليس - بالضرورة - الذى يحب المجتمع أن يتبناه أو يوافق عليه.

لكى يطرح موضوع مثل الاستنساخ البشرى على المجتمع الأمريكى، تقوم - مثلا - أكاديمية العلوم الأمريكية (وهى أقوى مؤسسة علمية فى أمريكا تضم فطاحل العلم الحقيقيين) بدراسة الموضوع، ثم لأن هذا الموضوع له علاقة برجل الشارع ومصالحه وتصوراته عن حياته ومستقبله، فإن الأكاديمية تصدر تقريرا مبسطا للجمهور، يشرح فيه العلماء الفكرة، ويقولون لماذا سيكون الاستنساخ مفيدا، وكيف أنه سيسهم فى صناعة أعضاء جديدة، وسوف يكون فى إمكاننا عمل كبد، أو قلب.. هذا من الجانب الإيجابى، وعلى الجانب الآخر فإن الاستنساخ قد يؤدى - مثلا - إلى صناعة هتلر جديد أو غيره!

لابد أن تكون للمجتمع ثقافة علمية تسمح له، بالموافقة أو عدم الموافقة، وإذا لم يك لدى المجتمع وعى بذلك، لابد من توعيته، لكى يكون لمشاركته معنى.

فالعلم ـ إذن ـ هو الذى يخلق أساسا حقيقيا ومنظما للمشاركة.

فإذا علم الناس بالموضوع، أصبحت مناقشته ممكنة فى التليفزيون وفى الإعلام، وإذا أدى الإعلام دوره فى أن يعلم الناس بما توصل إليه الخبراء، فسوف تكتمل وتتصل أضلاع مثلث (العلم ـ التكنولوچيا ـ المجتمع).

المشاركة بين علم حصل فى المعمل من اختبار تأثير الكهرباء على الخلية الإنسانية، وعلماء فطاحل فى الأكاديمية الأمريكية، ورجل الشارع فى النهاية، تشترط وجود ثقافة علمية فى المجتمع، وليس معنى هذا أن كل أمريكى أو إنجليزى مثقف علميا، ولكن لديه القاعدة النقدية التى تسمح له بالمشاركة، ما إذا عرف، أو علم.

إسرائيل!

● دائما ما يتم ربط مشروعك للجامعة التكنولوچية، بفكر التعاون الإقليمى الشرق أوسطى، والآن ونحن نشهد فصول هذا العنف المتصاعد فى منطقتنا، والذى بات يهدد فكرة التعاون الإقليمى ذاته، على الأقل فى الأمد المنظور والمتوسط، لماذا لم تفكر فى أن تربط هذه الجامعة بالمجال العربى فقط؟

○ فى المرات العديدة التى تحدثت فيها عن هذه الجامعة، قلت: إن تصورى لها، هو أن تكون جامعة على المستوى العالمى، ولكن فيها حضور ثقافى عربى.

وحتى فى بعض المسائل التى تبدو شكلية، راعيت ذلك، سواء بعمل ما يشبه «Internet Cafés» أو مقاهى الإنترنت فى مدن الطلاب الجامعية، لكى يعمل فيها الأولاد على شبكة المعلومات الدولية، فيما يستمعون إلى الموسيقى العربية، فليس بالضرورى أن يستمع أبناؤنا إلى موتسارت وهم يدرسون أو يبحثون ويذاكرون.

ولكن العلم الذى سيتم تدريسه فى هذه الجامعة فى المعامل أو فى

المدرجات، لابد أن يكون مثل ما يدرس فى كالتاك أو فى هارفارد.

مهمة الجامعة خلق ثقافة عربية كاملة، ولكن تشع على المستوى العالمى.

وبما أننى قلت المستوى العالمى، فأنت لا تستطيع أن تقول سوف نجعلها عربية فقط، لأننا - فى الواقع لن نُدرس لغة عربية وتاريخ، ولكننا سنُدرس علم وتكنولوچيا، وهذا العلم والتكنولوچيا هو لغة العالم اليوم.

كلمة شرق أوسطية هنا لا تعنى الاقتصار على إسرائيل والعالم العربى وتركيا، ولكنها كلمة تحدد موقع الجامعة فقط.

نريد جامعة دولية وعالمية، ومن القصور الشديد ربطها بإسرائيل، أو - حتى - بالعرب.

المعيار الوحيد هنا هو تفوق الطالب أو الأستاذ، كما نفعل في كالتاك، فلو جاءنا طالب من تركيا سنقبله، ولكن لابد أن يكون متميزا، فالمعيار - هنا - هو التفوق وليس الجنسية.

لا تغلقوا الأبواب على أنفسكم. . فلندع الأبواب مفتوحة، لأن العلم عالمى، والثقافة العلمية التكنولوچية عالمية.

عولمة!

- **أصبح فكر العولمة هدفا رئيسيا لهجوم تجمعات دولية كثيرة سواء كانت جماعات حقوق إنسان أو جماعات نقابية أو جماعات بيئة، وأصبح هذا المثلث يطلق عليه اليسار الجديد.. هل ترى أن قوى اليسار الجديد هذه هى رد الفعل الأهلى، إزاء فكر احتكار المعرفة؟ وكيف تتصور نتيجة المواجهة أو التناطح مع هذا الاحتكار؟**

○ الاحتكار، والمبالغة فى الإحساس به، هما النتيجة الأساسية لثقافة الانعزال، والكلام الكثير المريح والسهل.

نعم من السهل أن تنتقد الآخرين، ولكن من الصعب أن تقوم أنت نفسك بصناعة شيء له وزنه.

عندما جئت إلى أمريكا، كان شيئا جديدا عليهم أن يروا مصريا وقد دخل إلى أبحاث التكنولوجيا وفى أكبر الجامعات الأمريكية، وبالقطع لم يكن لديهم تصورا أننى سأكون مثل الألمانى أو الإنجليزى، وكان علىَّ أن أثبت نفسى لسنوات تلو سنوات حتى وصلوا إلى الاقتناع بأنه من الممكن لعقلية مصرية / عربية أن تكون على قدم المساواة، وتتفوق أيضا!

أنا لم أنظر إلى موقفهم فى البداية على أنهم ضدى، وأنهم يحتكرون العلم، وأننى بالتالى سأفشل، ثم أصب بعض اللعنات عليهم.

إذا كان العالم العربى يريد أن يرتقى، ويكسر احتكار المعلومات ويتقدم علميا، فلابد أن يثبت نفسه أولا، وألا يحترف مهنة الشكوى إزاء احتكار المعرفة.

لا أريد أن آخذ من فكر حركات الاحتجاج فى العالم مبررا أن أركن إلى البكاء وعدم العمل، وإلقاء كل اللوم على النظم الصناعية والعلمية الشريرة التى تحتكر المعرفة.

حركات الاحتجاج التى يوصف أصحابها، بأصحاب الثقافة الثالثة، أو البعد الثالث، تتخذ هذا الموقف من خليط من الأفكار والمبادئ، وهى تمارسه داخل النظام وليس خارجه، بغية أن تنجح يوما فى تغييره.

أما نحن فعلينا أولا أن نعمل كثيرا، ونرتب مطبخنا من الداخل، قبل أن نتذرع بهذا الاحتكار، ثم نركن ـ مرة أخرى ـ إلى الشكوى.

اقتصاديا تبادلات العالم العربى البينية حوالى ١٠٪، ومعظم تداولاته مع العالم الغربى.. وهذا وضع لا يستقيم.

لابد من تكامل الإمكانيات العربية، فهناك بلاد فى العالم العربى لديها مالا

ينشئ المؤسسات والمعاهد، وهناك بلاد فى العالم العربى لديها العقول والطاقات البشرية الرهيبة، وعلى الرغم من هذا فإن العالم العربى لم ينجح فى الظهور على الخريطة العالمية بعد فيما يخص العلوم والتكنولوجيا.

أنا لا أستطيع أن ألوم الغرب، وأقول إنهم يحتكرون.

دعونا نرتب بيتنا من الداخل أولا، ونبحث عن جيراننا ـ ثانيا ـ لنرى كيف ستتعاون أو نتكامل معهم.

لو دولة عندها القنبلة الذرية، لن تعطيها لك، ولكن يمكن أن تتعامل قاعدتك العلمية مع الموضوع، فتستطيع أن تحصل من العالم على مساعدات تمكنك وتسهل لك.

التقدم العلمى الرهيب الذى حدث فى الإنترنت وفى نظام المعلومات، يستطيع أى بلد لديه قاعدة علمية قوية أن يتعامل مع بقية العالم، بدليل أن الهند لم تك لديها أية مقومات بالنسبة لصناعة البرمجيات والسوفت وير، وأصبحت اليوم نمرة ٢ فى العالم.. كيف حدث هذا؟.. بالعمل طبعا.

كان من الممكن أن ينخرط الهنود فى البكاء، قائلين إن أمريكا تحتكر أسرار صناعة السوفت وير، ولكنهم لم يفعلوا. لقد أنشأوا معاهد ومدارس كثيرة فى الهند، لتعليم أولادهم، ولخلق القاعدة العلمية السليمة وشقوا طريقهم إلى المشاركة فى أسرار العالم الكونى الكبيرة.

معى ـ الآن ـ فى فريقى الأكاديمى اثنين من الهنود، مستواهما قمة، لا أمريكان ولاغيره!!

القاعدة العلمية العربية ضعيفة، ولابد من إعادة بنائها، وقبل أن نشكو أو نبكى، علينا حشد مواردنا لبناء هذه القاعدة العلمية.

لقد كنت ضيفا على عماد الدين أديب فى برنامجه التليفزيونى على إحدى القنوات الفضائية العربية، وقلت لو أن أحد أثرياء العالم العربى، أو إحدى دوله

الثرية قدمت لنا شيكا ببليون دولار، سترون ما الذى يمكن أن نفعله على مدى خمس سنوات.

جامعة كالتاك لديها منحة حجمها ٢,٥ بليون دولار، وقد خرجت - حتى اليوم - ٢٨ حائزا على جائزة نوبل.

هل بليون دولار هو أمر كثير على موارد العالم العربى ليتم تخصيصه لأجل بناء قاعدة علمية؟ بالطبع لا.. وبالفعل لقد أمطرنى المشاهدون بعد البرنامج بفاكسات ومكالمات تحمل هذا المعنى، وتوافق، وأرسل البعض يعرضون مشاركات كبرى، ولكن كالعادة - هناك كلام كثير جدا يهدر فيه الوقت، أو يراق فيه الكثير من الحبر والعرق، ولكن حين نأتى إلى لحظة الفعل الحقيقى، يتبخر كل شىء، ونجلس - بعد ذلك - لنحترف مهنة الشكوى، ونلقى باللوم على احتكار المعرفة والنظام العالمى الصناعى والعلمى الشرير.

- **فى هذا الإطار، ما هو تصورك للدور الذى تلعبه الشركات العملاقة متعددة الجنسيات فى احتكار اكتشافات العلم وحجبها عن أن تكون إنسانية أو عالمية؟**

○ دعنا نتفق - أولا - على أن العقل الغربى يفكر بالمصلحة المتبادلة، لو أن هناك شركة عملاقة فى الكومبيوترز وستجد أن العماله فى مصر أرخص، وأكثر تدريبا، وأن الفرد فى مصر لديه معرفة وعلم، ستذهب هذه الشركة إلى مصر وتقيم مشروعها أو شركتها، ولكن إذا لم يكن لدينا شيئا من هذا، فمن الطبيعى ألا يأتوا.

لقد فعلوا ذلك فى الهند، فحين نجحت الهند فى خلق القاعدة العلمية السليمة، ذهب بيل جيتس وآخرين وأقاموا فيها مشروعاتهم، وكذلك يذهبون إلى جمهورية أيرلندا التى تقدمت جدا فى مجال السوفت وير. وفى الصين هناك مثل حى على ذلك، حيث أصبحت شنغهاى كلها غارقة فى بحر من استثمارات الشركات العملاقة الأمريكية.

لماذا يذهبون؟ . . لأن هناك عمالة، وهناك تعليم، وهناك نظام.

أما العواطف فلا مكان لها.

لن تأتينا الشركات العملاقة، لأن أصحابها يحبون الأهرام، أو حمامات الشمس على الرمال، أو لأننا سنقول لهم: «معلهش والنبى»!!

ولكن سيأتينا هؤلاء، لأن هناك عوامل جذب موضوعية عندنا تتعلق بوجود القاعدة العلمية، والعمالة، والقوانين المنظمة، وبيروقراطية أقل توحشا!

● **ما هو الوزن النسبى الذى تعطيه للدور الذى تقوم به وسائط ثورة المعلومات فى كسر واحتكار الحقيقة العلمية؟ وهل توافق على أفكار من يرون أن فى وسائط ثورة المعلومات هذه لونا من ألوان تكريس علاقة التبعية الثقافية على المستوى الدولى؟**

○ كل شىء له جوانب سلبيه، وجوانب إيجابية.

بالقطع فإن من الجوانب الإيجابية، هو ما تتيحه لك وسائل المعلومات الدولية التى تفتح لك مدخلا على ما يدور فى العالم، فاليوم أى طالب ـ عبر الإنترنت ـ يستطيع أن يعرف ماذا يعمل الدكتور زويل فى معمله فى كالتاك، وما الذى وصل إليه.

ولكن فى هذا الإطار أحب أن أنوه، أن هناك تصورا خاطئا يتصور أصحابه، أنهم متى وصلوا إلى مدخل للمعلومات، فإنهم قد أصبحوا مبتكرين أو مبدعين بالضرورة.

الإبداع أو الابتكار يحتاج إلى مناخ معين، وليس معنى أن لدينا تقنية معلومات أن بلدنا سيمتلئ ـ أوتوماتيكيا ـ بالمبدعين والمبتكرين، وأننا ـ أوتوماتيكيا ـ أيضا طلعنا إلى السماء!!

ثورة المعلومات وانفجارها يعنى ـ أولا ـ كيف تلتقى بالمعلومة، ثم كيف ترتقى بهذه المعلومة لتصبح على مستوى علمى وتكنولوجى يفيد البلد.

هذه الوسائط أسهمت فى سرعة وصولنا إلى المعلومات، وهذا جانبها الإيجابى، ولكنها لم تحدد لنا الطريقة التى ستتصرف بها إزاء هذه المعلومات.

أما الجانب السلبى، فيتعلق ـ بالقطع ـ بتأثير هذه الوسائل على نظمنا القيمية والأخلاقية والثقافية.

ففى بيتى ـ مثلا ـ هناك قوانين محددة لاستخدام الإنترنت، وهناك Secret Codes أو كود سرى لاستخدام الجهاز، حتى لا يستعمل الأطفال الإنترنت على نحو يؤدى إلى تعرضهم إلى بذاءات أو إلى مصائب أخلاقية.

وإنه لمن السخرية ـ فى الواقع ـ أن سلاح المعلوماتية العلمى الجميل له هذا الجانب الشرير.

أيضا فى البلاد النامية، طريقة التعامل مع أجهزة المعلومات خاطئة جدا، فأنت ترى الولد أو البنت يجلسان ١٥ ساعة أمام الشاشة، وهذا خطأ اجتماعى ونفسى كبير، وهذا شىء قاتل بالنسبة لتعليم الأولاد، وقدرتهم على التركيز، والوقت الذى يخصصونه للتعامل مع الأب والأم.

وأيضا فإنهم يتعرضون إلى الأشياء التى وضعت الكود السرى على الأجهزة فى بيتى لأحمى أطفالى منها.

(الإدمان.. والمخدرات.. والجنس) سلع شائعة جدا، وهى جميعا تمثل الجانب السلبى فى وسائل انفجار المعلومات وثورة الاتصال.

تفاسير!

- **هناك جدلية شهيرة وذائعة فى العالم العربى، تقوم على التفرقة القاطعة بين (رأى العلم) و (رأى الدين) أو المزاوجة العسفية بين الخطاب العلمى والخطاب الدينى فى كل شىء.. ما هو موقع مثل هذه القضية من المنطق الذى يحكم تفكيرك العلمى؟**

○ أنا لا أنظر إلى القرآن الكريم، بوصفة كتابا فى الكيمياء، أو كتابا فى

الطبيعة، وإنما أجده كتابا أكبر بكثير، وأعظم بكثير، وأرفع منزلة بكثير من أن يكون كتابا متخصصا.

والناس الذين يتصفون بالفهم والاستنارة، يعرفون - جيدا - أنه لا يوجد تعارض بين الصورة الكلية الكبيرة التى تنص عليها الكتب السماوية، ودور العلم والتقدم العلمى فى المجتمع.

إذا نظرنا للعمل العظيم الذى أنجزه نيوتن، هل من الضرورى لكى نجزم بصحة هذا العمل، أن نجد نصا فى الإنجيل ينص عليه (باعتبار أن نيوتن مسيحى)؟

نيوتن بنى على إنجاز جاليليو، وبعد نيوتن جاء أينشتين ليبنى على إنجازات من قبله، وكل من العلماء يغيّر - أثناء بحثه وشغله - من أفكاره والطريقة التى يفهم بها الكون، فهل يعنى هذا أننا يجب أن نغيّر تفسيراتنا للنصوص الدينية، وفقا لما نصل إليه من أبحاث واكتشافات.

سنوات تضيع فى مثل هذا التفكير، ثم إننى لا أفهم أن تختزل قيمة الكتاب المقدس، أو تختزل قدسيته فى إثبات فروض نظرية علمية، أو اكتشاف علمى.

الدين يعطينا الصورة الكلية الكبيرة، والإطار الأخلاقى والروحى لفهم حقائق الحياة، وهذه جميعا أشياء مهمة جدا للإنسان، وحتى الآن نحن نحاول فهمها والإحاطة بأبعادها.

أما العلم فهو يجعلنا نفهم ونفسر ظواهر الطبيعة.. كيف تسير الكواكب، سرعة الزمن، علم طبقات الأرض، وهكذا..

وأظن الفارق واضح.

● **هل كان لزيارتك إلى الفاتيكان فى نوفمبر الماضى أية علاقة بما يمكن تسميته بالحوار بين الدين والعلم؟**

○ لقد كنت فى الفاتيكان لأنى انتخبت عضوا فى مؤسسة اسمها الأكاديمية

البابوية، ويبلغ عمرها ستمائة عام، وهى تضم العلماء فى جميع أنحاء العالم من كل التخصصات وعددهم ستون عالما، وكان لى الشرف فى أن أكون واحدا منهم.

وحين نجتمع كعلماء، نتناقش ـ بالضرورة ـ فى أمور الحياة والعلوم والدين، والعلاقة بين الدين (بشكل مجرد) والعلم وصراع الحضارات.

وأنا مهتم جدا بمثل هذه المسألة، لأننى لا أركز فقط على شغلى، وإنما أهتم أيضا ـ بمجالات عديدة، كالتاريخ والأدب والثقافة، وأشعر بسعادة بالغة حين أتواجد فى مثل هذه المحافل الثقافية، مثل: الأكاديمية البابوية Pontifical acade-my، أو مجمع الفلاسفة الذى أتشرف بعضويته فى أمريكا.

ولقد ألقيت محاضرة فى الفاتيكان عن ما أسميته فى هذا الحوار (اللانظام العالمى الجديد) طارحا نظرة شمولية للمشاكل التى يعانى منها العالم.

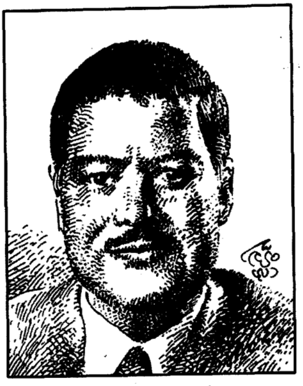
وقد كرمنى البابا بمنحى وشاح الفاتيكان.

وسوف أذهب إلى الهند فى أكتوبر المقبل، وسيمنحوننى الدكتوراه الفخرية، وسأزور مشاريع صناعة البرمجيات هناك، وسأقوم بجولة فى بنجالاور وكلكتا ونيودلهى، وسألقى محاضرة فى برنامج غاندى فى التليفزيون الهندى، وهو الذى يستضيف فى كل عام شخصية عالمية لتتحدث إلى الناس.

- ٢٠٠١ -







د. أحمد زويل (٢)

التكافؤ العلمى مع إسرائيل هو الذى سيلغى الخوف!

- لم أنصرف عن المعمل إلى مشروع الجامعة، وأندمج - الآن - فى بحوث لها علاقة بالجينوم وبالأغراض الطبية.
- الكلام عن تاريخ وحضارة مصر لا يجب النظر إليهما بوصفهما شعارات، أو تعلق بأهداب الماضى!
- فى رجوعى إلى مصر وجدت أشياء أشعر أنها حواجز أساسية لاتساعد على النهضة العلمية.
- مساندة الرئيس مبارك، وإيمانى العميق بقدرات الفرد المصرى، يدفعاننى إلى مزيد من الحماس!
- إضاعة الوقت بسبب عدم دقة المواعيد يمكن أن يتسبب فيها مكوجى، وليسَ رجل أعمال!
- تبرعات بعض الخليجيين جاءت تقديرا لمكانة مصر ودورها، قبل أن تكون لغرض علمى أو تقنى!

- حتى يتم توجيه القاعدة التكنولوجية يجب أن نعرف ماذا تريد مصر؛ هل تريد الطاقة الشمسية، أو المياه، أو علوم الكومبيوتر، أو تعمير توشكى!
- أطمح فى جمع بليون دولار للجامعة فى فترة وجيزة جداً!
- حين أنزل إلى مصر لا أرى أمى.. بل نذرت كل لحظة لإنجاز مشروع الجامعة!
- المعايير وسيادتها.. هى التى ستحدد من الذى سيركب سفينة نوح فى مواجهة الطوفان العلمى!
- لكى تتبرع الشركات الأجنبية للجامعة يجب أن تفيدها هذه الجامعة!
- كل رجال الأعمال كلمونى عن أهمية العلم، ولكن المهم هو مساندة العلم!

«بكل تحديد، فإن لقائى الأخير مع الرئيس مبارك قد دشن مرحلة جديدة فى إنشاء جامعة مصر للتكنولوچيا».

هكذا استفتح د. أحمد زويل حواره معى الذى جرى فى فندق وسترن بجورج تاون بالعاصمة الأمريكية، قبيل حضوره حفل الاستقبال الكبير الذى أقامه له السفير نبيل فهمى فى دار السفارة المصرية، ليشهد تسلمه براءة الوسام الذى منحته الحكومة اللبنانية له.

ويشرح الدكتور زويل ما يمثله لقاء الرئيس الأخير، فيقول: «كنت قد قمت بجولة فى دول الخليج، ونقلت للرئيس - وهو كبير رعاة الجامعة - مالمسته من نبض الناس، وآفاق حصول مشروع الجامعة على مساندة مادية ومعنوية كبيرة من العرب الذين يرون فى نهضة مصر نهضة لهم».

وأضاف: «إن موضوع الجامعة كله كان بتكليف من الرئيس. ومن هنا أشعر بالتزام شخصى إزاءه، لأطلع سيادته على كل تطور يحدث لنحدد أين نحن، وما هى الحواجز أو العوائق التى تواجهنا».

وقال: «إننا أنجزنا الهيكل العلمى للجامعة، ومازلنا ننتظر الانتهاء من قانون إنشائها وبعدها نفتح الباب للتمويل، ولقد دعا الرئيس - مشكورا - إلى لقاء حضرته مع رجال الأعمال، لتحديد دورهم فى المشروع. أما القانون فهو فى طور الإعداد ونتابعه مادة بمادة».

وأفصح د. زويل - للمرة الأولى - أن هناك دولا عربية (لبنان ودولة خليجية) عبرت له مباشرة عن أنها كانت تتمنى استضافة المشروع واحتضانه. وفى حواره تحدث عن معنى سيادة المعايير فى خلق ما يسمى بمراكز التفوق والتميز العلمى،

كما ناقش موضوع طبيعة العلاقة العلمية ـ الإقليمية مع بلد مثل إسرائيل، ومواصفات القاعدة العلمية التى يسعى لتأسيسها، والمجالات التى يركز عليها الآن جهده العلمى . . وفيما يلى نص الحوار:

● **البحث الذى قمت به عن (الفمتو / ثانية) بدأ ـ فى الواقع ـ قبل عشر سنوات من حصولك على نوبل، وهو القائم على اختراع كاميرا تصور تفاعل أجزاء من الذرة فى هذا الزمن الجديد، مستشرفا آثارا جديدة للعلم.. بعبارة أخرى تم البحث فى الثمانينيات، فهل تواصل ـ الآن ـ مسيرتك البحثية والعلمية فى موضوع جديد، أم أنك انصرفت عن المعمل لتتحرك وراء إنشاء جامعة جديدة للتكنولوچيا، وهى التى وضع رئيس الوزراء معك حجر الأساس لها؟**

○ تحركى يشمل الأمرين فى الحقيقة، فقد كنت سعيد الحظ أن أحصل على جائزة نوبل وأنا فى سن صغيرة، وهذا يعنى أن طريقا طويلا مازال أمامى فى المجال العلمى.

أنت تحاورنى الآن فى واشنطن، حيث جئت مع أحد أفراد مجموعتى، للتحضير لكتابة ورقة بحثية، سوف أرسلها بعد انتهاء مهمتى هنا إلى مجلة (ساينس) Science magazine، وهذه الورقة تستكشف مجالات جديدة لبحوث مجموعتى، فنحن الآن ندخل فى علوم جديدة متعلقة بالطب وبالاكتشافات الجديدة المتعلقة بالچينوم، التى تعد بمثابة ثورة بيولوچية جديدة.

وبما أننا لدينا القدرة (الفمتوسكندية) أو قدرة الزمن الجديد فيمتو/ثانية، فإن ذلك يفتح آفاقا عظيمة أمامنا، لمتابعة تطورات تحدث على مستوى الذرة والجزىء، ويمكن أن يكون لها نتائج باهرة.

● **هل يمكن أن نوضح ـ أكثر ـ كيف سيكون لهذا أثر فى البحوث الطبية؟**

○ افترض أنك تجلس على شاطئ البحر، وأخذت جرعة من الشمس كبيرة، هذه الجرعة ـ فى الواقع ـ ستقوم بتفكيك المادة الچينية، التى يسمونها فى تحاليل (D.N.P) أنزيم، فيقوم جزىء ثان بإصلاح هذا التفكيك الذى حدث ـ تلقائيا ـ فى الخلية، ولو لم يصلحه يصاب الجسم بالسرطان.

الموضوع يتعلق ـ إذن ـ بالكيفية التى تعمل بها الچينات فى التركيبة الچينية، وتأثير ذلك على عدد من الأمراض، ومن ثم فإن المزاوجة بين عدة علوم معا فى مثل هذه البحوث، سيؤدى ـ بالقطع ـ إلى وصول الإنسان إلى حلول لمعضلات طبية عويصة، كاد الجنس البشرى ينظر إليها باعتبارها مستحيلة!

وبحوث الزمن الجديد (الفيمتو / ثانية) فى مثل هذه المجالات، ستكون مؤثرة جدا، فى تتبع التطورات مذهلة السرعة التى تحدث فى الخلايا، ومن ثم إمكان تشخيص بعض هذه التطورات والتعامل معها.

هذا هو المجال الذى أستشرفه ـ الآن ـ بمشاركة مجموعتى البحثية.

العلم لن يقف ـ يادكتور عمرو ـ فهو الركيزة الأساسية لوجودى ومكانتى، وهو الذى يمنحنى السعادة، وإذا توقفت عنه فسوف يكون ذلك لأسباب كبيرة جدا.. جدا!

أما عن الأمر الثانى الذى تسأل عنه، أى مشروع الجامعة، فقد تحركت فيه بمنطق أننى قدمت من منطقة الشرق الأوسط، وأننى ينبغى أن أساعد منطقتى وبلدى مصر، من خلال الوضعية والإمكانية التى يوفرها لى حصولى على نوبل، أو ما بلغت فى مجال البحوث والعلم.

من هنا ـ بالضبط ـ جاء مشروع الجامعة.

ومؤخرا قمت برحلات كبيرة للعالم العربى، وحاولت فيها توضيح معنى وجود (قاعدة علمية) فى مصر والعالم العربى، وضرورة تشجيع الشباب وبنائهم علميا، بشكل يؤدى إلى استفادة بلدنا منهم.

شرق أوسطية !

- أتابع جولاتك، التى ذكرتها ـ حالا ـ فى بلاد الخليج، والتى تكلمت فيها عن العلم، والإسهام فى الجامعة الجديدة.. كما تابعت ذلك التداخل الحساس جدا، الذى حدث بين (مربع السياسة) و (مربع العلم) فى موضوع زياراتك لإسرائيل.. فى تصورك هل يمكن أن تنشأ الشرق أوسطية، بمعنى التعاون الإقليمى، بدون إسرائيل (يعنى بالمال الخليجى والبشر المصريين)؟ وهل من الممكن أن يحدث ذلك فى المجال العلمى، الذى يدعى فيه البعض أن إسرائيل هى نمرة واحد فى الفيزياء فى العالم؟.. دعنا نصيغها صياغة أخرى ـ يا دكتور زويل ـ هل سينشأ حوار علمى مع إسرائيل بعد التسوية، بحيث يمكن أن تشارك دول المنطقة فى بناء المستقبل، أم أن منطق التحدى والصراع هو المرشح أن يسود؟

○ هذا سؤال يركز على نقطة مهمة جدا، فيما يخص الشرق الأوسط.

وأود ـ بداية ـ أن أؤكد أن السياسة لها دور، والعلم له دور آخر.

وبعد ذلك نقول إن تقدم إسرائيل العلمى، وبالمستوى العالمى، يرجع إلى القاعدة العلمية التى بنتها إسرائيل، والتى تضافرت فيها أسباب كثيرة جدا. فقد هاجر لهذه الدولة علماء من الغرب ويهود تلقوا تعليمهم فى أرقى المؤسسات التعليمية الأوروبية، وبالإضافة إلى مساعدات مادية وتكنولوچية من الولايات المتحدة الأمريكية، مساعدات أخرى من أوروبا.

العنصر الأساسى، الذى يضع إسرائيل ـ اليوم ـ على الخريطة العالمية، ويجعل منها القوة التقنية والعلمية الأولى فى منطقة الشرق الأوسط، هو وجود هذه القاعدة العلمية لديها.

نحن مرشحون فى مصر ـ بقوة ـ لأن تتوافر لدينا هذه القاعدة العلمية، فنحن

أصحاب قوة إنسانية كبيرة (فى عالمنا العربى)، والموضوع ليس شعارات، وتغنيا بحضارة السبعة آلاف عام فحسب، ولكنه تاريخ.. تاريخ حقيقى!

نحن لا نتكلم عن دول تذهب وتجىء، وتمر بمراحل ازدهار وسقوط، ولكننا نتكلم عن شعوب أسست حضارات.

الحضارة المصرية لا يمكن أن تختفى إلا إذا أراد الله فناء كل المنطقة مثلا!!

ولكن عدم وجود قاعدة علمية عربية، رغم كل هذه الإرث الحضارى، يكرس وجود (فجوة) بيننا وبين إسرائيل، التى - كما قلت - تتوافر لديها هذه القاعدة.

إسرائيل متقدمة علميا جدا وتدعى كما يدعى بعض أنصارها، أنها ستستطيع السيطرة علميا على المنطقة.

وليس فقط أنصارها الذين يرون ذلك، ولكن - للأسف - بعض الذين يقودون الساحة العلمية فى العالم العربى يخافون من دور إسرائيل، فيقرون - ضمنيا - بتفوقها الكاسح، بل وباستمراره!!

وأؤكد - لك - أن أكبر العوامل التى ستؤدى إلى سلام عادل وقوى فى الشرق الأوسط، أن يرتفع مستوى القاعدة العلمية فى مصر والعالم العربى، إلى مستوى لائق، لأن هذه القاعدة لو ارتفع مستواها سيكون هناك تكافؤ إقليمى، بحيث نتكلم بنفس الروح وبنفس المنطق.

انظر إلى حالة (الولايات المتحدة الأمريكية/ اليابان) وكيف أن اليابان خرجت مدمرة من الحرب العالمية الثانية، ولكن بوجود قاعدة علمية لديها، وبتطوير هذه القاعدة وتطوير استخدامها، أجبر اليابانيون أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية على احترام بلدهم!

وبنفس المعايير والمقاييس تقريبا، انظر إلى حالة ألمانيا، ستجد أن القاعدة العلمية لدى هذا البلد، هى التى أعادت تكييفه ووضعه فى مكانته دوليا وعالميا.

ليس أمامنا سوى بناء هذه القاعدة العلمية فى العالم العربى.

أما بالنسبة للشرق أوسطية، وهذا (الكلام الكبير) فإن ما أفهمه فيها، هو الجوهر أو المضمون، أى الوصول إلى التكافؤ العلمى، كشرط أساسى لبناء سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط، فما لا يؤدى إلى تعاون لا يؤدى إلى سلام، وشرط التعاون الأول هو (التكافؤ)، وإلا انقلب إلى هيمنة وسيطرة!

التكافؤ يلغى الخوف..

فعندما أجىء إلى شخص - فجأة - وأقول له: أنت مصاب بالسرطان.

لو لم يكن هذا الشخص يعلم شىء عن معنى السرطان أو المدى الذى وصلت إليه بحوثه وجهود علاجه، فسيصاب بالرعب والخوف. أما حين يسمح بناؤه المعرفى بفهم وإدراك طبيعة الشىء الذى أصيب به، وأن له علاجا ممكنا، فإن ذلك يزرع فى نفسه الأمل والثقة ويلغى الخوف المبالغ فيه من نفسه.

الإنسان عدو ما يجهله.

وبهذا المعنى فإن التكافؤ العلمى مهم جدا لمنطقة الشرق الأوسط.

خبرة!

● دكتور زويل.. أصبح لديك الآن - وأرجو ألا تضحك - ما يمكن تسميته بالخبرة المصرية، ما الذى زودتك به هذه الخبرة، فى موضوع إنشاء جامعة مصر للتكنولوچيا.. وأرجو أن تحدثنى - فى هذا - بصراحة؟

○ (يضحك) تعبير: (الخبرة المصرية) - هذا - أعجبنى جدا، حتى عندما ذكرته لى على التليفون أمس، ولكن دعنى أطيل عليك قليلا فى إجابتى، حتى أعطيك خلفية لما يجرى الآن.

لقد تركت البلد وأنا فى سن ٢١ عاما (من ٣١ عاما)، أى فى مرحلة الشباب المتحمس الذى لا تهمه العواقب أو الحواجز.

كانت هناك بيروقراطية وبعض السلبيات، استطعت وقتها أن أواجه بعضها، وأن أخرج إلى العلم والبحث فى آفاق دولية جديدة.

وفى رجوعى إلى مصر، فى السنوات العشر الأخيرة، وما صحبه من تشجيع من الرئيس مبارك، وتشجيع الناس فى كل مكان، فضلا عن إيمانى بالفرد المصرى العادى، وإحساسى بأننا ـ جميعا ـ نريد أن نصنع شيئا للبلد، كل هذا أعطانى ثقة فى القدرة على الحركة، وفى أن تزداد حماستى، التى هى جزء أساسى من شخصيتى.

ولكن لا أخفى عليك.. فإننى ـ فى رجوعى إلى مصر بعد كل هذه المدة الطويلة ـ أجد أشياء، أشعر أنها حواجز أساسية، لا تساعد على النهضة العلمية الكبيرة التى أحلم بها.

السيد رئيس الجمهورية، متحمس جدا، لقفزة علمية وتكنولوچية، وهو يتابع ـ شخصيا ـ كل تطورات مشروع الجامعة، ولكن حين أجىء إلى الناحية التنفيذية، فإن إعداد قانون، أو صدور قرار من أحد المسئولين التنفيذيين، يأخذ وقتا طويلا جدا.

أنا لم أتعود على هذه الطريقة فى الولايات المتحدة أو غيرها.

أنا عضو فى عدد كبير من مجالس أمناء، مؤسسات علمية دولية كبيرة، أحدها ـ مثلا ـ مؤسسة (ماكس بلاين) الألمانية، وهى أكبر مؤسسة علمية هناك، وعندما أصل إلى ألمانيا لإنجاز مهمة فى إطار عضويتى لمجلس أمناء هذه المؤسسة، أشعر أنهم ـ بالفعل ـ يريدون الاستفادة من كل ثانية من وقتى، وكل شىء يسير بسرعة، ونحن نتكلم عن مؤسسة قدمت كل العلماء الألمان تقريبا الذين حصلوا على جائزة نوبل.

إنجاز الأفكار وتحويلها واقعا على الأرض (بطريقة سريعة، تكاد تكون ظاهرة)، هو السمة الأساسية لهذه المؤسسة الألمانية، وهذا مختلف ـ بالقطع ـ عما صادفته على المستويات الثانية والثالثة والرابعة من المسئولين التنفيذيين فى مصر.

وهناك نقطة أخرى، ينبغى الحديث عنها ـ فى هذا الإطار ـ وهى ما يسمى مستويات الدقة Accuracy، وما تعودت عليه بشأنها فى الغرب، والذى يختلف اختلافا ـ حقيقيا ـ عن الصورة الموجودة عندنا الآن.

فقد كان موعدى معك ـ مثلا ـ فى الرابعة والنصف، وجئت فوجدتنى جاهزا، بالدقيقة والثانية، لأن هذا يؤدى إلى Product أو مُنتَج.

وعندما أذهب إلى مصر، أفعل ذلك متخلصا من التزامات جدول شخصى، هو ـ بطبيعته ـ مزدحم جدا، وقبل أن أذهب، أرسل فاكسات، وأحدد مواعيد مع رجال أعمال ومسئولين وناس مهمين، ولكننى لا أجد هذه الدقة ـ حتى فى أبسط الأمور كالمواعيد ـ بشكل لا يؤدى إلى إنتاج!

حتى حينما نتناقش، أجد أننا نتكلم ـ كثيرا جدا ـ لنصل إلى نتيجة بسيطة للغاية.

● كم يصل حجم الكلام الذى تكلمته ـ فى هذا السياق ـ قياسا بحجم ما حققته من نتائج؟!!

○ (يضحك) لقد تكلمت كثيرا جدا والله.

واستهلك الكلام حجما هائلا من الوقت، وأنا مدرك أن لا أحد يقصد إضاعة الوقت، وبالعكس، فأنا ألقى تكريما كبيرا حين أجىء إلى مصر، والدنيا تنقلب اهتماما وتقديرا، ولكن عدم الدقة Inaccuracy يضيع فرصنا لتحقيق شىء، ودعنى أقولها لك بالإنجليزية أننا لو استمرينا بمعدلات عدم الدقة هذه:
"We Can't build a fundamental base".

أى: «سوف لا نكون قادرين على بناء قاعدة أساسية بهذه الطريقة».

يعمل معى منذ حصولى على نوبل، فى مكتبى بالجامعة أربعة أفراد سكرتارية، كيما أستطيع إنجاز عملى الإدارى، وإعداد الخطابات والردود إلى عديد من الجهات، وفيما يخص الجامعة فإن هذا الفريق يخصص جزءا من وقته

لإعداد فاكسات لبعض الجهات أو الأفراد فى مصر، أو لإعداد النشرة الخاصة بالجامعة، المتضمنة مجموعة من العناصر الرئيسية، توضح دورها، تشكيل مجلس أمنائها، ولا أتصور أن جهدهم أو جهدى يهدر بسبب عدم الدقة، أو بسبب الإندماج فى حالة كلام لا تنتهى!

● هل تعتقد أن بعض ما ذكرت أنك تواجهه هو وليد البيروقراطية العادية، أم أنه وليد بعض عدم اليقين إزاء مشروعك؟

○ طبعا البيروقراطية العادية هى السبب الأساسى، لأن هناك عدد كبير جدا من الناس لأداء المهمة الواحدة، وكل منهم يعتمد على الآخر، ولا يوجد مبدأ الوكالة Delegation الذى يعنى توزيع المهام، ثم قيام المسئول بالمتابعة فقط.

ثم من جهة أخرى، فإن مسألة عدم الدقة - هذه - أصبحت - للأسف الشديد - جزءا من الثقافة المصرية، ومن الحياة المصرية.

فى عالم (الفيمتو / ثانية) لم يعد مقبولا أن يتأخر عليك أحد ليتعلل بالظروف، أو بالمواصلات، إذ مهما كانت الضغوط لابد أن يعمل أى إنسان حسابه ليصل فى موعده، ويعمل فى موعده أيضا.

إضاعة الوقت بسبب عدم دقة المواعيد، يمكن أن يتسبب فيها مكوجى يقول لك: «بكره إن شاء الله»، أما أن يتسبب فيها رجل أعمال فهذا غير متصور، وغير معقول.

الدقة هى أول شروط إقامة القاعدة العلمية الصحيحة.

مستقلة!

● تصرف الجامعات المصرية - شهريا - ثلاثة إلى أربعة مليون دولار رواتبا لحوالى ٢٥٠٠ مبعوث فى الخارج، ولدينا جامعات خاصة + جامعات أمريكية + جامعة سنجور + جامعة فرنسية + جامعة بريطانية..

لماذا لم تدخل جامعتك تحت أية لافتة من هذه؟ ولماذا كان محتما أن تنشأ هذه الجامعة مستقلة ذات سيادة؟

○ هذا موضوع مهم..

الولايات المتحدة الأمريكية - مثلا - فيها أكثر من ٢٠٠٠ جامعة، وجامعات لعمرك لم تسمع عنها، ولا أنا - عمرى - سمعت عنها.

ولكن الذى يضع أمريكا على الخريطة العلمية الدولية، عدد يعد على أصابع اليد من الجامعات، ويشمل: كالتاك، ستانفورد، ميتى، هارفارد، بيركلى.

هذا لا يعنى - أبدا - أن الجامعات الأخرى - التى ذكرتها فى مصر - لا تؤدى وظيفتها التعليمية بشكل جيد، ولكنه يعنى أن هناك وظيفة أخرى لها.

فهناك جامعات للأغراض التعليمية فقط For Educational purposes، وهى مخصصة لجمهور الطلاب (masses)، وهذه الجامعات تؤدى وظيفتها بشكل هائل، وتخرّج القوة الرئيسية التى تدير المجتمع، وهناك جامعات - أخرى - نتيجة تعاونات دولية، وهناك جامعات أهلية أقامها البعض بهدف الربح (ناس يضعون ملايين الدولارات لتعود إليهم بمئات الملايين من الدولارات).

ولكن ما أتحدث عنه فى (جامعة مصر للتكنولوچيا) هو شىء آخر.

نحن نحاول أن نبنى شيئا بمستوى راق جدا لمصر وللعالم العربى، ويختلف اختلافا بينا عن كل أنواع الجامعات التى ذكرت.

أولا يجب أن يكون حجمها صغيرا، إذ لاتوجد مؤسسة علمية أو تعليمية يمكنها أن تؤدى جميع الوظائف، وتحقق جميع الأغراض، وبالتالى فهناك ضرورة لأن تكون الجامعة مركزة على موضوعات بعينها، وبالتالى سيكون حجمها صغيرا، وهدفها واضح وتعرف إلى أين تريد مصر أن تذهب فى الخمسين سنة المقبلة، ومن ثم توجه القاعدة التكنولوچية لتخدم هذا الذى تريد مصر أن تصل إليه.

يجب أن نسأل أنفسنا: هل تريد مصر أن تركز فى الطاقة الشمسية، أو فى تعمير توشكى، أو فى المياه، أو فى الميكرو إليكترونيات، أو فى علوم الكومبيوتر؟

هذه أسئلة تحدد توجهات قومية إستراتيچية، كما تحدد منهج التعامل معها، أو التخديم عليها.

ومن ثم، فإن الذى يتعامل معها، ومع إجابتها لابد أن يكون هيكلا، أو كيانا فاهما، ولديه الإحساس العالمى أو الدولى، سواء من داخل مصر أو خارج مصر، ليتفاعل جميع أعضائه مع بعضهم البعض، ويدرسوا واقع مصر واحتياجاتها، ويراقبون كيف يسير نظام الجامعة كل سنة أو كل ستة أشهر.

وإلى جوار هذا، فإن الجامعة ـ ثانيا ـ يجب أن تكون مؤسسة لا تهدف إلى الربحية، فلو قام أحمد زويل اليوم بالذهاب إلى مصر، وأعلن أنه يريد إقامة جامعة خاصة، فسوف يصبح مليونيرا، وسوف يجىء الطلاب من أمريكا ليدرسوا فيها، وسيكون لها اسم شديد الدوى.

ولكن هذا ليس الهدف أبدا، فهناك فارق، بين الحصول على المال كهدف لأصحاب الجامعة، وبين ضخ المال فى الجامعة ليولد مزيدا من المال يعود إلى الجامعة مرة أخرى فى دائرة لا ربحية، هدفها القومى الأساسى هو الرقى بالبحث العلمى.

هل هناك جامعة أهلية فى مصر، يمكن أن تخصص مائة مليون دولار من أجل البحث العلمى؟

بالطبع لا، لأن الأولوية الأولى لمثل هذا النوع من الجامعات، هو تعليم الطلبة مقابل مصاريف، تمثل أرباحا لها.

أما إذا نظرت لجامعة مثل جامعة القاهرة، أو جامعة الإسكندرية، وفى كل منها ١٢٠ ألف ـ ١٣٠ ألف طالب، وفيها عدد أعضاء هيئة تدريس فى قسم

واحد، يعادل عدد أعضاء هيئة التدريس فى جامعة «كالتك» التى أدرس فيها هنا، فهل يمكن تخصيص أموال لتحقيق ناتج علمى بحثى بالمستوى الذى نريده، على هذه الأعداد الضخمة جدا من الطلبة والأساتذة؟!

هذه بعض النقاط ذات الطابع العلمى، والتى تؤكد اختلاف الجامعة التى نقيمها عن غيرها من الجامعات الموجودة، وبالتالى عدم إمكانية دخولنا تحت لافتة أحدها.

أما من الناحية الإدارية، فهناك قانون معروف جدا فى الإدارة، يقول إنك إذا تبنيت نظاما قديما، فإنك يمكن أن تنفق حياتك كلها فى محاولة إصلاحة، أو بنائه، ولذلك فقد كان الاختيار الصحيح هو أن تبدأ من البداية، لبناء مؤسسة جديدة، لها بنيتها التحتية العلمية والإدارية الجديدة، ومجلس أمنائها الذى يضم ٦ علماء دوليين حاصلين على جائزة نوبل، ولها أسلوب إدارى مختلف، وهى قادرة على خلق آلية لتلقى المنح، وتوظيفها ـ بالكامل ـ لفرض البحث العلمى.

المثلث!

● **حدثتنى عن الجانب الإدارى.. هل من يملك القدرات العلمية يمكن أن يكون إداريا ناجحا؟ وما هى الحدود التى تتصورها لاختصاصك ولاختصاص مجلس الأمناء المكون من شخصيات عالمية، فى إدارة هذه الجامعة؟ وما هو مدى صحة الأرقام بعشرات الملايين من الدولارات التى نقل عنك أنها ستكون متوافرة بمجرد العمل فى إنشاء هذه الجامعة؟**

○ أنا لا أفهم كثيرا فى البيزنيس، ربما أعرف بعض الأشياء عن البورصات، وما هى الأسعار التى ارتفعت، أو الأسعار التى هبطت.

ولكن هذا ليس كل شىء فى الإدارة أو البيزنيس.

سوف يكون لهذه الجوانب متخصصون يديرون أمورها فى الجامعة.

أهمية مجلس الأمناء أنه هيكل قيادى للجامعة، وسيتكون ـ كما قلنا ـ من علماء فى الطب والاقتصاد والإدارة، ومثقفين، وأدباء من مصر ومن خارج مصر، لدراسة تأثير كل توجه، وكل قرار فى الجامعة على المجتمع المصرى والعالم العربى.

هذا الهيكل القيادى يرسم الخطط بشكل عام جدا.

ولكن من الناحية الإدارية البحتة، فلابد من وجود مسئولين يباشرون عمل الجامعة بشكل يومى وينضمون إلى مجلس تنفيذى، هو الذى يقدم تقريرا لمجلس الأمناء كل سنة أو كل ستة أشهر عن مسير العمل فى المؤسسة العلمية.

مجلس الأمناء هو (عقل) الجامعة.

فإذا كانت هناك فكرة لإنشاء مستشفى لبحوث العلوم الطبية، يبحث هذا مجلس الأمناء، ويحدد التكلفة التى يمكن أن يصل إليها مشروع كهذا، ولتكن ـ مثلا ـ مائة مليون دولار، ولكن أنت قد لا تتحمل هذا المبلغ، وإنما تتحمل عشرين مليونا فقط، وبالتالى ستنخفض رتبة هذا المستشفى على الخريطة الدولية، ومن ثم يقرر مجلس الأمناء أننا لن نمضى فى مثل هذا المشروع.

مجلس الأمناء يبحث الجدوى العلمية، ويحافظ على المعايير الدولية.

عندنا فى جامعة كالتك، رئيس مجلس الأمناء، هو رئيس مجلس إدارة شركة Intel للكومبيوتر، وأعضاؤه هم هارولد براون وماكنمارا وآخرون، وهؤلاء ـ أو من على مستواهم وشاكلتهم ـ يجلسون إلى بعضهم البعض ليومين فى السنة مثلا، لتقرير بعض الخطوط العريضة، وبعد ذلك يتولى الجانب التنفيذى موظفون من نوعية أخرى تماما.

. . . .

أما فيما يخص أرقام التبرعات ـ التى ذكرتها فى سؤالك ـ فمنذ أن وضعنا حجر الأساس فى أول أيام الألفية الجديدة (وهو يوم قصدت به بداية تاريخ جديد)، وأنا أسافر لمصر مرات عديدة.

إذا إن هناك مثلث لابد أن يكتمل قبل أن أقول للناس تبرعوا.

هناك من هم مستعدون للتبرع من غد، ولكننى لن أستطيع قبول هذا، إلا إذا كنت أشعر أن هذا المثلث اكتملت أضلاعه.

أول الأضلاع هو الهيكل العلمى للمدينة أو الجامعة، وقد اكتمل هذا الهيكل، وقد جلست مع مجلس الأمناء ووضعنا تصورا كاملا له، وزرت العالم العربى للتعرف على بعض الأبعاد التى يجب مراعاتها عند استكماله، وتفضل الرئيس مبارك فقبل أن يكون كبير الرعاة فى هذه الجامعة، على حين سيكون هناك بعض الرعاة من العالم العربى.

مجلس الأمناء أصبح يضم عددا محترما جدا من الشخصيات ذات الوزن الدولى، سواء كانوا من حملة نوبل، أو العلماء البارزين فى جامعات أمريكا وألمانيا.

التصور العلمى اكتمل وبالتالى انتهينا من الضلع الأول للمثلث.

أما الضلع الثانى، فهو ضرورة وجود قانون واضح بالنسبة لهذه الجامعة، يوضح طبيعتها كمنظمة لا تهدف إلى الربح، ولا تتبع الجهات الحكومية، ومازلنا نعمل فى مشروع القانون مع المسئولين.

● **أى مسئولين؟**

○ لقد أصدر الرئيس مبارك توجيهات إلى رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء المعنيين مثل الدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالى والبحث العلمى، لإنجاز القانون المنظم لعمل هذه الجامعة، وهو أمر معروف فى كل الجامعات الدولية، إذ إن كالتك ـ التى أعمل بها فى أمريكا ـ لها قانون يحدد طبيعتها كمنظمة غير حكومية، ولا تهدف إلى الربحية.

ثم نأتى بعد ذلك للضلع الثالث، وهو الخاص بالناحية المادية، وهى صعبة، لأن الحكومة لن تعطيك مالا وأنت منظمة غير حكومية، لقد أعطتنا ـ فقط ـ قطعة أرض جميلة جدا تبلغ ثلاثمائة فدان فى مدينة ٦ أكتوبر.

وهذا الجانب المادى نستطيع البدء فيه بمجرد انتهاء القانون.

وأن أطمع أن أصل بالأموال الممنوحة للجامعة إلى بليون دولار فى فترة وجيزة جدا.. ولقد وصلت إلى أسس هامة جدا لهذه الناحية من خلال زياراتى للعالم العربى، وقد أبدت إحدى الشخصيات رغبتها فى أن تتبرع وحدها، وفورا، بثلاثين مليون دولار.

● ما الذى أسفرت عنه زياراتك الأخيرة ـ بشكل محدد ـ فى إنجاز أضلاع هذا المثلث؟

○ أنا ـ بالطبع ـ أتحرك بكل قوتى لإنجاز شىء، وليس لدى ـ حتى ـ مكان للحركة فى مصر، ولكن سكرتاريتى ـ هنا ـ تنظم كل شىء لى، وبمجرد وصولى فى كل مرة، أبدأ فى الاتصال ببعض الشخصيات من خلال تليفون الفندق، وأنذر كل دقيقة من وقتى لهذا الغرض.

أنا ـ حتى ـ لا أرى أمى، أو أهلى، وإنما أنخرط فى اجتماعات ليل نهار مع رجال الأعمال، لشرح وجهة نظرى وتفاصيل المشروع، وأقابل المسئولين لتحريك الموضوع.

وكما قلت لك فقد حصلنا على الأرض، والرئيس والحكومة مقتنعون مائة فى المائة بما نفعله، وكذلك فقد بذلت مجهودا ضخما جدا فى إقناع الرأى العام المصرى ـ من خلال ندوات ومحاضرات ـ بأسباب قيامنا بهذا الجهد وبماهية مشروع الجامعة، وقد أنفقت فى هذا جهدا وطاقة رهيبين.. ثم ـ أخيرا ـ بدأت التحرك العربى فى الناحية المادية.

كلمة!

● موضوع القاعدة العلمية الذى شرحت وطرحت فى مصر، باعتباره أساسا لنهضة مصر الحديثة، هو موضوع ليس مرتبطا ـ من وجهة نظرى ـ بعقيدتك العلمية التى تبشر بها، كما أنه ليس

مرهونا بقرار إدارى أو سياسى فحسب، بل إنه يرتبط بحزمة من التخصصات والنشاطات فى مختلف المجالات تسهم فى تشكيله وإقراره، وتشمل كل نواحى الحياة.

فهل أنت تحتاج إلى أن يصبح لك كلمة فى كل نواحى الحياة فى مصر كيما تستطيع إنشاء القاعدة العلمية؟

○ (يضحك).

القاعدة العلمية منظومة كبيرة جدا، وهى ـ هنا ـ فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ـ تشمل ساحات كثيرة، فهى تشكل المؤسسات العلمية، ودور العلم الأساسى فيها، كما تشمل المجتمع الذى نعيش فيه.

فهناك دائرة يمكن تلخيصها فى الآتى: (العلم يؤدى إلى التقنية، والتقنية تؤدى إلى تغيير المجتمع الذى نعيش فيه، والمجتمع يقوم برجع الصدى أو التغذية المعادة لتبدأ الدائرة من أولها. . وهكذا).

الثقافة مبنية على القاعدة العلمية، والنهضة التكنولوچية مبنية على القاعدة العلمية، وسلوك الأفراد كذلك. . فجزء من القاعدة العلمية، هو انضباط الأفراد فى عملهم، وبالإضافة إلى ذلك الوعى الذى تخلقه وسائل الاتصال والإعلام الحديثة.

إذن القاعدة العلمية أكبر بكثير جدا من أن أدرس الليزر، أو أدرس هندسة وراثية، أو ميكرو إليكترونيك.

المجتمع المصرى واعى، وعنده حضارة ولو كان أحمد زويل (بيبكش) عليهم، فسوف يكشفوه فورا، مع أن الناس ليسوا ـ بالضرورة ـ عارفين لما يقوم به الدكتور زويل. . أضف إلى ذلك أن المصريين الآن معرضون ـ عبر أطباق الاستقبال ـ لكل ما يجرى فى العالم.

وبهذا المعنى، فإنك حين تحدث جمهورا مثل الجمهور المصرى، أو تسعى إلى

تشكيل قاعدة علمية على أرضه، لابد أن تقول أشياء صحيحة ولها أساس، وأن تعترف بأن عناصر متعددة تشاركك فى صناعة هذه القاعدة.

إقرار فكرة القاعدة العلمية فى بلد مثل مصر، على الخارطة العالمية، أشبه بسفينة نوح التى ستواجه الطوفان العلمى الذى يولده التقدم الإنسانى الرهيب.

لابد أن تكون هناك ناس تركب، وناس لا تركب!

هذه نظرية قديمة، وتستخدم ـ حتى ـ فى مجال السياسة لتقرير مصير الدول، وهناك مقالات فى فلسفة العلوم الإنسانية حول هذا الموضوع.

الطوفان العلمى، يعنى عولمة العلم!

إن العولمة قديمة قدم التاريخ، ولكنها اكتسبت أبعادا أكبر اليوم، لتقدم وسائل المواصلات والاتصالات.. أما ما أقصده بعولمة العلم، فهو إقرار وسيادة المعايير العالمية.

هذه المعايير ـ بالضبط ـ هى التى ستحدد من يركب، ومن لا يركب سفينة نوح.

والقاعدة العلمية الصحيحة هى التى تحدد مواصفات من يركب، ومن يهلك.

● كيف يمكنك التحكم فيما ذكرت من عناصر، وأنت فيها تتعامل مع النتائج، وليس المقدمات، بمعنى أن جامعتك ستتعامل مع نتائج وضع لم تشارك فى صناعته؟

○ هذه نقطة فهمتها الحضارة العلمية الغربية جيدا جدا، بل ونظرت وأسست لها أفكارا شديدة الإحكام.

فهناك ما يعرف باسم مراكز التفوق أو التميز Centers of excellences، وهذه المراكز تفشى أو تنشر روحا جديدة، ليس فقط على مستوى الخريطة العالمية ولكن على المجتمع، فهذه المراكز تكون بمثابة النموذج الكلاسيكى الذى يدفع المجتمع كمؤسسات وكأفراد إلى الاقتداء به.

بعبارة أخرى هذه المراكز تحض على تكاثر أشكال نظيرة.

انظر إلى الجامعة الأمريكية فى مصر.. ستجد أن كل الناس يودون إلحاق أبنائهم بها.

لم يكن هدفا لى ـ على أيامى ـ أن أدخل الجامعة الأمريكية، لأن الجامعات المصرية كانت أفضل. أما ـ اليوم ـ فقد أصبحت الجامعة الأمريكية مركز تفوق وتميز، يثق فيه الناس، ويتمثله ويحاكيه الآخرون.

صحيفة الأهرام ـ مثلا ـ هى أحد مراكز التفوق والتميز فى المجتمع يحاكيها الآخرون، ويثق فيها الناس.. وهكذا.

هذه ظاهرة موجودة فى كل المجتمعات (المعهد الهندى للتكنولوچيا) فى الهند، أو Ksit (المعهد الكورى للتكنولوچيا) فى كوريا، فكلها مراكز تفوق.

مراكز التفوق تطور المجتمع كله، وتجعل النتائج التى نتعامل معها فى الجامعة نماذج تعكس سيادة المعايير، يعنى ـ مرة أخرى ـ هى دائرة (مراكز التفوق ـ تؤدى إلى رفع مستوى المجتمع، ثم المجتمع يغذى مراكز التفوق بأفراد على مستوى معاييرها العالمية).

صرخة!

● **صرخة هذا العصر هى جهود المنظمات غير الحكومية، والشركات متعددة الجنسيات (وهو ما يظهر فى تقرير السكرتير العمومى للأمم المتحدة الذى صدر فى أبريل الماضى ليتحدث عن القرن ٢١).. هل لديك تصورا لإسهام مثل هذه المؤسسات فى مشروعك للجامعة؟**

○ مساهمة قطاع رجال الأعمال فى مصر لبناء القاعدة العلمية مهمة جدا.

هذه القاعدة مسألة حيوية لمصر وللبلاد العربية كلها.

لقد تعودنا على شراء التكنولوچيا، سواء كانت ماكينات أو حتى خبراء للصيانة والإصلاح.

هذا يسمى نقل تكنولوچيا (شراء راديو أو سيارة). أما ما أنادى به لخلق مراكز التفوق والتميز، فهو لخلق تفاعل مع القطاع الصناعى المصرى، بحيث يقوم رجال الصناعة الذين يستقدمون خبيرا واحدا بخمسة آلاف دولار فى الشهر، بدفع مائة ألف أو مائتى ألف دولار لهذه الجامعة، التى يعرف أن خريجيها سيخدمون صناعته ومشاريعه.

هذا هو التفاعل الصحيح.

ما ينقصنا هو الرابطة الأساسية بين القاعدة العلمية الأساسية، ودور الصناعة.

رجل الأعمال عندنا يتبرع للغلابة والمساكين، لأنه مؤمن بأن ذلك سيساعده فى الآخرة، ولكنه لا يتبرع لمشروعات العلم، متصورا أن ذلك لن يساعده فى الآخرة!!

الترابط ضرورى بين العلم والصناعة، بحيث يعطى كل منهما الآخر.

أما ما تحدثنى عنه بشأن الشركات الأجنبية أو متعددة الجنسيات، فهو مرتبط بفكرة أساسية، سأشرحها لك على عجالة.

إسرائيل تعرف مطالب الشركات الدولية والعلوم أو المجالات التى تحتاج إسهاما إبداعيا علميا فيها، وبالتالى توجه قاعدتها العلمية أو خطة بحثها العلمى إلى هذه الوجهة، ثم تطلب من هذه الشركات أن تسهم فى تمويل البحوث.

من أجل هذا فإن Intel وهى الشركة الأهم فى مجال الكمبيوتر لها فرع الآن فى إسرائيل، وغيرها عشرات من الشركات فى مجال الميكروأليكترونيكس والعلوم الحديثة.

ومن هنا، فإن هذه الظاهرة يمكن أن تحدث فى مصر، كما تحدث عند المنافس الإقليمى، إذا ما خاطبنا احتياجات الشركات الدولية والصناعة الدولية!!

أول مـــرة:

● كانت أول مرة سمعت فيها باسمك يا دكتور زويل عام ١٩٩٣، عندما قام الأستاذ الكبير لطفى الخولى - رحمه الله - فى لقاء الرئيس مبارك بالمثقفين فى معرض الكتاب، ونادى بالاستعانة بعلمائنا العباقرة فى الخارج، مثلك، وشرح إنجازك العلمى وكان ذلك - طبعا - قبل نوبل، ويومها قامت وزيرة البحث العلمى فينيس كامل جودة لتقول إن لدينا علماء آخرين يشتغلون فى نفس هذا المجال.. فهل هناك علماء مصريون آخرون يشتغلون فى نفس المجال بالفعل؟ وما الدرجة التى بلغوها، إذا كان ذلك صحيحا؟

○ دعنى أكون معك فى منتهى الصراحة!

هل يمكن أن يتصور أحد أنه لا يوجد فى مصر ناس متميزون مثل أحمد زويل؟

بالطبع لا . . وإلا فمن أين أتيت أنا؟ . . لقد أتيت من مصر.

وهذا ليس - فقط - فى العلم، ولكنه فى السياسة وفى الصحافة، وفى الاقتصاد والطب.

ولكننا فى تقييمنا للأشياء يسود تفكيرنا نوع من الخلط.

فهل جامعة مثال كالتك، أو إم. آى. تى هما مثل جامعة نورث تكساس سيتى؟!! بالطبع لا.

إن العلماء فى العالم يقيّمونَ بمعايير.

على الأقل هناك معيار (قبل نوبل وبعد نوبل) إذا أذنتم!

وقبل نوبل، هل كنت عضوا فى الأكاديمية الأمريكية للعلوم، وهل توصلت إلى اكتشافات أم لا.

لا يجوز أن ننظر إلى كل حامل دكتوراه بوصفه عالم، فهذا مفهوم خاطئ جدا.

ولا يجوز أن نعتبر أى شخص عالم، لمجرد أنه نشر بحثا أو اثنين.

العلماء يقيّمون بما أسميته - فى هذا الحوار - المعايير الدولية.

وإذا لم يكن هناك بحث علمى على المستوى العالمى، وإذا لم تكن هناك اكتشافات، فلا أستطيع أن أقارن بين حامل نوبل وغيره، لأن هذا وصل واكتشف أشياء، والثانى وصل واكتشف أشياء أخرى تماما!!

أنا آسف للاستطراد ذى الطبيعة الشخصية ومضطر إلى الاستمرار فيه.

فليس كل من تعلم فى أمريكا أصبح عالما، نصفه فى برامج الإذاعة والتليفزيون بأنه (العالم الذى رفع رأس مصر عاليا فى الخارج)، لأننى - أحيانا - ما أسأل عن بعض هذه الأسماء فى الولايات المتحدة فلا أجد من يعرفها أبدا.

ياريت، يكون لدينا أربعة أو خمسة علماء لهم هذا المستوى من معرفة العالم بهم، والذين تعد أعمالهم مرجعية للآخرين، ولديهم الرؤية العالمية، وليس من الضرورى - أبدا - أن يكونوا من حملة نوبل.

أكرر . . هناك معايير!

فى الولايات المتحدة الأمريكية، التى تقود البحث العلمى فى الدنيا، عندما ينتخب أحد أعضاء هيئة التدريس فى جامعة ما، ليصبح عضوا فى الأكاديمية الأمريكية للعلوم، فإن ذلك يعتبر فخرا كبيرا، وجديرا بالاحتفال.

عادة ما يكون فى أى جامعة أمريكية واحد أو اثنين من هؤلاء. أما فى كالتاك التى أدرس بها فلديهم عدد أكبر، ومع ذلك يحتفلون لأن أحد علمائهم أصبح - تاريخيا - عضو أكاديمية العلوم.

لعل فى هذا إجابة على سؤالك، كما لعل فيه إجابة على التساؤلات التى ثارت فى مصر حينما كتب صحفى: (مولد سيدى زويل. . وأشار إلى أن الناس

احتفلوا بى أزيد من اللازم) أو حين كتب كاتب كبير (عندما حصلت على جائزة بنيامين فرانكلين قبل نوبل بشهور): أن المصريين ساذجين فى الاهتمام بمن هو مثلى، وأننى لم أنجز شيئا كى يهتموا بى!!

لغــة!

- **هل تم تمصير لغتك العلمية - يادكتور زويل - بعبارة أخرى، هل أصبحت بمشروع الجامعة مضطرا لأن تخاطب قيادات تحتاج معها إلى لغة أخرى غير لغة العلم؟ وهل كانت اللغة الشعرية والمجازية فى الحديث عنك فى احتفاليات مصر، خطوة أخرى نحو تعديل لغتك فى الحديث لهم أو عنهم؟**

○ الشعر والزجل هما تعبير عن عواطف، وكل الاحتفالات التى طوقت عنقى، بعدما منحنى الرئيس مبارك قلادة النيل العظمى، هى انعكاس لعاطفة منفصلة تماما عن العلم.

فى كل تعاملاتى بمصر أو أى مكان آخر، أستخدم الأسلوب العلمى والمتساوق.

وأنا لا أقول شيئا فى مصر، لا أقوله فى أمريكا.

وأحاول استخدام الأسلوب العلمى مع الناس ورجال الأعمال، وعندما أشعر أن الكلام طال أكثر مما ينبغى، أنبه المتحدثين - بأدب - لأن يدخلوا فى الموضوع أو يجيبوا عن السؤال.

- **من الطرف المرشح للتغيير فى إطار هذا الوضع؟**

○ (يضحك) لا أعتقد أننى سأستطيع تغيير نفسى!

- **ألا تشعر أن رجال الأعمال الذين نراهم هنا، مختلفين - بكل احترام - عن رجال الأعمال الذين ظهروا فى مصر.. فموضوع الإسهام فى مؤسسة علمية، قد يكون بالنسبة لهم فى مصر وردة**

يثبتونها فى عروة الجاكيت، أو تبييضا للصفحة أمام الجمهور الذى أحب د. زويل أو التصق بمشروعه من دون أن يعرف ماذا يعنى بالضبط.. بينما المفروض على من يتبنى هذه الأفكار الخلاقة أن تكون جزءا من عقيدته الفكرية والثقافية مثلما نرى فى الغرب. هل تشعر أن علاقة رجال الأعمال بمشروعك فى مصر هى علاقة عضوية أو أنها انعكاس مباشر لمعنى (التباهى) من جهة أو (الامتثال) من جهة أخرى؟

○ لا أستطيع الحديث عنهم جميعا، لأننى لم أجلس إليهم جميعا.

ولكن ربما ـ فى سؤالك ـ تكون قد وضحت معظم جوانب الصورة.

كل من أقابله من رجال الأعمال، يقول لك إن العلم مهم جدا، ولكن مساندة العلم تظل موضوعا آخر.

رجال الأعمال فى مصر ـ بحكم ظروف أعلم منطقهم فيها جيدا ـ يريدون التركيز على مشاريع ذات عائد سريع Short range. أما الناحية العلمية فليست مفضله جدا بالنسبة لهم.. وربما تأييدهم أو ثقتهم فى مشروع الجامعة تأتى من حماس الرئيس أو من وجود اسمى فى الموضوع.

ولكن كل هذا لا يعنى أن تجد رجل أعمال يقول: أنا مؤمن جدا بالعلم، ثم يقرن هذه المقوله بأن يفصح عن رغبته فى التبرع بثلاثين مليون دولار مثلا.

● **ولماذا وجدت هذه الرغبة فى الخليج؟**

○ لقد قال لى أحد المتبرعين فى الخليج: إن لدينا ـ فى مصر ـ رجال أعمال أغنياء جدا، والمفترض أن يقوموا بتمويل هذا المشروع بالكامل. ولكن هذا المتبرع الخليجى، قال لى: إنهم يتبرعون لأن مصر هى أم العالم العربى، وإذا لم تنهض وتتقدم علميا، فلن ينهضوا هم.

هذا ـ إذن ـ التزام تجاه مصر قبل أن يكون التزاما تجاه العلم، مع الإقرار

بأن هاجس رعاية العلوم موجود ـ أيضا ـ وبقوة عند أصحاب هذا المنطق فى الخليج.

رجل الأعمال المصرى يميل إلى التبرع ـ كما قلت ـ للغلابة أو لنكبات بعض الدول الطبيعية، ولكن لا يتحمس للتبرع لمشروع بحث علمى.

ويسترعى نظرا فى بلد كالولايات المتحدة أو جامعة مثل كالتاك التى أدرس فيها، أن تفصح الجامعة عن رغبتها فى تطوير التلسكوب العملاق الموجود بها، لتسهم فى رؤية أفضل للمريخ (على الرغم من أن التلسكوب الحالى واحد من أعظم التلسكوبات فى العالم)، فيجيء أحد رجال الأعمال الذين يعملون فى مجال البترول أو الزيت واسمه كيك ويتبرع بمائة وعشرين مليون دولار لهذا الغرض فى ظرف أسبوعين، بعدما تم شرح الفكرة له.

هذا الرجل لديه رؤية، ويريد أن يرى بلده أول بلد فى العالم تنظر على هذا الكون غير المرئى، ويريد أن تطلع تلك الاكتشافات من كالتاك التى يحبها ويعزها.

والغريب أننى عندما حكيت هذا لأحد رجال الأعمال المصريين، قال لى: إن السبب فى هذا، هو أن هناك إعفاء من الضرائب بنسبة ٣٠٪ فى الولايات المتحدة للمنح التى تخصص للبحث العلمى أو ما على شاكلته. فلما رجعت إلى أمريكا بحثت فى هذا الموضوع، فوجدت بحوثا وإحصائيات تقول: إن إعفاءات الضرائب ليست هى السبب الأساسى، وإنما تأتى فى المرتبة الثالثة.

أما السبب نمرة واحد، فهو أن رجل الأعمال الأمريكى يرى أن هذه بلده ولا يريد أن يراها فى المرتبة الثانية، لأن هناك إحساس راسخ لديه بأنه أخذ من المجتمع ويجب أن يعطيه. ونمرة اثنين أنه عندما تستمر بلده فى المرتبة الأولى، فإن الأجيال القادمة ستقيم بيزنيس ممتاز كما فعل هو. ونمرة ثلاثة هو موضوع الضرائب.

إذن الحكاية ليست كما قال لى رجل الأعمال المصرى، وإنما هو الإيمان بأن يعطى رجل الأعمال لبلده.

مجمــع!

● **ما هى حدود التماس أو التقاطع بين مشروعك ومشروع مجمع مبارك العلمى؟**

○ مشروع المجمع بدأ منذ فترة طويلة، وقد كنت على وعى به فى زمن د. عادل عز، ود. فينيس كامل جودة، وزيرا البحث العلمى السابقين، عندما كان مطلوبا تحديد بعض التجهيزات الخاصة بالليزر وغيرها.

وقد قرأت فى «الأهرام» أن هناك اهتماما خاصا ببعض التخصصات فى المجمع، مثل دراسات علوم الكومبيوتر.

وهذا عظيم جدا..

ولكن ـ بكل أمانة ـ فإن تصورى للجامعة مختلف، فأنا أريدها على الصورة العالمية.

وفى رأيى أن أى مركز تميز أو تفوق لابد أن تكون لديه أهداف واضحة هى:

١- تخريج نوعية جديدة من البشر، تستطيع أن تعمل فى لوس أنجيلوس ولندن وبون كما تعمل فى القاهرة، بمعنى أنهم فاهمين للغة الدولية ويخضعون للمواصفات والمعايير العالمية، ولهم نفس اهتمامات العالم من الجينوم إلى علوم الفضاء إلى الإدارة.

٢- إن أية قاعدة علمية أحلم بها يجب أن يكون لها دور فعال على الخريطة العالمية، بمعنى ضرورة ظهور اكتشافات من مصر فى خلال السنوات العشر المقبلة، تذاع أخبارها على C.N.N، ونقرأها فى الصحف الدولية، فالمصرى لا يجب أن يقل عن الهندى والتايوانى، ليس بمعنى حصوله على جائزة نوبل، ولكن بمعنى أن يحترم دوليا.

٣- أن يسهم مركز التفوق فى إنتاج تكنولوچية راقية، تساعد على العولمة (بما فى ذلك تعديل التكنولوچيات الدولية السائدة) ليدخل السوق وينافس.

. . . .

وليس معنى ذلك أن مجمع مبارك أو الجامعات الأخرى لا تقوم بدور مهم، فسوف تخرّج لنا هؤلاء الذين يديرون عجلة المجتمع،

أما ما أسعى له فهو شىء على مستوى كوليج دى فرانس، وكالتاك، أو ماكس بلانك!!

- ٢٠٠٠ -

❑ ❑ ❑



د. جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة:

ثقافة.. وأيديولوچيا.. وتمرد! (١)

- الإبداع هو التجسيد الحقيقى للفعل الخلاق للتمرد!
- الأديب الذى يمكن تسكينه مذهبيا هو أديب من الدرجة الثالثة!
- الفن ضد الأيديولوجيا بالطبيعة!
- اختزال المشهد الفكرى فى (العولمة) هو أمر مخل، وتكريس لفكر الهيمنة!
- لو لم توجد وزارة الثقافة لاخترعناها!!
- علامة النضج الفكرى كانت انتقالى من أننى أريد أن (أكون طه حسين) إلى أننى أريد أن (أكون غير طه حسين)، ولكن فى نفس الإطار الفكرى الأساسى!!
- مجتمعنا يشهد فوضى اللغة لا تعددية اللغة!
- التنويريون يتقدمون الآن على المتطرفين، إلى حد ليس - بالضرورة - مطلقا!!



حالة من الحيرة تنتابنى حين أوشك على تقديم د. جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، وأستاذ الأدب العربى، والناقد المثقف.. على عتبات حوار اقتسمنا أسئلته وأجوبته منذ سنوات فى لندن.

ومبعث هذه الحيرة، يبدأ وينتهى من أن الرجل الذى دفعت به البلد إلى صفوف التصدى الأولى، منذ سنوات، ليخوض معركة اشتعل أوارها ضد الجهل والتطرف والعصبية المقيتة، والذى عينته خفيرا حارسا على أحد المحاريب الكبرى للثقافة المصرية (المجلس الأعلى).. يصعب الإلمام بحدود الظاهرة الثقافية التى يمثلها، إذ تنتقل الدلالات والمعانى والرموز المتصلة به من مربع (الخاص) إلى مربع (العام) فى تبادليات نشطة، حتى لتكاد تستصعب وضع اليد على مقدمات مواقفه وانحيازاته، وما إذا كانت إبداعا فكريا فرديا، يصب فى خانة الموقف الفردى فحسب، أو كانت إبداعات فكرية جماعية جسورة صاغتها الأمة وصنعتها، وأودعتها قلوب وعقول كتيبة من الأبناء تدافع عن تراث البلد وتراكمه الفكرى.. وتحلم.. تحلم بالزمن الآتى، وتنطق بكلمات عبد الرحمن الشرقاوى: «وجباهنا.. يؤججها لهيب الشوق للمستقبل»!

على أيه حال، فإن الدخول إلى ساحة هذا الحوار.. هو الفعل الوحيد القادر على احتواء الحيرة وابتلاعها.

ففى هذه الساحة لن تسمع إلا كلام الرجل، صدى صوته وفكره ومنطقه، وفى حدهم ـ جميعا ـ الحد بين الجد واللعب.

وهنا نص الحوار:

● د. جابر.. إلى أى مدى تعتبر التمرد صفة لازمة للإبداع الأدبى؟

وكيف تحدد ترتيب الأولويات فى ساحة تمردك بين التمرد على السلطة الثقافية (متضمنة سلطة الموروث)، والتمرد على السلطة الاجتماعية (متضمنة سلطة العائلة وسلطة الجماعة)، والتمرد على سلطة المعايير النقدية (متضمنة سلطة الارتباط الأيديولوچى، أو سلطة المدرسة الفنية، أو سلطة الشلة السياسية أو الأدبيه)؟

○ الإبداع ـ بكل معانيه ـ هو التجسيد الحقيقى للفعل الخلاق للتمرد.

فما هو الإبداع فى نهاية الأمر؟

هو محاولة الإنسان أن يتمرد على مستوى الضرورة ليستبدل به الحرية، وعلى مستوى التخلف ليستبدل به التقدم، وعلى مستوى الظلم ليستبدل به العدل، وعلى مستوى الإظلام بكل معانيه ليستبدل به الاستنارة!

هذا الفعل الخلاق للتمرد ـ الذى يهدف إلى أن ينتقل بالإنسان من الضرورة إلى الحرية من الجهل إلى العلم من الإظلام إلى الاستنارة ـ هو فعل لانهائى، بمعنى ليس له سقف يتوقف عنده، وليس له مدى ينتهى إليه. وإذا توقف عند حد معين أو مدى معين أو أفق معين، انتهت بذرة الوجود الفاعل والخلاق فى الإنسان، وتحول هذا الإنسان إلى تجسيد للضرورة.

ومن دون هذا الفعل المستمر للتمرد الذى لا يتوقف عند حد، تجمد الحياة، وتتوقف فى كل مستوياتها، وفى كل دوائرها.

الدائرة الخاصة بالأسرة، وبالفرد على المستوى البيولوچى.

الدائرة الخاصة بالفعل الاجتماعى، ومدى حركة الإنسان فى محيطه الاجتماعى.

الدائرة الخاصة بالإنسان من حيث هو حيوان أو كائن سياسى، بالضرورة الأولى لا يقبل الظلم أو قيم وأشياء سلبية كثيرة.

الدائرة الخاصة بالإبداع وفيها ـ عبر مجموعة من الوسائط الفنية ـ يجسد الإنسان فعل التمرد ويشيعه بين أقرانه من بنى البشر.

ومن هنا تبرز أهمية الإبداع الذى (بالكتابة أو بوسائل الإبداع الأخرى. . أو حتى بالفكر أو الإنشاء) فالإنسان لا يجسد - فقط - فعل التمرد الخلاق، ولكن ينقله عبر وسائط ليولد فعل التمرد الخلاق نفسه فى البشر من حوله!!

تنميـط!

● درجت الجماعة الثقافية والأدبية فى مصر على «تنميط» المبدعين، وتأكيد ضرورة أن يكونوا فقراء، أو فلاحين (لا نعرف لماذا؟)، أو على النظر لأى نص أجنبى باسترابة، وليدة نقص فى أداة إجادة اللغة، ومن ثم استسهال الإلقاء بحزمة معتبرة من الاتهامات فى اتجاهه بدءا من أنه مرتبط بفكر الغرب الاستعمارى، وانتهاء بأنه مؤامرة على الفكر القومى وعماده اللغة العربية.

ومن هنا نلاحظ أنهم ينظرون لأى فكر متصل، حتى بالحوار، مع حضارة الغرب بانبهار سياحى، إذا جاز التعبير، وبشكل شبه متحفى، من دون النظر إلى بعض عوامله المستبطنة التى تجعل منه مكونا وطنيا أساسيا فى تيار الأدب والنقد المعاصر.. كيف ترى هؤلاء؟!

○ هذه عشرة أسئلة فى سؤال واحد (يضحك)!!

ولكن دعنا نجزئها إلى مجموعة من العناوين، ونتعرض - بعد ذلك - لأهمها.

أهمها (مسألة التصنيف) أى وضع هذا الكاتب أو ذاك المبدع فى فئة مقابل فئة أخرى، وبالمناسبة التصنيف - هنا - يبدأ من التصنيف السياسى (رجعى أو تقدمى. . يمينى أو يسارى)، أو التصنيف الدينى، كما يفعل التيار المتأسلم الآن (هذا داخل فى زمرة الإسلام، وهذا خارج عنها. . هذا مؤمن وهذا ملحد)، أو حتى بالتصنيف النقدى (كلاسيكى. . رومانتيكى. . واقعى. . رمزى. . . إلخ).

ولقد تعلمنا فى النقد الأدبى، وهو نفس ما نعلمه لتلامذتنا، أن الكاتب أو الناقد الذى ينطبق عليه معنى التسمية المذهبية مائة فى المائة، هو كاتب أو كاتبة

من الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وأن الكاتب الحقيقى أو المبدع شأنه شأن الناقد الكبير، لا تنطبق عليه الصفة المذهبية بدرجة كبيرة، إذ تجد عنده ـ دائما ـ مناطق للتمرد على الأطر الضيقة للتصنيف المذهبى نقديا، أو سياسيا، أو فنيا، أو دينيا، أو اجتماعيا.. لسبب بالغ البساطة، وهو أن الكاتب أو المبدع الكبير ينطوى على جرثومة الإبداع، وجرثومة الإبداع هى فعل مستمر من الكشف عما يظل فى حاجة إلى الكشف، والتمرد الدائم على التقاليد وعلى القواعد وعلى الأطر الثابتة، وهى ضد التصنيف بطبيعتها. ومن هنا لا يوجد مبدع كبير يمكن حشره فى مدرسة!!

فلو جئنا للرومانتيكية ـ على سبيل المثال ـ سنجد أن المبدع الرومانتيكى الكبير، وإنتاجه نفسه يرفضان أن يتقلصا فى «سرير بروكريست»، يسجنهما فى مربع بعينه، ثم تتم عمليه قصقصة الأجزاء الزائدة عن هذا المربع.

مستحيل أن تضع دستوفيسكى فى خانة بعينها.

ضعه فى الواقعية يصلح.. ضعه فى الرمزية يصلح.. ضعه ـ من حيث التفجرات العاطفية للأفراد فى الرومانتيكية تجده يصلح، لسبب بسيط،.. لأنه «فوق كل هذا»!!

وهذه القضية مطروحة فى الأدب النقدى الآن، وهناك ناقد أمريكى متميز وموهوب اسمه بول ديماند، كتب كتابا اسمه «العمى والبصيرة Blindness and insight» يشرح هذا الموضوع بطريقة ـ جد ـ مبتكرة!!

الكتاب قائم على فكرة أن الناقد الكبير يعتمد فى شغله على البصيرة، أو (الحس النقدى)، والحس النقدى ـ بطبيعته ـ عنده ـ مثل أشعة الليزر والأشعة فوق البنفسجية ـ مقدرة على أن ينفذ فى الأشياء ويخترق حجب الظلمات.

ولكن هناك فى النقد ما يسمى (دوجما النظرية)، وهى المعادل ـ فى هذا الكتاب ـ للعمى!!

ومن هنا، فإن كل ناقد عنده حالة صراع بين الحس الطبيعى، أو التبصر in-sightness (والذى يتعامل به بشكل حميم جدا وعميق ومرهف مع الإبداع

الفنى) وبين الالتزام الدوجماطيقى للنظرية، (بنيوية ـ كانت ـ أو تفكيكية أو غيرها) وهو ما نسميه ـ فى هذا السياق ـ العمى Blindness!!!

وكلما ارتفعت درجة الحدس عند الناقد، سيطرت هذه الدرجة من الحدس على تأثير الانكماش والانحشار الذى تولده قضبان الدوجما المعطلة لحركته.

وبالتالى تستطيع القدرة الحسية للناقد أن تقلل من مساحات العمى الإيديولوچى.

ويضرب مؤلف هذا الكتاب المثل بالناقد الماركسى الشهير جدا چورچى لوكاتش، (وهو يعتبر أهم ناقد فى النظرية الماركسية بصيغتها الأدبية حتى الخمسينيات)، حيث عنى كثير من النقاد المتميزين بعده فى دراسة هذه الظاهرة.

فهاهو بولدمان يقول: «إن العناصر الأصيلة التى مازلنا نحترمها فى لوكاتش، هى العناصر التى يتمرد فيها لوكاتش ـ من دون أن ينتبه ـ كناقد، على عمى الدوجما الإيديولوچية.. وأن البصيرة النقدية الموجودة فيه، هى التى جعلت منه ناقدا عظيما، وليس الانصياع إلى الدوجما».

وهذه الفكرة كررها واحد آخر من فلاسفة الفن المتميزين، وهو الناقد أرنست فيشر، وقد ترجم كتاب ممتاز لهذا الناقد بعنوان: (ضرورة الفن) إلى اللغة العربية، والذى ترجم له هو أسعد حليم.

وله ـ كذلك ـ كتاب لم يترجم إلى اللغة العربية، وليس له سمعة أو يتمتع بمعرفة كبيرة على مستوى الثقافة العربية على الأقل، واسمه: (الفن ضد الأيديولوچى.. Art against ideology).

ولأن كتاب أرنست فيشر ـ هذا ـ صدر فى وقت كنا فيه «مأدلجين» أكثر من اللازم، وساد النقد الماركسى نوع من Over Politicizing، أو التسييس الزائد عن الحد للظاهرة الأدبية، فقد كان من الطبيعى ألا يسمع أحد عنه!!

فيشر يقول: «إن الفن طبيعته تمرد»، وأنا أصيغها بعبارات من النوع الذى أحبه: «الفن فعل من أفعال المساءلة»!!

ومن ثم يصبح الفن ضد الأيديولوچيا، لأن الأيديولوچيا من خصائصها ـ إذا تقبلنا تعريف إنجلز لها ـ هى وعى زائف، والفن هو نقيض الوعى الزائف. . وما إن نضع الوعى (زائفا كان أو غير زائف) موضع المساءلة، حتى يكشف عن جوانب زيفه، وعن إمكانيات تغيره وتطوره. وبهذا ينحاز الفن لعناصره الثابتة، الباقية من الفعل الخلاق للتمرد، ويكون مع المتغير ضد الثابت. .

(مع الحرية ضد الضرورة، مع الانفتاح ضد الانغلاق. . وهكذا).

. . . .

لا يلجأ ـ إذن ـ إلى التصنيف النقدى، أو الأدبى، أو السياسى، أو الدين، إلا من ينطوى على قدر كبير من ضيق الأفق، لأن الإنسان ـ كإنسان ـ أكبر وأشمل وأعمق من أن يسجن فى دائرة ضيقة، أو فى صفة مغلقة على نحو مطلق أو بسيط أو ساذج.

ومن هنا ـ مثلا ـ عند ما نتحدث عن ثقافة الانفتاح، لابد أن نقرر أن ثقافة الانفتاح هى التى لا تعرف التصنيف المذهبى، أو الدينى، أو الاعتقادى الضيق.

وإذا نقلت هذا إلى الدين أو للتيارات الدينية أو الفكرية، ستجد أنه كلما شاعت اتجاهات النقل ولوازمها التقليدية، شاع التصنيف!!

لأن النقل هو التقبل الجامد للفكر الذى سبقك (من حيث النص. . نصا بشريا وليس نصا دينيا). . وكما يحدث فى النقد الأدبى، يحدث فى الفكر بشكل عام.

فالتصنيف ـ هنا ـ دلالة انغلاق!!

نقـل!

● **اسمح لى أن نأخذ هامشا على موضوع النقل..**

فأنت تبذل مجهودا جبارا فى المشروع القومى للترجمة، وترى أن الترجمة هى الطريق لنهضة مصر الفكرية والثقافية، ولكن دعنى

أناقش الجانب المعتم فى هذه القضية، فهل سيؤدى التركيز على الترجمة إلى سيادة منطق النقل، وتغلبه على منطق الإبداع أو العقل؟

○ اسمح لى - أولا - أن أحيى هذا الذكاء المكار فى السؤال!!!

وثانيا، فإن المشروع القومى للترجمة، هو أحد أضلاع مثلث، والأضلاع الثلاثة تمثل أساس الإستراتيجية التى ينبنى عليها عمل المجلس الأعلى للثقافة - فى تصورى - والعمل الثقافى بشكل عام.

١- أنت لا يمكن أن تؤسس لعمل ثقافى خلاق، من دون أن تبدأ من خصوصية الواقع الحاضر الذى تعيش فيه، منطلقا من مشكلاته، ومن أسئلته الأساسية الملحة. ويكون هذا الوعى بحركة الواقع الحى المنتسب إليه، هو البدء والمضى فى أى اتجاه.

٢- هذا الواقع الحى الذى تتعامل فيه هو - فى نفسه - مبنى على أسس تربطه بماض.. ماض مستمر ومتصل، وهو - نفسه - فيه عناصر متواصلة ومستمرة من هذا الماضى. ومن هنا فأنت لا تستطيع أن تتعامل مع هذا الواقع الحى بكفاءة فى الحاضر، إذا قطعت صلته بتراثه. ومن هنا ينبغى أن تنفتح على تراثه، وأن تعيد سؤال هذا التراث - بصياغات مختلفة - ولكن بما يدفع حركة هذا الواقع إلى الأمام وليس إلى الوراء، إلى التقدم وليس إلى التخلف، إلى المزيد من الابتكار والتمرد الإبداعى الخلاق، وليس مزيد من الإظلام.. وهذا يعنى أنك تعود إلى تراثك - باستمرار - وبين قوسين: (التراث فعل بشرى، وليس فعلا دينيا).. النصوص الدينية المقدسة (القرآن - الإنجيل - التوراة) هذه نصوص دينية، وليست مع صنع البشر، فهى خارج التراث، أى توجه التراث، على حين يبقى التراث فعلا بشريا.

فعل للإنسان من حيث هو إنسان.

التراث هو ما نرثه عن أسلافنا البشر الذين قاموا بأفعال بشرية، وهذا يعنى

ـ بالمناسبة ـ أن التراث ليس مقدسا، لأنه فعل بشرى، ومن إنجاز البشر، والبشر من حقهم أن يعيدوا النظر فيه، ويعيدوا إنشاءه، وتأليفه، وتفسيره، واختياره، والحذف منه.

فأنت تعيد صياغة هذا التراث، وتطرح عليه أسئلة الواقع المتحرك، الذى تعيش فيه من منظور هدفك الأساسى، وهو الحركة بهذا الواقع إلى الأمام، وذلك هو الضلع الثانى من المثلث.

٣- والضلع الثالث من المثلث (عندما تتأمل فى حركة الواقع الحى الذى تبدأ منه لتعود إليه) تكتشف أنه ليس منفصلا عن عالم ممتد أنت تعيش فيه ـ خصوصا ـ بعد أن أصبح العالم قرية كونية صغيرة بالفعل، بوساطة الثورة المذهلة، فى تكنولوچيا الاتصالات، فلابد ـ هنا ـ أن تدرك أنك لن تكون فعالا فى هذا الواقع، إذا أغفلت صلته بالعالم الحى من حوله وانغلقت أو انكفأت على نفسك فى إطاره.

لابد أن تنفتح على العالم من حولك وتترجم، وتدرك ـ كما أدرك المأمون فى فترة من فترات التاريخ العربى، أو كما أدرك محمد على فى فترة من فترات التاريخ المصرى ـ أن الترجمة هى بداية النهضة، ولولا (بيت الحكمة) فى عصر المأمون ما كانت الحضارة العربية قد وصلت إلى ما وصلت إليه، ولولا مدرسة الألسن التى أنشأها محمد على (ومنها خرج رفاعة الطهطاوى وتلامذته وتيارات مستمرة من المترجمين المصريين) ما كانت النهضة المصرية تحققت.

ولكن تعاملك مع العالم الآخر (مع الغرب.. أوروبا.. أمريكا.. وما حولك) لابد أن ينطلق من نقطتين:

(١) **النقطة الأولى:** هى نفس النقطة، التى تبدأ منها وتنتهى إليها، فى تعاملك مع التراث، وهى الوعى النقدى.

والوعى النقدى هو إدراك المشكلات الحقيقية فى واقعك الحى، وإدراك أسئلته الحقيقية.. وهذا الإدراك يجعلك تتعامل مع التراث من منظور نقدى، لا

تتقبله تقبل الأعمى أو المقلد، ولكن تطرح عليه أسئلتك أنت، فتضعه موضع المساءله، ولا تقدسه بحال من الأحوال، وتأخذ منه ما يدفعك إلى الأمام، وتترك منه ما يؤخرك إلى الوراء، نفس الشيء يجب أن تفعله مع هذا النتاج الذى يأتيك من الغرب.. مع أفكار ما يسمى بأفكار ما بعد الاستعمار Post co-lonial discourse، أو ما يسمى ـ الآن ـ بالنقد الثقافى.. خذ ما تشاء، ولكن ضعه موضع المساءلة من خلال إطار مرجعى، وهو الحاجة الحيوية لواقعك وحافزك كى ينطلق هذا الواقع إلى الأمام.

(٢) **والنقطة الثانية:** فى تعاملك مع هذا الآخر، مهمة جدا، إذ لابد أن تتحرر من أسر المركزية الأوروبية / الأمريكية، ولكن ـ للأسف ـ فإن الخطأ الأساسى فى مشروعات الترجمة العربية التى تمت إلى الآن، أنها كانت ـ فى الأغلب الأعم ـ محصورة فى إطار الدائرة المركزية الأوروبية / الأمريكية، بمعنى أننا مرة نركز على فرنسا، ومرة حول (اللاتين أم الساكسون) واللاتين هم الفرانكفون، والساكسون هم الأنجلوفون بلغة العصر ومعاركه.

أظن أن العالم أصبح أكبر من هذا، ولابد أن ندخل إبداع، وإنتاج العالم الثالث معنا، لابد أن ننفتح على إفريقيا، وآسيا، والهند، ونعرف اليابان والصين.

يجب أن نعرف ماذا يجرى فى هذا الكون الفسيح.

كونيـــة!

- **دعنى أطرح معك موضوعين متقاطعـين مهمـين، من وحـى ما كنت تذكر حالا..فقبل ساعات كنت تحدثنى عن cultural critic أو الناقد الثقافى، الذى يعنى التحرك بإعمال الميزان النقدى على أرضية من المعارف المتنوعة، تعطى الخلفية كما تقدم التفسير، ولكننا ـ مرة أخرى ـ فى عالم (العولمة) الشفاف، لانتعرض**

بالأدب أو بالنقد لمجتمع واحد، يمكن الإلمام أو الإحاطة بجوانبه، وفهم مقدمات الأشياء ونتائجها فيه، وإنما ـ دائما ـ يكون المبدع، كما يكون الناقد جزءا من حالة كونية تتوه فيها التفاصيل، التى تمكن من النقد الشامل هذا. فانظر ماذا ترى؟!!

○ سأجاوب فى جزئين:

الأول خاص بالكونية.. والثانى خاص بنا نحن.

بشكل عام، أظن أن تصوير المشهد الفكرى فى العالم الآن، واختزاله فى تيار واحد هو العولمة Globalization، أو نزعة الكوكبة ـ كما يقول د. إسماعيل صبرى عبد الله وعنده مبرراته المقنعة فى هذه الترجمة ـ هو اختزال مخل، فهناك عدة معان للعولمة، فهى ـ بالمعنى الأمريكى والأوروبى المحدود تهدف إلى توحيد العالم، بمعنى تحويل العالم إلى سوق مشترك مفتوح، لا يعترف بما يسمى حدود الدولة الوطنية التقليدية، إزاء الحركة الاقتصادية والرأسمالية للشركات متعددة الجنسية، وما يلزم هذا من عمليات تغيير جذرية فى تقنيات الاتصال.

وهذا مفهوم ـ فى واقع الأمر ـ مبنى على فكرة هيمنة جديدة.. وسيطرة جديدة، ويؤكد مفهوم المركز الواحد، على عكس ما يتبادر لبعض الأذهان.. فالعولمة تتضمن مركزا من نوع جديد.. المركز الذى يصبح بمعنى المخ الذى يوجه الأوامر إلى كل التشعبات فى كل مكان فى العالم.. وهو يرسى عملية توحيد ـ على مستوى الثقافات ـ كأنه يبحث عن قاسم مشترك، يفرضه هذا المركز المهيمن، بحيث يقلل أو يصغر من شأن ما يسمى (الهويات الثقافية) فى سبيل ثقافة واحدة، يسميها ثقافة يونيفرسال أو ثقافة إنسانية، ولكنها ـ فى آخر الأمر ـ ثقافة واحدة.

هذا ـ إذن ـ مفهوم معاصر للهيمنة، وهو أكثر بريقا، وأكثر اتصالا بالتكنولوچيا، وقفازه ليس ـ فقط ـ ناعما، ولكنه براق جدا، ومغر جدا.. قفاز

الإنترنت والميكروشيبس، وانفجار المعلومات، وهذا طريق مغلف ـ جديد ـ للهيمنة السياسية والاقتصادية.

أما المفهوم الآخر للنزعة الكوكبية، والذى يواجه هذا المفهوم التقليدى الأوروبى والأمريكى، وأصبح له حضور قوى من خلال الأمم المتحدة، خصوصا على المستوى الثقافى، وهو الذى يقوم به اليونسكو حاليا.

هذا المفهوم أسميه: (التنوع البشرى الخلاق)، وأنا ـ هنا ـ أستعير عنوان التقرير الذى أصدره اليونسكو منذ حوالى ثلاث سنوات، واسمه (تنوعنا الخلاق. . Our creative diversity).

التنوع الخلاق الذى يتبناه اليونسكو ـ كرؤية جديدة وموازية لنزعة العولمة ـ هو مشروع أو رؤية إنسانية واحدة، تقوم على ما يسمى الاعتماد المتبادل، إدراكا بأن العالم أصبح فيه نوع من المشكلات لا تستطيع دولة واحدة أن تواجهها، مثل البطالة، والإرهاب، والكوارث الطبيعية، ومثل تلوث البيئة، إذ لا يمكن لبلد واحد أن يحلها، ومن ثم يجب الاعتماد المتبادل.

وتتضمن هذه الفكرة ـ أيضا ـ ضرورة احترام الهويات الثقافية المتنوعة لشعوب الأرض، ولا يمكن اختزال الهويات الثقافية فى هوية واحدة على الإطلاق. . وإنما لابد من وجود وإقرار التعددية والتنوع، بحيث تكون الثقافة الهندية موجودة، والثقافة العربية موجودة، والثقافة الإفريقية موجودة.

وكل ثقافة لها خصائصها وميراثها الروحى والإبداعى، والذى يختلف عن بقية الثقافات. . وأن العلاقة بين هذه الثقافات ـ لا ينبغى بأى حال من الأحوال ـ أن تكون علاقة هيمنة من ثقافة على أخرى، ولكن أن تكون علاقة تكافؤ وحوار متعدد الأبعاد.

مفهوم الاعتماد المتبادل ـ فى السياسة والاقتصاد ـ يؤدى إلى إلغاء التبعية بمعناها الاقتصادى والسياسى، وخلق نوع من الحوارات الجديدة بين دول الشمال ودول الجنوب. . وهو الرد العملى على تيار العولمة، بالمفهوم الذى تسعى إلى

فرضه مجموعة من الدول، ومعها شركات متعددة الجنسيات، والتى أصبحت تحكم الدول الصغيرة بالفعل.

تيار التنوع الخلاق موجود، وأتصور أن المانيفيستو الخاص به هو التقرير، الذى صدر - منذ ثلاث سنوات من الأمم المتحدة. ولقد قمت - بإحساسى بأهمية هذا التقرير - بترجمته - فورا - فى المجلس الأعلى للثقافة، وأسميناه: «التنوع البشرى الخلاق»، حتى يعرف المثقف العربى أنه ليس فى العالم الثانى هذا (عالم الغرب) مفهوم العولمة فقط، وإنما هناك تيار آخر موجود، مواجه لها، ومغاير، ويتصارع معها.

أما الجزء الثانى من إجابتى وهو (أين نحن؟)، فألخص وجهة نظرى حوله فى الآتى:

١- أننى أعيش وسط هذا كله، ولا يمكن أن أغلق سمعى وبصرى، عما تطرحه العولمة Globalization، وما دمت أضع منطلقاتها موضع المساءلة، فسوف أكتشف أين تكمن مناطق الهيمنة، وأين تكمن مناطق أخرى لايمكن أن تنطوى على الهيمنة، علىّ أن أفرق - مثلا - بين الهيمنة الاقتصادية المرتبطة بفكرة الشركات متعددة الجنسية التى تدمر ما يسمى بالحدود الوطنية سياسيا واقتصاديا، وبين استخدام الإنترنت.

وعندما أضع الكوكبة - كما يحب أن يسميها صديقنا السيد ياسين - موضع المساءلة، أعرف المناطق الخطرة وأواجهها، وأعرف المناطق الإيجابية وأستفيد منها، وخصوصا أنه لا توجد ظاهرة فى العالم تنطوى مائة فى المائة على الشر.. وهناك أشياء إيجابية يمكن انتزاعها من بين الأشياء السلبية.. وفى نفس الوقت، فإن علىَّ بمقدار ما أواجه هذا التيار، أن أتحاور مع التيار الآخر الذى هو أقرب إلىَّ وإلى مطامحى وهو تيار التنوع البشرى الخلاق.

٢- لماذا يكون تيار التنوع البشرى الخلاق أقرب إلينا؟

لأنه يحترم هويتى الثقافية الخاصة.

ولأنه يخلق إمكانات، من خلال الحوار بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، وبين الأديان المتعددة، وبين الثقافات المتعددة.. من منظور المساواة والتكافؤ، وليس منظور الأعلى والأدنى، وهذا يعنى ـ باختصار شديد ـ أننى أعيش زمنى، بأن أبدأ من واقعى الخاص، وخصوصيتى هى مطالب اقتصاديه وسياسية واجتماعية وإبداعية، وكلها مطالب حيوية تتحول إلى أسئلة تؤرقنى ليل نهار، ولابد أن أبحث لها عن حل، وبمقدار ما أبحث لها عن حل فى تراثى، وأستفيد من خبرته الدائمة والمتواصلة، وأخلصه ـ فى نفس الوقت ـ من ترهله وجموده ـ فى بعض المناطق ـ بمقدار ما علىَّ أن أطرح هذه الأسئلة على العالم من حولى، وأعيش بطريقة متعددة الأبعاد، يعنى يكون مخى أشبه بجهاز تسجيل..

أكون على وعى بالمنجزات التى تحدث فى العالم وأنقدها!

أكون على حوار مع التجارب التى تشبهنا على امتداد العالم كله، والتى يمكن أن أستفيد منها بعيدا ـ حتى ـ عن دائرة المركزية الأوروبية/ الأمريكية.

وأصنع إنجازى الخاص فى هذه المنطقة.

ولكن هذا كله لن يتم إلا بوعيى بخصوصيتى.. وكلما ازداد وعيى بخصوصيتى، ازداد انفتاحى على العالم، وازدادت قدرتى على الإنجاز فيه.

وزارة!

● د. جابر.. دعنى أسأل سؤالا مباغتا.. لماذا توجد وزارة ثقافة؟..

فالموسوعة الفرنسية ـ مثلا ـ تعرف الثقافة بوصفها لفظ كلى مرادف للحضارة، يشتمل ـ فيما يشتمل ـ على العمل المهنى، والمجهود البدنى.

ومن ثم فإن وزارة الثقافة، قد تعنى ـ فى أحد مفاهيمها ـ وزارة كل الوزارات، وبالتالى دعنى أكرر السؤال: لماذا توجد وزارة للثقافة؟

○ أولا إذا لم تك وزارة الثقافة موجودة فى بلدنا، فكان ينبغى أن نطالب بها، فأنا أستطيع تلخيص وزارة الثقافة فى الجملة التالية:

«هى الوزارة المعنية بالتنمية الإبداعية لقدرات الأمة».

فكما تسعى وزارة الاقتصاد أو وزارة المال من أجل التنمية فى أبعادها الاقتصادية والصناعية، فإن البعد الذى لا يتحقق - بدونه - التقدم، والذى يبدأ منه التخلف، وإذا تخلفت فيه، تخلفت فى كل المجالات، هو القدرات أو الوعى الإبداعى للأمة، وهو ينقسم إلى قسمين:

وعى تعليمى، وهو دور وزارة التعليم. والجانب الآخر - وهو الذى يتجاوز دور التعليم - هو الثقافة، لأن الثقافة فى آخر الأمر، هى الرؤية الشاملة للحياة، على نحو يستلزم أن يزداد الإنسان إدراكا لأهمية أن ينتقل من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية.

فالثقافة - بهذا المعنى - تحتاج إلى وزارة، تكون مهمتها الأساسية لا تقل أهمية عن مهام أكثر أجهزة الدولة حيوية.

إن جزءا كبيرا من تخلف الأمة العربية، يبدأ من أن كثيرا من الأقطار لا تستطيع أن تفهم هذا، وأنها تتصور أنها عندما تقيم - من خلال مالها الوفير - مطارا أو مصنعا على أحدث طراز فى العالم، أنها تقدمت وهذا غير صحيح، لأن التقدم لابد أن يبدأ من الوعى الثقافى، وإذا لم يحدث تغيير جذرى فى الوعى الثقافى للأمة - بهذا المعنى - الذى يجعل الإنسان متمردا على أوضاع الضرورة، ويريد التقدم باستمرار، فلن يوجد تقدم فى الأمة مهما كان لديها من المال.

وزارة الثقافة - إذن - هى الوزارة المسئولة مسئولية أساسية عن التنمية الإبداعية لقدرات الأمة، وعن تعميق وعى أفرادها بامتدادها فى التاريخ، وحضورها فى التاريخ، وأملها فى الاندفاع إلى المستقبل.

لهذا، فإن وزارة الثقافة هى المحافظة على تراث الأمة، وهى التى تعمل على التنمية الإبداعية للأفراد، عن طريق إشاعة ما تقدمه من وسائط ثقافية متعددة، كالكتاب، والجريدة، والمنجز الثقافى المتميز على مستوى النحت والفن التشكيلى، وعلى مستوى السينما، وعلى مستوى المسرح، وعلى مستوى ابتكار وسائل ثقافية جديدة، تزيد من إيقاع وتسريع اقتراب وعى المواطن من عصره.

وتشجيع حركة الترجمة، خلق فرص للحوار الثقافى بين المواطن فى البلد، والثقافات فى العالم، لكى يدرك، أنه ليس كائنا منعزلا، ولكنه طرف مشارك للعالم وجزء منه.

وبمقدار تعميق وزارة الثقافة لخصوصية الثقافة، من خلال طرح أسئلة واقعية، والربط بين هذه الأسئلة وجذورها، فإنها تفتح وعى المواطنين على هذا كله.

وأنا أتصور أن مقياس درجة التقدم فى أى مجتمع من المجتمعات، يتحدد بمقياس فاعلية وزارة الثقافة، وإذا كانت هذه الفاعلية مشلولة، وإذا كانت وزارة الثقافة وزارة شكلية ـ بمعنى الالتهاء عن المشكلات الأساسية ودورها الحقيقى ـ فإنها تسهم فى التخلف، ولا تسهم فى التقدم.

طـه!

● هاجس احتل روحك مُذ كنت غلاما فى المرحلة الإعدادية، بأنك تريد أن تكون طه حسين، وتدعم هذا الهاجس بدعاء والديك أن تكون ما تريد.. أن تكون طه حسين.

وأعرف أننى أسألك سؤالا صعبا فى إجابته، ولكن دعنا نحاول..

إلى أى مدى تشعر أن هذا الهاجس الذى احتل روحك، قد تفسر، قد تحقق؟ وما هى المحطات الرئيسية التى شعرت فيها بأن هذا الهاجس دفعك ـ مسكونا بتأثيره ـ أن تأخذ مواقف، كانت ـ بحسابات القوة المادية ـ أكبر منك؟

○ نبدأ من طه حسين.

طه حسين مسئول عن أجزاء كبيرة من هذا الكائن (جابر عصفور)، مذ أغوانى فى الصبا بقراءة (الأيام)، ودفعنى إلى الحلم بأن أكون (مثله)، وهذه هى المرحلة الأولى حتى فرغت من كتابة كتاب «المرايا المتجاورة».

لقد تخرجت من قسم اللغة العربية، وكنت الأول على جميع أقسام اللغات العربية فى الجامعات المصرية، وحصلت على الدكتوراه، وأصبحت أستاذا فى قسم اللغة العربية مثل طه حسين، وتفرغت له، ولدراسته.

ولحسن الحظ، جاء فصلنا من الجامعة أيام السادات، فرصة ذهبية، لأننى ذهبت إلى جامعة استكهولم فى السويد أستاذا، وظللت بعيدا عن مصر لفترة، وكان عملى مريح جدا، وتحققت لى هناك فكرة الشاعر: «سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا»، أو بيت صلاح عبد الصبور الجميل: «أجافيكم لأعرفكم».

وهنا قرأت طه حسين مرة أخرى ـ بأكمله، وكتبت (المرايا المتجاورة) وأنا خارج الجامعة وأعيش فى السويد، وهذا سر الإهداء: (إلى الجامعة التى أنتمى إليها والجامعة التى أحلم بها)!!

قرأت طه حسين ـ ليس من منظور أن أكون مثله، ولكن من منظور الابن الذى يضع أبيه موضع المساءلة، ليكون (هو/هو)، وليس الأب. ومن هنا بدأ نوع من الانفصال فى الوعى، لا ينفى الاتصال!!

طه حسين موجود فى نفسى.. وأنا موجود به، ولكن آن الأوان كى أضعه موضع المساءلة، وفى نفس الوقت أضع ذاتى فى موضع المساءلة.. ومن هنا بدأ الوعى (بالغيرية)، وأنت لا يمكن أن تستمر، ولا يمكن لإنجازك الثقافى أن يؤثر إلا إذا كنت (غير)، وكما قال شاعر آخر: «بدأوا من هناك فلنبدأ من هنا».

نتمثل إنجازات طه حسين إلى أبعد حد، ولكن ـ فى نفس الوقت ـ نضعها موضع المساءلة، وفى نفس الوقت نسأل أنفسنا، حتى نتأكد من أن أسئلتنا ليست

وعيا زائفا، إذ ليس من المهم أن تضع الأفكار والأشخاص موضع المساءلة، ولكن الأهم أن تضع نفسك - أنت - موضع المساءلة، حتى فى أثناء مساءلتك لغيرك، حتى لا يكون فعلك هو خداع للذات، أو ينتمى لآليات الدفاع الذاتى.

ومن هنا اكتمل وعيى بأننى لا يمكن أن أكون ناقدا أدبيا بشروط طه حسين، لأن العالم قد تغير.. المعرفة الأدبية تغيرت، الشرط الأدبى تغير، شروط الواقع التى نبدأ منها تغيرت.. بعض شروط طه حسين مازالت موجودة (العقلانية - الحرية).. القيم الأساسية، التى يدافع عنها موجودة، لاجدال فى هذا (العقلانية كقيمة - الحرية كقيمة - حلم التقدم كقيمة - الانتماء الإنسانى للثقافة مع الوعى بالخصوصية)، كل هذه مبادئ أساسية عنه طه حسين، إضافة إلى العدل بمعناه الثقافى والاجتماعى. فالعدل عند طه ليس اجتماعيا فقط، كما ظهر فى «المعذبون فى الأرض»، ولكنه ثقافى - كذلك - «التعليم كالماء والهواء» حق لكل إنسان.

هذه قيم أساسية ثابتة عند طه حسين، ولكن من المؤكد أن تجلياتها فى الثلاثينيات والأربعينيات ستكون مختلفة عن تجليات التسعينيات!

طه حسين كان يتكلم، والعالم - بالنسبة له - هو فرنسا بالدرجة الأولى.. أما اليوم فإن العالم - بالنسبة لنا - أكبر بكثير، إذ يوجد إلى جانب فرنسا، إنجلترا وأمريكا وألمانيا والصين واليابان.

ومن هنا بدأ الوعى - حتى - بالخصوصية داخل الانتماء إلى طه حسين، فلم أعد أحلم - منذ هذا الوقت - أن أكون (مثل) طه حسين، وإنما أن أكون (غير) طه حسين مع الإبقاء على الإطار، أو مناطق التشابه.

بوليفونية!

● اللغة كائن حى.. وأظن أنها تعرضت إلى اعتداءات شديدة القوة فى السنوات الأخيرة.. هل توافق على تعايش مستويات مختلفة

من اللغة فى وعاء الأدب المصرى، وأن أعتبر هذا التعدد، أو تلك البوليفونية الصوتية انعكاسا لوضع ديمقراطى لا يحسم القسمة اللغوية فى المجتمع بين أرستقراطية وشعبية، وإنما يجد نفسه أمام تشظى حقيقى، وتكاثر فى مستويات اللغة، ومن ثم التفكير.. ثم كيف مع كل هذه التعددية يمكننا أن نتكلم عن مفهوم واحد للخصوصية الثقافية؟

○ إذا كنت تتحدث عن بوليفونية، وعن تعددية فى اللغة، تعكس تعددية ثقافية واجتماعية موجودة فى المجتمع. . فأهلا وسهلا.

ولكن واقع الأمر الذى يحدث غير هذا، فما يحدث الآن فى ساحة اللغة العربية هو (فوضى)، ويرجع إلى ثلاثة أسباب:

١- شعور بشع بالنقص على مستوى الهوية مع قلة الثقة فى هذه الهوية والخجل منها.

٢- حالة من الجهالة ترجع إلى خلل جذرى موجود فى الأنظمة التثقيفية والتعليمية فى المجتمع.

٣- فوضى اللغة هى ـ بالتأكيد ـ بعض أشكال الفوضى الأخرى السائدة فى المجتمع.

. . . .

والأسباب الثلاثة ـ هذه ـ تنتج مجموعة من النتائج، كل واحدة فى مجالها، وهى المسئولة عما نراه الآن، من حالة بشعة من حالات استعمال اللغة، ربما تبدأ من البرلمان نفسه، ثم إن الإحساس بالتدنى يؤدى ـ باستمرار ـ إلى استعارة أسماء أجنبية إلى درجة هزلية ومضحكة، وهذا إن دل على شىء، فيدل على رغبة المسكين مسلوب الوعى، المغلوب على أمره، فى تقليد (غالب) هو لا يعرفه حتى. وهذا يبدأ من عناوين المحلات، إلى المنتجات، إلى الشركات.

ثم انظر إلى التظاهر بأنهم لا يجدون فى حوارهم مع الآخر الكلمة أو العبارة العربية، فيستخدمون الكلمة الإنجليزية أو الفرنسية فقط، لإيهام من يتحدثون إليه بأنهم مثقفون بهذه الثقافة، مع أن ـ واقع الأمر ـ أن الذين يفعلون هذا فى ٩٠٪ منهم، لا يعرفون لغتهم، ولا اللغة الأخرى التى يتشدقون باستخدام بعض مصطلحاتها.

وأخيرا، فهناك الجهل ـ للأسف ـ فحتى تعليم اللغة العربية تعليم متخلف، وأنا ـ شخصيا ـ أستاذ فى قسم اللغة العربية، وكنت رئيسا لقسم اللغة العربية لسنوات طويلة، وأشهد أن تعليم اللغة العربية فى مصر تعليم متخلف، لسبب بسيط، وهو أن وزارة التربية والتعليم لم تقم بالأبحاث اللازمة لتبسيط اللغة العربية.

ففى أثناء الحرب العالمية ـ مثلا ـ فى الولايات المتحدة الأمريكية، عملوا دراسات، وأحضروا علماء اللغة، وقالوا لهم ضعوا لنا برنامجا، لتعليم اللغة الإنجليزية فى ظرف ستة أشهر.. نحن لم نفعل هذا.. يجب أن نضع برامج لمحو الأمية اللغوية العربية عند الناس .. السياسى.. الموظف، بحيث نعلمها له بطريقة سهلة وميسرة.

هذا القدر من الجهالة التعليمية موجود، وخطورته أنه أصبح يُتقبل، ويؤخذ مأخذ التسليم، وكأنه شيء طبيعى مثل الشمس والهواء، وأن اللغة العربية صعبة، والناس لا تحسنها.. وانتهى الأمر.

بل إنك لو تحدثت عن تحسين اللغة العربية، يتهموك (بالفقهنة).

لدينا جهالة واعتداد بالجهالة.

أما عن الفوضى، فنحن نعيش فى مجتمعات عربية يختلط فيها الحابل بالنابل (وبالمناسبة الحابل يعنى الصياد بالحبل، والنابل يعنى الصياد بالنبل) والمعايير تهاوت، والجاهل أصبح يرى نفسه عالما، والعالم أصبح فى وضع بائس.

قيم كثيره ارتبكت، وعندما ترتبك القيم على هذا النحو ـ فإنه من الطبيعى أن ينعكس هذا الارتباك على اللغة، ولهذا ظهرت مصطلحات غريبة وجديدة، فمثلا توجد عبارة مثل (دهنا الهوا دوكو)، وهى عبارة مترجمة من الدارجة الأمريكية (We taint the city red) مثلا، وهذا ـ فى ذاته ـ توطيد لفكرة الانسحاق أمام الأجنبى.

ولكن هناك عبارات تجسد الفوضى، من اختراع المصريين أنفسهم، مثل «كمننا» مثلا، وهى التى تعكس عند الشبان نوعا من أنواع الخلل، وأنا ـ شخصيا ـ عندما أستمع لبعض هذه اللغة من الشبان، لا أستمع إليها فى سذاجة، ولكننى أرى فيها مؤشرات:

١- نوع من النقد الذاتى من الشبان للمجتمع.

٢- مظاهر تمرد لغوى على قواعد ثابتة لا تريد أن تتحرك.

٣- سخرية.

٤- تعبير عن فوضى عامة فى المجتمع.

تنوير!

● **د. جابر.. إلى أين انتهت المعركة الفكرية بين التنويريين والمتطرفين الآن؟**

○ أظن أنها انتهت ـ إلى حد كبير ـ لصالح التنويرين.

وأنا أقول «إلى حد كبير»، وليس إلى «حد نهائى»، لأنها معركة ستظل مستمرة فى حياتنا.. ولكن المهم أى الطرفين سيصبح أكثر تأثيرا فى حركة الواقع.

التنوير أسسه بسيطة.

ـ الاحتكام إلى العقل، الذى لا يعنى إلغاء النص الدينى، كما يقول بعض سيئى الظن أو سيئى النية، لأنك عندما تقول بالاحتكام إلى العقل، فإن ذلك

لا يعنى إلغاء النص الدينى، وهؤلاء ينطوون على درجة من سوء الطوية رهيبة، لأنك عندما تدعو إلى العقل، فإن ذلك لا يتناقض مع الدين بأى حال من الأحوال!

الله كرم الإنسان بالعقل.

وهكذا يفهم كل متفقه فى شئون الدين، فانظر ـ مثلا ـ إلى الفصل الذى كتبه الإمام الغزالى ـ وهو الذى يعد فى نظر الكثيرين غير منحاز إلى المعسكر العقلانى ـ عن (العقل) ستجده فصلا مذهلا.

التنوير يعنى العقلانية والاجتهاد، وفتح باب الاجتهاد يعنى الحوار مع الآخر.. يعنى تقبل الخلاف، ويعنى ـ كذلك ـ أن العقول متساوية فى الاجتهاد، وأن الأفضل هو الأكثر اجتهادا.

ولكن المتطرفين يرون الانغلاق على دائرة محدودة من التقليد والنقل والاتباع فى أسوأ معانيها، التى أفرزت عدم الانفتاح على الآخر، وتصنيف الناس بالمعنى التكفيرى، ورفع شعار من ليس معى فهو ليس ضدى فقط، ولكنه ضد العقيدة.. وفرض الوصايا على الدين والتحدث باسم الدين.

وأظن أن تيار هؤلاء قد بدأ ينحسر، ولكننى أظن ـ كذلك ـ أنه مازال موجودا، وللأسف هذا التيار المتطرف تغذيه ـ الآن ـ بعض أجهزة إعلامنا، ومازالت تغذيه بعض أنظمتنا التعليمية بتشجيعها على التلقين، وقيامها على النقل، وعلى التقليد والمحاكاة.

مازالت أمامنا ـ بالمناسبة ـ حاجة إلى ثورة جذرية ينبغى أن نكملها فى مسألة التعليم، وفى مسألة وسائل التثقيف.

ونحن مازلنا فى حاجة إلى أضعاف ما نقوم به من جهد على مستوى الثقافة الجماهيرية، فنحن ناجحون على مستوى العامة، ولكن الثقافة الجماهيرية (من الأقصر إلى الإسكندرية) تحتاج إلى عشرات أضعاف الجهد الذى نقوم به.

. . . .

ثقافة الاستنارة أصبحت أكثر قوة، ولم يعد أحد ـ الآن ـ يفكر عمليا فى أن يعاود مأساة نصر حامد أبو زيد، ولم يعد أحد ـ الآن ـ يفكر عمليا فى إرسال شاب مضلل ليضع السكين فى رقبة هذا الكاتب الكبير أو ذاك.

الوضع اختلف.. والإنجاز الثقافى أصبح يترك تأثيره.

هناك قدر من التقدم، ولكنه لا يعنى نصرا أو تخلصا نهائيا من تيارات التطرف والتعصب، لسبب بسيط، أن تيارات التطرف والتعصب للأسف موجودة فى الثقافة العربية، ونحن ـ للآن ـ لم نصل بعد إلى الدرجة التى تجعلنا نضع كل مشكلات وأسئلة وقضايا الثقافة العربية، موضع المساءلة الجذرية من وجهة نظر مستنيرة تسعى ١٠٠٪ للمستقبل.

وأحد أكبر العوامل التى تعطل هذا هو التفاوت الثقافى فى درجات الانفتاح على العالم على مستوى البلاد العربية. ومن هنا سيظل الصراع مستمرا، وسيظل التطرف والتعصب موجودين إلى أن تعتدل هذه الأوضاع!!

- ١٩٩٧ -





د. جابر عصفور:

عن الوليمة.. والدولة الحديثة.. والتنوير.. ودور مصر الثقافى !

- حين تحدث الازدواجية بين القوة السياسية والقوة الاجتماعية الضاغطة ذات التوجه الدينى، فالباب مفتوح أمام الانقلاب على الدولة المدنية!

- مثقفو الدولة العلمانية هم خط الدفاع الأول عن الدولة المدنية، وصدامهم مع التطرف حتمى!

- إذا لم تكن هناك (وليمة لأعشاب البحر) كان التطرف سيختار مسرحية أخرى أو رواية أخرى، أو وليمة أخرى!!

- الخصوصية مصطلح يستخدمه دعاة التقدم وأعداء التقدم فى آن واحد!

- الخصوصية يجب أن تكون المرادف للتنوع الإنسانى الخلاق!

- درس أزمة الوليمة أنه لا يوجد فارق جوهرى بين من نسميهم المتأسلمين (المعتدلين) والمتأسلمين (المتطرفين)!!

- خطابا طارق البشرى ومحمد سليم العوا انتهيا إلى الحكم على نوايا كاتب بما هو موجود فى عمل إبداعى فأصبحا مثل محمد عباس!
- الخطاب الدينى الأصولى من صنع بشر ويحتمل المناقشة!
- أصبحنا نتمنى عصر مشايخ الاستنارة وعلى رأسهم محمد عبده، فى مناقشته لفرح أنطون، أو محمد فريد وجدى فى محاورته لإسماعيل أدهم!
- د. زقزوق وزير الأوقاف كان الصوت المعتدل الوحيد الذى ظهر أثناء الأزمة!
- أول علامات الاستقلال هى الاستقلال العقلى .. أى الاستعداد لوضع كل شىء موضع المساءلة!
- لا أميل إلى ثنائية «تنويريين» و «ظلاميين». فالثنائية الحقيقية التى تدور المعركة حولها هى (دولة دينية) و (دولة مدنية)!
- هناك بعض المستنيرين دينيا ليسوا ضد الدولة المدنية!
- اللوم فى قضية الديمقراطية ينبغى أن يوجه - أيضا - لمؤسسات المجتمع المدنى!
- ٣٥٠ ساندوا إبراهيم أصلان و ١٠٠٠ ساندوا مارسيل خليفة!
- إسرائيل أكبر جهة فى الشرق الأوسط تنتهك حقوق الملكية الفكرية والإبداعية!
- للأسف لدينا أساتذة متخصصين فى سرقة الكتب!
- نعم.. نحن منحازون إلى اتجاه بعينه فى المجلس الأعلى للثقافة!
- لدينا جيل ثان.. والمستقبل مفرح!

د. جابر عصفور . .

كلما حاورت هذا المثقف/ العمدة، خرجت وأنا أشعر أننى كسبت أشياء أكبر بكثير من مجرد مادة مهمة للنشر!!

وقد حرت طويلا فى أن أضع يدى ـ بالضبط ـ على العنصر الذى يتمتع بأرجحية أكبر بين هذه الأشياء!

هل هو درس ضاف أتعلمه فى علوم النقد الأدبى وتحليل النصوص؟

هل هو دور باسل فى حراسة ساحة الثقافة المصرية؟

هل هو تلك الطبيعة الفوارة المحتفلة بالحياة؟

هل هو ذلك الاطلاع الموسوعى المتصل بالراهن الكونى. . أو هل هو هذا التطلع الوثاب الطامح إلى الاشتباك مع أسئلة العصر والإجابة عليها؟!

هل . . وهل. . !!

إلى أن وصلت. . ربما هذه المرة (وفى حوار جمعنى به فى نيويورك إبان حضوره اجتماعات الأمم المتحدة لمراجعة منتصف العقد لنتائج مؤتمر المرأة فى بكين، حين كان ضمن الوفد الذى ترأسته السيدة الفاضلة سوزان مبارك) إلى ما أعتقد أنه العامل الذى تفوق أرجحيته ما عداه. .

هذا المثقف/ الركن ينجح بامتياز، فى دفعى إلى حالة حيوية ذهنية كاملة، ويقظة، ورغبة فى التساؤل، واندماج فى الحوار. .

هو ـ ببساطة ـ أحد المحرضين الكبار جدا على التفكير وإعمال العقل.

هو يجبرك ـ بعلمه الغزير ومنهجيته الراقية ـ على دخول ساحة التحدى، ومن

ثم الاحتشاد المعرفى والفكرى الكامل لتكون على المستوى، موافقا أو معارضا، بالتماس أو بالتقاطع.. ولكن المهم أن تقوم باستيلاد طاقتك على الإبداع، مستجيبا لمقولاته وتساؤلاته التحريضية التى لا تنتهى..

وفى هذا الحوار يناقش معى أزمة وليمة أعشاب البحر، ودور مفكرى الدولة المدنية فى حمايتها، وقضية حقوق الملكية الفكرية، وقضايا حرية الإبداع، ودور مصر الثقافى وإنجاز المجلس الأعلى للثقافة.

وفيما يلى نص الحوار:

● قضية (حرية التعبير) تفرض نفسها ـ بقوة ـ على الذهن العربى، هذه الأيام وأحسب أننى مصيب حين أراها ـ الآن ـ تتعرض لاختبار قاس، تمت فيه (خصخصة) أدوات القهر، لتمسك بها جماعات أهلية، تحاصر المثقفين والمبدعين، بعد أن كانت السلطة، أو الأنظمة فى الأزمان الخالية، هى التى تقوم بهذا الدور.. فانظر ماذا ترى؟

○ هذه المشكلة ليست ابنة اليوم، وإنما هى مشكلة قديمة نسبيا، وقد ظهرت ـ على وجه التحديد ـ منذ بدأت دعاوى الدولة الدينية، ومحاولات جماعات التطرف للقيام بانقلابات ضد الدولة المدنية.

هذا يرجع إلى السبعينيات، ولكن ـ للأسف ـ لم ينتبه أحد إلى خطورة هذه الظاهرة بالقدر الكافى.

وحين أقول خطورة هذه الظاهرة، فأنا أعنى تصاعد وأرجحية ازدواجية معنية فى المجتمع المصرى، وهى ازدواجية تكون فيها القوة السياسية فى جانب، وما يسمى بالقوة الاجتماعية الضاغطة ذات التوجه الدينى فى جانب آخر.

وللأسف، فإنه نتيجة تصاعد القوة الاجتماعية الضاغطة ذات التوجه الدينى حدثت كارثة اغتيال السادات.

ومع ذلك لم يستوعب أحد الدرس تماما، وكانت النتيجة وجود مستمر لجماعات التطرف الدينى.

وبالقطع، فإن صدام هذه الجماعات مع المثقفين كان حتميا، بسبب بالغ البساطة، هو أن المثقفين، خصوصا مثقفى الاستنارة، أو مثقفى الدولة العلمانية ـ كما يسمونهم ـ هم خط الدفاع الأول عن الدولة المدنية، وإذا سقط خط الدفاع الثقافى الأول عن الدولة المدنية، أصبح الطريق مفتوحا لإحداث انقلاب، وإقامة دولة دينية.

ومما يؤسف له أن هؤلاء المثقفين المدنيين ظَلوا يعملون وحدهم فى حالات كثيرة، ولا يتلقون المساعدة الكافية من الدولة المدنية التى يدافعون عن وجودها.

والنتيجة هى ما نراه الآن.

وإذا أخذت على سبيل المثال الحالة الأخيرة، التى حدثت بسبب رواية (وليمة لأعشاب البحر)، والتى أصر على أن أسميها فتنة، ستجدها تلخص الموقف كله.

أحد أطرافها مجموعة ذات توجه سياسى ـ بالدرجة الأولى ـ ترفع شعار الإسلام، والإسلام برىء ـ أصلا ـ من دعاوى تطرفها، وتريد أن تمارس ضغطا سياسيا على الحكومة التى أصدرت حكما بالسجن ـ بوساطة القضاء ـ على ثلاثة من حزبها، واحد منهم رئيس تحرير جَريدة الشعب)، وفى نفس الوقت تستعد للتسخين للانتخابات، فاختارت رواية وليمة لأعشاب البحر.

وبالمناسبة، إذا لم تكن هناك وليمة لأعشاب البحر، كان من الممكن أن يختار التطرف مسرحية غيرها، أو رواية غيرها، أو ديوان شعر غيرها، لكى يفجر هذه الفتنة.

وعندما اندلعت الفتنة، تراخت أجهزة إعلامنا وترددت ـ للأسف ـ فى معالجة الأمر، بما أدى إلى زيادة رقعتها وقوة تأثيرها.

ولكن سرعان ما انكشفت أسباب الفتنة السياسية وراء الأقنعة الدينية،

فخمدت النيران، ولم تخرج الفتنة إلى الشارع، وكل ما أفلحوا فيه هو تهييج مجموعة من الطلبة فى الأزهر، بوساطة أساتذة أزهريين منتسبين إلى جماعات التطرف وتهييج بعض خطباء المساجد، ولكن لما عُرفت الحقيقة، وعندما عُرفت الدوافع خمدت الفتنة.

ومع ذلك، فإننى أتصور أن ما حدث كان أمرا بالغ الدلالة، ويدل على خط متصاعد بدأ باغتيال الشيخ الذهبى واستمر يتصاعد مرورا بمحاولات اغتيال لمسئولين سياسيين وأدباء ومفكرين، على رأسهم نجيب محفوظ، إلى أن وصلنا إلى هذا الوضع، وإذا لم نستوعب الدرس من هذه الفتنة الأخيرة ستكون النتائج وخيمة.

هذا فيما يخص قضية حرية التعبير، وفيما يخص استئثار جمعات التطرف بأدوات القهر، ومحاولتها ضرب الدولة المدنية الحديثة فى مقتل.

خصوصية!

● عادة ما يتم سحب لافتة الخصوصية الثقافية، وتأكيد الهوية الذاتية الحضارية - يا دكتور جابر - فى مواجهة مع قيم العصر، ومعطياته، وكأن (الخصوصية) تعنى (المخاصمة)، أو كأن الخصوصية تعنى الارتكان إلى مرجعيات ماضوية فقط.. ما الذى يمنع استخلاص مساحة لقاء أو التقاء بين أن نعيش الزمن ونشتبك مع أسئلة المستقبل، وما يمكن تسميته الهوية الذاتية الحضارية؟

○ أولا الخصوصية مصطلح يستخدمه دعاة التقدم وأعداء التقدم فى الوقت نفسه.

ففى حالة أعداء التقدم تستخدم الخصوصية لتبرير الانغلاق على الذات باسم الحفاظ على هوية وهمية.. لأنه لا توجد هناك هوية ثابتة غير متغيرة عبر

العصور، فالهوية دائما متغيرة، وعناصرها متغيرة، وإن احتوت على بعض عناصر الثبات.

إذن، فهناك خصوصية يدعو إليها أنصار الانغلاق، وهؤلاء حريصون كل الحرص على التذرع بالهوية لمقاومة الانفتاح على العالم المتقدم، وخوفا منه فى نفس الوقت.

ولكن هناك خصوصية أخرى يلوذ بها دعاة التقدم ويؤكدونها، وهى خصوصية تنبع من مفهوم رحب لما يسمى بالتنوع الإنسانى.

نحن ـ الآن ـ فى الأمم المتحدة (وقد كنت أحضر اجتماعات وسط ما لا يقل عن ٢٠٠ دولة وأسمع عشرات اللغات، وعشرات اللهجات) وبالتأكيد لكل ثقافة من هذه الثقافات خصوصيتها.

ولكن هل هذه (الخصوصية) تتعارض مع (العمومية)؟

بالتأكيد لا..

أنا أتصور أن الخصوصية ـ عند دعاة التقدم ـ هى الوجه الآخر للإنسانية.

خصوصيتى لا تتعارض مع إنسانيتى، وإنسانيتى تعنى أننى وريث كل حضارات الدنيا، ومطالب بأن أسهم فيها بما يدفعها إلى الأمام، من حيث كونها حضارة (إنسانية) فى نهاية المطاف.

وخصوصيتى هى الجهد الخاص، الذى أبذله فى صنع هذه الحضارة، مستفيدا من موروثى الخاص، ومحاورا لكل موروث إنسانى فى العالم، انطلاقا إلى الأمام.

وبهذا المعنى تكون الخصوصية هى المرادف للتنوع الإنسانى الخلاق، وتكون مرادفا آخر لعدم الانسحاق فى ثقافة مهيمنة، ولعدم التبعية.

وإذا كنا نقف ضد (الاتباع) بمعناه الفكرى، و(التبعية) بمعناها السياسى/ الاقتصادى. فتصورنا المنفتح للهوية، هو تصور لما يجعلنى (أنا) أكون (أنا) على الرغم من علاقتى الوثيقة جدا بكل المختلفين عنى والمغايرين لى.

آخر!

● **أنت واحد ممن يعترفون بالآخر (على هذا النحو) سواء كان الآخر السياسى، أو الآخر الثقافى، أو الآخر العقائدى/ الدينى. ما هى جملة ملاحظاتك على هذا الآخر فى مستويات خطابه الثلاثة، خلال أزمة (وليمة لأعشاب البحر) الأخيرة؟**

○ ما الذى تقصده (بالآخر) فى وليمة أعشاب البحر؟

● **الآخر.. الضد!**

○ الدرس الذى استخلصته من تحليل أشكال الخطاب التى استخدمت فى فتنة وليمة لأعشاب البحر، أنه لا يوجد هناك فارق جذرى، بين من نسميهم المتأسلمين المعتدلين، والمتأسلمين المتطرفين، لأن الفارق ـ فى نظرى ـ ظل فارقا فى استخدام المفردات!

فمفردات المتأسلم المعتدل، خلت من كلمات مثل: (القتل ـ الدم)، ولكن فى التحليل النهائى كانت النتيجة واحدة.

هناك مناطق متفق عليها (لا توجد حرية للإبداع ـ لا توجد خصوصية للإبداع ـ ما يسمى بالحرية غير موجود).

ولهذا تجد ـ مثلا ـ مفكر مثل طارق البشرى، ومفكر مواز له مثل محمد سليم العوا، كلاهما انتهى إلى صياغة خطاب يرفض عملا إبداعيا، بحجة أن هذا العمل الإبداعى فيه شخصية تتلفظ ببعض عبارات غير لائقة دينيا.

كما انخرط كل منهما فى أحادية فكرية بعيدة عن السياق العام للعمل الأدبى، بل ذهب طارق البشرى ـ مثلا ـ إلى حد المطابقة بين شخصية كاتب الرواية وهو سورى، وشخصية البطل فى الرواية وهو ـ بالمناسبة ـ عراقى !!

وزعم طارق أن التشابه كبير بين الاثنين، كما لو كان هو يعرف مؤلف هذا البطل، وكما لو كان يحكم على نوايا الكاتب بما هو موجود فى الأعمال الإبداعية، وهذا ـ بالطبع ـ موقف أصولى فى النهاية.

إذن الفارق بين خطاب محمد سليم العوا وطارق البشرى من ناحية، والخطاب المتطرف لمحمد عباس (الذى أشعل الفتنة فى صحيفة الشعب) هو فارق غير جذرى.

بل إن هناك نقاطا مشتركة بين الاثنين، تتمثل فى: الحجر على الإبداع، وفى وضع قيود على حرية العقل الإنسانى.. وبالمناسبة فيها تجاهل للمبادئ الإسلامية الأصيلة، مثل: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] وكذلك ما روى عن مالك: «إذا ورد عن أحدكم قول يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد.. حُمل على الإيمان.. ولم يحمل على الكفر».. هذا كله استبعد وكأن هناك نوع من الاتفاق المضمر بين ممثلى مختلف التيارات المتأسلمة على تكفير هذه الرواية، الأمر الذى يجعلنى أتشكك فى المنطلقات الفكرية لما يسمى بالخطاب الدينى (وبالمناسبة الخطاب الدينى هو من صنع بشر وليس كالقرآن أو الكتب المقدسة) أقول يجعلنى أتشكك فى الخطاب الدينى، من حيث أنه خطاب يبدأ وينتهى بوضع أصولى، بمعنى أنه يتمسك ببعض المبادئ الوضعية، ويرى أنها المبادئ الوحيدة الصحيحة صحة مطلقة، وأنه لا ينبغى الخروج عليها بأى حال من الأحوال.

ومن هذا المنطلق، لا فرق بين الصقور والحمائم، أو بين المعتدلين والمتطرفين.

ولكن الفارق كبير جدا بين متأسلمى اليوم (معتدلين ومتطرفين)، ومشايخ الأزهر المستنيرين فى الماضى.

على سبيل المثال: لم يجد محمد عبده غضاضة - إطلاقا - فى أن يكتب فرح أنطون ما كتب عام ١٩٠٣، ويناقشه فى معنى الدولة المدنية، ومعنى التسامح، وعلى أساس أن فرح أنطون غير دينى أصلا.

وبنفس منطلق مشايخ الاستنارة، كان محمد فريد وجدى رئيس تحرير مجلة الأزهر يناقش إسماعيل أدهم عام ١٩٣٦، عندما كتب: (لماذا أنا ملحد؟!).

لقد فعل محمد فريد وجدى باحترام شديد جدا، وبإقرار حق إسماعيل أدهم فى أن يعلن إلحاده.

---

(١) سورة الكهف / ٢٩.

وإذا كان الخطاب الدينى ـ الآن ـ قد نسى هذه المبادئ السمحة، وطفق يتحدث من منطلق أنه يصون الإسلام ويحمى الإسلام، وأن أحدا لا يستطيع أن يخرج عما يعتبره هذا الخطاب مبادئ الدين، فإنه يكون قد أحال الدين ـ فى نهاية الأمر إلى تأويلات بشرية، تتحول بدورها إلى مبادئ جامدة.

هذا يجعلنى أتشكك فى أن هذا الخطاب الدينى القائم، هو خطاب مستعد أن يخوض حوارا ديمقراطيا، أو ـ حتى ـ يسهم فى تجربة ديمقراطية، أو حتى إذا نجح فى الحصول على الحكم، يمكن أن يسمح للمغايرين أو المختلفين بحق الوجود.. هذا مستحيل.

النتائج واضحة لنا الآن!

ودليلى البسيط هو.. خذ ـ مثلا ـ ما قيل حول رواية وليمة لأعشاب البحر، ستجد ـ باختصار ـ أن الجماعة الثقافية المصرية انقسمت إلى نصفين:

أحدهما هو الضعيف الهامشى، المدنى، الذى يعترف بحق المبدع فى الكتابة، وبأن الأعمال الإبداعية لا تُقرأ حرفية، وتعترف بحق المفكر فى الاجتهاد ـ حتى ـ وإن أخطأ.

والنصف الآخر صوته أعلى، لأنه المسيطر على الثقافة العامة، ولديه وسائل اتصال جماهيرية قوية، ولن تجد اختلافا كبيرا بينه وبين خطاب التطرف ـ لحظة الأزمة ـ لأن الفصيلين (المعتدل و المتطرف) من المتأسلمين ـ فى التحليل النهائى ـ ينتهيا إلى نفس المعانى.

وللأمانة لم يكن هناك استثناء غير صوت الدكتور زقزوق وزير الأوقاف، وهو الصوت العاقل المعتدل الوحيد، الذى ظهر فى الأزمة، حين قال: إن الأزمة ـ كلها ـ مصطنعة، وكان ما أغنانا نحن المسلمين أن نفجرها وأن نقيم الدنيا ولا نقعدها، فنسىء إلى صورة الإسلام.

وفيما عدا هذا الاستثناء كانت كل الخطابات الدينية، خطابات واحدة، تصب فى نهاية واحدة، وتتحرك من منطلقات واحدة، وكلها منطلقات معادية للديمقراطية!

مؤامرة!

● **أصبح فكر المؤامرة (فى هذا الإطار) علما وصناعة فى مصر المحروسة.. بل ونشأت حوله طبقة من المنظرين والمبرراتية.. وصرنا مواجهين فى أية مناسبة، بصيغ سابقة التجهيز، تتحدث عن تربص الغرب بنا، وتنوعت ردود أفعالنا إزاء هذه الأوهام، ما بين (دونية) و (استعلاء).. الأولى تحقر من قدراتنا على الالتحاق بالعصر، وترد ذلك إلى المؤامرة الكونية الشريرة. والأخرى تحاكم قيم هذا العصر وتدينها إدانات أخلاقية، وتراها أيضا انعكاسا لذات المؤامرة.. كيف ترى أزمة العقل المصرى الحالية فى ظل نظرية المؤامرة.. دونية واستعلاء؟**

○ أنا من المتشككين فى نظرية المؤامرة إلى أبعد حد.

فأنا من المؤمنين أن أية كارثة ثقافية تحيق بالإنسان، له إسهام كبير فيها.

فالغرب لن يغزوك ثقافيا إلا إذا كنت مستعدا لأن تُغزى ثقافيا.

وكونك جاهزا لأن تُغزى ثقافيا، ينطلق - أساسا - من الرفض الأعمى والانغلاق على النفس. لكن لو كانت ثقافتك عقلانية، تؤمن بالحوار، وبالتعدد، وبوضع الأشياء موضع المساءلة، يستحيل أن يستطيع طرف غزوك ثقافيا، وأن تكون ثقافتك خاضعة.

أول علامات الاستقلال - بكل معانيه - هى استقلال العقل، ومعنى استقلال العقل هو تحرره من كل قيد مسبق، وقدرة هذا العقل - فى حركته الحرة - على أن يخضع كل شىء (يقع فى دائرته) موضع المُساءلة!

هذا العقل لا يمكن أن يُستغل، ولا يمكن أن يكون تابعا تبعية سياسية أو اقتصادية أو فكرية بأى حال من الأحوال، أو أن تتلبسه الروح الدونية أو المستعلية التى كنت تتحدث عنها.

من هذا فليس لدىَّ ما لدى البعض من إيمان عميق بنظرية المؤامرة.

ولكن ـ بالتأكيد ـ فإن هناك قوى تريد لمصر أن تكون ضعيفة (وبالمناسبة ليس من الضرورى أن تكون أجنبية، ولكن يمكن أن تكون إقليمية)، ولا تريد لها أن تمارس دورها الحيوى.

مصر لها دائما دورها الحيوى، وبمجرد أن تتحرك فيه تملأه! وتفرض وجودها وحضورها، الذى يراه البعض سيطرة.

من المؤكد أن هناك قوى تريد أن تفعل ذلك، وهناك قوى تريد تحجيم الثقافة العقلانية الحقيقية، وهناك ـ بالمناسبة ـ وسائل مباشرة ووسائل غير مباشرة لتحقيق هذا، منها ـ مثلا ـ أن كتابات التطرف تدعم ـ عمليا ـ من بعض القوى الإقليمية، وأن هناك شخصيات عربية توزع كتب ابن تيمية مجانا، وخصوصا كتاب (الفتاوى) الذى يحتوى مجموعة المبادئ الأولى للتكفير.

وأنا أعرف أن هناك مكتبات فى مصر تتلقى تمويلا خارجيا كى تطبع كتبها ذات التوجه الدينى، ويتم توجيه بعض أموال الزكاة إلى مجموعة من المشايخ ورموز التيارات الإسلامية فى مصر، للإنفاق على الفقراء، فيذهب بعضها إلى الفقراء، ويذهب البعض الآخر إلى أشياء أخرى.

وهناك أجهزة إعلام تعمل على استقطاب الكتاب المصريين واستكتابهم، وترويضهم إذا أمكن، وإذا لم يكن من الممكن ترويضهم، أذابتهم وسط زحام آخر.

من المؤكد أن هناك قوى تريد أن تحجم دور مصر الثقافى، وقوى تريد أن تسلب مصر دورها الثقافى، وقوى كانت تريد أن تحل محل القاهرة (ثقافيا) مثل بغداد، طوال فترة صعود صدام حسين قبل أن يقدم على كارثته.

نعم هناك قوى داخلية، وقوى خارجية تحاول أن تحجم دور مصر الثقافى، ولكن لن يحجم دور مصر الثقافى إلا مصر.

الثقافة المصرية ضخمة وليست صغيرة، وهذه الثقافة الضخمة لن يحجمها إلا

صانعوها وأجهزتها. وهنا تتحقق الكارثة، وتتحقق فكرة المؤامرة. . ولكن لحسن الحظ أن هذا لا يحدث.

● ولكن فكر المؤامرة يظل سائدا سواء فى قطاع ذى توجه أصولى دينى، أو فى قطاعات أخرى؟

○ لا نحن نتكلم الآن من وجهة نظرنا (باعتبارنا مثقفى دولة مدنية)، ولكن إذا ذهبت إلى الجانب الآخر، ستجد أن نظرية المؤامرة هى عنصر أساسى من التكوين الفكرى للجماعات المتأسلمة، فتكوينهم الفكرى كله قائم على أن الإسلام فى خطر (على نحو ما يفهمونه)، وأن هذا الإسلام الذى فى خطر، يواجه بمؤامرة من الملاحدة الكفار، الذين يوظفون مجموعة من الملاحدة المحليين لتدمير الإسلام!

التيار المتأسلم كله متفق على هذا، وهو عنصر أساسى من تكوينهم، وبالمناسبة، فإنه - حتى - الإلحاح على ذلك له دلالة كاشفة، وهى أن ذهنيتهم نفسها غير مستقلة، بمعنى أن هذا الذهن الأصولى يعتمد على تقليد مجموعة من الكتابات وحفظها، والنظر إليها على أنها مبادئ لا تقبل الجدل أو الشك أو المساءلة أو المراجعة، وعندما يرى أى شىء يحدث من حوله، فإنه يرده إلى أصل معاد. ومن هنا، فإن فكرة المؤامرة بالنسبة لهم أساسية جدا.

ثنائية!

● (الظلاميون) و (التنويريون) مصطلحان نحتا لنفسيهما وجودا فى اللغة اليومية لكتائب الصراع الاجتماعى والثقافى فى مصر.. هل تعتقد أنهما مجرد وصفين مجردين تجريدا عاليا، يقران ثنائية أخرى، من تلك الثنائيات الشائعة/ الذائعة فى بر مصر (مع التاريخ/ ضد التاريخ.. علمانى/ ملحد.. وطنى/ خائن).. أم أن دلالات كل منهما تتسع لتشير إلى منظومة حقيقية مركبة من المعانى والأفكار؟

○ أنا شخصيا (على الرغم من أننى معروف بكثرة كتاباتى عن التنوير، لم أعد أميل ـ كثيرا إلى هذه الثنائية (تنويرى/ إظلامى) لأنها فى حالات كثيرة لا تدل على شىء.

الثنائية الحقيقية التى تدور حولها معركة فعلية، ولكنها تأخذ أشكالا مختلفة، هى: (دولة مدنية) و (دولة دينية).

أنصار هذه الدولة الدينية يعتمدون على تأويل بعينه للدين، ويترتب على هذا مجموعة من النتائج المعروفة.

وهذه النخبة المأولة دينيا، لابد أن تتعصب لتأويلها، وكل من يصطدم بهذا التأويل يصبح خارج الجنة فى الدنيا وفى الآخرة.

وفى المقابل هناك مجموعة تريد أن تقيم دولة مدنية، يحكمها مبدأ الفصل بين السلطات، ودستور مدنى يحقق المصالح المشتركة لمجموع المواطنين، من دون تمييز على أساس من الدين أو الجنس أو العرق.

فى داخل هذا المربع المتحمس للدولة المدنية، هناك من يدافعون عن دولة شبه مدنية، وهناك من يريد دولة مدنية ليبرالية على الطراز الأمريكى، وهناك من يريد إقامة دولة اشتراكية ديمقراطية على الطراز السويدى مثلا، ولكن فى التحليل النهائى، مطالبتهم ـ جميعا ـ تكون بدولة مدنية.

استخدام هذه الثنائية (دولة دينية/ دولة مدنية) سيضعنا على أرض صلبة، ولا يوسع دائرة العداء، وخصوصا أن هناك مجموعة من المستنيرين دينيا ليسوا ضد الدولة المدنية، فهم يؤيدونها ويروجون لها.

الذين لا يصطدمون بالدولة المدنية هم العقلاء، لأن الدولة المدنية هى التى تحمى التوجهات الدينية، لسبب غاية فى البساطة، وهو أن هذه الدولة ـ بطبيعتها ـ قائمة على احترام كل الأديان من ناحية، وعلى احترام التأويلات المختلفة فى كل دين من ناحية ثانية. وعلى هذا الأساس فإن الدولة المدنية ستسمح للمسلم،

بالوجود المشترك مع المسيحى واليهودى، وستسمح بالوجود المشترك بين المسلم الشيعى والسنى والمعتزلى، لسبب بسيط، هو أن هذه الدولة هى ـ بطبيعتها ـ قائمة على عدم التعصب لتيار دينى، وهذا مالم يحدث فى أى دولة دينية فى تاريخنا الإسلامى.

حداثة!

● إلى أى مدى يتصل ـ إذن ـ مفهوم الدولة الحديثة، بتأسيس آليات لإسهام المثقفين فى تشكيل قرار الدولة بالرأى فى المجالات المختلفة، مع النظر لاختلاف الحالة المشار إليها عن مفهوم (التنفيس) التى تتظاهر فيها بعض السلطات فى العالم العربى، بمشاركة المثقفين، على حين تكون هذه المشاركة هامشية أو غير جادة، اتفقت الأطراف على أن يكون لها شكل أو صوت المشاركة من دون مضمونها؟!

○ بوضوح شديد، ومن النهاية، فإن الدول العربية ذات الطابع المدنى، تسعى لأن تكون دولا حديثة ومدنية بالمعنى الحقيقى ولكننا لا نستطيع أن نقول، إننا فى هذا المكان أو ذاك على امتداد الأقطار العربية نعيش فى دولة حديثة، بالمعنى الموجود فى أوروبا، أو فى الولايات المتحدة الأمريكية.

هناك دول عربية ـ تتفاوت بالقطع من حيث تجربتها التاريخية ـ قطعت جزءا من طريق الالتحاق بالمدنية، أو الالتصاق بالحداثة.

وعلى سبيل المثال، فإن الدولة المدنية فى مصر أقدم من غيرها من الدول العربية الأخرى، فمن عصر محمد على باشا، وهى قد بدأت ما يسمى بتحديث الدولة وفكرة حضورها المدنى، ولها تاريخ فى هذا، تستطيع كمثقف أن تتذكره وأن تحدث به وعيا لدى الناس.

فعندما افتتحت الجامعة المصرية ـ مثلا ـ فى ديسمبر ١٩٠٨، جاء سعد زغلول

(الأزهرى التكوين) لحضور الافتتاح، وسمع الكلمات والخطب التى ألقيت فى هذه المناسبة، فقال: إن أحسن الكلمات كانت كلمة عبد الخالق باشا ثروت، وأسوأ كلمة قيلت هى كلمة أحمد زكى بك (الذى أصبح فيما بعد أحمد زكى باشا) لأنه تحدث فيها عن الدين وتاريخه ودوره، وليس هذا ـ من وجهة نظر سعد زغلول ـ ما ينبغى أن يقال فى افتتاح جامعة لا دين لها إلا العلم!!

وعندما يتولى الملك فاروق الحكم، بعد وفاة الملك فؤاد، يقترح الوصى على العرش فى هذا الوقت أن يؤدى الملك فاروق اليمين الدستورية أمام الأزهر، فيرفض مصطفى النحاس باشا تماما ويهدد بالاستقالة، ويصر على أن الملك فاروق (بوصفه رئيس دولة مدنية) ينبغى أن يؤدى اليمين الدستورية أمام البرلمان، الذى هو بلورة السلطة المدنية!

وعندما صدر دستور ١٩٢٣ (على الرغم من كل الانتقادات الوفدية التى وجهت لهذا الدستور لأن الوفديين كانوا خارج الحكم ولم يقوموا بإصداره)، فإنه حمى طه حسين عام ١٩٢٦ فى أزمة (فى الشعر الجاهلى)، ومكن محمد نور رئيس نيابة مصر من الإفراج عن عميد الأدب العربى، معتمدا على نصوص دستور ١٩٢٣ ، التى تنص على حرية الرأى والعقيدة.

هناك تراث هائل وقديم للدولة المدنية فى مصر.

يكفى أن تعرف أن أول مدرسة للبنات افتتحت فى مصر عام ١٨٧٣ ، وأن أول مدرسة للبنات فى قطر افتتحت عام ١٩٧٣!!

- **لو سمحت لى ـ يا دكتور ـ فأنا أكلمك عن حقيقة مشاركة المثقفين فى تشكيل القرار السياسى بالرأى.. مساهمة هذا المجتمع المدنى برموزه ونجومه ممثلى التيارات المختلفة التى تحولت عن تشكيل القرار السياسى بالرأى، إلى «نمرة» تؤدى فى القنوات الفضائية العربية، وبدا وكأن الأطراف جميعا متفقة على حدودها؟**

O كلامك فيه بعض الحق.

ولكن المسئولية ـ هنا ـ مشتركة فى تقديرى، يعنى بمقدار ما ينبغى توجيه اللوم إلى الحكومة لأنها لا تسمح للأطراف المتباينة أو المتعددة للمثقفين فى أن تدلى برأيها، ومازال الضوء الأخضر الذى تعطيه هو لفصيل من المنتفعين سياسيا انتهى عمره الافتراضى منذ سنوات.

بمقدار هذا ينبغى توجيه اللوم لمؤسسات المجتمع المدنى، لأن جهودها مبعثرة مشتتة، وهى لم تأخذ نفسها بالحزم الكافى فى تأكيد كثير من القضايا.

ففى أزمة مثل أزمة (وليمة لأعشاب البحر) وعندما توجه النيابة الاتهام لواحد مثل الأديب إبراهيم أصلان، لم يوقع سوى ٣٥٠ إلى ٤٠٠ مثقف على بيان بالاشتراك معه، وهذا فى مصر التى يبلغ تعدادها ٦٢ مليون نسمة. أما فى لبنان ذى التعداد المحدود، فقد وقع ألف مثقف على عريضة واحدة فى التضامن مع مارسيل خليفة عندما قُدم للقضاء بتهم دينية أيضا.

هذا معناه أن مؤسسات المجتمع المدنى عندنا مازالت متشرذمة ـ فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة التى يجب أن تذكر بالتقدير.

أما الأحزاب السياسية فى مصر، فهى ـ للأسف ـ أحزاب صورية قامت بما يمكن تسميته المحاكاة Stimulation لبطريركية الدولة، وأصبحت هى الأخرى أحزابا بطريركية.

وإذا نظرت لأى حزب فسوف تجده صورة طبق الأصل من الآخر، رجل وحوله مجموعة من الناس، ولم يحدث فيها هذا الحراك الذى يمكن أن تحس به فى إنجلترا أو فرنسا!

وفى نفس الوقت، فإن التجربة الديمقراطية للمثقفين المصريين مازالت صغيرة، ولذلك فإن العيار كثيرا ما يفلت، وسرعان ما ينفرط عقدهم، وينشغلوا بقضايا ثانوية عن القضايا الأساسية.

وبالمناسبة، فإنه من الأشياء الجميلة جدا فى أزمة (وليمة لأعشاب البحر) أنها جمعت المثقفين المصريين.

لو رفعت مؤثر الأزمة، وهدأ هؤلاء المثقفون، ينفرط عقدهم مرة أخرى، ويسير كل منهم فى طريق.

أضف على ذلك، أنه ـ حتى الآن ـ هناك عند المثقفين مفهوم خاطئ عن علاقة المثقف بالدولة، فبعض هؤلاء المثقفين ـ على الأقل ـ تبدو الدولة ـ بالنسبة له، وكأنها كتلة سوداء، فتجد شخصا يقبل العمل فى الجامعة، ولكنه لا يقبل أن يعمل فى وزارة الثقافة بمعنى أنها (دولة)!!

ولكن ما ينبغى أن يقال فى هذا السياق، اختزالا وبلورة، هو أنه بمقدار ما تكون لدينا الشجاعة لأن نتوجه بالنقد إلى الدولة بمؤسساتها وبتنظيماتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنه يجب ـ فى نفس الوقت ـ أن نضع مؤسسات المجتمع المدنى موضع المساءلة.

فمن غير المعقول أن تكون لديك مؤسسات مجتمع مدنى من ١٨٣٤ يعنى من أكثر من قرن ونصف قرن، وهى تتكون فى كل اتجاه، ولم تحدث أية مراجعة لها.

حوارك جعلنى أسترجع هذه الحقيقة الآن، وهى حقيقة مدهشة، إذ لم يعقد عندنا مؤتمر، ولم تقم جهة ما بمراجعة أو دراسة لعمل وآليات عمل المجتمع المدنى فى مصر.

ربما لو حدث هذا نستطيع أن نضع أيادينا على أسباب ضعف مؤسسات المجتمع المدنى ونجعلها أكثر قوة.

التعويل على الحكومة هو المبدأ السائد الآن.

فإذا أردنا إصدار مجلات ثقافية ننتظر إلى أن تصدرها الحكومة، ولا أعرف لماذا لا نصدرها نحن، مع أن مؤسسات المجتمع المدنى قوية وتستطيع هذا.

وبالمناسبة، فإن التعليم فى مصر يتم عن طريق مؤسسات مجتمع مدنى (NGO'S)، فالجامعة المصرية كانت جامعة أهلية، وهذا على سبيل المثال.

إذن الدور الذى يمكن لمؤسسات المجتمع المدنى أن تلعبه، هو دور فاعل جدا، ولو لعبته فسوف يكون عائده رائعا فيما يتصل بإشاعة جو العقلانية فى التفكير، وفى محاربة أفكار التطرف بين الجماهير، وباستئصال أو ـ على الأقل ـ تقليص دوائر خطاب العنف (الذى يستخدم حتى فى اللغة العادية).. هذا سيجعل الناس أكثر وعيا بحقوقهم وواجباتهم بما سيكون له مردود سياسى واقتصادى رائع!

اختباء!

● **لا أحد ـ يا دكتور جابر ـ يستطيع الاختباء فى هذا الزمان الجديد.. وانتهاكات الملكية الفكرية التى أوشكت أن تصبح عرفا أقوى من القانون، صارت ـ الآن ـ مرئية، وفى الإمكان متابعتها، وفى الإمكان مطاردتها.. ما هو تقديرك للأهمية، التى يجب أن تلقاها مثل هذه القضية فى الحياة المصرية؟ وما الذى جعل السرقات الفكرية والإبداعية النشاط الأكثر انتشارا وسط الجماعة الثقافية فى مصر؟!**

○ مسألة الملكية الفكرية والإبداعية من المسائل التى أصبحت تكتسب أهمية متزايدة جدا فى هذا الزمان، خصوصا بعد أن وقعت أغلب الأقطار العربية (إن لم يكن كلها) على اتفاقيات الجات، وهذه الاتفاقيات أصبحت سارية المفعول، وتقوم الآن مجموعة من الأجهزة والقوى العالمية بالمراقبة وباقتراح العقاب.

وآخر ما أعرفه من معلومات بحكم صلتى بهذا الموضوع، أن إسرائيل هى أكثر جهة فى الشرق الأوسط تنتهك حقوق الملكية الفكرية والإبداعية، وقد وجه لها أكثر من إنذار، وبالتالى فإن الخطوة المقبلة هى أن أى انتهاك إسرائيلى آخر لحقوق الملكية الفكرية سيقابل بالعقوبات.

فى هذا المجال، مصر فى إطار السمعة التى لا بأس بها، حتى بالقياس إلى دول عربية مثل دبى.

لكن سواء كنا نتحدث عن اتفاقية الجات أو منظمة التجارة الدولية أو منظمة دولية مثل «الوايبو»، فإننا يجب أن نعرف أنها ـ جميعا ـ تمثل مراقبة كونية (جلوبال) لهذه القضية، وقد أصبح تأثيرها رادعا، خصوصا أن العقوبة أصبحت تتعدى السارق إلى الدولة نفسها!!

فقد حدث فى لبنان ـ مثلا ـ حادث قرصنة بالسطو على دائرة المعارف البريطانية وطباعتها على (CD-ROM) وبدلا من أن تباع بألف دولار، أصبحت تباع بخمسين دولارا.. هنا العقوبة ستوقع على لبنان، وليس على الفرد السارق.

إذن المراقبة الدولية ـ فيما يخص الملكية الفكرية ـ أصبحت فعالة، ولكن هناك أشكال أخرى من الاعتداء على الملكية الفكرية ستظل قائمة، وخصوصا فى العالم الثالث وبلادنا العربية.

فمن الممكن جدا أن يقرأ أحد قراصنة الإبداع رواية ويحولها إلى قصيدة، أو أن يقرأ قصة قصيرة ويحولها إلى مسرحية.

الثقافة المصرية ـ مثل غيرها من ثقافات منطقتنا ـ فيها الموهوبين، وفيها غير الموهوبين.

وللأسف فإن غير الموهوبين ـ كالعادة ـ يريدون أن يحصلوا على كل شىء، ويكون ذلك بالقرصنة والتحايل للاغتصاب، وبعض هذه الحالات لا تستطيع أن تطبق عليه القانون، فهو يدخل فى نطاق (الحالة الأخلاقية) أكثر منه (الحالة القانونية)، ولا يمكن مقاومته إلا برأى عام مستنير ضاغط، هو الذى يستطيع أن يتدخل، ويحمى، ويمنع.

وللأسف ليس لدينا هذا الرأى العام المستنير، وبالعكس، تنشب فى الساحة الثقافية المصرية معارك، وتتبادل فيها الأطراف شتائم بذيئة جدا، ولا يحرك أحد المثقفين ساكنا.

ولو كان هناك رأى عام ضاغط، لَردَعَ من يخرج على حدود اللياقة، أو ـ حتى ـ على حدود العرف فى مسألة الأمانة الإبداعية والأمانة العلمية.

وللأسف، فإن لدينا أساتذة متخصصين فى سرقة الكتب!

وأسوق ـ هنا ـ حالة رئيس لجامعة الأزهر، حكم عليه فى قضية من هذا اللون فى المحكمة. . ولم يفعل أحد ضده شيء.

ونحن فى لجان الترقيات فى الجامعة نرى حالات سرقة فادحة، وكل ما نملكه أو نستطيع فعله، هو أن نكتب تقريرا للمجلس الأعلى للجامعات. . وعلى الرغم من ذلك، فإننى لم أسمع عن واحد ممن كتبنا تقارير ضدهم بهذا المعنى قد فصل من الجامعة.

هذه ـ كما قلت ـ حالة أخلاقية ترتبط بوجود رأى عام ضاغط، إضافة إلى عدم وجود معايير محددة داخل الساحة الثقافية، ومن ثم اختلاط الحابل بالنابل، وهذا الخليط لا يمكن أن يمنعه ألف قانون دولى أو منظمة مثل «الوايبو». ولكن ما سوف يمنعه هو تطوير الحالة الثقافية من داخلها، وتقوية العناصر العقلانية الحقيقية والأصيلة، لأنها حينما تكبر تصبح قوة ضغط وتطرد العناصر الأخرى غير الأخلاقية!

فائض!

● ذكرت لى فى حوارك الممتع ـ يا دكتور جابر ـ نقطتين مهمتين فى الواقع، إحداهما: هى تطوير الثقافة المصرية من داخلها، والتى ذكرتها حالا، والنقطة الثانية: هى تدوير فائض الثقافة المصرية فى ماكينات غير مصرية (والتى ذكرتها عند شرحك للدعم غير المباشر للتطرف).

هل استطاعت خطة المجلس الأعلى للثقافة استيعاب فائض الطاقة الثقافية المصرية، وتدويره فى ماكينة ـ جد ـ مصرية، بدلا من أن يدور فى ماكينات أخرى إقليمية تمثل مجتمعات تختلف فى درجة النمو الاجتماعى والثقافى عنا؟

ثم كيف تقيم الدعاوى التى ترى اختيارات المجلس فى عضوية اللجان، وفى الأعمال التى يتبناها، منحازة إلى اتجاه ثقافى وفكرى بعينه؟

O هذا ليس سؤالا واحدا، إنه سؤالان!

وبالنسبة للأول، أظن أن المجلس الأعلى للثقافة ـ فى حدود اختصاصاته أسهم فى تدوير فائض العمالة ثقافيا، وأول ما يطرأ على ذهنى فى هذا المجال، المشروع القومى للترجمة، فقد نجحنا وبدعم من الدولة، ابتداء من الرئيس مبارك، وانتهاء بفاروق حسنى، أن نجيش كما رهيبا من المترجمين المصريين ليبدعوا فى مجال الترجمة بأكثر من ٣٥ لغة.. وهذا أمر يحتاج إمكانيات مادية فادحة.

ولأول مرة فى تاريخ الثقافة العربية، نخرج من دائرة المركزية الأوروبية.

وبالطبع هناك ترجمة عن الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والألمانية. ولكن إلى جانب هذا، هناك ترجمات عن الصينية والفارسية والكرواتية والصربية والتركية والحبشية، ولغة الهوسا، والعبرية واللغات الروسية المختلفة!!

الآن لدينا مشروع يستوعب فعلا طاقات جيش من المترجمين المصريين، بل إن هناك من هؤلاء من لم يكن يفكر فى الترجمة أساسا، لأنهم مرتبطون بلغات لا أحد يهتم بها، ولكن الموقف تغير ـ بالنسبة لهم ـ تماما.

أضف إلى المشروع القومى للترجمة، المؤتمرات التى نقيمها، وهى لم توسع هوامش الحوار الديمقراطى بين المثقفين المصريين والعرب على اختلاف تياراتهم وأجيالهم فحسب، ولكنها خلقت حوارا بيننا وبين الأعلام الثقافية والإبداعية الأجنبية أو المقيمة فى الخارج (الأرجنتينى باراساجيوس، والفرنسى چاك دى ريداه ـ وفى نوفمبر المقبل إدوارد سعيد).

محاضرات، بل وصدامات بين هؤلاء والحاضرين، وصل چاك دى ريداه فى أحدها إلى اتهام الحضور بأنهم لم يقرأوه جيدا!!

هذه اللقاءات الحية والحوار المباشر يخلق روحا جديدة فى الحياة الثقافية المصرية.

وأظن أن هذا شىء شديد الأهمية فى تدوير فائض الطاقة الثقافية الذى كنت تحدثنى عنه.

وفوق هذا، فقد بدأنا نصدر مجموعة من المجلات المتخصصة، ولدينا مجموعات عمل تشتغل على تصورات إستراتيجية عن الثقافة المصرية فى القرن الحادى والعشرين.

لقد فعلنا كل هذا داخل المجلس، ولو كان غيرنا عمل بنفس النشاط، لكانت صورة مصر الثقافية قد اختلفت للغاية.

أما حكاية أننا متعصبون لتيار التى وردت فى سؤالك يا دكتور عمرو، فهى حقيقية.. وحقيقية جدا!!

نعم.. نحن متعصبون للتيار العقلانى الذى يحترم حرية الرأى والتفكير، ويحترم حق الخطأ، ويحترم الاجتهاد.

نحن نضرب لهذا التيار «تعظيم سلام» !!، بكل ألوان الطيف التى تندرج تحته، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين.

نعم.. مرة أخرى نحن نتعصب لتيار واحد، هو تيار الدولة الحديثة المؤمن بالنظر إلى المستقبل، بل وبالتطوير إلى الأفضل.

أن يسمى المثقف نفسه ليبراليا أو إسلاميا أو ماركسيا أو بعثيا أو ناصريا، فهو حر، ولكن ما يعنينا أن يكون مؤمنا بالدولة الحديثة.

وهذا هو منهجنا فى التفكير حتى فيما يخص التيارات والمذاهب الفنية، ففى لجنة الشعر بالمجلس ستجد المتحمسين لقضية النثر، وستجد المتحمسين للقصيدة العمودية. أما أن يكون العضو شاعرا من أصله، فهذا لن يحدث أبدا !!

فى لجنة الفلسفة ستجد كل التوجهات، ولكن يغلب عليها طابع واحد هو

طابع الثقافة المدنية العقلانية المتحررة التى تؤمن بالحرية، وبالتجريب، وبالمغامرة، والانطلاق.

لكن هذا التيار واسع جدا وعريض، يستطيع أن يستوعب اتجاهات متعددة تشمل كل التوجهات الثقافية الحقيقية والأصيلة فى مصر.

لا يدخل فى الحسبة ـ هنا ـ مثقف يرى نفسه الوحيد الذى على صواب، والباقون ـ كلهم ـ مخطئون خطاؤن، ثم يقول إننا نتجاهله !!

هو ـ أصلا ـ يتجاهل الكل!

لا تأتينى بممثل لتيار التكفير، وكل ما يقوله ـ أناء الليل وأطراف النهار ـ يصب فى خانة تكفير الآخرين، وتقول لى إنه يجب أن يشارك، فمثل هذا الشخص يصادر على المطلوب، ولا ينبغى أن يكون طرفا فى ممارسة ديمقراطية، لأنه صادر عليها من البداية، وإلا كنا بصدد حالة يريد صاحبها الديمقراطية كى يذبحنا !!

ومع ذلك فنحن فى مركز القوة، بدليل أننا دعونا ـ حتى ـ المتطرفين للمناقشة معهم، ففى أكثر من مرة دعونا د. محمد عمارة، وفى أكثر من مرة قبل الدعوة، ولكن فى اللحظة الحاسمة للحضور، لم يحضر.

التيار العقلانى المسيطر على المجلس هو تيار قوى، واثق من نفسه، مستعد للحوار.

وزمان كانت التهمة التى توجه للمجلس هى أنه كله من الشيوعيين، وبعد ذلك بقليل أصبحت التهمة أن كل المجلس ناصريون.. والحقيقة أن المجلس فيه ماركسيون، وناصريون، وقوميون عرب، وليبراليون، ومنه من يرفع شعار الفكر الدينى !!

● من يرفع شعار الفكر الدينى فى المجلس؟

○ هناك مجموعة موجودة فى لجنة الفلسفة من دون ذكر أسماء، وكذلك مجموعة أخرى فى لجنة العلوم الاجتماعية.

● ذكرت فى حوارك ـ أيضا ـ أن كل التيارات بأجيالها ممثلة فى أنشطة المجلس، ولكننى ـ وهذه ملاحظة خاصة ـ أرى أن الچونتة الثقافية العربية التى تحضر فعاليات أنشطة المجلس ورموزها ونجومها هى كما هى لم تتغير.. أليس هناك جيل جديد من المثقفين العرب، وما هى سماتهم، والعناصر التى شاركت فى تكوينهم؟

○ لا أوافقك على هذا السؤال. .

فالذين نوجه لهم الدعوة نوعان:

أولهما قامات معروفة لا يمكن أن تتجاهلها، وهؤلاء أنت مضطر، وفى نفس الوقت يشرفك دعوتهم.

فعندما نذكر مجال الشعر. . من ذا الذين يستطيع أن يتجاهل أدونيس، أو محمود درويش، أو سعدى يوسف، وهؤلاء يشرفنا أن يحضروا، وما حدث فى الشعر يحدث فى كل المجالات المختلفة.

هناك شخصيات لا تستطيع أن تتجاهلها، ويشرفنا حضورهم باستمرار، يعنى أنا ـ شخصيا ـ يشرفنى باسم المجلس أن مثقفا مثل إدوارد سعيد يحضر سنويا.

ولكن إلى جانب هذا، فإننا نبحث ـ باستمرار ـ عن الأجيال الجديدة.

وعلى سبيل المثال: فى مؤتمر المرأة ـ الذى عقدناه منذ شهور ـ حضره ١٢٠ مدعوا، أؤكد لك أن ٣٠ من المدعوين فقط كانوا من المعروفين، والتسعين الآخرين من الأسماء الجديدة.

فى مؤتمر المرأة حضرت ٢٠ باحثة لبنانية للمرة الأولى، وقد كن رائعات، ومنهن واحدة كتبت كتابا غير مسبوق عن السجن.

وفوق هذا، فقد اتبعنا تقليدا جديدا، هو أننا نطلب من كل اسم من المدعوين التقليديين أن يرشح لنا عشرة أسماء جديدة، ومع كل منهم بعض المعلومات،

ومن ثم تتكون لدينا قاعدة معلومات عن الأجيال الشابة الجديدة من المثقفين والمبدعين العرب.

سمات هؤلاء الجدية، ولا يكررون ما قيل من قبل، ولديهم أفق مختلف، واطلاع على كل التيارات الجديدة فى العالم ، ودرجة عالية من الجذرية فى التفكير.

وخذ مثلا على هؤلاء الوفد المصرى، الذى يحضر الدورة الحالية لمراجعة نصف العقد لنتائج مؤتمر المرأة فى بكين.. وستجد أفضل عناصر هذا الوفد الشابات، مثل: ليلى جمعة، وليلى الخواجة، وأخريات يفخر المرء بهن ويفرح!!

أستطيع أن أعد لك عشرات.. هدى الصده، نيفين مسعد، هالة فؤاد..

لقد كانت إحدى النتائج المفرحة لمؤتمر المرأة لى ـ أنا شخصيا ـ أننى اكتشفت جيلا من الشابات الباحثات مختلف وبديع .

بل وستجد أن الرجل الثانى فى المجلس الأعلى للثقافة الآن، عماد أبو غازى، هو نموذج مشرف، وحوله شبان مثل الورد، يشعرونك أن المستقبل القادم مفرح.. نعم.. المستقبل مفرح!

- ٢٠٠١ -

❑ ❑ ❑



عن « المهرولون » و « متى يعلنون وفاة العرب » وديمقراطية الكلمة وأشياء أخرى:

نزار قبانى

لا أخاف على قصيدتى .. من القصيدة الإسرائيلية!

- إليكم أقدم إفادتى عن عشقى المصرى.. وعليها توقيعى!!
- الشعر وحده هو مولاى وسيدى!
- منذ « هوامش على دفتر النكسة » عام ١٩٦٧ تخليت فى شعرى عن عقلية الفتوات!
- إسرائيل ليست بُعبُعا ثقافيا يخيفنا!
- أجلد بلادى بقصائدى حتى تقف على قدميها!
- منذ هزيمة ١٩٦٧ استقلت من حزب عنترة بن شداد!
- العالم العربى ـ اليوم ـ شوربة يختلط فيها اليمينى باليسارى، بالماركسى بالرأسمالى، بالعلمانى بالأصولى، بالقطرى بالوحدوى بالانفصالى، بالقبلى بالطائفى!!

● فى الخمسينيات كنا نكتب لشارع عربى ملتحم وموحد النسيج.. أما فى التسعينيات فنحن نكتب على الماء.. والهواء!

● لا يمكننى تجميل الوطن إذا لم يكن جميلا!

● الشاعر (فرخة) يذبحونها ويقدمونها فى الحفلات الرسمية.. فهل تستطيع فرخة مذبوحة أن تقدم البديل؟!

● ألوف الخناجر التى زرعها النقاد والرجعيون والمتزمتون فى جسدى خلال خمسين عاما كانت بسبب واقعيتى فى شعر الحب أو شعر السياسة!

● فى زمن تنكيس الرايات.. واستقالة السيوف، وموت الصهيل.. فإن كل قصائد الفخر التى نقولها لا تساوى مليما واحدا!

● لا أجد نفسى مضطرا للاعتذار لأحد عن قصيدتى (متى يعلنون وفاة العرب)!

● أنا عصفور يغنى لهذه الأمة.. ولست مجلس السوفييت الأعلى.. أو مجلس الكونجرس.. أو مجلس قيادة الثورة!!

● سقطت قصيدتى (متى يعلنون وفاة العرب) بين أيدى القبائل فاغتصبوها كل على طريقته!

● الضريبة التى دفعها المثقفون تحت وطأة إرهاب التطرف.. هى ضريبة قديمة يدفعها كل من يفكرون بالتغيير.. أو بالتنوير.. أو بخض عقول حجرية!

كان شرطنا المتبادل قبل بدء هذا الحوار هو أن يكون صريحا بلا حدود، وتصادميا إلى آخر مدى، وحقيقيا لا يأتيه الزور من بين يديه ولا من خلفه!

(اتفقنا) على أن يكون (اختلافنا) بلا سقوف تفرضها علنية الحوار الصحفى، وعموميته.

و (اتفقنا) على أن (اختلاف) وجهات نظرنا أو آرائنا، لا ينبغى أن يتقيد بأية شكليات شخصية أو برتوكولية، سواء فى شكل الأسئلة المرسلة، أو فى حرفية الإجابات الموجهة.

وهكذا ـ بالضبط ـ كان حوار «الأهرام» مع الشاعر الكبير نزار قبانى الذى يخوض الآن واحدة من أسخن معاركه، ويشتبك على ساحات متعددة فى آن واحد، فمن قصيدة (المهرولون) لقصيدة (متى يعلنون وفاة العرب؟)، لبعض نبش وفتح فى الملفات القديمة من (هوامش على دفتر النكسة) إلى (علاقة الكلمة والسلطان). . ثم إلى مناقشات شعرية وأدبية صرفة تمتد من الموقف من قضية الحداثة حتى الموقف من النقاد وحركتهم النقدية.

وأخيرا يصل الحوار إلى نقطة أعطى فيها الشاعر ما أسماه إفادته عن عشقه المصرى وعليها توقيعه.

وهنا نص الحوار:

- **«المهرولون» [قصيدتك ـ المعركة] الأخيرة، فتحت بابا جديدا للصدام والاصطدام معك. هل تظنك كنت فيها مع حتمية التاريخ تقف إلى جوار المستقبل، وإلى جوار عواطف وأفكار**

الجيل الطالع، أم كنت مع تاريخك أنت، تقف إلى جوار الماضى الذى كان.. وإلى جوار تجربتك الشخصية سياسية كانت أم شعورية؟

○ أنا شاعر لا يبرمج قصائده ومشاعره، ولا يسعى لاسترضاء أحد سوى الشعر.

الشعر وحده هو مولاى وسيدى، وهو الذى يأمرنى فأمتثل، ويستكتبنى فأكتب. . ويقول للقصيدة كونى فتكون. .

أنا لا أنبش فى رماد الماضى قط. . ولا أقف على الأطلال، ولا ألتفت ـ إطلاقا ـ إلى قصيدة كتبتها قبل يومين.

إن عينى دائما على الأفق، وعلى شواطئ لا أعرفها، ومدائن لا أعرفها. . وعلاقات لغوية وإبداعية لا أعرفها.

إننى أبحث دائما عما يدهشنى، قبل أن يدهش الآخرين.

لذلك تنفجر الأعاصير من حولى بين فترة وأخرى دون أى تخطيط سابق، وكما قلت دائما: لست أنا الذى أكتب القصيدة، بل هى التى تكتبنى.

القصيدة تنفجر بين يدىَّ، وتبتر أصابعى. . ولكننى لا أستدعى سيارة الإسعاف، وإنما أتلذذ برؤية دمى السائل.

● **يمعن البعض ـ بمناسبة الهرولة ـ فى الحديث عن تحديات وأهوال صراع ثقافى وحضارى قادم بين العرب وإسرائيل، هل ترى لإسرائيل ذلك الوزن والثقل الثقافيين من خلال آراء مثقفيها أو إبداعات فنانيها، والذى يجعل العرب ترتعد فرائصهم أمامها خوفا من أن تبتلعهم ثقافيا أو تكتسحهم فنيا؟**

○ إسرائيل ليست بُعُبعا ثقافيا يخيف أحدا سوى ضعفاء النفس وضعفاء

الإرادة. قد تتفوق إسرائيل علينا عسكريا وتكنولوچيا وتنظيميا، ولكنها من حيث الإبداع تأتى فى الدرجة العاشرة. فشعراؤنا أهم من شعرائها، وروائيونا أعظم من روائييها، وفنانونا التشكيليون ومسرحيونا وممثلونا ومغنونا متفوقون على الإسرائيليين بشكل حاسم. ولقد تعايش اليهود معنا فى المنطقة منذ عصر النهضة حتى اليوم، فلم يخرج من بينهم شعراء بمستوى شوقى ومطران والبارودى، أو كتّاب كالعقاد، وتوفيق الحكيم، وطه حسين، ونجيب محفوظ، أو مفكرون كمحمد عبده، ورفاعة الطهطاوى، وعلى عبد الرازق، أو موسيقيون ومغنون كسلامة حجازى، ومنيرة المهدية، وسيد درويش، وأم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، أو ممثلون ومسرحيون على مستوى فاطمة رشدى، ونجيب الريحانى، ويوسف وهبى، وأمينة رزق.

إذن لا خوف علينا من أية هجمة إسرائيلية تلغينا وتمحو ثقافتنا، فنحن متجذرون فى هذه الأرض شعرا، ونثرا، ورسما، ونحتا، وعمارة، وإبداعا.. منذ خمسة عشر قرنا. وإذا تحدثنا عن الحضارة الفرعونية، والآشورية، والفينيقية، والكنعانية، والبابلية، والسومرية، والآرامية، والكلدانية.. فيمكننا أن نقول: إننا أولاد حضارة عمرها خمسة آلاف سنة.

شعريا لا أشعر بأى عقدة من أى شاعر إسرائيلى. فالشعر من مواليد الجزيرة العربية، وسوف يبقى كذلك...

قد يكون لدى إسرائيل قنابل نووية تهددنا بها.. ولكن ليس لديها قصيدة جيدة واحدة تهدد بها الشعر العربى!!

النفخ فى قربة مثقوبة!

● كان رد الأستاذ نجيب محفوظ حول (المهرولون) يحمل معانى ودلالات مهمة، وكان ردك على الرد يحمل أيضا منطقا خاصا ومتماسكا. هل يمكن اختزال الموقف فى هذه القضية التى تطرح

نفسها بقوة على الساحة العربية السياسية والثقافية فى الرسائل (اللطيفة) بينك وبين الأستاذ نجيب محفوظ، أم أن هناك تيارات واسعة تتبنى مواقف مختلفة حول هذه القضية؟

ارسم ـ من فضلك ـ ملامح خارطة عربية ثقافية تحدد فيها مواقع القوى وحركة التيارات حول هذه القضية؟

○ لا يمكن رسم أية خارطة سياسية أو ثقافية للعالم العربى الحالى.. فلقد تمزقت جميع الخرائط، وتداخلت كل الخطوط والألوان.

العالم العربى اليوم (شوربة) يختلط فيها اليمينى باليسارى، بالماركسى بالرأسمالى، بالعلمانى بالأصولى، بالقطرى بالوحدوى بالانفصالى، بالقبلى بالطائفى.. وأمام هذه اللوحة الموزائيكية المرعبة.. لا يمكن للكاتب أن يعرف مكان رأسه من مكان قدميه.

فى الخمسينيات كنا نكتب لشارع عربى ملتحم وموحَّد النسيج.. أما فى التسعينيات فنحن نكتب على الماء.. والهواء!

وأمام هذه (الشوربة) التى ليس لها لون ولا طعم ولا رائحة، وأمام هذا الشارع العربى الممنوع من النطق، والتجول، والغضب، والاحتجاج، وممارسة حقوقه فى الفرح أو البكاء.. أو الانتحار.. يصبح الأدب نوعا من النفخ فى قربة مثقوبة، وتصبح الكتابة مشيا على زجاج مكسور.

إننى أكتب قصيدتى هذه الأيام ولا أعرف أين ستقضى ليلتها.. فى السجن.. أو فى غرفة الإنعاش.. أو فى ملجأ الأيتام!!

● **إذا كنت تدين (المهرولون) فى اتجاه السلام أو التطبيع. ما هو البديل؟**

○ هذا ليس شغلى. فالشاعر لا يشتغل فى الوعظ والإرشاد، ولا يخطب فى الناس يوم الجمعة، إنه شغل من يجلسون على رقابنا منذ خمسين عاما، ويلعبون

بنا على كيفهم، ويرسمون مصائرنا على كيفهم، ويقطعون ألسنتنا على كيفهم، ويسلخون جلدنا على كيفهم.

الشاعر (فرخة) يذبحونها.. ويقدمونها فى الحفلات الرسمية.. فهل تستطيع فرخة مذبوحة أن تقدم البديل؟

أنت بسؤالك عن البديل.. تناقض ما جاء فى تعليقك الذى نشرته فى (الأهرام الدولى) بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٩٥، وفيه تقول:

«نحن نحاكم الشاعر أو المثقف بمعايير محاكمة رجل الدولة، ونحتكم إلى مرجعيات سياسية سلطوية.. أو حزبية معارضة. فى حين ينبغى الاحتكام إلى مرجعيات شعبية ووجدانية.

المثقف المبدع، هو ضمير حى، يخترق المألوف والتقليدى والممكن فى كل لحظة. وهو غير ملزم أو ملتزم بالحسابات السياسية والموقفية»..

هذا هو كلامك يا دكتور، فكيف تطلب منى أن ألتزم الموقف والحسابات السياسية، وأقدم البديل؟!

المنفلوطى والتفاحة!

● **سهل على الشاعر أن يتبنى أكثر الآراء لمعانا وحماسية.. ويقعد فى حديقة غنّاء، أو فى منزل وثير فى هذه العاصمة الأوروبية أو تلك.. يقضم قضمة من تفاحة حمراء، ويطلق قصائده اللذيذة عن الكفاح المستمر. ألا تعتقد أنه قد آن الأوان لك أن تترجل عن جواد الأحلام الذهبى وتنزل إلى الشارع، وآلام الناس وواقعهم؟**

○ عن أى تفاح ـ وأى حديقة غنّاء.. وأى منزل وثير تتحدث أيها الرجل؟.. خيالاتك تذكرنى بخيالات مصطفى لطفى المنفلوطى.. وأسلوبك فى التهويل مثل أسلوبه.

وأنا أتحداك أن تجد فى كل شعرى تفاحة واحدة حمراء، أو صفراء.. أو

تجدنى أقشر اللوز والفستق للسابحات الفاتنات على شواطئ نيس وكان ومونت كارلو . .

أما مطالبتك لى بأن أترجل عن صهوة جواد الأحلام، وأنزل إلى الشارع، وإلى آلام الناس وواقعهم . . فهى دليل على أنك لم تقرأ شعرى جيدا . . ولا تعرفنى .

هل ممكن لمثقف مثلك أن يطلب منى بعد خمسين عاما من الالتحام بأجساد وأحلام وأحزان ودموع وقضايا مئتى مليون عربى أن أكون واقعيا . . وأنزل إلى الشارع؟؟

إننى أرفض أن أدخل فى حوار معك عن واقعية نزار قبانى . . لأن ألوف الخناجر التى زرعها النقاد، والرجعيون، والمتزمتون فى جسدى خلال خمسين عاما، كانت بسبب هذه الواقعية وفوق الواقعية التى اعتمدتها فى شعر الحب . . أو فى شعر السياسة .

لست أنا من يُطلب منه أن ينزل إلى الشارع . . لأننى أسكن الشارع العربى منذ خمسين عاما . . فإذا كنت لا تعرف عنوانى . . فأنا آسف!!

أما منازلنا فى المدن الأوروبية فهى شقق متواضعة جدا، ولا تستحق هذا الحسد غير المبرر . إن منازل الكتّاب والمبدعين والمغنيين العرب فى العواصم الأوروبية، ليست سوى ملاجئ اضطرارية يجدون فيها الحد الأدنى من السلام والحرية .

ويؤسفنى أن أقول تعليقا على هذا السؤال :

(حتى على النفى لا أنجو من الحسد)!!

● (المهرولون) أو (المحجمون) طائفتان تستند كل منهما إلى أسباب تبدو وطنية، بل وتبدو قومية. ألا ترى ـ كمثقف عربى كبير ـ أننا بحاجة إلى صياغة عقد ثقافى عربى جديد، يحدد مثل هذه المعانى

الأولية بدقة، فى زمن أصبحت فيه النسبية ـ هى الأساس الذى يحكم كل المعانى والمواقف؟

○ أنا لا أعارض قيام مثل هذا العقد الثقافى العربى الجديد. شريطة أن يبقى فى حدود المحافظة على حقوقنا التاريخية وسيادتنا وشرفنا القومى، هذه بديهيات لا يمكن أن تدخل فى باب المساومة.

أما فكرة (النسبية) ومقولة (ليس بالإمكان أبدع مما كان) أو (عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة) فهى فلسفة طوباوية لا يعتنقها سوى المحبطين والضعفاء واليائسين.

● **تستوقفنى كثيرا هذه الروح السائدة فى قصائدك السياسية، والتى تركز على تعذيب الذات الوطنية والقومية وتحقيرها، وكسر أى عامل من عوامل الزهو الوطنى أيضا.. هل أجد عندك تفسيرا لهذا؟**

○ منذ قصيدتى (هوامش على دفتر النكسة) التى كتبتها عام ١٩٦٧، تخليت فى شعرى عن عقلية (الفتوات)، والفَشْوَره.. والمرجلة.. والعنتريات الفارغة.. والانتفاخ القومى والشوفينى.

أين هو الزهو الوطنى الذى تتحدث عنه؟ وكيف أكتب عن الشمس إذا كنت لا أراها.. وعن الوردة إذا كنت لا أشم رائحتها.. وعن الرقى إذا كنت أعيش عصور الانحطاط.

لا يمكننى تجميل وطن ما عاد جميلا.. فأنا لست طبيبا من أطباء التجميل أو منشدا فى الكورس الجماعى.

أنا شاهد على عصرى، ورسام انطباعى يرى الأشياء بحجمها الطبيعى وألوانها الطبيعية، ولا يضع اللون الوردى مكان اللون الأسود.

فى عصر الهزائم والسقوط والتشرذم والتفكك و (الهرولة) لا مكان لعنترة بن شداد.. وأبى زيد الهلالى.. وعقبة بن نافع.

هؤلاء الأبطال كانوا أبطالا فى وقتهم.

أما فى زمن تنكيس الرايات.. واستقالة السيوف.. وموت الصهيل.. فإن كل قصائد الفخر التى نقولها لا تساوى مليما واحدا.

البيت الملغوم!

● **فإذا ما عقد العرب صلحهم مع إسرائيل، وإذا ما انخرط العرب - جميعا - فى مشاريع لتنمية المنطقة بالمشاركة مع إسرائيل، وإذا ما تغيرت لغة العرب فى الحديث عن أزلية الصراع وتاريخيته، فماذا أنت فاعل؟**

○ قبل أن تسألنى ماذا سأفعل؟.. اسأل الإسرائيليين ماذا يريدون - بالضبط - من بلادى ومنى ومن مستقبل أولادى؟

إذا كان الإسرائيليون يريدون أن يعيشوا مع العرب وبينهم، كما كانوا يعيشون فى ظل الدولة الإسلامية فى يثرب، وغرناطة، وقرطبة، وطليطلة، والمغرب العربى، والقاهرة، وبغداد، ودمشق، أى مواطنين فى مجتمع ديمقراطى تتساوى فيه كل الديانات والعقائد.. ويتساوى فيه المواطنون فى حقوقهم المدنية وواجباتهم.. فأهلا وسهلا بهم.

أما إذا كانوا يريدون أن يحتفظوا بترسانتهم النووية كما هى.. وبمستعمراتهم كما هى.. وبفكرهم البوليسى كما هو.. فهذا يعنى أنهم لم يتخلوا عن أحلامهم التوسعية وفكرهم التوراتى.

أما مؤتمرات التنمية، والترويج لفكرة السوق الشرق أوسطية، والاهتمام بالتجارة والاقتصاد والاستثمارات.. قبل الاهتمام بالمسألة القومية وبمصير الأرض التى لا تزال مرتهنة لدى الإسرائيليين.. فيشبه وضع العربة قبل الحصان.

إننى أعتقد أن فكرة السلام العادل والشامل والدائم لم تنضج - بعد - فى

الفكر الإسرائيلى. وما لم يقتنع الإسرائيليون بأننا جيرانهم، وأبناء عمومتهم، وأننا من سلالات إبراهيم عليه السلام.. فإن الحياة معهم فى بيت ملغوم فى كل أركانه بالمتفجرات.. لن تكون حياة سعيدة أو ممكنة..

● (متى يعلنون وفاة العرب)، توقف البعض عندها بوصفها قصيدة هزمت الشعور القومى وحاولت إصابته فى مقتل.

هل حددت ـ قصدا ـ ملامح دورك فى أن تطلع على الناس كل عقد أو عقدين، لتضرب شموخهم وتحطم كبرياءهم الوطنية أو القومية؟

○ مرة أخرى، أنت تعود لتتكلم بلغة عنترة بن شداد..

ومرة أخرى أقول لك: إنى لا أفتعل التعبير ولا أتقصده.. فأنا أرى، وأسمع، وأحس بكل ما يجرى حولى..

إن سرادق الموت العربى منصوب فى كل مكان.. والقرآن يُتلى.. والمعزون يجلسون فى صمت.

فكيف يمكننى أن أكتم خبر الموت.. وكل الجرائد، والإذاعات، ومحطات التليفزيون نقلته على الأقمار الصناعية.

إن موت الأنظمة ـ ولا أقول موت الشعوب ـ حادثة لا يمكن التستر عليها.. كما لا يمكنك إخفاء جثة فى خزانة ملابسك؟!

● أعرف ـ مسبقا ـ أنك ستحدثنى عن روح القبلية السياسية العربية، وعن تخلف الواقع عن طموحاتك وأحلامك، وعن العجز السياسى والاجتماعى فى عالمنا العربى..

ولكن هل تكفى هذه العناصر لتكون مسوغات نعترف فيها ـ جميعا وطواعية عبر قصيدتك ـ بوفاتنا؟

○ وفاتكم تحزننى.. ولكننى لا أستطيع أن أترككم فى الثلاجة، دون أن أكتب فيكم قصيدة رثاء.. تليق بسيرتكم غير العطرة، وأنانيتكم، ونرجسيتكم، وديكتاتوريتكم التى لا تغرب عنها الشمس.

على كلٍّ أنا لا أجد نفسى مضطرا للاعتذار لأحد عن قصيدتى التراچيدية.. ولكن العناصر التى ذكرتها فى سؤالك تكفى فى نظرى لقتل ديناصور.

إن الموت هو الحادثة الوحيدة التى لا يشعر فيها الميت بالعيب!

● أستاذ نزار.. أمتك ـ هذه ـ التى طالما غنيت لها، وغنيت عنها، والتى رددت أشعارك، وحفظتها عن ظهر قلب.. أتراها تستحق أن تقبع فى مكانها فى انتظار إعلان الوفاة؟

○ صيغة سؤالك تذكرنى بما كان يقوله الرئيس أنور السادات عن معارضيه من السياسيين والصحفيين..

كان يقول عنهم: (دول بيشتموا مصر).. (دول بيخونوا مصر).. (دول بيتآمروا على مصر).. فى الخارج.

وحقيقة الأمر أن السادات كان لا يفرق بينه كحاكم، وبين مصر المحكومة، فهو أبو المصريين جميعا.. وغير مسموح للأولاد أن يخرجوا على طاعة أبيهم.

وفى تاريخى الشعرى، خلط ناقدون كثيرون ـ وأنت واحد منهم ـ بين العرب، ومن يحكمون العرب.

ولأن الشعب العربى مغلوب على أمره.. ولا يحل ولا يربط، ويذهب إلى صناديق الاقتراع لينتخب بنسبة ٩٩,٩٩٪ إلها واحدا مدى الحياة.. فإننى لا أسمح لنفسى أن أشتم شعبا خرجت من حاراته الشعبية، ومن مواويله البلدية، ومن أعراسه ودموعه وأحزانه.

● مازال الموقف النقدى من قصيدة (متى يعلنون وفاة العرب؟) فى

إطار الاشتباك السياسى، من دون التوقف النقدى الفنى أمامها، وبالطبع لا أتوقع أن تكون منتظرا نقدا فنيا لقصيدة مقاتلة. ما هى فى رأيك حصيلة كل النقد الذى جوبهت به هذه القصيدة؟

○ حصيلة النقد لقصيدتى (متى يعلنون وفاة العرب؟) أنها سقطت بين أيدى القبائل فاغتصبوها كل واحد على طريقته، واحد أخذ خواتمها. . وواحد سرق أساورها. . وواحد استولى على محفظتها. . وآخرون جردوها من ثيابها، وباعوها بالمزاد العلنى لقاء الحصول على بعض الدولارات وقليل من الشهرة.

وهكذا تقع كل قصائدى المثيرة للجدل بين تجار البيع بالجملة والمفرق. . وبين أيدى المرتزقة. . وتجار الشنطة!

أما البحث عن بناء القصيدة، وصياغتها، وقيمها الجمالية. . فأشياء غير معروفة فى سوق البورصة للثقافة العربية!

ردح نقدى!

● **يظنك البعض قد أسقطت من قضيتك الفنية والشخصية على قضية الوطن وقضية الأمة، فحين كان الموضوع ينبغى أن يكون (متى يعلنون وفاة الشعر؟) باعتبارنا فى زمن داست فيه الرواية كل الأبيات، وجدناك تطرح (متى يعلنون وفاة العرب؟) فى إطار تصورت فيه أن الآخرين داسوا كل مقدرات الأمة أو قدرتها على النهوض.. فانظر ماذا ترى؟**

○ ما تقوله عن موت الشعر، وسقوطه تحت أقدام الرواية. . ليس صحيحا، فلا يزال الشعر هو الأكثر تأثيرا وتحريضا للإنسان العربى، لأنه جزء من موروثه الروحى والثقافى.

والشعر يشعل فتيل الانفعال فى جسد المواطن العربى خلال لحظات. أما الرواية فهى علاج بطىء، ولا يحدث تأثيره إلا بعد مرور أشهر أو سنوات.

إن تجربتى الشعرية فى كل مدينة عربية ألقيت فيها قصائدى، تؤكد أن الشعر هو الخبز اليومى الذى يحتاج إليه كل مواطن عربى ليبقى على قيد الحياة. أما الرواية فهى فاكهة يتناولها بعد وجبته الرئيسية التى هى الشعر.

● فى النقد العربى الحديث والمعاصر فصل فى باب الهجوم على نزار، ولهذا الفصل منظروه ومتاجروه والمرتزقون به ومن وراءه.. ما هى حصيلة قراءاتك فى هذا الباب؟

○ لا أشغل نفسى كثيرا فى قراءة هذا (الردح النقدى) الذى ينشر عنى، فى الصحف والمجلات الأسبوعية العربية، بل أفضل أن أشتغل بكتابة قصيدة جديدة.

صحافتنا بحاجة - دائما - إلى فريسة تملأ بها معدتها و يا طالما ملأت معدة الصحافة العربية، وأسكت جوعها.. بأخبارى التى لا تنتهى، حتى مللت من سماع أخبارى ورؤية تصاويرى.

وأنا متفق معك، فى أن أقلام تجار النقد ومرتزقته حولت تاريخى الشعرى إلى (سوبر ماركت) وجسدى إلى وليمة.

● تسود الساحة الثقافية والفكرية العربية اليوم روح تكفيرية لافتة.. وإذا كنت - وكنا معك - ندين التكفير العربى أو القومى لكاتب من حجمك، أو لا ترى أنك أيضا فى (متى يعلنون وفاة العرب؟) كنت تطرح فكرا تكفيريا ضد العروبة.. يكفرهم فى إيمانهم بالعصر أو ارتباطهم به، ويكفر أحلامهم فى أن يكونوا رقما صحيحا فى عالم اليوم؟

○ يؤسفنى أن أقول لك: إن رؤيتك لقصيدتى مشوشة، وتحليلك غير دقيق!!

فأولا: أنا لم أكفر العرب، وإنما هم الذين كفروا بأنفسهم.. وخانوا تاريخهم واستعذبوا الهوان والهزيمة والغيبوبة.

وثانيا: أنا لم أقطع علاقة العرب بالعصر.. إذ لا علاقة لهم بعصرهم الذين يعيشون فيه مطلقا، إنهم فئة جديدة من أهل الكهف.. لا تشعر بحركة التاريخ.. ولا بإيقاع الحياة.

وثالثا: أنا لم أمنع العرب من أن يحلموا.. بل على العكس أنا أصرخ فى وجوههم حتى يفكروا.. ويحلموا.. ويغامروا.. ويبحروا إلى شواطئ المستحيل.. قبل أن يتحولوا إلى كوم من الحجارة.

● **أيضا عن (متى يعلنون وفاة العرب؟). هل ترى أن السخط الذى قوبلت به كان سخطا نقديا أو جماهيريا؟**

○ لا هذا.. ولا ذاك.. فالقصيدة شقت طريقها إلى الجماهير العربية، واستقبلت بحفاوة فى كل مكان.

وهذا دليل على أن الموتى يعشقون الشعر، ويرقصون على إيقاعاته الجميلة!

● **ولماذا آثرت أن تكتب بنفسك شهادة وفاة العرب، ولم تدع غيرك يكتبها؟**

○ بما أننى الناطق الرسمى بلسان مئتى مليون عربى عاطفيا وسياسيا، فقد كلفونى أن أكتب هذه الشهادة!!

ضريبة التنوير!

● **يتأمل البعض وجودك الدائم خارج الوطن.. ويرونه نفيا اختياريا، أو نفيا بإرادتك.. هل هذا النفى رفض للوطن؟**

○ فى مثل سنى أعتقد أنه من حقى أن أختار مكان إقامتى وطريقة حياتى. إننى حين أفعل هذا لا أرفض الوطن، ولكننى أعطيه الوقت الكافى، حتى يشتاق لى.. وأشتاق إليه.

الالتصاق الدائم بالوطن أو بالمرأة، ليس ضروريا وليس صحيحا، فالمسافة بيننا وبين من نحبهم مهمة جدا، حتى تبقى المشاعر طازجة، والشوق مشتعلا.. والشعر ممكنا.

إن ألوف المبدعين فى العالم، من شعراء، وقصاصين، ورسامين، وموسيقيين.. اكتشفوا عبقرية المسافة بينهم وبين أوطانهم، فتحول المنفى عندهم إلى جنة تجرى من تحتها أنهار الإبداع.

الوطن قمر يزداد استدارة وجمالا وبريقا، كلما نظرنا إليه من بعيد.

● يسقط شعراء وأدباء ومفكرون مضرجين بدمائهم، تحت وطأة الجماعات الدينية المتطرفة. كما تختنق الكلمات فى صدور مبدعين، وأفكار فى رؤوس مثقفين، تحت وطأة إرهاب سلطات سياسية متطرفة أيضا.. أى إنتاج إبداعى يمكن أن ينشأ بين شقى هذه الرحى؟

○ ليس هناك جديد تحت شمس القهر والتطرف بكل أشكالها السياسية والدينية والثقافية. حتى الأنبياء والقديسون لم ينجوا من أذى التعصب والعذاب والصلب.. ابتداء بالسيد المسيح، ونبينا محمد بن عبد الله، ووصولا إلى سقراط.. والحلاج.

إنها ضريبة قديمة، يدفعها كل من يفكرون بالتغيير.. أو بالتنوير، أو بخض عقول حجرية، ومجتمعات ترفض أن تتغير.

يعنى أن التصادم أزلى بين النار والماء.. بين الوردة والحجر.. بين سنبلة القمح والمنجل.

وعلى الرغم من هذا السيف المسلط فوق رقابهم، سيظل الكتاب يكتبون.. والشعراء يغنون، والمفكرون يفكرون.. والعشاق يعشقون.. إذ ليس من خيار ثالث أمامهم.

● آلية العلاقة بين السلطة والكلمة.. كيف تصفها فى هذا الزمان؟

○ إنها علاقة لا وصف لها، لأنها أقرب إلى علاقة السيف بالجسد، وحبل المشنقة بالرقبة.. والبلدوزر بالحصى.

ومادام السلطان لا يتخلى عن سلطته. والكلمات لا تتخلى عن سلطتها. فلابد لصراع السلطات أن يستمر إلى الأبد.

● فى دوائر السياسة، وفى مقاهى المثقفين.. هل تبصر اليوم قوى حية وفعالة، قادرة على صياغة واقع ديمقراطى جديد فى عالمنا؟

○ يؤسفنى أن أقول: إن الرؤية مضطربة، والأفق رمادى. فدوائر السياسة تكرر خطابها النرجسى.. والبوليسى.. والأوتوقراطى.

ومقاهى المثقفين.. تعيد إنتاج ثرثرتها، وجدلها البيزنطى.

لم يبق سوى المدارس والجامعات، فهى التربة الواعدة التى يمكن أن تخرج منها وردة الديمقراطية.

● (حقوق الإنسان) و (المجتمع المدنى) و(الليبرالية) كلمات ثلاث تلوكها الأفواه فى كل مكان فى العالم العربى.

هل تعتقد أنها كلمات نافذة إلى الجمهور فكرا ووجدانا.. وهى تعبر عن احتياج داخلى حقيقى لدى كل الناس؟

○ أعجبنى فى سؤالك كلمة (تلوكها الأفواه)..

فنحن نلوك الكلمات الكبيرة.. كاللبان.. ولكننا لا نبلعها، ولا نبصقها.

إننا نمضغ اللغة، والبلاغة، والشعارات، والحِكَم، والكلمات المأثورة.. كما يفعل الجمل الصحراوى.

وتسألنى ـ بعد ذلك ـ هل كلمات مثل: الليبرالية، وحقوق الإنسان، والحرية.. هى احتياج حقيقى لكل الناس!

طبعا هى حاجة حقيقية، ولكن من كثرة ما مضغوا أمامنا الكلمات الجميلة والرنانة والموزونة، والمقفاة.. أصبحنا لا نفرق بين الحرية.. و(التشيكلتس)!!

● كيف يمكن أن تتغنى بديمقراطية الكلمة، على حين تمارس عبر قصيدتك شكلا من أشكال الديكتاتورية الفنية والإبداعية لا تعترف بغير سواه؟

○ هذا تحقيق بوليسى معى.. وليس حوارا.. فأنا لا أعرف كيف يمكن لقصيدة أن تمارس الديكتاتورية؟!

إننى ألقى شعرى على ألوف المستمعين فى كل العواصم العربية، فهل أرغمتهم بقوة السلاح على سماع شعرى، وهل حملتهم فى اللوريات حتى ينتخبونى الشاعر الأوحد؟

ثم من قال لك إننى لا أعترف بشاعر سواى؟ هل شكا لك أحد الشعراء همّه من طغيانى وديكتاتوريتى؟!

إننى أتساءل من عند أى منجم مغربى تشترى هذه الوصفات الصحفية التى انتهى مفعولها؟!!! . .

عن الشعر نفسه!!

● **هل ترى لقصيدة النثر شرعية أدبية فى عالمنا العربى؟**

○ لست أنا الذى يمنح الشرعية لأية صرعة أدبية جديدة. بل قراء الشعر ومتذوقوه هم الذين يصدرون القرار.

● **لماذا تبدو مهاجما بقسوة لشعر الحداثة؟ وهل تفعل ذلك مخافة أن يهز مكانة قصيدتك أو سلطتها الصوتية؟**

○ لقد أسست جمهورية للشعر تمتد من الماء إلى الماء. . ولم يعد هناك شىء أخاف منه، ولمعلوماتك أقول: إن الشعب العربى بذوقه الأصيل، وحساسيته المدهشة هو الذى يختار شعراءه. . وليس هناك شعراء يخرجون بالصدفة من الصندوق كأوراق اليانصيب.

● **وهل تستطيع أن تقول إن قصيدة التفعيلة التى تتبناها قادرة على الصمود. وعلى أن تكون معبرة عن زمن جديد؟**

○ أنا لا أتبنى أى شكل من أشكال الشعر، وأعتبره سرمديا، إننى أكتب بحرية مطلقة، وأتحرك على الورقة كما تتحرك الريح.

أما صمود القصيدة، فلا علاقة له بزمن كتابتها، وشكل كتابتها. . بل له

علاقة بشعريتها فقصائد المتنبى رغم مرور أكثر من ألف عام عليها لاتزال طازجة، وناضرة، ومتداولة على ألسنة الناس.

أما قصائد الحداثة، فلا تجد من يتداولها فى أى سوق من أسواق البورصة فى العالم العربى.

● **إذا لم تكن عبر قصائدك قد ربيت أجيالا لخمسين عاما مضت قادرة على التصدى وعلى نسج الحلم الجميل، فإن ذلك لابد أن يدفعك إلى التساؤل عن الخطأ فى شعرك، والخطأ فى أفكارك.. هل فكرت بهذه الطريقة؟**

○ أنا عصفور يغنى لهذه الأمة.. ولست مجلس السوفييت الأعلى أو مجلس الكونجرس، أو مجلس قيادة الثورة.

العصافير لاتخطئ.. ولكن الذين يخطئون هم الذين ينتفون ريش العصافير، ويقتلعون حناجرها.

طائر السنونو لا يصنع وحده ربيعا.. كما يقولون.

والشعر لا يستطيع أن يقف وحده فى وجه البشاعة، والقمع، والتلوث، ومصادرة الأفكار، ومصادرة الأعمار.

والقصيدة وحدها، لا يمكنها أن تنقض على الجاهلية فتحولها خلال لحظات إلى فردوس ثقافى، وتدخلها إلى عصر النهضة.

● **أين أنت من خارطة المسرح الشعرى فى عالمنا العربى؟**

○ المسرح الشعرى تجربة لم أفكر يوما من الأيام فى دخولها، وهذا المسرح إلى انحسار حتى فى أوروبا، لأنه يعتمد لغة عالية فى تأليفها وصياغاتها وجمالياتها، لا تستطيع - فى أكثر الأحيان - ملامسة الوجدان الشعبى. فالشعب فى كل مكان يريد مسرحا يتكلم لغته، ويعكس همومه اليومية البسيطة.. يريد مسرحا يشبهه.

وأنا - شخصيا - مع المسرح المكتوب باللغة العامية، لأنه مسرح طبيعى، وعفوى، ولا افتعال فيه.

● المرأة كائن افتراضى يسيطر على كتاباتك الشعرية.. لماذا؟..

وأيضا هل يمكن أن تقنعنا بحداثة التجربة العاطفية لديك، والتى تجعلك تغرد بحب امرأة.. وعشق امرأة.. والتغزل فى امرأة؟

○ أود أن أصحح قولك إن المرأة كائن افتراضى. . لأن المرأة فى حياتنا، جزء من أنفاسنا، وأعصابنا، وتفكيرنا، ودورتنا الدموية. . أنا لا أفترض النساء، يا عزيزى الدكتور، ولكننى أعشقهن. . وأعجنهن بجلدى، ولحمى، ولغتى، وحروفى.

ثم لا أفهم معنى سؤالك عن حداثة التجربة العاطفية. . فهل تعتقد أن الحب هو موضة تتغير كل عام!

ليس هنالك - يا عزيزى - حب قديم، وحب حديث. . وإنما هناك حب واحد يشترك فيه قيس بن الملوح، وجميل بثينة، وفالنتينو، ونزار قبانى!!

● ما هى حكايتك مع مصر.. ما هى حكايتك مع القاهرة؟

قررت ثم عدلت أن تستقر بها فى الثمانينيات.

حضرت فى معرضها للكتاب واحتضنك الناس بحرارة بالغة، ثم اعتذرت فى العام الماضى رغم إلحاح المسئولين والمثقفين.

كيف تنظر للقاهرة؟ هل بوصفها رقما فى حرب العواصم الثقافية فى عالمنا العربى؟...

هل بوصفها مقرا ومستقرا لبعض العناصر التى احترفت الهجوم على كلماتك؟

هل بوصفها العاصمة التى لا تقدر على إغداق الذهب على الشعراء، كما أنها العاصمة التى لا يتسلطن أو يستوزر فيها شاعر؟

بصراحة أكثر.. هل احتجبت عن القاهرة، أم احتجبت عنك؟ وهل كان موقفك وليد فكرة، أو مبدأ، أو مصلحة؟

○ أنت فى سؤالك هذا، تشبه العزول، الذى يحاول ليلا ونهارا الإيقاع بين عاشقين. . فكل ما تقوله ـ يا عزيزى ـ أوهام فى أوهام.

فعلاقتى مع مصر سمن وعسل. . وحكايتى مع (بهية) و (عيون بهية) معروفة ومشهورة، ومبثوثة على جميع الأقنية والأقمار الصناعية .

مصر الأربعينيات أرضعتنى حليب الثقافة، ومصر الخمسينيات علمتنى الزهو القومى، ومصر الستينيات أطلقتنى كوكبا فى تاريخ القصيدة المغناه. . ومصر الثمانينيات لا تزال تسأل عنى، وتتابع أخبارى الشعرية كأننى واحد من أبنائها.

أما قضايا الإقامة والرحيل، فهى جزء من قدر الشاعر، فلا هو يعرف متى يبحر، ولا أين ترسو سفينته.

أما قراءة الشعر فى معرض الكتاب، فليست خدمة عسكرية أنفذها كل عام. . إننى لا أحب أن أحول قصائدى إلى عادات. . حتى تبقى علاقتى مع الجمهور دائما طازجة ومسكونة بالدهشة. . وهذا قرار اتخذته من زمان.

أما عن الذهب، فهو ـ كما تعلم ـ لا يشكل هما من همومى. . إن ثروتى الوحيدة هى قصائدى وجماهيريتى. . ولو كنت ممن يقفون على أبواب الخلفاء والسلاطين. . لكنت ـ الآن أغنى من أوناسيس، وأغاخان، وملكة بريطانيا.

إن مصر ـ عندى ـ سبيكة من الذهب. . لا أبادلها بكل ما فى خزائن الدنيا من سبائك.

ذهب مصر موجود فى ترابها العنبرى، فى نيلها العظيم، فى ترعها وكباريها،

في أشجار قطنها، في أصوات مؤذنيها، وعرق فلاحيها، والكحل الذي يمطر من عيون نسائها. . .

هذه هي إفادتي عن عشقي المصري. . وعليها توقيعي.

- ١٩٩٥ -

❑ ❑ ❑



د. مصطفى الفقى: (١)

عن النخبة.. والحاكم!

- العرب يعيشون ـ الآن ـ محطة بمحطة، وموقفا بموقف، ويوما بيوم!
- ما يجمعنا ـ اليوم ـ ليس حالة إجماع قومى، بمقدار كونها تدثرا بقوالب لفظية جامدة لا تخفى وراءها مضمونا متفقا عليه من جميع الأطراف!
- علينا أن نأخذ موضوع الإدارة الإسرائيلية الجديدة بقلق أقل، لأن القلق الذى وصل إلى حد الذعر فى بعض العواصم العربية سيسلبنا قدرة الفعل!
- هناك حالة إفلاس فكرى عامة على الساحة العربية تدعو كل طرف إلى التنقيب فى الماضى ونبش الذكريات!
- علينا أن نتعلم من الهنود حين لم يتجمدوا أمام «الغاندية» ووقفوايبتسمون للعالم، ولكنهم تحركوا ولحقوا بقطار التطور!
- حين يصبح التراث عامل يجذبنا إلى الوراء، فهذه جناية على التراث نفسه!

- ثقافة الديمقراطية غير موجودة فى عالمنا العربى بدءا من تعامل الأب مع أبنائه إلى نوع المشاركة السياسية المطروح على الناس!
- النخبة المصرية وجدت نفسها بين اختيارين، أحدهما أن تتحول إلى نخبة محدودة التأثير فى العالم العربى، والثانى أن تنسلخ عن مجتمعها وترتبط بالثروة !
- تكوين المصرى - حتى الآن - غير مؤمن بحركة الحزب السياسى، وهو يفضل العلاقة المباشرة مع الحاكم !
- تفسخ النخبة المصرية ناجم من أن الحياة العامة فى مصر لا تسمح لقانون الاختيار الطبيعى بأن يقدم القيادات !!
- حين كتبت (تجديد الفكر القومى) لم يكن فى خاطرى قصر حركة التجديد على تيار بعينه.
- مصر ليست مجموعة من المتطرفين أو أصحاب الفكر الخاص.. والجيل الجديد متعطش جدا للحوار.

منحنا الدكتور مصطفى الفقى المفكر القومى وسفير مصر فى النمسا وسلوفاكيا وسلوفينيا «السابق» شرف زيارة دار الأهرام الجديدة فى لندن، ومنحنا ـ فوق هذا وقبله ـ فرصة حوار شديد الثراء والحيوية، ناقشنا فيه اهتمامات النخبة وهموم الوطن، رؤية الحاكم، ورأى الناس.

والدكتور مصطفى الفقى هو ـ بالقطع ـ واحد من أبرز الذين يشكلون ملامح الحياة الثقافية فى مصر، بل وربما ملامح الحياة العامة، وهو يجمع فى شخصه خليطا من عناصر الدبلوماسى ـ و الأكاديمى والسياسى والمثقف، مع روح شعبية كاسحة، يتحكم فى ظهوره، ويسيطر عليها فلا تتجلى إلا بمقدار.

وهو واحد من أكبر محترفى فن «الملاغاة»، أى الحديث إلى الناس، كل بحسب اهتمامه، وكل بحسب ما تحصل من مستوى ثقافى أو فكرى.

هو قادر على مخاطبة الفلاحين فى الغيطان، أو أبناء البلد فى الأحياء الشعبية، كما هو قادر على مخاطبة هؤلاء الذين يتربعون فى جلال تحت لافتة (النخبة)، والذين جعلوا من التعالى أو الانعزال أو النأى صناعة وعلما!!

وهو بكل جوانب روحه وعقله، واحد من الذين يستطيعون «لم» الناس فى مصر، فى معرض الكتاب، أو فى أية ندوة أو محاضرة.. وهو أمر ـ لو تعلمون ـ عظيم فى هذا الزمان.

تناول الدكتور مصطفى الفقى فى ملاغاته الفكرية معى قضايا النخبة والحاكم، وطرح حدود رأيه ورؤيته بوضوح كامل، وتفصيل كبير، فجاء حواره قطعة فكرية شديد الإحكام.

وهنا نص الحوار:

● **ما بين الضغط على أكثر جوانب الحاضر الفكرى العربى إعتاما، ونعنى بهذا (الوعى المفقود والرؤية الغائبة)، كما حددت عنوانا لأحد كتبك، وما بين الضغط على أكثر جوانب المستقبل الفكرى العربى قابلية للإضاءة، ونعنى (تجديد الفكر القومى) كما حددت ـ أيضا ـ عنوانا لأحد كتبك، يبدو وكأن هناك فجوة أو مساحة خالية ما بين الحالتين أو الوضعين.. بحيث يمكن أن يتساءل المرء كثيرا ويتأمل كثيرا ويحار كثيرا، من أنى لنا أن نجدد الفكر القومى، ونحن أسرى لغياب الرؤية وفقدان الوعى؟**

○ أشكرك على دقة إحكام السؤال!

المسافة طويلة ما بين الطرفين، ولذلك فقد كان كل الذين يملكون حسا قوميا، يرفعون الصوت ـ فى السنوات الأخيرة ـ بالدعوة الملحة إلى تجديد الفكر القومى، ولا أقول إحياؤه، لأن الإحياء، هو أن يبعث الشىء كما كان، ولكن لنا تصورات ـ الآن ـ تجعل الفكر القومى، جد مختلف عن ذلك الطرح الذى ساد فى الستينيات، فى الحقبة الناصرية مثلا.

الدنيا تغيرت.. والعالم تحول.

الأمور فى سياقها، وتوقعاتها، تبدو مختلفة تمام الاختلاف، عما كان قائما من قبل، ومن ثم فمن الطبيعى أن ينطلق فكر التجديد من أرضية مغايرة، وبخطاب مختلف.

أنا ممن يعتقدون أن الأمة العربية تعانى غيابا فى الرؤية، فليس لنا تصور كامل، لما يمكن أن يأتى به المستقبل، وهى أمة أشبه بقوم يركبون قطارا ولا يعرفون آخر محطاته، على حد تشبيه مفكر صديق.

القضية الحقيقية هى أننا ليس لدينا حد أدنى من الإجماع القومى، على تصور واحد عن شكل المستقبل.. فقط، هناك عبارات عامة مثل: (السلام)، (الوحدة)، (القومية)، (الدعوة إلى التضامن)، (المصارحة)، (المصالحة)، ولكنها قوالب لفظية جامدة لا تخفى وراءها مضمونا فكريا، متفق عليه بين الأطراف العربية، وتلك - فى ظنى - قضية حقيقية، لابد لنا أن نواجهها، وأن نضع فى اعتبارنا أن النظرة الجزئية ومعالجة المشاكل - بشكل متقطع - لا تؤدى إلى نتيجة.

ولنأخذ الحركة الصهيونية - كمثال - فهى إستراتيجية طويلة المدى، قامت على رؤية منذ أكثر من قرن ونصف قرن، وجعلت لها هدفا طويل المدى، سعت إلى تحقيقه.

كل الأفكار الكبرى فى التاريخ تمثل رؤى، ثم تحققت، ونحن لا نستطيع - مثلا - أن نقول إن عبد الناصر - رغم أخطائه - لم تكن له رؤية، كما لا نستطيع أن ننكر على السادات أنه صاحب رؤية - رغم انتقاداتنا -، وباليقين نحن ندرك أن مبارك تتكون له - مع الأمة العربية فى هذه المرحلة - رؤية، نرجو أن تستقيم، وأن تستمر على المدى الطويل.

ولذلك فإن حديثنا عن تجديد الفكر القومى، يبدو - الآن - وكأنه من الأولويات المطروحة، فنحن بصدد أمة تسعى إلى (الحد الأدنى من التضامن)، وقد نجحت - إلى حد كبير - فى تحقيق ذلك فى القمة العربية الأخيرة فى القاهرة.

وهى أمة يمزقها التطرف الدينى والعنف السياسى، وهى - كذلك - أمة تواجه تحولات ضخمة دولية وإقليمية لم تكن مهيأة لها بشكل مسبق.

ثم جاء ما هو أكبر وأضخم، ألا وهو وصول حكومة إلى السلطة فى إسرائيل، لم يكن متوقعا - لدى كل الأطراف - وصولها، لأسباب تتصل بالرغبة فى أحادية النظرة، فقد تصورنا - ووقع الأمريكيون فى نفس الخطأ - أنه مادام

بيريز يتجه إلى المضى فى مسيرة السلام، فهو الذى سيستمر، إلا أن المجتمع الإسرائيلى والرأى العام الإسرائيلى، أفرزا حكومة مختلفة، وتتقدم هذه الحكومة بأطروحات متشددة للغاية، تبدو فيها متجاهلة لما تم فى السنوات الأخيرة، ومع ذلك فعلى العرب أن يتعايشوا مع هذه الحقيقة، وألا يشملهم عنصر المفاجأة بشكل يجعلهم يعتقدون أن كل شىء قد انهار، وأن عليهم أن يبدأوا من الصفر.

هناك مثل شعبى مصرى يقول: (الغربال الجديد له شده). ومن هنا لا أتصور أن أفكار نتنياهو وآراءه التى يطرحها ـ الآن ـ هى التى سوف تستمر، كما لا أتصور أن الآراء التى تنطلق من العواصم العربية ـ الآن ـ تعبر (بدقة) عن الواقع العربى الراهن.

نحن فى فترة الجس، وبالونات الاختبار، والتصريحات.. وأعتقد أن الأمر سيختلف بعد ذلك.

لن يكون نتنياهو ـ بالضرورة ـ هو نفس نسق شخصية بيريز، ولكنه قد يمضى على نفس المنهج على المدى الطويل، وعلينا أن نأخذ الموضوع بكثير من الحكمة، وأن نقلل من عنصر القلق، الذى وصل إلى حد الذعر فى بعض العواصم العربية، لأن هذا القلق سيسلبنا قدرة الفعل، وسيجعل منا ـ إذا استمر ـ أسرى لرد الفعل.

إسرائيل هى إسرائيل منذ نصف قرن، وقد واجهناها بكل أساليبها المتطرفة، والمتشددة، والعنيفة، والتوفيقية.. لا جديد.

وسوف تمضى مسيرة السلام، قد تتعثر، ولكنها سوف تمضى، ويجب أن يدرك العرب أن هناك عناصر أخرى فى العالم حريصة على السلام العربى الإسرائيلى، أكثر من حرص العرب، وأكثر من حرص إسرائيل أيضا، سواء كانت أوروبا أو الولايات المتحدة أو غيرها.

الاستقرار فى الشرق الأوسط حيوى، وهذه القوى الدولية صاحبة مصلحة

حقيقية فى الوصول إلى تسوية سلمية، المهم هو أى سلام يريدون، لأن هذا هو عنصر الاختلاف بين أطراف الأزمة المباشرين.

إفلاس!

● **يخيل إلىّ - يا دكتور مصطفى - أننا إذا ارتددنا إلى المقابلة بين عنوانى الكتابين أو بين القضيتين، أن هناك عنصرا يمكن أن يمثل جسرا بينهما، وهو حالة (السلفية) العربية، التى لمستها - غير مرة - فى حديثك الآن، عن الإرهاب، وعن التطرف، وعن ضرورة (تجديد) وليس (إحياء) الفكر القومى.. إلى ماذا ترجع هذه الحالة.. ثم كيف يمكن للأمة العربية أن تواجهها؟**

○ أنا معك تماما فى هذا التوصيف، وفى هذا السياق أعود - أيضا - إلى الأمثال الشعبية القديمة، ومنها مثل يقول: «إذا أفلس البقال بدأ البحث فى دفاتره القديمة»!!

هناك حالة إفلاس فكرى عامة على الساحة العربية، تدعو كل طرف إلى التنقيب فى الماضى ونبش الذكريات.

خذ الأحزاب المصرية كمثال فى هذا الإطار، وستجدها جميعا تقف على مرجعيات تنتمى إلى الماضى.

مرجعية الوفد تجمدت عند الفترة من ١٩١٩-١٩٥٢، ومرجعية الحزب الناصرى توقفت عند فترة جمال عبد الناصر، وحزب العمل ارتبطت مرجعيته بحركة مصر الفتاة، مع بعض التطورات التى ألحقت بقطاره عربة دينية، وأخرى عربية!

القوميون لازالوا يتحدثون بمنطق الخمسينيات والستينيات، على الرغم من أننا إذا أردنا الصرامة والإحكام لفكر ما واتسامه بسلامة الإطار، فإن ذلك لا يعنى - أبدا جمود القالب.

العرب يتصورون ـ دائما ـ أن التراث عبء على أكتافهم يجب أن يحملوه معهم إلى كل مكان!

بينما تجربة آسيا تختلف تماما، رغم أن آسيا لها تراث قديم، ومجموعة من القيم والتقاليد التى قد تفوق ـ كثيرا ـ ما نعانى منه، ومع ذلك فقد فصلوا بين هذه التقاليد، وحركتهم مع العالم، وقد حقق هذا الفصل نجاحا حقيقيا.

وأسوق ـ هنا ـ المجتمع الهندى كنموذج، وقد عشت أربع سنوات من عملى الدبلوماسى، مستشارا للسفارة المصرية فى الهند منذ عشرين عاما، وعنيت ـ كثيرا ـ بدراسة جوانب التجربة الهندية آنذاك.

لقد حافظوا على جوانب الشخصية الهندية داخل مجتمعهم، إلى درجة التشدد. ولكن هذه الشخصية، وعناصرها، وسماتها، لم تحجبهم عن التعامل مع العالم والتطور.

لم يعرفوا الجمود، ولم يقفوا أمام «الغاندية» يبتسمون للعالم، ولكنهم تحركوا، ليصبحوا دولة فضاء، ودولة ذرة، ودولة اكتفاء ذاتى فى الحبوب الغذائية لأكثر من مليار نسمة.

علينا أن نفعل نفس الشىء فى العالم العربى، أن نؤمن بالثوابت، وألا نهمل المتغيرات.. الثوابت هى تراثنا، وثقافتنا وحضارتنا، وهى مفردات تستحق الاحترام، والتقدير، والتقديس أحيانا (إذا ما لمسنا الجانب الروحى فى هذا التراث)، ولكن هذا لا يعفينا من مواكبة المتغيرات فى مسيرة العالم.

حين يصبح التراث عامل يجذبنا إلى الوراء، فهذه جناية فى حق التراث ذاته.. التاريخ لا يعيد نفسه فى نفس السياق، ولكنه يعيد نفسه بنفس العبر والعظات، ولا يجب أن نتصور أننا حين نصبح أسرى للماضى، أننا يمكن أن نتقدم نحو المستقبل.

● **هناك جزئية فى هذه السلفيات السياسية التى تعانى منها كل**

التيارات الفكرية، هى التى نعنى بمناقشتها معك فى هذا الإطار، وهى أنها سلفيات غير ديمقراطية ـ بالضرورة والطبيعة معا ـ فحين نتحدث عن جذور حزب العمل فى (مصر الفتاة) فنحن نتحدث عن حركة فاشية أو شبه فاشية، وحين نتحدث عن حزب الوفد فنحن نتحدث عن وكيل شعبى عن الأمة، ليس طرفا فى تعددية سياسية بالمعنى المتعارف، وحين نتحدث عن التيار الناصرى، فنحن نتحدث عن دولة الحزب الواحد ذات السمات الخاصة بالتحول الثورى، وحين نتحدث عن حركات ديمقراطية بالمعنى المفهوم، فثمة تأثير متبادل بين طبيعة هذه الحركات وأسلوب ممارستها للإدارة داخلها، الذى أصبح يفتقر إلى الحد الأدنى من الديمقراطية الداخلية.. وهنا أتصور أن هذه السلفية السياسية غير الديمقراطية تسلب التجربة السياسية المصرية الكثير من حيويتها.. كيف يمكن أن نتواءم ـ والحال ـ كذلك مع شكل الديمقراطيات فى العالم؟

○ أوافقك ـ تماما ـ على أن البعد الديمقراطى فى الفكر العربى عموما، إن لم يكن غائبا تماما فهو يتسم بالضعف، وأحيانا أتأمل وأفكر فى أسباب ذلك.

وأذكر أن أستاذى فى جامعة لندن، حينما كنت أدرس للدكتوراه قال لى مرة: «إن الإسلام يتحمل جزءا من هذه المسئولية، لأنه قدم نظرية سياسية متكاملة فى نظر أصحابه، فكانت الشورى بديلا تاريخيا رفيعا للديمقراطية، ومع ذلك فلا هم حققوا الشورى الحقيقية، ولا هم استطاعوا أن ينقلوا الديمقراطية الغربية».

كانت هذه وجهة نظر أستاذى فى مطلع السبعينيات، والتى أرتد لأفكر فيها من آن لآخر.

أنا أفهم أن الديمقراطية لها ثقافة خاصة، وثقافة الديمقراطية ليست موجودة

لدينا فى العالم العربى، بدءا من تعامل الأب مع ابنه، والأم مع أولادها، والمدرس مع تلاميذه فى المدرسة، وانتهاء بنوع المشاركة المطروح على الناس.

هناك حالة من حالات القهر والقمع والأبوية الشائعة فى المجتمع العربى، وقد حرمت ـ هذه الحالة ـ الجماهير العربية فى النهاية القدرة على المشاركة السياسية الواسعة.

وأنا ـ هنا ـ لا أتحدث عن نموذج عربى بعينه، ولكننى أتحدث عن الأمة العربية عامة.

تاريخنا يبدو صاحبا لوصاية أبوية على مجتمعاتنا، وحكامنا تاريخيا ـ وخصوصا الشخصيات ذات الأبعاد الكاريزمية والتاريخية ـ نجحوا فى أن يحققوا درجة من درجات هذه الأبوية، وأصبح الأصل فى دراسة أحوال العرب أن الحاكم صاحب الكاريزما يتحدد تأثيره ـ دائما ـ على حساب الحركة الديمقراطية.

لقد اقترنت حركة المد العربى القوى فى الخمسينيات والستينيات بأبوية الحاكم، وبشخصية عبد الناصر الطاغية وبكاريزما هذا الزعيم، وكان ذلك على حساب الديمقراطية.

أما حين نتعامل ـ الآن ـ مع حكام عاديين، لم يضفوا على أنفسهم صفات استثنائية خارقة، نستطيع أن نتقدم على طريق الديمقراطية. فلا يضرب الديمقراطية فى مقتل سوى الشخصية الطاغية للحاكم، القائمة على الاستناد إلى قدر كبير من الشعبية.

لم يكن أحداً يستطيع أن يجادل مع عبد الناصر الذى تمتع بأكبر شعبية حاكم عربى فى العصر الحديث، على الرغم من كل ما لحق نظامه من خطايا وأخطاء.

الديمقراطية.. ثقافة، فحين تنشئ أولادك على الحوار والحديث، وحين يبنى المدرس جيلا من المتعاملين مع نسبية الحقائق وليس إطلاقيتها، فنحن ـ حينئذ ـ نكون بصدد جيل ديمقراطى.

وسأذكر لك مثلا - فى هذا الإطار - فالكثير جدا من الذين لا يؤيدون الحزب الوطنى الديمقراطى فى مصر، يصوتون له عند الاقتراع السرى، صدق أو لا تصدق. . على الرغم من أن الصندوق مغلق وأمامه ستارة.

والسبب فى هذا، أن هناك إحساسا عاما بفكرة الأبوية، فالذى يحتل موقع القدرة هو الأب، ومن لا يجد أبا فليصنع له أبا.

وهذا هو الحزب الذى سينجز ويحل المشكلات، ومن ثم فهؤلاء يفضلون أن يكونوا فى الأمان Safe side، وينتخبون هذا الحزب الذى لا يؤيدونه !!

هذا ميراث تاريخى نشأ من العقد غير المكتوب بين المحكوم والحاكم فى مصر، والتراث الاجتماعى فى بلدنا قائم على هذا العقد الذى يطلق يد الحاكم فى الحياة السياسية، بشرط ألا يمس الحاكم رغيف عيش المحكوم أو قطعة أرضه.

وأنا أضرب مثلا بمصر باعتبارها الدولة العربية الأكبر وصاحبة التقدم على الطريق الديمقراطى أكثر من غيرها من شعوب المنطقة العربية، وبالتالى فإن ثقافة الديمقراطية - إلى حد كبير - ليست هى بنت التقاليد العربية، وحين نتمكن من خلق هذه الثقافة أستطيع أن أؤكد لك أن الأمور سوف تختلف تماما، وكما تفضلت - فى سؤالك - فسوف تختفى الأفكار القمعية، والحركات القهرية، ويظهر البعد الديمقراطى فى الحياة.

وهنا أريد أن أنبه القارئ العربى إلى أن الديمقراطية وقضايا حقوق الإنسان كانت سلاحا - فى السنوات الأخيرة - فى أيدى الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عموما، والآن تلقفت إسرائيل - فى ظل حكومة نتينياهو - هذا المنطق، لكى تضع نوعا من الوصاية المفتعلة على الحركة العربية والتقدم العربى عموما، وتربط بين قضية السلام والاستقرار فى المنطقة، وبين تنامى الديمقراطية فى الأنظمة العربية ومراعاة حقوق الإنسان، وهى قضية يطول انتظارها، فضلا عن أن هناك أكثر من معيار لحقوق الإنسان، ويكيل فيها العالم بأكثر من مكيال، وأن حقوق الإنسان معايير نسبية تحددها الشعوب وفقا

لظروفها، ثم ـ قبل وبعد هذا كله ـ فإن إسرائيل هى أكثر شعوب المنطقة ـ تاريخيا ـ انتهاكا لحقوق الإنسان.

هذه هوامش على دفتر الديمقراطية، وعلى هامش السلفية السياسية، أراها جديرة بالتأمل والمناقشة، كلما أثيرت هذه القضايا، سواء بطرق صحيحة أو مغلوطة.

زاويتان !

● **لعلك واحد من أخبر الخبراء فى شئون الجماعة الثقافية المصرية، بحكم رؤيتك لها من زاويتين يندر الجمع بينهما، فأنت مثقف تنتمى ـ بالطبيعة وبالضرورة ـ لهذه الجماعة الثقافية، وتعرف لغتها، والطريقة التى تبلور عبرها أفكارها، أو تتعامل مع حقائق ما يحوطها من ظروف سياسية أو اجتماعية، أو تحدد ـ من خلالها ـ حجم ارتباطها بالخارج الإقليمى أو الخارج الكونى. ثم إنك خبرت أحوال هذه النخبة من موقع سياسى آخر، يكفل مراقبة نوع علاقتها بالسلطة الوطنية ومداخل اقترابها من هذه السلطة. ما هى ملامح أو قسمات النخبة الثقافية المصرية، كما رأيتها وتأملت أحوالها من الزاويتين؟**

○ النخبة المصرية هى النخبة الأكثر تقدما فى العالم العربى لسنوات طويلة، وهى التى قادت حركة الفكر والثقافة، وصهرت فيها عناصر عربية وفدت إلى مصر، فى البوتقة المصرية تحت ظلال عربية واحدة.

وقد فوجئت هذه النخبة، سواء منها من كان فى الحكم أو خارجها، بأن هناك على الساحة العربية زحف ثقافى يتقدم، ليس نتيجة تخلف مصر، ولكن نتيجة تقدم الآخرين.

فمنذ خمسين عاما ـ على سبيل المثال ـ كان فى العالم العربى جامعة واحدة هى جامعة القاهرة. أما الآن فإن كل دولة عربية لديها أكثر من جامعة.

ماذا يعنى هذا؟!

هذا يعنى أن قدرة مصر فى التأثير على العالم العربى ـ من خلال الفكر والثقافة ـ لم تعد مثلما كانت، وعلى من يفكر فى مستقبل مصر أن يضع هذا فى اعتباره. لقد كانت لدينا طبقة ضخمة فى الدول العربية، من أولئك الذين تخرجوا من المدارس والجامعات المصرية، وكل من تعلم فى بلد ـ كما تعرف ـ فإنها تعتبر وطنه الثانى. وهناك أمثلة كثيرة من الخليج وشمال إفريقيا والشام، لهؤلاء الذين تعلموا فى مصر، أو حصلوا على الثقافة من مصادر مصرية (المجلة ـ الجريدة ـ الفيلم ـ الأغنية) فأصبح ولاؤهم لمصر !

ولكن اليوم، بدأت هذه الأدوات فى التقلص، وسوف يؤثر ذلك شئنا أو لم نشأ على النخبة المصرية، فإما أن تتحول إلى نخبة محلية محدودة التأثير على المستوى العربى، وإما أن تنسلخ عن المجتمع المصرى، وتعتبر جزءا من النخبة المتقدمة التى ترتبط بفكرة الثروة.

التعبير الدقيق لكلمة الأرستقراطية، هو أنها مزيج من الثروة والثقافة، وإذا انعزلت النخبة المصرية وارتبطت بمفهوم الأرستقراطية، فإنها ـ ببساطة ـ تكون قد حجبت نفسها عن الناس، وحجبت الناس عنها.

النخب فى العالم العربى لم تمر بنفس الظروف التى مرت بها النخبة المصرية تحديدا، فالنخبة المصرية عانت من حالات الارتفاع والانخفاض، والانتعاش والانكماش فى الخمسين عاما الماضية، وقد أثر هذا عليها تأثيرا كبيرا، بحيث أصبحت هذه النخبة تحمل على كاهلها لافتات تصف ظواهر مصاحبة لها، أو داخلة فى تكوينها مثل: (عزلة المثقف)، و (قضية الولاء والثقة)، و (عدم القدرة على التفاعل مع المجتمع)، و (الهجرة الزمنية بالتطرف)، و (الهجرة المكانية بترك الوطن).

وأنا ألاحظ أن الكثير من العناصر الممتازة من المثقفين لا تقبل على الحياة السياسية حتى لو أتيحت لها الفرصة.

إذن، فالنخبة تعيش فترة قلق تجعلها غير قادرة على التواؤم مع الأجواء العامة فى الوطن أو على اتساع العالم العربى كله.

ومن هنا فقد لاحظت - فى السنوات التى عملت فيها قريبا من صنع القرار السياسى فى مصر - أن هناك عزوفا عاما من العناصر المتميزة عن الدخول فى الحياة السياسية، وفى هذا جزء من رواسب الماضى، سواء بإيثار السلامة، أو بعدم الإيمان بفكرة العمل العام.

لدينا - على مستوى النخبة فى مصر مستويين، لابد أن نفرق بينهما - أولهما مستوى الذين يعتركون الحياة السياسية، وهؤلاء - فى معظمهم - مجموعات موروثة من العهود الثلاثة الأخيرة على الأقل، وثانيهما مجموعة أخرى من المثقفين المصريين احترفت النقد السلبى، واكتفت به من دون الانخراط فى العمل العام، بدعاوى كثيرة - مثلما أسلفت من قبل فى تحديدها - ولكن هذه النخبة الثانية المتعلمة والمثقفة هى الأكثر ارتباطا بحركة المجتمع الدولى، وبتطور الثقافة العالمية، وبفهم المتغيرات الدولية، ولكن قدرتهم على العمل العام غائبة، نتيجة غياب التدريب السياسى، وضعف الأحزاب، التى كان يجب أن تكون مدرسة لتخريج الكوادر، ولكنها لم تفعل، وبالتالى لو أن هناك مثقفا رفيع الشأن يريد أن يلعب دورا ما فى الحياة السياسية فى العالم العربى، أو على المستوى المصرى على الأقل، فمن أى طريق يبدأ؟!

أيبدأ بأن يضع يديه إلى جانبه منتظرا أن يُختار لوزارة؟ أيبدأ بأن يتطلع إلى حزب يتفاعل مع أفكاره وينخرط فيه؟

إن العمل الحزبى فى مصر ضعيف، وليست هذه خطيئة النظام.

وأنا أعتقد أن تكوين المصرى - إلى حد كبير حتى الآن - لازال غير مؤمن بمفهوم حركة الحزب السياسى، وهو يفضل عليها العلاقة المباشرة مع الحاكم!!

حزب الوفد الذى يتشدق البعض به من (١٩١٩-١٩٥٢) كان ثوبا فضفاضا يعكس الحركة الوطنية، ولا يعكس التنظيم الحزبى بمفهومه المعاصر، فلم يكن فيه حركة تنظيم، أو كوادر، أو قيادات، وإنما كان فيه ـ فقط ـ شعبية سعد زغلول ثم مصطفى النحاس، والتفاف الناس وراءهما، وخصوصا فى القرى، والمدن الصغيرة فى ظل أفكار متصلة بالجلاء والاستقلال والدستور.

لقد كان الوفد ثوبا فضفاضا ضم كل القوى السياسية المختلفة، والذى يؤكد كلامى هو طبيعة الانقسامات التى جعلت أحزاب الأقلية كلها تخرج من عباءته من أحمد ماهر إلى مكرم عبيد.

والاتحاد الاشتراكى الذى أقامه عبد الناصر، كان يبدو ـ بشكل أو بآخر ـ نوعا من المقابلة مع حركة الوفد. . لقد كانت الأحزاب فى مصر حركات فوقية، وربما كانت قيمة الوفد ـ فى هذا السياق ـ هى أنه بدأ من أسفل بحركة التوقيعات والتوكيلات الشهيرة.

على أية حال، فإن المثقف المصرى سوف يجد نفسه فى حيرة حقيقية بشأن الباب الذى يجب أن يطرق، والدرب الذى يجب أن يسلك.

ومن هنا أصبحنا نجد مجموعة من المثقفين يندرجون تحت ما أسميته أنت ـ من قبل ـ بـ «المشتاقين»، ومجموعة أخرى من العازفين والمبتدعين، ومجموعة ثالثة من المهاجرين زمانا أصحاب الفكر السلفى، والمهاجرين مكانا المترفعين عن الحياة فى مصر، والساعين إلى الهجرة إلى مجتمعات أكثر رقيا.

التفسخ الحقيقى فى عناصر النخبة المصرية منشأه أنه لا توجد عملية اختيار طبيعى فى الحياة العامة تسمح لقانون الانتخاب الطبيعى Natural selection، بأن يقدم القيادات !!

وأنا أذكر حين عملت فى بريطانيا فى مستهل حياتى، أن حضرت مؤتمر حزب المحافظين فى بلاك بول فى أوائل الثمانينيات، ورأيت تاتشر وزيرة مغمورة يتم الدفع بها إلى الصفوف الأولى، ولاحظت ـ بدقة ـ عمليات الفرز السياسى داخل

الحزب، وتقديم القيادات، وتحديد من يتقهقر، ومن يتقدم، وكيف أن المؤتمرات السنوية للأحزاب ليست مناسبات فلكلورية احتفالية لتحية الزعيم وتأييده، كما يحدث عندنا فى الأحزاب المختلفة، ولكن هذه المؤتمرات مناسبات للحساب والمراجعة، وتقديم القيادات، وتوارى أخرى.

وكتبت - يومها - لوزارتى أقول: إن مستقبلا مهما ينتظر هذه السيدة، ويبدو أن زعامة الحزب سوف تؤول إليها بعد سنوات قريبة.. وقد كان!

هناك ميكانزم فى هذه المؤسسات، وهناك قواعد للعبة السياسية، وإعمال للقانون الطبيعى فى الاختيار.

يوم أن نتمكن من إعمال القانون الطبيعى فى مصر على كل المستويات، فسوف نكون فى صف الدول المتقدمة، وبغير جدال فإن تعطيل تأثير هذا القانون هو بمثابة تركة طويلة المدى من تاريخنا، وهى السبب الرئيسى فى اختفاء القدرات وغياب الكفاءات وإهدارهما معا.

● **لا أظنك - يا سعادة السفير - حين كتبت (تجديد الفكر القومى) كنت تختزل مهمة التجديد لتقصرها على تيار واحد، إذ إن طرحك - بالضرورة كان يمتد ليشمل مواجهة السلفية على كل جبهات التيارات الفكرية المصرية أو تمثيلاتها الحزبية. ما هى - فى رأيك - الشروط التى تكفل هذا العبور المأمول من حالة يأسرنا فيها ماضينا إلى حالة نلتحق فيها بالمستقبل؟**

○ نعم.. حين كتبت (تجديد الفكر القومى) لم يكن يدور بخاطرى قصر حركة التجديد على تيار بعينه، ولكننى كنت أعتقد أن التجديد لا يعنى التجديد فى الفكر، أو فى الأشخاص، أو فى أساليب الحياة فقط، ولكنه فى تغير النظرة تجاه ما تعودنا أن نفكر به، فأنا ضد فكرة المسلمات الباقية، ولست ضد الثوابت، وإنما هناك حقائق وقرت فى تاريخنا، ولازلنا أسرى لها حتى الآن، وهى كثيرة ومحورية، منها فهمنا المغلوط للإسلام وسماحته، ومنها فهمنا الزائف للحضارة

والثقافة والتاريخ، ومنها فهمنا العاطفى للقيادات والزعامات، ومنها فهمنا الضبابى التائه لعالم اليوم ومستقبله.

كل هذه الأمور كنت أبحث عن نظرة تجديدية تعيد النظر فيها، كما فعل الإمام المجدد محمد عبده فى الطرح الإسلامى فى فترة الإظلام فى القرن الماضى. وإذا كان محمد عبده قد نجح فى ذلك، فكيف ما تيسر له منذ مائة عام لا يتيسر لفقهاء المسلمين الآن!

الإسلام دين ثابت حنيف عظيم، ولكن رؤيته متجددة على مر العصور، وهذا أحد جوانب عظمته.

وعلى المستوى القومى، أنا ضد الأصنام الفكرية، وضد عبادة الأفراد، وضد الإحساس بأن الثورة العربية ترتهن بقيادات محددة، فهى ثورة فى التفكير، وفى الأخذ بالأساليب العلمية، وفى اللحاق بركب الحضارة.

ويكفى أن أقول لك: إن إسهام العرب فى حضارة العصر يكاد يكون محدودا أو معدوما، وقيمة الشعوب تكاد تتحدد فى إسهامها فى حضارة العصر، فلماذا تعطلت مسيرتنا، لقد كانت مصر فى العشرينيات مساوية فى التقدم فى بعض مناحى الحياة السياسية والاقتصادية (بنوك ـ برلمانات ـ مؤسسات قومية) ببعض دول جنوب أوروبا، فقد كنا لا نقل عن اليونان، وكنا أفضل من البرتغال.

لقد بدأنا النهضة بنفس الخطوات مع اليابان، لماذا هذه العطلة؟

لأننا مغرمون بتأمل الماضى، وبالتدقيق فى الأفكار والمعيشة فيها، وأصبحنا ـ كما قيل بالضبط ـ لا نعانى من فلسفة الفقر، ولكن من فقر الفلسفة.

الفلسفة هى النظرة الشاملة للأمور، التى أصبحت غائبة لدينا. يجب أن تتبلور لدينا هذه الرؤية، وأن نتحصل على الإجابات الكاملة عن كل القضايا المطروحة، وأن يوجد لدينا حد أدنى من الفكر تجاه هذه الإجابات، وفى إطار من الاختلاف المتعارف عليه، وفى هذا السياق أكرر قول أبى حنيفة:

«قولى صواب يحتمل الخطأ، وقولك خطأ يحتمل الصواب»؛ فلا داعى لأن يحدث ـ عندنا ـ نوع من سيطرة فكر على فكر، ودع الأمور تجرى فى أعنتها .

لابد أن تسير أمور حياتنا بشكل طبيعى وليس بقرارات فوقية، وتنظيمات علوية.

مثل هذا الأسلوب المغرق فى تأمل الذات والارتباط بالتراث لن يؤدى إلى نتيجة فى العالم العربى، ومع ذلك فأنا أقول: إن الصورة ليست متشائمة على النحو الذى نراه، فالعالم العربى فيه ـ الآن ـ قوى وتيارات عديدة تبشر بالأمل، وتسهم فى تعرف المريض على أعراض مرضه، وتشخيصها بشكل دقيق، وهذه هى أول خطوات العلاج.

لا يجب أن نستسلم لما كان قائما، وأن نفكر من جديد، وأن نتواكب مع حياة العصر، وأن تفيقنا الصدمة الحضارية ولا تقتلنا.

عروبة !

● **لم تفقد ـ أبدا ـ إيمانك بفكرة العروبة، إلا أن هذه الفكرة واجهت تساؤلات حول قابليتها للاستمرار، ضمن المراجعات، وعمليات الفرز العجيبة، التى تجبرنا على اختبار الثوابت، ومحاولة النظر إلى هذه الثوابت بوصفها اكتشافات تقتضى الدهشة وفغر الأفواه. إلام تستند ـ فى إيمانك بفكرة العروبة فى عالم متغير ـ وكيف تقيم هذه المحاولات المستعرة التى تتكلم عن إعادة النظر وطرح البدائل تحت مسميات مختلفة؟**

○ إيمانى بفكرة العروبة ليس إيمانا عاطفيا، أو نظريا، أو هو مجرد حنين لفترة تاريخية عشتها، فأنا ممن يؤمنون بأن العروبة شىء قابل للترجمة العملية واليومية. لقد رأيت فى الهند ديانات مختلفة، وثقافات متعددة، وفلسفات

متضاربة، ولغات متباينة، ومسافات واسعة، ولكن الاتحاد الهندى حدث وظهرت دولة الهند الديمقراطية المتحدة فى إطار الضرورة.

إذن لو أدرك العرب، أن نظرية الضرورة تملى عليهم التكاتف والتضامن ـ بغض النظر عن الشكل الدستورى ـ فسوف نكون فى وضع أفضل بكثير.

لدينا الكثير جدا من مقومات الوحدة (اللغة الواحدة ـ الديانات الواحدة ـ الوحدة الجغرافية ـ الفهم المتبادل.. فالمقال والنكتة والأغنية يفهمون من الخليج إلى المحيط)، ومع ذلك فإن المشارب مختلفة، والوجهات متباينة، بما يوحى أن هناك خطأ فى حياتنا، فنحن نبحث ونفكر فى اليوم، ولا نفكر فيما هو قادم.

إيمانى بالعروبة ـ مرة أخرى ـ ليس إيمانا عاطفيا، ولكننى أؤمن بأن العروبة تقوم على نظرية المصلحة، وعلى مبدأ الضرورة، وأنه لابد لنا أن نعترف بأن العروبة ليست كيانا هلاميا غامضا.

إن لى ملاحظات قومية وأمنية على اجتهاد عبد الناصر القومى، رغم عظمته وشموخه، أولها أنه أهدر ـ إلى حد كبير جدا ـ تصوره لحق ووضع الأقليات فى العالم العربى، فخلق لديها مخاوف لا مبرر لها، وثانيها أنه أقام على الساحة العربية محور علاقات قام على أسس أيديولوچية تتعارض ـ بالضرورة ـ مع الطرح القومى، فانقسم العالم العربى بين تقدميين ورجعيين، فثارت المخاوف التاريخية المعروفة فى الخمسينيات والستينيات، ثم إنه ـ أيضا ـ استخدم الصراع العربى/ الإسرائيلى استخداما مبهما، ولم يضع العرب فى صورة واقعية حقيقية، فقد دخلنا حرب ١٩٦٧ وأمامنا تصور واحد لا بديل عنه، وهو الانتصار، وإنهاء الوجود الإسرائيلى، فى حين أن الواقع الذى حدث كان شيئا مختلفا تماما فكانت صدمة جماهيرية عربية كبرى، أثرت على أجيال أربعة جاءت بعد ذلك.

وكذلك، فإن عبد الناصر انتقل ـ وبسرعة شديدة ـ من محور وادى النيل فى بداية الثورة، كميراث لحركة التحرر الوطنى والحركة الوطنية فى مصر، إلى

محور علاقة مع الشام وسوريا بالتحديد. . وقد كنت أتصور أن يمضى فى المحورين معا، وألا يكون أحدهما على حساب الآخر، ولازلت أعتقد أنه من الخطايا الكبرى لثورة ٢٣ يوليو، أنها لم تتعامل مع العلاقات المصرية/ السودانية بشكل مؤسسى وفلسفى طويل المدى يسمح لها بالاستمرار والاستقرار.

ناهيك عن غياب البعد الثقافى للثورة، فقد كانت الثورة فى مجملها ـ رغم أنها طرح وطنى قومى ناجح ـ تفتقر إلى الرؤية الثقافية الواضحة (إسقاط للتماثيل ـ تغيير لأسماء الشوارع ـ إهدار للقصور). وهذه كلها أمور غير مسبوقة فى تاريخ الثورات، وهذه أيضا سلبية من سلبيات الثورة، ولكن هذا ـ على أية حال ـ لا ينتقص من القدر الضخم لجمال عبد الناصر فى تاريخ المنطقة العربية، وتاريخ العالم الثالث، والحركة الدولية المعاصرة عموما.

- **حينما سألتك عن انتمائك العربى، فقد كنت أركز على هذه الدعاوى المعاصرة التى تجعل من فكرة القومية العربية متقاطعة متصادمة مع فكرة التطور الديمقراطى، ومتقاطعة متصادمة مع فكرة تحقيق السلام فى المنطقة، فكيف تقوّم هذا الرأى؟**

○ إذا انتظرنا حتى تتحقق الديمقراطية، فأنا أعتقد أن أحفادنا، وأحفاد أحفادنا لن يلحقوا بهذا الركب، كما لو تصورنا أن علينا أن نؤجل التضامن العربى بعد الوصول إلى السلام، فسوف نحصل على سلام المنقسمين وليس سلام المتضامنين، ومن ثم فسوف نؤبد نتيجة الانقسام على وضع قابل للتضامن فى المدى الطويل.

أنا لا أطالب بوحدة دستورية أو اندماجات بين الدول، ولكننى أطالب بحد أدنى من التنسيق، ويحضرنى ـ فى هذا ـ النموذج الأوروبى، حين كانت كل دولة موجودة، ولم تذب فى الكيان الموحد (بريطانيا هى بريطانيا. . والنمسا هى النمسا) بحكوماتها، وثقافاتها، ولغاتها المتعددة، ولكن هناك حد أدنى من التنظيم، سواء بالنسبة للنظام الجمركى، أو نظام السفر والانتقال أو جوازات السفر والانتقال، أو حركة الطيران، وفى كل يوم يضيفون جديدا، وبشكل

علمى مدروس يراعى ظروف كل دولة، ويترك باب الانضمام مفتوح طواعية لكل دولة حين تكون قادرة عليه.

أنا أتحدث عن شكل من أشكال التنسيق السياسى والتكامل الاقتصادى والتوحد الثقافى، والتعايش الذى يجمع العرب، ولا أتحدث عن دولة الوحدة أو عن كونفيدرالية، أو فيدرالية، وهو الأمر الذى أعتقد أن مقوماته قائمة جدا ومتمثلة فى هذا التجانس البادى بين مصر والشام ودول الخليج والسودان، والذى يعطينى النموذج الأوروبى بشأنه أملا كبيرا مازال.

ندوات!

● تكون ندواتك فى معرض القاهرة الدولى للكتاب كل عام، مناسبات حاشدة، يتجمع فيها جمهور ضخم ينتمى إلى كل التيارات الفكرية، وإلى كل الأجيال الفاعلة، بما يجعلها ـ واقعيا ـ مناسبات للقاء والالتقاء القومى المصرى العام.. فى تصورك ما هى عناصر معادلتك التى تسمح بتخلى هذه الأطراف عن روح الاحتراب السائد بينها؟ وهل يمكن أن يتسع المجال أمام عناصر هذه المعادلة لتصبح منهجا عاما؟

○ لن يتأتى ذلك إلا بظهور جيل يؤمن بالحوار، وبالرغبة فيه، وسوف أصدقك القول، فقد اكتشفت أن الأجيال الجديدة ـ فى مصر ـ متعطشة تماما للحوار السياسى، وراغبة فيه، وأن الصورة أفضل ـ بكثير ـ مما نتصور، فمصر ليست مجموعة من المتطرفين أو أصحاب الفكر الخاص.

مصر فى أغلبها فكر قومى/ مصرى، يعرف الإسلام الصحيح، ويعرف التوجه القومى الدقيق.

المصرى ـ تاريخيا ـ هو صاحب المسئولية القومية والإحساس بها، لم يفرط فيها أبدا، وقد لا يكون المصريون سياسيين كغيرهم من الشعوب العربية، ولكنهم قوميون بالضرورة وبالطبيعة، باللسان العربى، وبالأزهر الشريف، بالفكر والثقافة، وبالتراث والإعلام، والوجود التاريخى.

ما أراهن عليه ـ صراحة ـ هو ألا يحدث نوع من خلط الأوراق أو عمى الألوان، بحيث لا يقوم الذين يرفضون الحقبة الناصرية لبعض ملاحظات عليها تتصل بالديمقراطية وغيابها. . لا يقومون برفض إيجابياتها مثل التوجه القومى، والإيمان بأمة عربية واحدة، بالضبط مثل الذين يهاجمون عصر السادات فيرفضون ـ تلقائيا ـ العمل نحو ديناميكية السوق، أو الانفتاح السياسى.

هذه قضية كبرى. . فنحن حديون مبالغون، فإما نقبل الأشياء برمتها، أو نرفضها برمتها.

إن علينا أن نقوم بعملية انتقاء إيجابية فى تاريخنا الحديث، تصنع ـ فى النهاية ـ توليفة صحيحة لما يجب أن يكون، وأعتقد أن هذا جزء من فكر الرئيس مبارك، فهو لم يخلق عداءات مع فترات تاريخية سابقة، وأحدث أمام الجيل الجديد نوعا من المصالحة، وأذكر أنه فى إحدى خطبه ذكر كل من أحمد عرابى، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس، وكان هذا ضربا من المستحيل فى سنوات قريبة سابقة.

هذا الرجل أتى إلى مصر بلا عداء تاريخى مسبق لفترة معينة، وبالتالى قدم للأجيال الجديدة مصالحة تاريخية تحميهم من التلوث السياسى، ومن العداء المرير مع أجزاء من تاريخهم.

مصالحة مبارك سمحت له بأن ينتقى أفضل ما فى كل عصر، فعبد الناصر كانت معظم أفكاره النظرية صحيحة للغاية، والسادات كان جزء كبير من ممارساته صحيحة ويتسم بالذكاء وسعة الأفق، فلماذا نحرم التجربة من متعة الاستفادة بهذه الإيجابيات.

هى اجتهادات فى الرؤى. . واختلافات فى التفاصيل، ولا يوجد فى تاريخ مصر الحديث حاكم خائن.

إن خروج قيادات مصر من القوات المسلحة منذ ١٩٥٢، كان صمام أمن للوطنية المصرية، لأن الجيش المصرى هو المدرسة الكبرى للوطنية فى التاريخ المصرى المعاصر، وبالتالى لا يجب أن يكون هناك إحساس بالإدانة أو التجريم لفترات حكم معينة فى هذه الحقبة.

هذا هو ما اعتدت أن أقوله للجيل الجديد، وأحاورهم فيه، وأجيب أسئلتهم ولست - فى ذلك - ممثلا للحكومة أو لاتجاه معين، وإنما أنا أتكلم بمنطق المصرى العادى الذى يريد أن يضع الأمور فى نصابها، وأتحرر - فى الغالب - من قيود الوظيفة، وأعلن ذلك فى بداية كل لقاء.

ويجب أن أذكر للرئيس مبارك سماحته بأنه أعطانى هذا الحق حتى وأنا أعمل معه ثمانى سنوات كسكرتير له لشئون المعلومات، وأتحدى إن كان حاكما آخر قد فعل نفس الشىء.

وحين تركت موقعى إلى جواره، وجدت أن الأبواب مفتوحة بنفس القدر، وربما أكثر من دون ملاحقة أو متابعة أو حجر.

تلك قيمة حقيقية فى الحاكم وهى أمر غير مسبوق فى تاريخنا الحديث يجب أن ننميه ونستثمره.

وهذه هى - بالضبط - العناصر التى أحدث الناس فيها فى معرض الكتاب فى إطار من المصالحة الوطنية التى تسم العصر الذى نعيشه.

مبارك !

- **يبدو الرئيس محمد حسنى مبارك أكثر زعماء مصر إيمانا بفكرة الحوار، وفى ظنى أن المثقف المصرى لم يتحصل - عمليا - على فرصة لمناقشة الحاكم ومحاجته، بمقدار ما تحصل فى عهد هذا الرئيس، فى تصوركم هل كانت الإدارة فى مصر متمثلة لنفس روح الرئيس فى تبنى هذا الحوار فى مناسبات مختلفة؟.. ثم كيف تنظرون إلى اشتراك المثقفين العرب فى مناقشة أمور تخص مصر حين تتسع ساحة الديمقراطية المصرية لهم وتستضيفهم؟ وهل تعطون وزنا للحساسية التى يبديها بعض المصريين تجاه هذا الاشتراك، الذى يحركه ارتباط كل العرب بمصر من ناحية،**

وغياب الديمقراطية فى بقاع كثيرة من عالمنا العربى من جهة أخرى؟

○سأعطيك صورة مقربة للرئيس مبارك، قد لا تكون واضحة فى أذهان الكثيرين، فالرجل رغم جديته الشديدة، وصرامته التى ألزم نفسه بها منذ شبابه، يتمتع بقدر كبير من سعة الصدر لأفكار الآخرين، ويستمع إلى الرأى الآخر، ويقلب الأفكار بينه وبين نفسه لفترة طويلة ويتأملها، ولديه صفة أعتقد أنها غير مصرية، ولكنها صفة طيبة، وهى أن علاقته بالزمن علاقة هادئة، لأننا شعب عجول يندفع فى قراراته واستنتاجاته، معتمدا على ذكائه، إلا أن فى مبارك خصيصة آسيوية من ثقافات الآسيويين القديمة، وهى التى تجعل علاقته بالزمن علاقة هادئة، بحيث يجعل نفسه سيدا للزمن وليس العكس، بمعنى أنه يعطى نفسه الوقت الكافى للتفكير فى الموضوع الواحد، حتى يصل إلى الرأى المعتدل فيه، ولديه فرامل تاريخية تستطيع أن توقف الاندفاع نحو الخطر.

ثم إنه لا يعتقد فى نفسه أن شخصيته مختلفة، فيرى ذاته بمثابة الرجل العادى Lay-man، الذى يفكر مثل غيره، ويتخذ قرارات مثل غيره، وليست لديه تصورات الزعامة الضخمة التى كانت لدى جمال عبد الناصر، كما ليست لديه تصورات الأحلام التاريخية الكبرى التى عاش فيها السادات.

لديه ـ فقط ـ إحساس بحاجة المواطن العادى إلى الحياة، وإلى الوضع الأفضل، والاهتمام بالتعليم والصحة.

هو غير مغرم بالفلسفات المعقدة والعبارات المبهمة، يحب لغة الأرقام، يفضل الإحصائيات، ويميل إلى الوصول للهدف المباشر، وفى تفكيره يفضل طرح القضية بشكل محدد وواضح، ليس فيه اللغة الفضفاضة، أو التعبيرات المائعة. ولذلك، فأنا أعتقد أن قدرته على النقاش تنبع من صفات شخصية فيه، وليست مسألة مفتعلة أو مكتسبة ولكنها تأتى طبيعية.

لديه مساحة داخلية فى ذهنه تسمح له بالحوار مع الذات قبل الحوار مع

الآخرين، ولقد لاحظنا أنه راجع كثيرا من الأمور ومجرياتها على مستوى الوطن، وأعاد النظر فيها بهدوء.

ولكنه لا يقبل الضغوط أيا كانت، وعلى كل القوى المتعاملة معه أن تدرك ذلك.

يخطئ من يتصور أن الصوت العالى أو الضغط فى اتجاه معين سوف يؤثر على الرئيس، هذه قضية محسومة أمام كل من تعامل معه وهى مفتاح شخصيته.

وأستطيع أن أقول: إننى تعلمت منه ـ على المستوى الشخصى ـ فى كثير من الأمور، وبالذات هذا القدر الكبير من الموضوعية الذى يجعله يفصل بين حبه لشخص على المستوى الإنسانى، وتقييمه لأدائه على مستوى آخر، وهو لايسمح بالاختلاط بين الأمرين حتى عند أقرب المقربين إليه، وتلك صفة غير عادية لم أرها فى كثير من الزعامات فى تاريخنا الوطنى.

● هذا عن الرئيس.. فهل تعتقد أن عناصر إدارته تمثلت صفاته وأسلوبه، بحيث أصبحت مطبوعة بهما؟

○ لا أستطيع أن أزعم ـ أبدا ـ أن الإدارات كانت فى أدائها على مستوى أداء الرئيس نفسه، ولدى أمل كبير فى حكومة الدكتور الجنزورى لأنها تبدو أكثر الحكومات المصرية ـ حتى الآن ـ قربا من فكر الرئيس، فالرجل خدم معه ١٥ عاما قبل أن يتولى رئاسة الحكومة، وفى موقع مهم يتصل بالتخطيط القومى عموما، مما أتاح للدكتور الجنزورى أن يكون متميزا ومدركا لحدود التصرف والقدرة عليه، بما يمكن تسميته أنه انعكاس لمدرسة مبارك السياسية.

هناك إحساس ـ فى ظل حكومة الجنزورى ـ بأن العجلة تدور، بعد أن كانت أصيبت بقدر كبير من التوقف والجمود، وقد لاحظت أن نظرية الثواب والعقاب قد بدأت تعمل تأثيرها على مستوى هذه الإدارة، كتنحية مسئول أهمل، والدفع بمسئول أكفأ، وكل هذه أمور مهمة جدا فى المجتمع المصرى، لأن مصر دولة

كبيرة، برغم كل ظروفها الاقتصادية، ودولة ثقيلة التراث كبيرة التجربة، وليست دولة صغيرة تحتاج إدارتها إلى نمط عادى، فهى تحتاج إلى حشد كبير من معطيات متعددة، فهى ليست دولة كبرى أو دولة صغرى، ليست دولة غنية أو دولة فقيرة، إنها دولة ذات نهج خاص وطابع فريد، وإدارتها ليست قضية سهلة.

. . . .

أما عن الجانب الثانى من سؤالك المتعلق بمشاركة العرب لنا فى ديمقراطيتنا فأنا ألاحظ ذلك، وأسعد كثيرا حين أجد كاتبا عربيا يكتب فى الشئون المصرية، ويرون فى تحولات السياسة فى مصر مؤشرا لتحولات مماثلة قد تلحق بمجتمعاتهم، وأنا أشعر بأن وجود مثل هؤلاء المثقفين العرب هو جزء من الوجود المصرى ذاته، وأنهم بدأوا يدركون أن مصر ليست كيانا منفردا ولكنها جزء أساسى من جسد الأمة العربية، وأن أية صحوة، أو أى إخفاق يصيب هذا الجسد، يؤثر ـ بالضرورة ـ فى الأمة العربية كلها.

تجربة مبارك الديمقراطية فى مصر رائدة، وهى قابلة للنقل فى العالم العربى، ودخول العرب فى ساحتها هو إيجابية أتحمس لها باستمرار.

نخبتان !

- **وردت فى حديثك فكرة محورية تتعلق بجمع النخبة بين الثروة والثقافة، وقد ذكرت ذلك فى معرض المقارنة ما بين النخبة التى نعرفها فى العالم الغربى، وبين النخب التى ظهرت فى تاريخ مصر، وفى تاريخنا العربى. وواقع الأمر أن لدينا نخبتان، إحداهما هى (نخبة الثروة المفاجئة) والأخرى هى (النخبة الثقافية)، وهناك فاصل واضح بين النخبتين، ولكن ـ فى ذات الوقت ـ هناك ما يشبه التنظيم المصلحى، بمعنى وجود مجموعات من رجال الأعمال تجمع كل واحدة منها حولها مجموعة من**

المثقفين ومجموعة من الإعلاميين، وتتحرك على سطح الحياة العامة لحماية مصالحها، وتغيب القضية القومية فى هذا التحرك، كما تغيب المصلحة الوطنية.. ما هو تقييمك لمثل هذه القضية؟

○ أنا أحييك على هذا السؤال - يا دكتور عمرو - وفى هذا الإطار فأنا أتأمل - حين أحضر الأفراح الكبرى فى مصر - هذه التجمعات التى تضم رجال الأعمال بثرائهم، ومجموعات المثقفين باهتماماتهم، كما أرى أن هناك قدرا من التزاوج يصل إلى حد الاندماج بين الجماعتين، والسبب هو أن هناك رغبة فى التعايش، فالمثقفين - فى عمومهم - وصلوا إلى مستوى مادى معين، وأصحاب الثروة يتطلعون إلى أن يزينوا حياتهم بالرموز الثقافية، وأحيانا بالرموز السياسية.

● **ولكن هذا أقرب إلى فكر الإقطاع الأوروبى منه إلى فكر الرأسمالية الأوروبية..**

○ بالضبط، وأنا لم أقل أنه نسخة من الفكر الرأسمالى، فهو نموذج خاص جدا لدينا فى العالم العربى، دافعه تطلع أهل الثروة إلى السلطة بالتقرب من الحكام، وإبداء الرأى، وتقديم المعلومات، وقد حدثت ظاهرة مشابهة لدينا فى مصر، حين سيطرت على أهل الثقافة وكبار المتعلمين رغبتهم فى خدمة أصحاب رؤوس الأموال، وأيضا ظهر لدينا اهتمام أصحاب رؤوس الأموال بقضايا الثقافة والسياسة، لأن لديهم إحساسا بأن المؤشرات السياسية تتحكم فى المستقبل الاقتصادى، وبالتالى أصبحت عملية الاتصال بين مثلث السياسة والثقافة والاقتصاد قائمة فى مصر، وأعطيك نموذج د. إبراهيم كامل، وهو نموذج أعرفه عن قرب، فهو أستاذ جامعى فى كلية التجارة، ورجل أعمال كبير، ورئيس ما يمكن تسميته بمجلس رجال الأعمال المصريين/ الأمريكيين، وفى نفس الوقت يرعى كثيرا من النواحى السياسية والندوات، ويؤمن بالوظيفة الاجتماعية لرأس المال.

وهذا يعنى أن فكرة النخبة فى مصر لا تتجزأ، حتى لو كانت دعائمها مالية أو ثقافية أو سياسية، ففى النهاية لديها إحساس بضرورة فتح القنوات على بعضها

بعضا، فى علاقات وثيقة وتعايش كبير، يعيد إلى الأذهان شكل المجتمع اللبنانى فى بعض مراحله فى الخمسينيات والستينيات، وهى ظاهرة ليست سيئة، ولكنها تعكس الإحساس العام بأن الكل فى قارب واحد. وأخطر من ذلك أن هذا القدر من الفلكلور الاجتماعى قد يكون تعويضا عن المشاركة السياسية، ولذلك تجد الإقبال على عضوية مجالس إدارات النوادى أكثر من الإقبال على عضوية البرلمان.

● د. مصطفى.. أحاول أن أمنع نفسى من الاستسلام «لنداهة» هذا الحوار.. ولكننى ـ فيما يبدو ـ فشلت. ومن هنا دعنى أطرح عليك فكرة أنك حدثتنى عن تماسك النخب المصرية الجديدة ورغبتها فى التعايش والاندماج فيما بينها، ولكن ماذا عن علاقة هذه النخب بوطن بأكمله؟.. ماذا عن الحوار الغائب بينها وبين الجمهور أو بين «الناس الكتير»؟

○ كل ما نتحدث عنه وما أتحمس له أمامك، لا يعبر إلا عن شريحة صغيرة فى المجتمع لا يصل صوتها إلى أحد. . بلد نسبة الأمية فيها ٥٠٪ أو يزيد، بلد فيها كثير من المتناقضات الاجتماعية لا يمكن أن تخترقها أصوات هذه النخبة.

أنا أشعر ـ أحيانا ـ أن هناك مصران، وليست مصر واحدة، (مصر النخب حول السلطة)، و (مصر الشارع). ولعل هذه الهوة هى التى صنعت ـ فى بعض المراحل ـ مساحة تحركت فيها قوى التطرف السياسى والاجتماعى.

أنا أذكر حين تخرجت من الجامعة منذ ثلاثين عاما، أن أحلامى كانت واضحة، والقدرة على تحقيق هذه الأحلام كانت ممكنة. أما الآن فالأمر يبدو مستحيلا، فالخريج لا ينتظره عمل محدد، والصورة أمامه غائمة وضبابية، والإمكانيات محدودة، فلا هو قادر على الحصول على شقة أوسيارة أو زوجة ، ونحن مكبلون بتقاليد اجتماعية تضع أمام هذا الخريج أنماطا وأرقاما قياسية لا يمكن الوصول إليها.

ومن ثم تبدو هذه الصورة القاتمة مبررا أمام البعض، للانحراف فى تيار

الإدمان، أو تيار التطرف للهروب من الواقع.

أين النخبة الفوقية من هذا كله؟!

إننى أدعو هذه النخبة إلى النزول إلى الشارع، وأن يتوقف منطق الاكتفاء بالمساهمة فى بعض المشروعات، فهذا ينطوى على قدر كبير من التعالى، مالم يصحبه حوار مباشر مع الناس.

- **كيف تنزل هذه النخب إلى الشارع؟.. وما هى مصلحتها فى أن تنزل إلى الشارع؟.. ثم هل هى واعية بمصلحتها فى أن تنزل إلى الشارع؟**

○ حين تدرك هذه النخب أن المجتمع وحدة واحدة، وأن الثراء لن يرتب قيمة لصاحبه إذا كان الشارع منزعجا، وأن الوظيفة التاريخية للرأسمالية فيها مضمون اجتماعى، وأن هذا المضمون ليس إحسانا Charity، ولكنه ينبغى أن يقترن بوسائل وأساليب ليس فيها أى تعال، مثل طريقة السيدة يسرية ساويرس سيدة الأعمال التى تنزل إلى مناطق جامعى القمامة، وتتبرع وتقيم المشروعات وتدخل فى حوارات مع الناس ولها شعبية هائلة فى هذه المناطق، من دون تطلع لدور سياسى أو موقع انتخابى.

على النخب أن تنزل إلى الإنسان العادى، وهذا سوف يكون تحولا حقيقيا يشترك بموجبه الجميع فى صياغة مصر واحدة، وليس مصرين، أو عدة أمصار. وهذا هو الحل الوحيد الذى يسمح لمصر المستقبل بالاستقرار والاستمرار.

- ١٩٩٧ -

❑ ❑ ❑



د. مصطفى الفقى: (٢)

البحيرة الأمريكية هى معادل البحيرة الرومانية فى عالم اليوم

- الفكر القومى يحتاج إلى مراجعة كاملة.
- الحرية هى أم الإبداع كما الحاجة أم الاختراع.

د. مصطفى الفقى سفير مصر فى النمسا (وقتها) واحد من أنشط المثقفين المصريين الذين يبعثون قدرا معتبرا من الحرارة الضافية على الساحات الفكرية فى البلد، وهو - أيضا - من أنصار الفكر الاجتهادى التجديدى، الذين لا يقنعون بإعادة إنتاج المقولات الفكرية والعقلية سابقة التجهيز، وإنما يرى أن مسئولية كل تيار ثقافى وفكرى، هى فى اختراع وابتكار صياغات جديدة تتناغم مع حقائق العصر، ولا تتصادم مع معطياته أو أعرافه السائدة، من دون أن يفقد هذا التيار الثقافى قوامه أو يخون تراثه.

وقد تحدثت إليه على الهاتف بين لندن وفيينا فى بعض شواغل الساحة الثقافية المصرية التى عادة ما يختصنى بالحوار حول قضاياها الحاكمة، واستأذنته فى نشر بنود هذا الحديث فوافق، وهذا نصه:

- **د. مصطفى.. ملاحظتك اللامعة عن جيلك بوصفه جيل الطابق المسحور فى التاريخ السياسى لبلدنا، وملاحظتك الأكثر لمعانا عن اهتمام غالبية المثقفين والمهنيين فى مصر بالإعلان عن الذات بأكثر من اهتمامهم بإنجاز شيء على الأرض لبلدهم ومجتمعهم وأمتهم.. تستحقان وقفة للمناقشة، فأنا لا أنظر إلى جيلك سجين الطابق المسحور، كما لا أنظر لاحتراف عمليات الإعلان عن الذات بوصفها ظواهر معلقة من جذورها أو من شواشيها فى الهواء، وإنما بوصفها نتائج لمقدمات، وانعكاس لضياء نور أو لهيب نار.. بما يدفعنا إلى التساؤل عن مصدر سيادة مثل هذه الظواهر، والمناخ الحقيقى الذى نمت فيه.. وماهية النظام السياسى أو الاجتماعى الذى أنعشها؟**

○ إن الحديث عن الجيل الذى أنتمى إليه باعتباره «جيل الطابق المسحور»، إنما يصدر عن حقيقة صنعها تاريخ مصر فى العقود الأربعة الأخيرة، فأنا أنتمى إلى جيل بدأ حياته العملية مع نكسة ١٩٦٧ بتداعياتها المعروفة، وهو أمر انعكس بشدة على الحالة النفسية العامة للشباب فى ذلك الوقت، حيث كانت الهزيمة بمثابة صدمة كبرى بعد سنوات طويلة من الحديث عن المد القومى والتفوق العسكرى العربى والتعلق بالبطل الملهم، ثم صحونا فجأة على غير ذلك تماما، وهو الأمر الذى أدى إلى حالة من الإحباط الشديد. وفى ظنى أن تلك السنوات الواقعة بين حربى ١٩٦٧، ١٩٧٣ كانت هى سنوات اليأس والضياع التى أدت إلى خروج عناصر التطرف الدينى والعنف السياسى، وهى أيضا نفسها السنوات التى صادرت على مستقبل جيلى وجعلت «مصعد» الحركة السياسية يتحرك من أسفل إلى أعلى متجاوزا ذلك الطابق المسحور الذى يسكنه جيلى بكل ما يحمله من معاناة وما يشعر به من ألم، فعلى الرغم من الصمود العسكرى وحرب الاستنزاف المجيدة، ثم نصر اكتوبر العظيم إلا أن ارتباط البداية بالهزيمة العسكرية وتطور سنواتها الأولى مع النكسة، كل ذلك واقعا مستمرا يلاحق جيلى بالإحباط وخيبة الأمل، والهجرتين المكانية والزمانية فى معظم الحالات. ولقد شهدنا عبر تلك السنوات كيف يتم الإعلان عن الذات ودفع القيادات دون إعمال لقانون الاختيار الطبيعى الذى يضع كل فرد فى موقعه الذى يتناسب مع كفاءاته الموضوعية وقدراته الحقيقية، ولاشك أن سيادة هذه الظواهر إنما برزت فى ظل مناخ عام عرف التقلبات الشديدة والتوترات المتتالية والانتقال من حالة التحميس الزائد والشحن الدائم إلى حالة الانقسام والانزواء والتشرذم التى عرف جيلنا بعضها.

- **(الحوار مع الذات) و (الحوار مع الآخر) ساحتان تحتاجان إلى وقفة لتقييم العناصر المندمجة فى كل منهما، ونوع الأداء السائد فى كل واحدة، واستطلاع واكتشاف ما إذا كانت هناك علاقة صحية وصحيحة بينهما، أم أن كلا منهما أصبح معزولا عن الواقع الفكرى والعملياتى للأخرى؟**

○ إن الفارق بين (الحوار مع الذات) و (الحوار مع الآخر) هو الفارق بين مفهوم «المنولوج» ومنطق «الديالوج»، ولقد كانت مشكلتنا دائما أننا نعايش أنظمة سياسية تؤمن بالمونولوج السياسى الذى تتحول معه حركة الجماهير إلى انعكاس مباشر لتوجهات القمة فى وصاية أبوية ملزمة، أدت إلى كبت الحركة الطبيعية للمجتمع المدنى وعطلت قوانين التطور الطبيعى فيه. لذلك كان طبيعيا أن نتجه نحو مفهوم الديالوج فى السنوات الأخيرة لا تمشيا مع تيار عالمى كاسح يدعم الديمقراطيات ويحمى حقوق الإنسان ويعلى من سيادة القانون، ولكن أيضا نتيجة الإحساس بأن التقدم قرين الديمقراطية، وأنه إذا كانت الحاجة هى أم الاختراع. «فإن الحرية هى أم الإبداع». ولقد تحققت لنا فى السنوات الأخيرة مساحة كبيرة من الحوار بين الفرد والدولة فى محاولة لإحداث التوازن بينهما على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

● لا أظن أن حالة فكرية أو تطور فكرى يمكن أن ينمو أو يتحرك أو يتطور فى المطلق، تحت شعار من طراز (الفكر للفكر). ولا أظن أن (الحالة العربية الفكرية) أو (التيار الفكرى القومى العربى) السائدين يمكن فهم ما يعتريهما من تغيرات أو تفاعلات من دون دراسة علاقتهما بتطورات الصراع/ السلام العربى ـ الإسرائيلى.

كيف فى تقديرك تؤثر التطورات التى تعترى المنطقة الآن فى (حالة) أو (تيار) الفكر العربى بعامة؟

○ لاشك أن الحالة الفكرية ـ إذا جاز هذا التعبير ـ إنما تعكس طبيعة الحركة الإقليمية والتطور العلمى فى وقت واحد، فالفكر القومى يحتاج إلى مراجعة كاملة وتجديد شامل لإثبات أن الصراع العربى الإسرائيلى ليس أزمة مؤقتة أو مشكلة عابرة، ولكنه نتاج تاريخ طويل ومخاض مواجهة طويلة لن يتمكن فيها العرب من تحقيق إنجاز ما إلا بصحوة العقل وتحكيم الضمير القومى والاتجاه به نحو غاياته القومية الصحيحة، وعلى سبيل المثال: فالعرب منقسمون تجاه طبيعة

التعامل مع الخصم دون أن تتوحد كلمتهم، ودون أن يتفق فكرهم تجاه إستراتيجية المواجهة على المدى الطويل. فالمشكلة الحقيقية ليست فى الانقسام الفكرى الراهن، ولكنها أيضا فى غياب التصور الصحيح للإستراتيجية البعيدة، أى انعدام الرؤية القومية المقبولة من كل الأطراف.

- **الشفافية والقابلية للاختراق اللتان أصبحتا سمتان رئيسيتان لعالم ما بعد ثورة الاتصال وانفجار المعلومات، والعولمة التى تضم فيما تضم تحت لوائها سيادة معايير التنافسية والتكنولوجيا المتقدمة، والخضوع لضرورات ومقتضيات التجارة الدولية.. كل هذا اقتحم كثيرا مفهوم (السيادة) الذى تحتضنه ـ مازالت ـ فى اعتزاز أثير معظم دول المنطقة العربية. هل تتصور أننا بحاجة ـ اليوم ـ لمزيد من ربط أنفسنا بمفهوم السيادة، أم أننا يجب أن نخترع من الصيغ ما يمكننا من التلامس أو التقاطع مع حقائق العصر الجديد على أرضية مفهومية وفكرية تنتمى إلى ذات العصر؟**

○ ليس من شك فى أن التطورات الضخمة فى طبيعة العلاقات الدولية المعاصرة والتى صنعت عالما مختلفا لاشك أن تلك التطورات المتلاحقة والتغييرات السريعة قد أدت إلى فهم جديد لمنطوق سيادة الدولة فى ظل تلك التطورات، فلقد أصبح مقبولا فى ظل سيادة قوة عظمى واحدة تسعى لإعادة ترتيب الأوضاع دوليا وإقليميا وفقا لمصالحها، أصبح مقبولا أن يجرى التدخل فى شئون الدول الصغيرة تحت دعاوى حماية حقوق الإنسان أو استعادة الديمقراطية أو حتى الحفاظ على البيئة. . وهى كلها دعاوى حق يراد بها باطل، فالواقع أن هناك محاولات من جانب الولايات المتحدة الأمريكية لاستخدام الأمم المتحدة فى تأديب الأنظمة وتربية الشعوب، فنحن نعيش الآن فيما يمكن تسميته «العصر الأمريكى»، فكما أننا كنا نتحدث عن البحر المتوسط كبحيرة رومانية فى وقت ساد فيه تعبير« PAXA ROMANA »، فإننا يمكن أن نتحدث فى عالم اليوم عن

ما يمكن تسميته «PAXA AMERICANA »، ويكفى أن نتذكر كعرب أن هناك ثلاث دول عربية على الأقل تقع تحت الحصار الاقتصادى والاتصالى فى محاولة لتأكيد المعنى الذى ذهبنا إليه، وهو حق القوة الكبرى فى فرض شروطها على غيرها بشكل غير متكافئ، وفى ظل مفهوم الكيل بمكيالين. . فحتى مسألة حقوق الإنسان أصبحت قضية نسبية للغاية، فنحن ندرك أن حقوق الإنسان الأمريكى تختلف عن حقوق الإنسان الفلبينى أو الهندى، وكذلك فإن حقوق الإنسان الفلسطينى تختلف أيضا عن حقوق الإنسان الإسرائيلى، وهو أمر أدى فى مجمله إلى اهتزاز القيم واضطراب المعايير فى عالم اليوم.

- **كانت لديك الشجاعة كما كانت لديك القدرة على استشفاف واستشراف المستقبل حين جعلت من التجديد (نغمة) أساسية فى سيمفونيتك الفكرية والثقافية، وبغض النظر عما إذا كانت هناك عمليات تجديد تجرى بالفعل الآن فى ساحات الفكر العربى أم لا، وسواء كانت هناك قدرات تجديدية خلاقة للقوى الفاعلة على هذه الساحة أم لا.. فإن السؤال يظل بوضوح وأرجو أن تكون إجابتك على نفس الدرجة من وضوحه: «هل يمكن أن يتحقق التجديد والتواؤم مع التقدم الذى يفرض نفسه على العالم من جانب تيارات فكرية ومفكرين ينتمون إلى بلدان ومجتمعات منخفضة درجة النمو الاقتصادى/ الاجتماعى؟».**

○ لابد أنك تشير إلى الطرح الذى قدمته فى كتابى (تجديد الفكر القومى)، وهو طرح يعكس محاولة مخلصة لخلق رؤية عصرية لمستقبل الأمة التى تنتمى إليها، فنحن نتاج التزاوج بين الجغرافيا والتاريخ، أى بين البعد المكانى والعمق الزمانى، وكلاهما يشير إلى أن الأمة العربية تحتاج إلى محاولة جادة تعلو فوق الحسابات الشخصية والخلافات الذاتية لتحقيق صورة الغد الأفضل التى نتطلع إليها، وقد لا أكون مختلفا معك فى تأكيد أن انتماء تيار فكرى معين لبلد بذاته

ومجتمع بعينه هو أمر لا يمكن إنكاره، كما أن ارتباطه بدرجة النمو الاقتصادى والاجتماعى هو أمر لا مفر منه، فالإنسان هو ابن بيئته، والمفكر وليد ثقافته، ونحن كعرب نحمل تراثا عريقا يمتد لآلاف السنين، وحتى مفهوم العروبة يعنى فى نهاية تلك السبيكة التى نجمت عن تزاوج ثقافات عديدة، وتواصل حضارات مختلفة، ولا يمكن أن نأخذ المفكر خارج السياق العام لوطنه، خصوصا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية لأنه نتاج لهما وإفراز طبيعى عنهما.

- **د. مصطفى.. ما هى فى تقديرك المنطقة التى تختل فيها ـ عادة وكما تعودنا أن نرى ـ حركة المجتمع فى مصر بين الديمقراطية والفوضى، كما تختل فيها حركة الصحافة بين الحرية وانعدام المسئولية الاجتماعية، وتختل فيها حركة المثقفين بين الجماهير والمؤسسات الأجنبية الممولة للبحوث السياسية والمانحة للمراكز الفكرية؟**

○ لا يمكن الإشارة إلى منطقة بذاتها لكى نرى أنها هى المسئولة عن ضياع نقط التوازن بين أطراف متناقضة فى المجتمع من خلال حركته، ولكننا نستطيع أن نقول فقط: إن هذه المنطقة مرتبطة بعوامل تاريخية، وقيم موروثة، وتقاليد متراكمة، وأفكار تغلغلت فى وجدان الناس لتشكل خلفيتهم الفكرية، وهويتهم الذاتية. ولكن لا يجب أن نغالى فى الشعور بالتناقض الذى يبدو للوهلة الأولى، إذ إن ما نمر به هو نفسه تقريبا الذى عرفته مجتمعات أخرى أكثر تقدما وأسرع نموا فى عالمنا المعاصر، والشعوب تتعلم من أخطائها، والأمم تتقدم من خلال آلامها.

- **ببساطة كيف ترى الفارق سياسيا وثقافيا بين جيلك والجيل الطالع فى مصر الآن؟**

○ إن الفارق بين جيلى والأجيال الجديد فى مصر أننا كنا نظريين، على حين

هم عمليون أكثر. لقد كنا مثاليين فى الوقت الذى فيه هم واقعيون أكثر. أنا شخصيا أعتقد أن الأجيال الجديدة يجب أن تكون أفضل بالضرورة لأنها أعطيت فرصة أوسع، ولن تسكن «الطابق المسحور» فى التاريخ المصرى المعاصر، كما توفرت لها مصادر سهلة للغاية فيما يتصل بمصادر الثقافة، ومنابع المعرفة، ووسائل التعلم. لذلك يبدو طبيعيا أن الأجيال الجديدة أكثر اطلاعا على ما يجرى فى عالم اليوم بحكم ثورة المعلومات، وتطور وسائل الاتصال على نحو غير مسبوق، فالسموات مفتوحة، والأقمار الصناعية، والقنوات الفضائية جعلت الجميع بالفعل ينتمون إلى كوكب واحد، ولم تعد هناك هوة كبيرة بين الشاب المصرى ونظيره الأمريكى أو الأوروبى أو اليابانى، فهم جميعا يتابعون نفس الشىء وبنفس المستوى، ولكن هذا لا ينفى أن هناك جيوبا للفقر والتخلف تفصل بين النماذج المختلفة. ولا أخفى سعادتى بطبيعة العلاقة بين الأجيال الجديدة والتكنولوچيا الحديثة واستخدام الكمبيوتر والتهيؤ للقرن القادم بالفهم الصحيح لمعطياته والاستعداد بما يحمله فى كافة المجالات، كذلك فإن الجيل الجديد يبدو أكثر فهما لعقلية الآخر وإدراكا لطبيعته، ولقد لاحظنا أن إلمام الأجيال الجديدة باللغات المختلفة واستيعابها لأساليب التقدم المعاصر، كل هذه الأمور تجعلنى أقول وبكل ارتياح: إن الجيل الجديد أفضل من سابقيه فتلك هى طبيعة الحياة وسنة التطور. أما ما برره البعض من أن الأجيال السابقة أفضل من تلك اللاحقة فهى دعاوى لا تستند إلى دليل واضح، وهى مجرد ارتباط بذكريات قديمة وحنين إلى ماض ولى. وقد حذر منها منذ مئات السنين «عبد الله بن المقفع» فى حديثه الشائق عن (فضل الأقدمين).

- **د. مصطفى.. كيف تنظر إلى ما يردده البعض على أن (عروبة مصر) تكون بالخصم من حجمها وبالإنكار لعناصر التراكم السياسى والثقافى المنسوب إليها فى المنطقة، وأن عروبة مصر حتى لو اعترفنا بها جميعا ستواجه محاولات للتحجيم، كما ستواجه رغبة فى التقزيم من عناصر عربية أيضا؟**

○ إن قضية عروبة مصر لا تحتاج إلى اجتهاد كبير للإثبات فهى حقيقة وحياة ومصير، بل إننى أزعم أنه لفرط ما لدينا من مقومات الاندماج السياسى والانصهار السكانى فإننا لا نفعل ذلك، على حين أوروبا الموحدة أو شبه الموحدة قد فعلت ذلك برغم اختلاف اللغات والثقافات فضلا عن تاريخ طويل من الصراعات الدامية، ولعل نموذج العلاقات الفرنسية الألمانية فى القرن الماضى شاهد على ذلك. ونحن نؤمن بأن عروبة مصر هى معطاة تاريخية وحقيقة جغرافية لأن مصر هى الدولة المحورية ومركز الثقل فى هذه المنطقة من العالم وعروبة مصر ليست منحة أو عطاء، ولكنها درس تعلمناه فى أقصى الظروف، وأصعب الأوقات، وقد تكون المشكلة هى أننا فى بعض الأحيان نخلط بين المتغيرات والثوابت، ونتوهم أن استخدام عروبة مصر سياسيا أمر تحكمه أهواء السلطة أو مزاج الحاكم، على حين هى انتماء أصيل لا ينبغى التشكيك فيه أو استخدامه من خلال سياسات قصيرة الأمد وقصيرة النظر فى الوقت ذاته، والدور المصرى طليعى وطبيعى فى الوقت ذاته، فلم تتمكن قوة بديلة من أن تحجب عن مصر مكانتها أو ترث دورها وظلت الريادة لها فى أصعب الظروف وأقصى اللحظات. ويجب ألا ننسى أن التاريخ والجغرافيا كانا شديدى السخاء مع الكنانة منذ الأزل وربما إلى الأبد.

- ١٩٩٧ -

❑ ❑ ❑



د. رشدى سعيد فى عيد ميلاده الثمانين:

عن النيل.. وتوشكى.. ونقل التكنولوجيا.. وطرابيش العسكر !

- شقيقى وأنا دخلنا إلى عالم النهر شبابا.. واحد من بوابة الماء والآخر من بوابة الأرض !
- وحدة جنوب وشمال الوادى تحققت بالمراكب الشراعية !
- الشام ستصبح صحراء، وأقترح على أهلها أن يصرفوا أنظارهم عن الزراعة، ويتأملوا ما تفعله إسرائيل بفك الكيبوتزات وبيعها !
- الصراع على المياه هو بيننا وبين أنفسنا. أما الصراع مع إسرائيل فهو حضارى !
- المثقفون منعزلون عن السلطة ومنشغلون بمعاركهم البينية !
- مشاجرة التطبيع انصرفت إلى الجانب الخاطئ من القضية !
- (كل واحد فى حاله) هو الوصف الدقيق لحال الجماعة الثقافية فى مصر !
- ليست عندى مشكلة هوية، وأرى الحضارة الغربية (إنسانية) !

- قلت لكمال أبو المجد: لماذا تتكلم عن علماء القرن العاشر بوصفهم رموزا للحضارة العربية، إن الغرب أولى بهم لأنه حماهم ودفعهم لاستكمال المسيرة !
- شاهدت (قواعد الارتباط)، فوجدت أن من يجب أن يغضب هو الأمريكان وليس العرب !
- الثورة التكنولوجية هى أفضل ما يجعل النظام العالمى الجديد ديمقراطيا !
- الأفكار المعلبة تحرم صانع القرار من الاطلاع على البدائل لقراره !
- قلت لزكريا محيى الدين: توشكى منخفضة عن مستوى بحيرة ناصر فتم تقليل التخزين من ١٨١ إلى ١٧٨ مترا !

«فى ١٣ مايو.. منذ يومين.. أتم د. رشدى سعيد العلامة الچيولوچى البارز عامه الثمانين.

ومثل هذه الرموز العلمية الكبرى تختلط فى رؤيتنا لها حدود الخاص/ الشخصى، بحدود العام/ الوطنى.

ومن ثم، فقد كان عيد ميلاد الرجل مناسبة حقيقية لتأمل كبير، ونقطة زمنية رمزية تتجمع حولها الذكريات والآراء، ونتحلق فيها جميعا لنناقشه.. بل ولنشاكسه، كما يسمح، أو كما يحب !! فى رؤاه ومواقفه، وفى شئون الوطن وشجونه.

وفى هذا الحوار تجلت طبيعة الرجل العلمية، التى لا تسمح بالمداراة، أو التجمل.. بل كانت جمله كما كانت أحكامه، أشبه بالقوانين القاطعة، وليدة التأمل الطويل، والتجريب الطويل أيضا.

بدا الرجل مختلفا فى بعض المواقف، ومعارضا فى بعضها الآخر، ولكن من على أرضية شديدة الوطنية، ينسج عليها ـ وعبر هذا الحوار ـ لوحة من لوحات العشق لمصر (الأرض أولا) طبقة فوق طبقة، و (النهر ثانيا) نقطة إلى جوار نقطة، و (البشر ثالثا) قلب إلى جوار قلب، وعقل فى مواجهة عقل !

ومن بوابة هذا الحوار تحدث د. رشدى سعيد عن النيل، وظاهرة العداء للحضارة الغربية، ونقل التكنولوچيا، وتوشكى، وعلاقة المثقف بالسلطة، وعلاقة المثقف بالآخر، وعن مشاجرة التطبيع فى مصر وفى العالم العربى.

وقد كان فيها جميعا ينطق بجمل ويطلق أحكاما تبدو كالقوانين القاطعة، وليدة التأمل الطويل، والتجريب الطويل أيضا.

تتفق معه.. تختلف معه.. تصف إلى جواره.. تصف فى مواجهته، فى عامه الخمسين، فى عامه الثمانين سيظل هو.. كما عرفناه.. وكما عرفته الحياة الأكاديمية، و الحياة العامة فى مصر.

درة علمية متألقة.. وعاشق من عشاق الأرض والنيل والبشر فى مصرنا الحبيبة».

وفيما يلى نص الحوار:

● **تقول فى مقدمة كتابك «نهر النيل»: إن النيل قد فتنك فى شبابك، ثم إن إهداءك الكتاب إلى شقيقك المهندس نجيب فهمى سعيد يتضمن إشارة إلى أنه قضى عمرا فى خدمة الرى فى مصر.. ما الذى خلق عند هذه العائلة وعيا عميقا إلى هذا الحد بالنهر، وبالدور الذى يلعبه فى صوغ حياة البشر على شاطئيه؟**

○ النيل يشكل وجدان أى إنسان يعيش فى مصر..

بـدايـة.. هو نهر جميل.

وثانيا، فإن ما جعلنى أغوص مهتما فى أموره، وفى تاريخه، وأفحص مقلبا ظواهره ومآثره، كان عين ورؤية الجيولوجى، التى أخذت أرى بها مستقبلى منذ بداية حياتى.

لو نظرت إلى خارطة شمال إفريقيا بتدقيق، ستجد أن هذا النهر هو الوحيد الذى استطاع أن يأتى ببعض المياه من وسط إفريقيا إلى البحر المتوسط.

كقاطرة عملاقة فعلها.. ولم ينجح أى نهر آخر فى أن يفعلها.

ليس هذا فقط.. ولكنه نهر غريب، لأنه مضى فى مسيرته ـ هذه ـ مسافة طويلة جدا لا تصلها أية نقطة من المياه، ومع ذلك استمر فى طريقه إلى أن وصل مصبه فى المتوسط.

١٢٠٠ كيلو متر عبرهم هذا النهر من دون نقطة مياه إلى أن وصل إلى المحطة

الأخيرة فى مسيرته.

● هذا فى إطار الظواهر الطبيعية والمناخية، ولكننى كنت أسأل عن الظاهرة الوجدانية التى شكلت اهتمامك واهتمام أخيك؟

○ الظاهرة الوجدانية، هى الالتصاق بأرض مصر، وربما أكون قد دخلت مهنة الجيولوچيا لهذا الغرض، وأنا أعتقد أنها من المهن الجميلة جدا التى تدفعك للاقتراب من الأرض ومن الطبيعة.

أما شقيقى فقد دخل إلى النيل من بوابة هندسة الرى، فقد كان مهندسا مدنيا، ثم مهندسا للرى، وهو محب عاشق للنيل، يعرف النهر ـ ربما أكثر منى ـ!

. . . .

حين أتحدث عن النيل تعبر بذهنى أخيلة وأطياف عن شكل هذا النهر فى الصعيد، حيث بلدنا (القوصية)، وبلدة زوجتى (أبنوب) عند مدخل محافظة أسيوط يتسع مجرى النهر وواديه، ويصبح وكأنه يفضى إلى عالم رحب كبير.. وتترامق المدينتين واحدة على هذه الضفة، والأخرى على تلك.

أتذكر هذا المشهد، على الرغم من أننى كنت من مواليد القاهرة، إلا أننى كنت أعاود الصعيد مع والدى، الذى كان موظفا بالسكك الحديدية، وانتقل إلى القاهرة.

● هل تعتقد أن هناك تشابها ما بين شريط السكك الحديدية، الذى كان القطار يمشى عليه، والمنازل والمدن التى تشيد على جانبيه، وبين النهر الذى يشق مصر (طوليا) لتنشأ المنازل والمدن على جانبيه أيضا؟

○ هذه صورة أمريكية.. بالضبط مثلما فعل القطار فى أمريكا. الحقيقة أننى لم أفكر فى مثل هذه الفكرة أبدا، لأن مدن مصر قديمة للغاية،

قبل السكك الحديدية، فمعظمها نشأ بطريقة أخرى.

على التلال العالية، وهى فى العادة جسور النهر القديمة، لأن الناس ـ كما تعلم ـ تعيش فى السهل الفيضانى القديم لنهر النيل، ولم نخرج خارج هذا السهل إلا قريبا جدا من الناحية التاريخية.

وكانت المياه تفيض على هذا السهل ليصبح بحيرة تقريبا.. فأين يعيش الناس؟

لقد كانوا يعيشون فى المناطق العالية، أو على أطراف سهل النهر المتاخمة للصحراء، وهو أمر نادر.

المناطق العالية هى جسور النهر القديمة، لأن النهر كان يتحرك ومازال يتحرك، لولا أننا ـ إلى حد كبير ـ قد نجحنا فى تقييده وتكبيله تحت عنوان: «تهذيب المجرى» وما إلى ذلك.

وعندما يتحرك النهر يترك جسرا وراءه، وهذا الجسر العالى يصبح المكان المثالى الذى يقصده الناس ليسكنوه.

من هنا، فقد وصف هيردوت مصر وصفا دقيقا للغاية، حين يقول إنها وقت الفيضان تصبح كبحر إيجه، وأن القرى المصرية تصبح لهذا البحر بمثابة الجزر.

وقد كان لهذا الوضع فائدة أخرى بديعة، ألا وهى العبقرية المصرية فى صناعة الشراع وصناعة المراكب، إذ لم يك بمقدور المصريين أن يعملوا إلا عن طريق المراكب، لأنهم كانوا ـ كما قلنا ـ كالعائشين فى جزيرة لا يستطيعون أن يستسلموا لفكرة أن يكونوا معزولين.

لقد وحدت صناعة المراكب والشراع نهر النيل، فعندما يكون لديك مركب فى النيل تستطيع أن تصل لأقصى الشمال يدفعك تيار المياه، ثم يعيدك الشراع عن طريق الريح الشمالى إلى الجنوب!

● أعود إلى شقيقك الذى أهديته كتاب النيل بمناسبة بلوغه الثمانين.. نفس العمر الذى تبلغه هذه الأيام؟

○ نجيب كان ـ بالنسبة لى ـ أستاذ ، وصديق. . وكل شىء.

عزيز علىَّ جدا. . كان يكلمنى فى المسائل الفنية (عن النهر)، ولازلنا نتكلم، لكنه الآن مريض جدا.

كانت الفكرة الأساسية لحديثه عن النيل، هى كيفية الاستفادة منه.

والاستفادة من النيل تعنى فى الواقع الاستفادة من أرض واديه.

لقد أتقن الفراعنة هذه العملية، وبكل أسف فإن الأبناء ليس لديهم نفس الإدراك لأهمية أرض الوادى.

نحن نبدد الكثير من الأراضى الزراعية الجميلة التى نملكها.

أرضنا هذه فريدة ولا تعوض، وسأحكى لك كيف.

أنا أعيش فى أمريكا، وأحب أكل الجرجير، فلما أشترى بذور الجرجير من مصر، وأزرعها فى الأرض هنا، لا يكون لها نفس الطعم الجميل، وهكذا فى المانجو، أو فى أى شىء.

استخدام الأرض فى أشياء غير تلك التى تعطيك فيها نتائج لا مثيل لها، هو تبديد لاستخدام الأرض.

نجيب كان مهتما بالزراعة، ومحبا لها مثل كل المصريين.

وربما كان أول ما جعلنى أحب واشنطن أنها تنير فى فصل الربيع وتصبح كرنفالا من الألوان، متأثرا بهذه السمة المصرية الأصيلة التى تحب الزراعة وكل ما هو زهور أو ثمار أو مساحات خضراء.

المياه !

● **المياه موضوع هذا القرن.. ماهى قراءتك لحجم تأثير هذا الموضوع على مستقبل منطقتنا؟ وما هى الأرجحية التى تعطيها للعوامل الأيكولوجية، أو الجيوبوليتيكية فى تشكيل أرضية التعاون أو الصراع فى هذه المنطقة؟**

○ هذه قضية مهمة جدا، وخصوصا فى منطقة الشام.

الشام القديم (سوريا ـ لبنان - فلسطين.. وحاليا إسرائيل)، وهذه المنطقة ستتأثر أكثر من مصر بموضوع أزمة المياه.

والحقيقة أن كل مناطق العالم ستتأثر.

ولكن الشرق الأوسط سيكون أكثر المناطق تأثرا، ومنطقة الشام ستكون الأكثر تأثرا فى الشرق الأوسط.

بلد مثل الأردن أو فلسطين أو حتى إسرائيل لديها أزمة مياه خانقة، وستزيد فى المستقبل.

أنا لا أرى حلا.. الصورة قاتمة.. كمية المياه قليلة جدا على عدد السكان، وعلى المعدلات الكبيرة فى التزايد السكانى Population growth الطبيعى، أو وليد الهجرات. فأنت كما ترى سَعْىَ الإسرائيليين لدفع هجرات كثيرة إلى إسرائيل من روسيا ومن الحبشة وغيرها، وانظر ـ كذلك ـ لهجرة أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى الأردن، بسبب الصراع على الكويت فى مطلع التسعينيات.

العدد يزيد والموارد المائية محدودة.

ليس لديك سوى نهر واحد فى هذه المنطقة، هو نهر الأردن وفروعه، بينما ـ حتى ـ المياه الجوفية محدودة، والمنطقة الوحيدة التى تصلح لنشأة نشاط زراعى معتمد على المطر فيها هى شمال غرب إسرائيل وجنوب لبنان، التى فيها مطر أكثر من ٤٠٠ ملّيمتر (فما هو أكثر من ٤٠٠ ملّيمتر هو الذى يستطيع الزراعة على المطر. أما ما هو بين ٢٠٠-٤٠٠ ملّيمتر فيستطيع أن ينشط فى الرعى.. وأقل من هذا ـ فى الواقع ـ لا يستطيع فعل شىء).

المناطق التى تزرع على المطر تزرع مرة واحدة، ولكن لديها ميزة عن الذى يزرع بالرى، ويحتاج لأن يشق ترعا وقنوات، وينشئ وزارة رى، ووزارة كهرباء، ويرفع مياه.

إذن الشام يزرع فى مناطق قليلة تتوافر فيها كمية من المطر تصلح للزراعة، والباقى ـ كما قلنا ـ مناطق رعوية، ومعروف أنها ـ تاريخيا ـ ومنذ عيسى عليه السلام وحتى الآن ـ مناطق رعاة يتنقل فيها البدو وراء الكلأ !!

أين المشكلة إذن؟

المشكلة هى أن بلدا قويا كإسرائيل سيأخذ المياه لنفسه.

الموضوع عافية (يضحك).

ستمنع الفلسطينيين من أن يأخذوا نصيبا عادلا من المياه، إنما ما أريد أن أقوله هو: إنهم حتى لو اقتسموها بالعدل والقسطاس، فسوف يكون الطرفان فقراء فى المياه.

إن الأطراف الشرق أوسطية أشبه بالإخوة فى عائلة فقيرة جدا، يتشاجرون على الميراث طوال الوقت، إلا أنهم بعد توزيع الأنصبة سيكونون شحاذون أيضا!!

وأنا لا أرى أية طريقة تقليدية أو غير تقليدية لحل هذه الأزمة على الإطلاق.

فأما عن الطرق التقليدية (الخزانات ـ السدود للأمطار)، فسوف توفر بضعة ملايين من الأمتار المكعبة، لكنها لن تخترق المشكلة فى العمق وتحلها.

أما الطرق غير التقليدية (تحلية مياه البحر) فهى غالية فى ذاتها، وحتى إذا نجحت فى إنتاج المياه بطريقة رخيصة جدا، فإن نقلها يتكلف أموالا باهظة.

وخذ عندك ـ مثلا ـ بلد مثل الأردن، الذى ليس لديه بحر إلا فى العقبة، فإذا ما نجح فى تحلية البحر هناك، فإن عليه نقل المياه، ودفعها، ورفعها إلى مدن مثل عمان البعيدة جدا عن البحر، وهذا غير عملى بالمرة.

تحلية المياه قد تصلح لحل مشاكل محلية صغيرة مثل توفير المياه للقرى السياحية. أما الزراعة أو الاستهلاك العمومى فهذه مسألة صعبة جدا.

أنت ستكلف تحلية مياه البحر (١٠ آلاف جنيه للمتر المكعب)، وعندما تريد الزراعة أقول لك: لا توجد زراعة أو أرض تزرع بأقل من ٥ آلاف متر مكعب، يعنى تحتاج مياه تكلفتها ٥٠ ألف جنيه للفدان، وهذه تكلفة غير عملية على الإطلاق.

منطقة الشام ستصبح صحراء، والذى أقترحه على أهلها أن يصرفوا أنظارهم عن الزراعة، ويتأملوا ما تفعله إسرائيل الآن حين تفك الكيبوتزات وتبيعها.

أنت تذكر أن فلسفة الحركة الصهيونية فى بدايتها، تقوم على فكرة أن اليهود تركوا فلسطينيين لأنهم انصرفوا عن الزراعة. ولذلك، فإن مفكرى الحركة الصهيونية - فى البداية - كانت فلسفتهم أن الزراعة هى التى تربط الإنسان بالأرض، ومن ثم فإن إعادة اليهود إلى الفلاحة هى ما سوف يربطهم بالأرض ويثبتهم. أما نحن فقد تركنا الزراعة وعملنا تجارا وانجرفنا فى الدايسبورا إلى أوروبا.

تاريخيا الحركة الصهيونية حين اجتمعت فى لوزان لترتيب الأوضاع بعد الحرب العالمية الأولى، بعد وعد بلفور، وأرادوا رسم حدود فلسطين لتشمل كل منابع المياه، وكان من ضمن ما أرادوا ضمه للخرائط، نهر الليطانى، ولكن - عمليا - كان حلمهم هو المياه والزراعة، ولكن لأنهم - بكل أسف - أسبق منا، فقد فهموا أن مسألة الزراعة مستحيلة فى أرض صحراوية.

على أية حال ما أود أن أقوله هنا: إن العرب كانوا على امتداد تاريخهم فى فلسطين يزرعون ما يسمى: «زراعة كفاف ورعى». أما اليهود فكانوا يريدون الانتقال من هذا النوع إلى الزراعة المتقدمة اقتصاديا، وكانوا يريدون المياه، ويعتقدون أن هناك مياه فى المنطقة، ولكن الحقيقة أنهم اكتشفوا كل الحقائق السابقة وبدأوا فى صرف أنظارهم عن الزراعة وبيع الكيبوتزات.

وفى هذا الإطار سأذكر لك رقم عن مصر قد يدهشك.

نحن فى مصر نزرع باثنين وأربعين مليار متر مكعب من المياه، لكى تحصل

على دخل حجمه ٤٢ مليار جنيه . . يعنى كأن المتر المكعب يكفل دخلا قدره جنيه واحد.

يعنى لكى نأتى بالمياه اللازمة نقيم الخزانات ونعقد المعاهدات مع أوغندا، وندرس فنيا موضوع جبل الأولياء، ولدينا وزارة للرى، ووزارة للزراعة، ومحطات رفع كهرباء . . كل هذا كيما نوفر المتر المكعب، الذى يأتينا بدخل قدره جنيه واحد.

● فإذا ما اختفت المياه كأساس للصراع.. فيم سيكون الصراع إذن؟

○ الصراع حضارى . . يشمل كل شىء.

صراعنا حول المياه، هو بيننا وبين أنفسنا.

لابد أن يأخذ العرب العبرة من إسرائيل . . إسرائيل ـ نفسها ـ تنتقل من الزراعة، وعندما تدرس الاقتصاد الإسرائيلى ستجد ٣٪ فقط من السكان يشتغلون بالزراعة (وهى نسبة تكاد تكون مماثلة لأمريكا)، ومع ذلك فهذه النسبة تقدم ١١٪ من الدخل القومى، و ١٨٪ من الصادرات.

لقد قدم الإسرائيليون زراعة علمية متقدمة جدا لغرض التصدير، الذى هو ـ أصلا ـ بذور مهجنة، وتركوا لنا فى العالم العربى أن نزرع الطماطم والخيار، ليقوموا باستيرادها منا.

والحقيقة أن الإسرائيلى حين يستورد طماطم خام، فهو يستورد مياه !!

بالضبط مثل أى دولة تستورد منا أنجوتس الألومنيوم، فهى ـ فى الواقع ـ تستورد (طاقة) !

فبدلا من أن يصنع الطرف الآخر الأنجوتس التى تستهلك كهرباء كثيرة، فإنه يستوردها منك، ويحصل على القيمة المضافة.

وهذه هى النقطة التى كنت أثيرها كثيرا فى مصر، فنحن لا نعرف كيف نستغل

مواردنا وصناعاتنا، فبدلا من تصدير الأنجوتس كما كانت شركة الألومنيوم فى نجع حمادى تفعل.. أقوم بتصديرها مصنعة.

الوحدة!

● فى شخصية مصر يرى جمال حمدان أن مصر من أعلى حوض عند جبل السلسلة فى أسوان، إلى أدنى حقل فى «الجزيرة الخضراء عند المصب، هى سلسلة متصلة الحلقات متكاملة هيدرولوچيا ووظيفيا، يتفاعل الماء بين أجزائها المختلفة، كما لو فى أوان مستطرقة، فلا يمكن أن تخطط لمشاكل الماء فيها تخطيطا محليا، بل لابد أن تعالج كوحدة هيدرولوچية واحدة، وإلا اختل فيها ذلك التوازن الإيكولوچى الحرج الدقيق، وبالتالى اختلت فيها عناصر الحياة، بمعنى آخر أنها غير قابلة للتجزئة، ولا يمكن أن تدار أو تحكم كعدة وحدات مستقلة»..

وفى كتابك «نهر النيل» تشير إلى أن اتصال النهر مع إفريقيا أصبح ضعيفا ومتقطعا فى الأربعمائة ألف سنة الأخيرة.. هل تعتقد أن لهذا علاقة بضعف البعد الإفريقى فى الشخصية المصرية، وبعدم ميل المصريين لأن يمدوا أواصر ارتباط حضارى وإنسانى حقيقية إلى الجنوب؟.. بعبارة أخرى هل أصبحت هذه الوحدة المركزية التى يخلقها النيل فى مصر عوضا عن الوحدة التى يمكن أن يخلقها النيل فى دول الحوض؟

○ عندما تطالع نشأة الحضارة المصرية، ستجد أن ما كنت تذكره فى سؤالك صحيح.

كانوا خائفين منا.. وكنا خائفين منهم أكثر.

ولكن الدنيا تغيرت.. وميكانزمات العالم تغيرت، ولا نستطيع أن نقول إن ما حدث فى العالم يمكن تكراره.

الجنادل التى يتكلم عليها جمال حمدان، مثل جبل السلسلة وهو مضيق صغير يضيق النيل فيه جدا، ولكن بعد ذلك يتسع النهر وتصبح الحركة فيه سهلة، رائحة غادية، باستخدام الشراع كما ذكرنا.

الجنادل جعلت الحركة والاتصال فى درجة كبيرة من الصعوبة مع إفريقيا، وقد كان هذا الكلام فى الماضى. أما الآن فهناك سيارات وطائرات وقطارات.

● د. رشدى.. تظل حركة البشر محكومة بما هو أكثر من السيارات والطائرات؟

○ لقد كسر محمد على هذا الحاجز بين مصر والسودان. أما التعويق الجغرافى، فقد ظل قائما إلى أن كسرته وسائل النقل الحديثة، ففى مذكرات تشرشل قال إنهم حين أرادوا أن يتغلبوا على حركة المهدى، كان من أصعب ما يكون أن يذهبوا إلى السودان عبر النيل، ولذلك أنشئت شركة سكك حديد حلفا/ أبو حمد لهذا الغرض ولتفادى جنادل النيل.

النوبة كانت منطقة جرداء، لعبت دورا مهما فى حياة مصر، إذ حققت حمايتها من كل أمراض إفريقيا الإستوائية، لأنها كانت حاجزا أو بمثابة منطقة عازلة Buffer Zone، تعقم أجواء وبيئة مصر من التسى ـ تسى والملاريا.

● ولكنها عزلت ضمن ما عزلت هذا المؤثر الإفريقى فى الشخصية الوطنية أيضا؟

○ ربما كان هذا أيضا تاريخا وانقضى.

فالحركة الآن سهلة جدا.

قديما فى هذه المنطقة أو فى الدولة الوسطى، كانت هناك منطقة اسمها «سمنا» ـ بكسر السين ـ وقد كتبت عنها فى كتاب النيل، وهذه المنطقة كانت أول منطقة فى التاريخ تشهد استخدام باسبور وفيزا أو تأشيرة دخول، فلم يكن هناك من

يستطيع دخول مصر جنوبا إلا بتأشيرة دخول يبرزها على بوابة سمنا، وهى عبارة عن قلعتين فى مواجهة بعضها البعض، واحدة ناحية الشرق، والأخرى ناحية الغرب، يعنى شديدة الشبه ببوابات وحواجز الحدود الحالية فى كل مكان.

وقد اختار المصريون القدماء إقامة هذه البوابة فى أضيق منطقة فى النيل، وكأن هناك سدا طبيعيا فيها يمنع التسلل.

هذا يقول إنه باستمرار كان هناك خوف من إفريقيا. أما الذى ساعد على الاقتراب والتمازج، فهو ـ كما ذكرت ـ وسائل الانتقال الحديثة.

ثمانينيات !

● د. رشدى.. على عتبات الثمانين، أظنك قادر على استقطار حكمة هذه السنين وبلورتها فى صياغات أشبه بالقوانين الفلسفية، وفى ساحتين أظننى ـ مرة أخرى ـ أحتاج فيهما إلى التعرف على حدود رؤيتك (ساحة حوار المثقف مع السلطة) و (ساحة حوار المثقف مع الآخر).. فانظر ماذا ترى؟

○ لا أعتقد أن هناك جسور قوية أو حتى موجودة بين المثقف والسلطة فى كثير من بقاع العالم العربى.

السلطة تخاف من المثقف.

السلطة فى العالم العربى أيضا لا تعرف أهمية المثقف، وتنظر إليه بوصفه غير مطيع، و «غلباوى».

ثم إن السلطة فى معظم أجزاء منطقتنا ليس لديها الأفق الواسع الذى يسمح بالنظر إلى قدام لمعرفة ما سوف يحدث بعد ١٠-١٥ عاما، فهى فقط مشغولة بحل المشاكل الجارية أو الحالية، وعندما يتحدث المثقفون عن المستقبل، تنظر إليهم هذه السلطة بوصفهم حالمين غارقين حتى آذانهم فى الخيال.

وأذكر أننى قابلت الرئيس عبد الناصر مرة، فمازحنى قائلا:

«كل ما نجيب لك وزير تعمل مشاكل معاه»، فقلت له: «ياريس ليس لدى مانع فى أن أعمل مع أى وزير شريطة أن يكون أحسن منى كيما أستطيع أن أتعلم منه شيئا» !!

على أية حال، فإن بلادنا مليئة بالمشاكل اليومية الصغيرة جدا، التى لا تسمح للناس، أو لصانع القرار بالحديث عن رؤية مستقبلية، فالجميع مستهلكون فى هذه المشاكل اليومية الصغيرة التى تسد الأفق وتمنع الوصول إلى الرؤية الواسعة، الشاملة، الكبيرة.

وأمام هذه الخلفية.

أو فوق هذه الأرضية تقل أهمية المثقف، ويتضاءل حدود دوره المفترض إلى حد كبير.

● ما تقوله عن علاقة المثقف بالسلطة، هو ما أراه ـ بالضبط ـ فى علاقة المثقف بالآخر؟

○ جزء مما جرى فى العالم العربى أن ابتعاد المثقفين وانجرافهم بعيدا عن السلطة التى لا تريدهم، جعلهم ينصرفون إلى مشاجراتهم البينية المتوحشة !

عزلة المثقف ـ هذه ـ أدت إلى فقدانه التعبير عن نفسه، وعدم القدرة على إطلاق طاقاته.

جزء مهم جدا فى تقدم أية أمة أن تطلق طاقاتها، حتى لو أخطأ أفرادها، لأنها إذا لم تُطلق فسوف يعيش المثقف فى حالة مونولوج، وليس ديالوج.

وضع (كل واحد فى حاله)، سيؤدى إلى أن تسير الخيوط كلها بالتوالى وليس بالتقاطع، بمعنى آخر سنجد أنفسنا أمام (فِتل) وليس نسيج !!

● ألم يلفت نظرك ـ يا دكتور رشدى ـ طوال العقد الماضى مثلا أى حوار من أى نوع بين المثقفين؟

○ أبدا. . كل ما ألاحظه أن هؤلاء المثقفين يسيرون وراء شعارات !!

● تقصد الجمود الفكرى؟

○ ليس الفكرى فحسب، ولكن حتى الجمود السياسى أو الحركى، فخذ عندك ـ مثلا ـ قضية التطبيع، التى انشغل بها الذهن الثقافى والسياسى فى مصر والعالم العربى، طوال العقد الماضى.

ستجد أنهم ركزوا على من ذهب إلى إسرائيل، ومن لم يذهب، وهى قضية لا أهمية لها على الإطلاق، فهى مسألة شخصية (واحد يريد أن يذهب. . والآخر لا يريد أن يذهب) !

بينما أرى أن قضية التطبيع إذا أردنا إثارتها فيجب أن تكون فى موضوعات مثل: (بيع الغاز من عدمه، أو نقل الطاقة إلى إسرائيل أو عدم نقلها، أو أبيع لإسرائيل أنجوتس الألومنيوم لتبيعه لى بعد ذلك سلعا مصنعة أم لا) !

هذه هى القضايا الأساسية.

أما مسألة واحد يسافر أو لا يسافر فهذا هراء.

المثقفون لم يناقشوا الجانب الحقيقى فى القضية، لأنهم يريدون التقرب إلى دوائر معينة لهم فيها منافع.

● يا دكتور رشدى المنافع ـ الآن ـ تتحقق فى خارج السلطة وليس فى مربعها؟

○ غير ممكن !

● لا.. ممكن.. فهى تتحقق الآن عبر رجال أعمال، والمثقفون المصريون والعرب استبدلوا السلطة بمعناها السياسى الكلاسيكى المعنوى الذى كنا نعرفه، بسلطة المال أو سلطة رجال الأعمال؟

○ السلطة أيضا مهمة يا دكتور عمرو.. بل ومهمة جدا، وعليك أن تبحث وسط تجمعات المثقفين عن هذه الأهمية وتلك المنافع (يضحك) !!

عولمة !

● فى كتابه آفاق العصر، يقول الصديق الدكتور جابر عصفور: «يبدو أنه بقدر تصاعد خطى النزعة الكوكبية، أو تسارع إيقاعها، تتصاعد خطى النزعات المضادة، ويتصاعد إيقاعها فى آلية أكثر تعقيدا من القانون الذى يقول إن لكل فعل رد فعل، يساويه فى القوة، ويخالفه فى الاتجاه. وأحسب أن نبرة النزعة التى تدعو إلى وحدة إنسانية جديدة تقوم على التنوع وتغتنى بالاختلاف، تنطوى على نوع من الاستفزاز لنزعات المحلية أو الإقليمية أو العنصرية، وتدفعها إلى اتخاذ مواقف دفاعية على مستويات شعورية أو غير شعورية، كأنها رد الفعل المنعكس الشرطى حفاظا على معنى من معانى الهوية الذاتية من ناحية، وخوفا من الضياع فى محيط أوسع من ناحية أخرى».. كيف ترى إشكالية الهوية، وأنت بحكم الهجرة فى اشتباك يومى معها؟ ثم كيف ترى نفس الإشكالية فى ظل قيم العولمة، وأنت بحكم الهجرة إلى أمريكا ـ بالذات ـ شديد الاقتراب من تأثيراتها؟

○ ليس عندى مشكلة هوية.

طوال عمرى أؤمن بوحدة الحضارة.

كنت أحضر مؤتمرا أقيم فى جامعة القاهرة بعنوان: مؤتمر چيولوچيا العالم العربى، وطلبوا منى ـ على غير ترتيب ـ أن أرأس الجلسة الأولى الاستهلالية، فجلست على المنصة، وقدمت أحد زملائى القدامى، وإذا به يلقى محاضرة طويلة عن اهتمامات «إخوان الصفا» فى علم الچيولوچيا.

وكنت قد كتبت ورقة علمية فى هذا الموضوع عام ١٩٥٠ (أى صدرت منذ

٥٠ عاما). . وقد كان الرجل أمينا وأشار إلى ورقتى، ولكنه عندما تكلم أثار فى نفسى ذكريات نصف قرن مضى، عندما كانت طالبا فى جامعة هارفارد، أستمع إلى محاضرات بروفيسور مهم جدا فى علم الجغرافيا اسمه «كير كبراين»، وكلها كانت فى معنى (كيف تشكلت ظواهر الأرض).

وكانت محاضراته جميلة جدا، وقد أنشأوا جائزة باسم هذا الشخص فى الجمعية الچيولوچية الأمريكية.

وفى إحدى الجلسات التى دعانا إليها كيركبراين فى منزله لنتناقش ونتبادل الآراء، قلت له: «اسمع. . كل ما تقوله سبقك إليه أناس من القرن العاشر»، فلما تساءل بقوة، قمت بترجمة أربع صفحات من كتاب إخوان الصفا، وقدمت لهم، وأعطيت الدراسة للأستاذ، فسر سرورا عظيما، ونشرها فى واحدة من كبريات المجلات العلمية الكبرى، والتى لم يك ممكنا أن ينشر فيها طالب مثلى وقتها.

وقد وصلت ـ عبر هذه الحادثة ـ إلى أن كير كبراين هو الوارث الحقيقى، لحضارة العرب والمسلمين، أما نحن فلم نرث شيئا، بالعكس لقد اضطهدنا إخوان الصفا، ومن تبقى منهم رحل إلى أوروبا، التى أخذت منهم علمهم، وانطلقت بهم، وانطلقوا بها.

ولذلك أنا أعتقد فى وحدة الحضارة، وأنه من الخطأ أن نسمى الحضارة الغربية (غربية).

هذه حضارة بشرية.

وجميع الناس شاركوا فيها بما فيهم أنا، ولذلك ليس عندى شعور بالنقص إزاءها On contrary. وعلى العكس، فإن الغربيين سرقوها، فكانوا أذكياء لأنهم أخذوها ومضوا بها، وكنا خائبين لأننا تركناها.

● من أين ـ إذن تأتى هذه المقاومة فى العالم العربى للحضارة

الغربية؟

O لقد وجدت صديقى العزيز د. كمال أبو المجد، يكتب أفكاره فى دافوس فى إحدى المجلات الثقافية، وهو يريد أن يتكلم عن الحضارة الإسلامية، فلا يجد شيء يتحدث فيه إلا علماء القرن العاشر.

ماله ومالهم.. لم يعد لنا علاقة بهم..

لقد رميناهم.. وطاردناهم.. وكسرناهم.. وذبحنا نصفهم، وكان الغرب هو من احتضنهم، وهو الذى من حقه أن يتكلم عنهم وليس نحن!

جزء من المقاومة يأتى من إنكار حقائق تاريخية أو الجهل بها.

والجزء الآخر هو الإحساس بالضعف والخوف والشعور الدائم بضرورة الدفاع عن النفس حتى إزاء ما لا يستوجب الدفاع.

وستجد فيلما مثل قواعد الارتباط Rules of engagement، أصبح مثارا لضجة كبرى أثارها العرب، وقد ذهبت لأشاهده لكى أرى ما الذى أغضب العرب، فوجدت أن الطرف الذى يجب عليه أن يغضب هو الأمريكيين !!

فقد أظهر الفيلم سفيرهم بوصفه كاذب، ومستشار رئيسهم للأمن القومى على أنه غشاش.

لقد شتم الفيلم الأمريكيين أكثر بكثير مما يمكن أن تستخلصه منه بأنه شتم العرب.

ومع ذلك فالأمريكيين لم يغضبوا.. على حين غضب العرب جدا.

هذا النهج خطير.

ولعلك كنت تلاحظ آنفا فى مصر ـ مثلا ـ نرفض مناقشة مشاكل أزمات طوائف المجتمع، أو انحراف قطاعات منه، وكأنه ليس لدينا أية مشكلة.

المبالغة فى الحساسية، والرغبة فى الدفاع هو جزء من الضعف والخوف،

وعدم القدرة على المواجهة.

الضعف يعنى إخفاء الأزمات.

لدينا برلمان منذ عام ١٩٢٤، ومع ذلك لم يقل إن وزيرا واحدا كان مخطئا.. طوال عمر هذا البرلمان.

أشعر بوحدة الحضارة وبأننى جزء من حضارة أكبر، ومع ذلك فأنا رجل شديد الوطنية، ولا أجد أى تعارض فى هذا، فعلى الرغم من أننى أعرف أن الحضارة واحدة، فأنا أعرف أيضا أن هذه الحضارة ليست كلها أشياء جميلة.. ففيها استعمار، وفيها أناس يحاولون استغلال الآخرين (ليس فقط من خلال علاقة بلد قوى ببلد ضعيف، ولكن ـ أيضا ـ من خلال علاقة الناس ببعضهم البعض فى بلد واحد) !

لذلك أنا أريد لبلدى ولمجتمعى أن يتحدث مع العالم بالكثير من القوة والثقة والندية.

هناك أشياء عظيمة فى (العولمة) أريد لمصر أن تستفيد منها، وعلى رأسها الثورة التكنولوچية القائمة.

الثورة التكنولوچية هى أفضل ما يجعل النظام العالمى أكثر ديمقراطية !

المعلومات على المشاع.

أى بلد صغير عنده العزيمة والإرادة الطيبة والقدرة على تغيير نفسه، يستطيع أن يدخل العالم الجديد.. المعلومات موجودة، ورؤوس الأموال اللازمة لعملها بسيطة جدا.

لو أن مصر تريد أن تحقق التنمية التكنولوچية، فيمكنها أن تفعل ذلك وحدها مثل الهند.

كل ما نحتاجه مجموعة شباب متفوقين، ومجموعة من أجهزة وأنظمة الكمبيوتر.

والأسرار الموجودة ستكون فى متناول أيديهم، والأسرار غير المطروحة للعلن، لن يعطيها أحد لنا فى جميع الأحوال.

الشطارة أن نبنى ـ نحن ـ منظومة أسرارنا الذاتية.

● د. رشدى.. أرجو أن تتوقف هنا قليلا، فمثل هذه الموضوعات ينبغى مناقشتها بترو.

فاحتواء اتفاقيات نقل التكنولوچيا على برامج للتدريب، هو الذى يكفل بناء القاعدة البشرية، أو الكادر البشرى القادر على تحقيق ما كنت تذكره حالا.

○ لديك فى مصر ١٥ جامعة، وأربع جامعات خاصة وجامعة أمريكية وجامعة فرنسية، بالإضافة إلى الجامعة التى أرسى د. زويل حجر أساسها.

كل هؤلاء تستطيع أن تصنع بهم قسما يطور هذا المشروع، أو حتى تقوم بإنشاء أكاديمية.

● كنا نتحدث عن (من أين تأتى المقاومة لأركان الحضارة الغربية فى منطقتنا)..

هل تعتقد أن هناك تأثيرا لتشوش المثل الأعلى الكلاسيكى فى المشروع النهضوى المصرى من فرنسا أولا، ثم أوروبا بعامة، ثم الثقافة الوافدة عبر الهجرات الإقليمية والخليجية المؤقتة، بالإضافة إلى تأثيرات كوكبة من المفكرين ضمنهم من كنت تذكر حالا.

لقد أصبح هناك اختلاط فى المثل الكلاسيكى الحضارى الأعلى، وحتى داخل مجتمعنا نفسه فالمثل الأعلى عند من يسكن قمة الهرم الاجتماعى، يختلف عن المثل الأعلى لمن يسكنون سفح هذا

الهرم.. هل تتصور أن مقاومة الحضارة الغربية هى وليدة هذا الاختلاط؟

○ هو جزء من السبب.

هذا الاختلاط وليد الجهل وغياب الرؤية ولا شىء آخر.

أنا مع الابتكار وضد النقل حتى فى موضوع نقل التكنولوچيا الذى أراه يجسد معنى العلاقة مع الحضارة الغربية أكثر من أى شىء آخر.

سأعطيك مثالا لحوار دار بينى وبين جلال أمين فى إطار المشاكسات الدائمة بيننا، فقد كان يقول لى دائما: ما هى حكاية الهامبورجر الذى يحمله الأمريكان إلى أى مكان فى العالم.. الفول المدمس أحسن.

فأقول له: «نعم الفول المدمس أحسن، ولكننا لانعرف كيف نسوقه ونحدد مستويات ثابتة لإنتاجه مثل الهامبورجر».

لابد أن أرى عناصر الفكرة الأجنبية وأهجن معها.

ولكننا نريد أن ننقل لأن هذا أسهل!

● **هل تحدثت مع أية دائرة رسمية عن أفكارك حول نقل التكنولوچيا؟**

○ لا.. لم يسألنى أحد أبدا.

● **على ذكر (العولمة)، أظننى بصدد الحديث عن لفظ يجمع بينه وبينها جناس ليس إلا وهو (العولبة)، وأعنى به اطمئنان الذهن العربى إلى صيغ فكرية معلبة وجاهزة.. كيف ترى الالتباسات التى يمكن أن تتولد من وضع عولبة الذهن العربى، فى زمن يتحرك فيه كل شىء (حتى تجديد وبناء الصيغ الفكرية) بسرعة مذهلة، وبقوة ـ جد ـ كاسحة؟**

○ لو أن هناك عزيمة نستطيع أن نفعلها.

الناس مستعدة والفكرة الحقيقية ليس فيها اختلاف.

نريد أن نضع أيادينا على رؤية حقيقية بدلا من التشوش الذى يقول تارة إننا عرب وتارة أخرى إفريقيين وتارة أخيرة بحر متوسطيين.

ما يمنع هذه الرؤية هو الأفكار الجاهزة «المعولبة».

هى تمثل الحالة الأسهل..

ولكنها الحالة التى تمثل ظلما بالغا على صانع القرار الذى لابد أن تكون لديه بدائل، ويحرم من أن يتعرف عليها.

طرابيش !

● رؤيتك عن توشكى أصبحت مبثوثة على كل الأقنية فى مصر، هل حاولت ـ يوما ـ تأمل وجهة النظر الأخرى المخالفة فيما يخص هذا المشروع.. وكيف رأيتها؟

○ ليس هذا فقط، ولكننى ذهبت لأرى ما يحدث هناك بنفسى.

قليل من الناس يعرفون هذه المنطقة، ولهذا فقد أثار المشروع خيال أناس كثيرين.

أنا أعرف صعوبة هذه المنطقة وصعوبة أن ينجز فيها أى شيء.

حتى ـ إقليميا ـ هذه منطقة معزولة، ولو نجحت فيها فسيكون نجاحك ـ فقط ـ هو خلق واحة خضراء صغيرة فى صحراء ممتدة من شاطئ المحيط الأطلنطى وحتى البحر الأحمر.

من الصعب تصور عمل إنجاز حضارى هناك.

وقد غضب علىَّ الأديب جمال الغيطانى، وقال لى: (كيف هذا؟.. إن توشكى هى أملنا) لمجرد أننى طرحت رأى.

وأنا أفهم وجهة النظر القائلة بفتح آفاق جديدة، ولكننى كنت أرى ما أوضحته لك بشأن هذا المشروع، وقد بدأت الدوائر الرسمية تكتشف صحة ما ذكرت شيئا فشيئا.

لقد ذهبت إلى توشكى زمان وهى أرض بلقع، لقد كانت المكان الذى دارت فيه معركة عظمى بين المهدى وجرينفيل، وكانت مذبحة.

وعندما وصلت إليها فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات وجدت فيها بقايا، وطرابيش عسكر وملابس متناثرة على الرمال.

ولقد كان لى مع هذه المنطقة تاريخ شخصى.

فقد كنا نحفر فيها، ووجدنا فيها بقايا مستعمرة قديمة فيما قبل التاريخ، وقد لفت ذلك انتباهنا، وبدأنا ندرسها، فوجدنا ارتفاعها منخفضا عما كان مقررا أن يكون عليه خزان السد العالى (بحيرة ناصر).. فانزعجت أشد الانزعاج، فقد كان معنى أن تكون توشكى أكثر انخفاضا عن المكان الذى سنخزن فيه الماء أن تتبدد المياه فى الصحراء إذا زادت.

وذهبت إلى أسوان كى أرى الخرائط، فلم أجد أحدا سوى بعض صغار الموظفين، وكان - وقتها - (١٩٦٤) زكريا محيى الدين رئيسا لوزراء مصر، فذهبت إلى بيته وشرحت له الموضوع فاتصل بصدقى سليمان وزير السد العالى، وقال له: نحن - فعلا - ليس لدينا خرائط، ولكن سنطلب من اليوغسلاف أن يضعوها لنا، ورسمت الخرائط فعلا، وثبت أن هذه المنطقة منخفضة عن خزان السد العالى، فقللوا طاقتها على التخزين من ١٨١ إلى ١٧٨ مترا.

● حدثتنى عن البدائل.. قل لى - إذن - ما هى البدائل التى تطرحها بعدما وصل المشروع إلى هذه المرحلة؟

○ أزرعها بالآبار.. فهناك مياه جوفية فى المنطقة أرخص كثيرا.

الناس عندما تكون مشغولة بمشاكل الحياة اليومية الصغيرة لا يرون إلا الصف الأول من أشجار الغابة، فالمهندسون الموجودون هناك مشغولون بالمشاكل الصغيرة التى أمامهم، مثل حل أزمة الترعة التى تخترق الصخور، وكيف يتم تبطينها، على حين لم يفكر أحدهم أن هذا كله يمكن حله بالآبار.

نجاشى !

● منظر النيل الآن، كمنظر أسد مروض ومستأنس فى سيرك بالأرياف !

وهو محاط بالنوادى والعمارات ومراسى اليخوت.. وأريدك (من باب الفن وليس العلم) أن تجيبنى على ما إذا كنت تعتقد أن هناك وشيجة ما تراها بين حال النهر.. ومزاج الناس فى بر مصر؟

○ مسكين النيل.

جزء من أسباب ما وصل النهر إليه هو فكر الزحمة، الذى لايسمح لأن يكون لأحد أفراد المجتمع خصوصية تذكر، حتى لو كانت هذه الخصوصية تعنى قصة حب بريئة بين شاب وشابة، فما بالك بخصوصية النهر نفسه !!

ما حدث هو خصخصة النهر لصالح البنايات والنوادى والكازينوهات الملاصقة له، وهى خصخصة خاضعة لقانون اجتماعى يبيح لمن لديه القوة الاقتصادية أو الاجتماعية أن يأخذ ما يريد.

بالضبط مثلما كنا نذكر عن إسرائيل فى حالة أزمة المياه، أن قوتها ستتيح لها أن تأخذ ما تريد.

● د. رشدى.. للنيل أغان كثيرة (النيل نجاشى - يا نيل يا أسمرانى - شمس الأصيل يا نيل). أيها الأقرب إلى ذكرياتك عن النهر.. أم أنك تحب الغناء للآبار !!؟

○ (يضحك) بل النيل نجاشى يا سيدى.. ولن أغنى للآبار !!

- ٢٠٠٠ -

❑ ❑ ❑





د. إبراهيم شحاتة: (١)

عن أوروبا والدولار والإصلاح والسيولة!

- مصر ليست جنوب شرق آسيا، ولكن التوقعات مختلفة عن الواقع!
- لم يحدث ـ لحسن الحظ ـ اندفاع على البنوك بما يؤكد أن مصر ليست في حالة أزمة!
- الموبيل والدروس الخصوصية ليسا سبب أزمة السيولة في مصر!
- الحكومة هي مثل للكل، وأخطر ما يمكن أن نواجهه هو تفشي ثقافة (عدم الدفع)!!
- الهجوم على سانزبوري كان خطأ سببه سيادة ثقافة غوغائية سياسية ودفع من الخصوم المنافسين تجاوز حدود الالتزام الأخلاقي في السوق!
- لم يحدث تعويم للجنيه، ولكن حدث تسامح إزاء تخفيض سعره!!
- هناك مجموعة تبحث في البنك المركزي موضوع سعر الصرف في مصر!
- عرض دولارات أكثر في السوق ليس حلاً!
- لابد من توقع بعض المشاكل في أي حل تختاره للوضع الاقتصادي الحالي، لأن كل حل وله ثمن!!

- أحد الحلول لسعر الصرف أن يربط جزء كبير من الجنيه باليورو وليس بالدولار !
- الإصلاح..عملية مستمرة.. سواء كان اقتصادياً أو غير اقتصادى !
- أهم مزايا ارتباط الدولة ببرامج إصلاح مع المؤسسات الدولية هو أنها تنفذ ما اتفقت عليه !
- من مصلحة أية دولة أن تتوسع فى تحرير التجارة، وتدخل - فى نفس الوقت - فى تكتلات إقليمية !
- على مصر أن تحسم موضوع التوقيع على اتفاق الشراكة مع أوروبا، لأن الوضع الحالى ليس فى صالحنا !
- حرية التجارة لصالح الدول النامية وليست ضدها !
- المبالغة فى الحماية تضر جمهور المستهلكين !

«جرت وقائع هذا الحوار قبل وفاة د. إبراهيم شحاتة بسبعة أشهر»:

فى حوار طويل مع الدكتور إبراهيم شحاتة نائب رئيس البنك الدولى السابق، ناقشت العديد من القضايا الحالية والمزمنة فى ساحة الاقتصاد المصرى، وعلى رأسها أزمة السيولة وسعر الصرف وأولويات الشراكة مع أوروبا وأمريكا والتصدير والتعليم والارتباط بالمؤسسات الاقتصادية الدولية وعمليات تحرير التجارة.

وقد أفاض العالم المصرى فى شرح وتحليل آليات الحل لكل مشكلة من المشكلات التى طرحناها، ولكنه ركز على ضرورة التزام الواقعية والبعد عن الغوغائية السياسية فى تحديد بدائل الحلول لأزماتنا، وقال: إن الموبيل والدروس الخصوصية ليسا سبب أزمة السيولة فى مصر، وأن الحكومة هى مثل للكل، وأن أخطر ما يمكن أن نواجهه هو تفشى ثقافة (عدم الدفع) وأن الهجوم على سانزبورى، كان خطأ سببه سيادة ثقافة غوغائية سياسية، ودفع من الخصوم المتنافسين تجاوز حدود الالتزام الأخلاقى فى السوق، وأن أحد حلول سعر الصرف أن يربط جزء كبير من الجنيه باليورو وليس بالدولار، وأن المبالغة فى الحماية تضر جمهور المستهلكين.

وفيما يلى نص الحوار:

- **ما هو التوصيف الصحيح لما يطلق عليه أزمة السيولة أو الكساد، خاصة وأن هناك تعريفات كثيرة للوضع الذى وصلنا إليه، والذى ينسب البعض لأسباب من طراز أن الأسر المصرية أصبحت محملة جدا بمصاريف كبيرة كفواتير ضخمة للتليفون المحمول أو الدروس الخصوصية، وهذا يضعف القوة الشرائية**

ومن ثم يؤدى إلى بعض ملامح هذا الكساد الذى رأيناه فى المحلات، والبعض الآخر يرد هذا الوضع إلى أننا بلغنا مرحلة اقتصادية ناضجة تم فيها استعدال بعض الأوضاع الاقتصادية، بحيث أخذنا الشكل الطبيعى لسوق تغلق فيه شركات وتفتح شركات أخرى طبقا لمستوى هذه الشركات الاقتصادى والفنى؟

○ عندما بدأ الانفتاح الاقتصادى فى مصر، وفى بعض الدول الأخرى، زادت الآمال فى التوسع المستقبلى، اقترضا كثير من رجال الأعمال أموالا، لبناء Real estate، أو عقارات ومبان، ومكاتب، ووحدات سكنية فاخرة، توقعا لاستمرار الرخاء، والتوسع، والنمو الاقتصادى.

بعبارة أخرى أنت تأخذ قرضا لفترة قصيرة، وتضعه فى استثمار بطبيعته طويل الأجل، على أمل أنه سيعطيك دخلا متجددا تسدد منه، وإذا لم يتم النمو الاقتصادى بالدرجة التى توقعتها، سيترتب على ذلك وجود مبان كثيرة، ليس عليها طلب كاف، كما سوف يترتب على ذلك عجز عن سداد القروض التى بنيت بها هذه المبانى، وهذا يؤدى ـ بطبيعته ـ إلى انكماش فى الاقتصاد، وإلى توقف البنوك عن تجديد الديون بمجرد التخلف عن سداد أول قسط، أو أول فائدة مستحقة.

لقد رأينا هذا فى تايلاند وفى دول أخرى، وكان هذا ـ فى الواقع ـ بداية الأزمة، ومما زاد من حدة هذه الأزمة فى شرق آسيا، أن الاقتراض كان يتم من بنوك وشركات أجنبية، لأن سعر الفائدة على الدولار كان أقل، والعملة المحلية كانت Convertible يمكن تحويلها إلى الدولار، ومن ثم كان الأسهل هو الاقتراض بالدولار، وبالذات فى ظل انطباع عام أن النمو مستمر، وبمعدلات عالية.

وعندما ظهرت الحقيقة، وأن التفاؤل كان أكثر مما يجب، والطلب على المبانى الجديدة لم يتحقق بنفس الدرجة، وعجزت الشركات التى قامت بتمويل هذه المبانى عن السداد، توقفت البنوك عن الإقراض، وبدأت الأزمة..

ومتى بدأت الأزمة، أو ـ حتى ـ الشعور بوجود أزمة، يظهر موضوع الثقة، لأن أساس عملية تدفق الأموال والسيولة والنمو هو الثقة فى الاقتصاد.

ومتى اهتزت الثقة، يبدأ من لديه أموال فى الداخل بالعملة المحلية محاولة نقلها إلى العملة الأجنبية، أو يخرجها إلى الخارج،ويتوقف من كان ينوى إدخال أمواله، ويدخل اقتصاد أى بلد فى حلقة مفرغة، كل خطوة منها تؤدى إلى خطوة أسوأ، وفى النهاية تحدث أزمة. . هذا ما حدث فى آسيا.

مصر مختلفة لأن اقتراض قطاعنا الخاص من الخارج ضئيل جدا، وغير مضمون من الحكومة، والاقتراض كان ـ أساسا ـ من البنوك المحلية، ولكن المشكلة تظل موجودة ، سواء كان الاقتراض قد تم من بنك محلى أو أجنبى، إذا البنك أقرض أكثر مما يجب ولم تك لديه احتياطيات كافية إزاء عدم تسديد الديون.

هنا تحدث ـ مشكلة سيولة فى البداية، أو عجز عن السداد بالنسبة لمديونيات البنك، وبالتالى إفلاس، أو توقف عن الدفع.

يعنى المفروض أن كل بنك عندما يقرض، فإنه يفعل ذلك على أساس حسابات معينة للمخاطر، ويراعى فى ذلك تكوين احتياطيات كافية، بالنسبة للديون التى لا تسدد، والفوائد التى لا تسدد.

إذا اختلفت التوقعات عن الواقع فسوف تحدث مشكلة، وكل بنك هو وسيط فى النهاية، والودائع تمثل التزاما على البنك.

ولحسن الحظ لم تحدث أزمة فى مصر ـ بهذا المعنى ـ ففى حالة الأزمة، كما نتابع فى الخارج وبالذات فى الحالة الآسيوية، يحدث ما يسمى بالاندفاع Rush على البنوك، ويحاول كل مودع أن يسحب ودائعه خوفا، وإذا حدث هذا النوع من الخوف، فإن البنك سيبدأ الرفض فى الدفع للمودعين وتحدث أزمة على الفور. . ولكن هذا لم يحدث ـ كما قلنا ـ فى الحالة المصرية.

أنا لا أعتقد أن السبب هو الدروس الخصوصية، فالدروس الخصوصية ظاهرة موجودة فى مصر سواء وقت أزمة أو قبلها، وإذا كان هناك طلب على التليفون المحمول (الموبيل)، فإن هذا معناه أن الفلوس تنتقل من يد إلى يد ولكنها موجودة فى دائرة الاقتصاد المصرى.

المشكلة تحدث عندما تخرج الفلوس خارج البلد، سواء عن طريق هروب رؤوس أموال، أو عدم دخول رؤوس أموال كانت متوقعة سواء لانخفاض أسعار البترول، أو انخفاض دخل السياحة أو تحويلات العاملين بالخارج أو الاستثمارات الأجنبية.

● **ولكن دخل البترول والسياحة مرتفع الآن؟!**

○ الآن.. ولكن فى العام الفائت لم يكونا مرتفعين..

أضف إلى الأسباب ظهور مشروعات ضخمة ترتبت عليها دفوعات لشركات أجنبية تؤدى إلى خروج أموال إلى الخارج، أو عدم دخول أموال كان متوقعا دخولها من الخارج.

ولكن لو كانت الحالة هى انتقال أموال من يد إلى يد فى الداخل، فهذا لا يمكن أن يؤدى إلى أزمة سيولة، فإذا دفعت لمدرس خصوصى، انتقل المال من يدك إلى يده، فإن المال يظل موجودا، إنما عندما ينقص سعر البترول، وينقص دخل السياحة، أو عندما يقوم البعض بتهريب أموالهم إلى الخارج، أو لا يدخل بعض المستثمرين الذين كنا نتوقع دخولهم، أو عندما تقل تحويلات المصريين فى الخارج أو عندما يزيد الاقتراض الحكومى والإنفاق غير المنتج، فإن هذا يحدث أزمة فى كمية النقود.

وفوق هذه الحزمة من الأسباب، فإن هناك سببا إضافيا مهما، فلو قل الإنفاق الحكومى، واعترفت الحكومة بعد ذلك بأنها سوف تؤدى التزامات متأخرة، فإن معنى ذلك أنها كانت لا تدفع فى الميعاد، وهذه رسالة خطيرة جدا، لأن الحكومة هى مثل للكل، فإذا كانت الحكومة نفسها لا تدفع فى

الميعاد، يترتب على ذلك ثقافة عامة بعدم الدفع، ليس لأن الناس فى السوق ليس لديهم نقود، ولكن لأنهم يرون الحكومة لا تدفع فى الموعد!!

الدروس الخصوصية والموبايل يمكن أن تخفض إنفاق الأسرة على مسائل أخرى غيرهما، ولكنهما لا يخفضا السيولة الكلية فى البلد.

لابد أن نكون واضحين، إذا لم يدفع المقترض للشركة أو البنك المقرضين له، فإن هذا سيخفض من إقراض أيهما، بما سوف يخفض السيولة فى البلد.

وعلى الجانب الآخر، فإن شركة مقاولات كبرى - مثلا - لم تتقاض مستحقاتها سوف تتحفظ - هى نفسها - فى الإنفاق.

العملية - كما ترى - مرتبط أولها بآخرها، فأنا أصرف لأن هناك مالا يدخل لى، وإذا لم تدخل لى الفلوس، فسوف أصرف أقل.

وإذا تكونت ثقافة عامة أو خوف عام من الوضع الحالى، سيكون الاتجاه عكس الإنفاق، وسيكون الاتجاه هو تحويل العملة إلى عملة أخرى، وإخراجها - تماما - من البلد.

وفى النهاية - تلخيصا لكل ما سبق - فإن مسألة الثقة هى أهم عنصر ينبغى أن نراقبه ونحرص على وجوده فى الاقتصاد المفتوح.

غوغائية!

● دعنا - يا دكتور إبراهيم - نناقش مثلا واقعيا على الأرض لموضوع الثقة وهو حكاية «سانزبورى» وعزم هذه الشركة - كما أعلنت - على ترك السوق فى مصر، فهل ترى أن هذا الموضوع يعكس حالة ثقة أو حالة عدم ثقة فى الاقتصاد المصرى، أم أنه يمثل حالة ينبغى النظر إليها خارج إطار حالة الاقتصاد؟

○ نظريا، قد يكون سبب خروج هذه الشركة لا علاقة له بمصر، ولكن - واقعيا وفعليا - فإن السبب هو الهجوم الذى حدث على هذه المحلات، ومن غير المعقول، بعد أن أنفقوا كل هذا المال على استثماراتهم الناجحة فى البلد، أن

يخرجوا منها بسبب هذا الهجوم الخاطئ الذى أضرنا - بغوغائيته - ليس فقط على المستوى الاقتصادى، ولكن على المستوى السياسى والثقافى، فقد أخذ الهجوم على متاجر سانزبورى طابعا عدائيا لليهود، ولأصحاب هذه المتاجر اليهود، وهذا - بالطبع - له مردود سيئ جدا يُسمع فى الخارج.

ولنأخذها بطريقة أخرى، فأنا مسلم، وأستثمر فى بلد وجدت فيه عدائية للإسلام، وهجوم على استثمارى، فما الذى يشجعنى على الاستثمار فى هذا البلد؟!

هذه السلسلة من المتاجر تشغل عددا ضخما من الناس (٤٥٠٠ شخص) ولهم دور حقيقى ومطلوب حمايته.

وقد لاحظت من قبل الغوغائية السياسية فى مهاجمتهم - بحكم كونهم يهودا - أن هناك من عززوا الهجوم عليهم لأنهم متضررين من المنافسة.

وهذا فى الواقع يتجاوز حدود الالتزام الاخلاقى فى السوق المفتوح، فالمفروض فى السوق المفتوح أن نرحب بالمنافسة، حتى لو تضرر البعض.

واجب الحكومة هو حماية الاستثمارات القائمة، والهجوم على هذه الشركة أخذ طابعا (ليس - فقط - ضد إسرائيل ولكنه ضد اليهود)، وهذا شىء غير إسلامى لأن ديننا لا يقول إننا ضد الأديان الأخرى.

واليهود - كما تعلم - لديهم حساسية شديدة لموضوع العدائية للسامية، وإذا كان هذا هو السبب الذى فكرت هذه الشركة من أجله فى نقل استثماراتها، فإنه سبب مفهوم، إذ لماذا يستثمر أحد فى بلد تكرهه، وليس هذا فقط، ولكنها تحاربه فى استثماره!

تعويم!

- **فيما يخص سعر الدولار فى مصر، هل حدث - فى رأيك - تعويم للجنيه؟ وما هو تقديرك لآثار تغيير سعر الصرف التى عادت لتحدث فى مصر؟**

○ لا أعتقد أن هناك تعويم، ولكن هناك نوع من الاستجابة إلى الواقع، يكون له تأثيره فى سعر الصرف.

تعويم بالكامل، معناه ترك المسألة كلية للعرض والطلب فى السوق، وهذا لم يحدث، وإنما هناك ـ فيما يبدو ـ توجيه بأنه لوكان هناك اتجاه للزيادة أو نقص الطلب على الدولار، فلابد من ارتفاع أو نقص سعر الجنيه فى حدود معينة.

الذى حدث هو نوع من التسامح فى تخفيض سعر الجنية بعض الشىء.

وأعتقد أن هناك ـ الآن ـ مجموعة تدرس ما يمكن عمله فى المستقبل، وضرورة الاتجاه إلى الواقعية، وهى مسألة محل بحث منذ سنوات طويلة.

الوارد هو تحديد الحدود التى يسمح فيها باستجابة السعر للواقع الاقتصادى.

فهناك سعر يحدد بقرار، وسعر يحدده الواقع.

على أية حال، فإن كل خيار له مزاياه ومضاره، وهناك خوف لو ترك سعر الجنيه للواقع، فإنه سينخفض انخفاضا كبيرا، وهذا ـ طبعا ـ سوف يساعد الصادرات، ويرفع أسعار السلع المستوردة، وبالتالى سوف يساعد هذا الوضع الإنتاج المحلى، ولكنه ـ فى نفس الوقت ـ سيرفع سعر الأشياء المستوردة الأساسية، مثل سعر الغذاء الذى سيرتفع، بما يثير الكثير من المخاوف والاعتراضات على تخفيض سعر الجنيه.

هناك وجهتى نظر، والحكومة كانت أكثر ميلا لعدم التخفيض على أساس حماية أسعار المواد الأساسية المستوردة، بما فى ذلك ليس ـ فقط ـ المواد الغذائية بل أيضا مستلزمات الإنتاج، ولكن هناك عوامل واقعية تضغط على سعر الجنيه، منها أن الصادرات غير البتروليه منخفضة جدا، والواردات تزيد بشكل كبير، فقد كان آخر رقم رأيته هو ٤,٥ مليار دولار للصادرات، و١٤-١٥ مليار للواردات، يعنى العجز التجارى زاد، وهو يضغط على العملة، وينعكس عليها إلى جانب دفعه إلى إخفاق الصادرات، لأن ارتفاع سعر الجنيه يجعلنا غير قادرين على

المنافسة مع الدول الأخرى ذات العملة الأضعف. أما التخفيض فيؤدى إلى زيادة السياحة والصادرات، بل إن من مزاياه أنه يرفع أسعار المواد المستوردة، وهذه ميزة بالنسبة للمنتج المحلى ولكن ليس بالنسبة للمستهلك المحلى.

إذا لم تخطط وتقرر شيئا ـ من هذا السياق ـ فكيف ستحمى الجنيه إذن؟!

عرض دولارات أكثر ليس حلا، فقيام البنك المركزى باستخدام احتياطيه لدعم العملة المحلية، هو شيء مشروع فى حدود معينة، ولكن ما رأيناه فى دول أخرى مثل: إندونيسيا والبرازيل يؤكد فشل هذا الحل، فقد ضخت إندونيسيا حوالى ٤٠ مليار دولار، وكذلك فعلت البرازيل، ومع ذلك فلم تتمكن إحداهما من حماية العملة، لأن الواقع ـ أحيانا ـ أقوى من ذلك، ويكون هذا الإجراء بمثابة هدر للاحتياطيات بدون نتيجة.

على أية حال، فإن هذا لم يحدث عندنا بشكل موسع، فقد تدخل البنك المركزى بمبلغ بسيط، وبعدها قال للبنوك المحلية ـ ما معناه ـ (فلتتصرفوا أنتم)!!، والبنوك ـ فى هذه الحالة ـ قد لا تجد تصرفا، فتقول ليس لدىَّ نقد أجنبى، وهذا يخلق مشكلة أخرى هى عدم الثقة، خصوصا أن المستثمر الأجنبى يريد تحويل أرباحه وذلك لايكون إلا بالعملة الأجنبية.

المشكلة معقدة، ومتصلة حلقاتها، وإذا اتجهنا إلى حلها حلا اقتصاديا عقلانيا، فقد يخلق ذلك مشاكل اجتماعية، وإذا اتجهنا إلى حلها حلا اجتماعيا عقلانيا، فإن ذلك قد يخلق مشاكل اقتصادية.

وبالتالى، فإن معضلة الوضع الاقتصادى الحالى، هو أن الآراء تختلف إزاء الموقف الواحد، ومواجهة كل من هذه المواقف يحتاج إلى تأن، وإلى قبول بعض المخاطر.

● **مثل ماذا؟**

○ كما قلت لك، ستخفض الجنيه، فترفع سعر السلع المستوردة، وهذا مفيد

فى أشياء، ومسبب للمشاكل فى أشياء أخرى، والمشكلة فى هذه الأشياء الأخرى أنك ستحلها عن طريق تخفيض الرسوم الجمركية أو إلغائها عن سلع معينة، ولهذا ـ بالطبع ـ مردوده الاجتماعى.

بعبارة أخرى، إننى يجب أن أضع فى حسابى جميع جوانب المشكلة قبل أن أتخذ قرارا. وفى النهاية، فإن كل حل وله ثمن، ولا يوجد شفاء من أى مرض من دون بعض الألم.

كان الاتجاه فى مصر ـ سابقا ـ هو: لامساس بسعر الصرف، وقد تغير هذا الموقف ـ الآن ـ ولكن كيف يدار التغيير، لابد أن يكون هذا محل بحث.

وقد حلت دول أخرى معضلات شبيهة بأشكال مختلفة، منها عدم ربط سعر العملة ـ بالضرورة ـ بالدولار، وإنما ربطه بعملات الدول الأخرى التى تتعامل معها الدولة تجاريا بصورة أساسية، والمعروف أن جزءا كبيرا من صادرات مصر وتعاملها التجارى هو مع دول أوروبا، وبالتالى فإن جزءا كبيرا من الجنيه يمكن أن يربط باليورو، وليس بالدولار، ومثل هذا الإجراء ـ لو تم اتخاذه ـ يخفض السعر وحده (فلو قلنا مثلا أننا سنجعل ٦٠٪ من تعاملنا مربوطا باليورو و ٤٠٪ مربوطا بالدولار، فإن ذلك سوف يترتب عليه ـ فى الوقت الحالى ـ تخفيض). أما إذا بدأ سعر الدولار فى الهبوط، فإن ذلك يترتب عليه وضع آخر، ولكن هذا كله لن يضرنا لأننا ـ حينئذٍ ـ نربط عملتنا بنسبة تعاملنا مع الخارج، فصادراتنا لن يزيد سعرها.

فإذا كنا نصدر الآن لأوروبا ـ بصورة أساسية ـ ونربط عملتنا بالدولار، فمعنى هذا أننا سوف نكون أغلى للمستورد فى أوروبا.

أما إذا كنا نربط التبادل بعملة الدول التى نصدر لها، فإن ارتفاع قيمة عملاتها يضر بصادراتنا إليها. . والعكس صحيح.

العــودة!

- برامج الاصلاح الاقتصادى، كانت مرتبطة ـ فى الذهن العام ـ بالعلاقة مع المنظمات الاقتصادية الدولية (صندوق النقد الدولى + البنك الدولى)، وكنا نشرح مراحل هذا الإصلاح للجمهور بصفة دائمة، وبدا وكأن هذا الإصلاح قد تم ـ بالفعل، ومن ثم أصبحت العلاقة مع المنظمات الاقتصادية الدولية ليست موضوعا مخيفا للذهن العام.. أما .. الآن ـ وفى ظل هذه الأزمة للسيولة (سواء كانت حقيقية أم مفتعلة) يظل الإحساس القائم لدى الجمهور. هل تعود ـ مرة أخرى ـ برامج الإصلاح الاقتصادى؟ هل يعود الصندوق والبنك إلى طرح وفرض شروط على مصر؟

○ الإصلاح ـ بطبيعته ـ سواء كان اقتصاديا أو غير اقتصادى، هو عملية مستمرة. . برنامج بعد برنامج، ولكن ليس ـ بالضرورة ـ كل برنامج فى حاجة للارتباط بالمؤسسات الدولية.

فالبرنامج الذى ربط مصر بالصندوق تم، ومن الممكن تبعا لذلك، أن تستمر مصر فى الإصلاح بدون حاجة لجهات أجنبية ترتبط بالإصلاح.

والواقع أن وجود أجهزة مثل الصندوق أو البنك له أهمية خاصة، هى أنك تعتمد على مؤسسات لديها قدرة هائلة على الدراسة وتوجيه النصح، وإن كان ليس من الضرورى الاتفاق معها فى كل شىء.

على الأقل مثل هذه الأجهزة تتيح لنا الاستفادة من نتائج دراسات متعمقة ومفيدة، وبخاصة أنها عملية مجانية لاندفع فيها ثمن كل هذه الدراسات التى يتحملها جهاز البنك أو جهاز الصندوق.

إذن ارتباط عملية الإصلاح بأجهزة دولية، سواء كانت صندوق النقد الدولى، أو أى جهاز دولى آخر، ليس ـ بالضرورة ـ شىء سيئ، ولكن بالعكس ـ له مزاياه، وأهمها ميزة (الالتزام) حيث تكون هناك أهداف متفق عليها بين الدولة

وهذه المؤسسات الدولية، بما يشعر الدولة بضرورة تحقيق مثل هذه الأهداف، ليس ـ فقط ـ من أجل صالحها، بل للوفاء بما تعهدت به إزاء جهة أجنبية، وهذا يساعدها فى كسب ثقة العالم الخارجى.

هذه هى مزايا ارتباط الإصلاح ببرنامج مع جهاز أجنبى، ولكن من الممكن أن تستمر الدولة فى الإصلاح ـ وهذا هو الأصل ـ من دون ارتباط بجهاز خارجى.

الناس عندنا يتصورون أن الارتباط ببرنامج مع الصندوق أو البنك هو شىء معيب، ولكن ـ بالعكس وكما شرحت لك ـ إذا كانت الدولة ملتزمة ولديها برنامج تنفذه بجدية وغير محتاجة إلى دعم مادى من جهاز دولى، فإنها تكون فى غير حاجة إلى مثل هذا الارتباط.

● أى وضع نحن فيه الآن مع هذه المؤسسات الدولية؟

○ ليس لدينا ـ حاليا ـ برنامج متفق عليه مع جهة أجنبية، والحكومة المصرية تسير وفقا لبرنامجها للإصلاح.

● هل هناك أى سيناريو يطرح الآن تجدد البرامج التى تربط مصر مع الصندوق؟

○ ليس لى علم بذلك، وهذه مسألة متروكة للحكومة المصرية.

● عندما تقر قواعد الشراكة بين مصر والاتحاد الأوروبى، أو مصر والولايات المتحدة الأمريكية، فهل نكون ـ حينئذ ـ بصدد مجرد وضع إطار تنظيمى لعملية استيرادنا، أم أن هناكً فرصة أو أملا لشراكة بالمعنى الحقيقى والحرفى للكلمة؟

○ من مصلحة أية دولة أن تتوسع فى تحرير التجارة، وتدخل ـ فى نفس الوقت ـ فى تكتلات إقليمية.

تحرير التجارة له فوائد كثيرة جدا، كما أن له بعض الأضرار، لأننا ـ كما اتفقنا ـ نعرف أنه لا يوجد خيار اقتصادى فوائده مطلقة!

نظام تحرير التجارة الدولى الحالى، يسمح بقيود أو تفضيلات، إذا كانت مرتبطة بتكتلات إقليمية، فالاتحاد الأوروبى بينه وبين وحداته يعطى مزايا للدول الأعضاء، ولا يتعارض ذلك مع منظمة التجارة العالمية، وكذلك نظام النافتا NAFTA الذى يربط أمريكا والمكسيك، وكذلك نظام جنوب شرق آسيا، ولهذا تتجه الدول لتكوين تكتلات إقليمية، وحكومات هذه الدول ديمقراطية ومنتخبة ويهمها كسب الأصوات، وإذا كانت هناك جهات لها تأثير قوى على أصوات الناخبين مثل هذه المنظمات غير الحكومية، فإن صوتها يكون مسموعا بالنسبة لاتفاقية شراكة مع دولة أو أخرى.

وعلى سبيل المثال، فقد كانت هناك محاولة قوية من جانب الدول الغربية للاتفاق على معاهدة جماعية لمعاملة الاستثمارات الأجنبية، تبنتها منظمة OECD (منظمة الدول الصناعية فى باريس)، وبعد ما صاغوا الاتفاق، توقفوا لأن المنظمات غير الحكومية اعترضت بشدة، وقالت إن هذا الاتفاق يحمى الرأسمالية ضد العمال، وهو ضد المستهلكين وضد البيئة. ومن هنا خافت الحكومات وتوقفت عن إنجاز الاتفاق.

- **بهذا المنطق فإن منظمات حقوق الإنسان، ومنظمات البيئة والنقابات ـ فى معظمها تقف ضد الصندوق والبنك، فهل معنى هذا أن تخاف هذه المؤسسات؟**

○ لقد بدأت مثل هذه المنظمات تؤثر.

- **كيف؟**

○ سأعطيك مثلا، صندوق النقد الدولى والبنك الدولى مشتركان، يجريان دراسة الآن على معدل الفقر، ومدى تأثير التحرير الاقتصادى على الفقر، وتفعيل دور هذه المؤسسات، ليس فقط بعدم التأثير سلبيا، ولكن بأن تساعد برامجها على الحد من الفقر، وتساعد ـ كذلك ـ على الاهتمام بأفقر الناس فى كل مجتمع.

وهناك دول رفضت مثل هذه البرامج، لأن الإصلاح - كما قلنا - سيقتضى إعادة ترتيب النفقات الحكومية، وقد قالت بعض الدول إنها لا تستطيع تخفيض نفقات الجيش، والبوليس، والأمن. . ومن ثم يأتى الاقتطاع فى النهاية على الخدمات ذات الطبيعة الاجتماعية.

ولكن المنظمات غير الحكومية تضغط فى اتجاه مضاد بما يدفع المؤسسات الاقتصادية الدولية إلى تبنى وجهة نظرها.

المفتــاح!

- **دكتور إبراهيم.. أصبح هناك اعتقاد بأن BOT أصبحت كلمة بمثابة المفتاح السحرى لكل مشاكل الإنفاق والاستثمار فى البنية الأساسية. هل التوسع فى هذه المشروعات فى صالح الاقتصاد على المستوى البعيد؟ وما هو أثرها على الاستثمارات الداخلية؟ وما هى أوجه قصورها؟**

○ BOT، هى - باختصار - فكرة أن شخص آخر غير الدولة، سيقوم (بالبناء) و (التشغيل)، ثم - فى النهاية وفى تاريخ معين - (سينقل) الملكية إلى الدولة، بدون أن تنفق هذه الدولة أية نفقات عامة.

يعنى هى صورة جديدة لما كان بالسابق يسمى امتيازات المرافق العامة، بدلا من أن تنفق الحكومة على الكهرباء أو على المياه أو على التليفونات، يأتى مستثمر أجنبى، يقوم لك بكل هذه الخدمات، ويأخذ امتياز إدارتها لفترة معينة، وفى آخر الفترة يعيد لك الأصول.

أما كون BOT شىء جيد أو سيئ، فذلك يتوقف على شروط العقد.

وبالطبع، فإن لهذا النظام ميزة كبيرة، أنه لا يحمل الدولة فى البداية بتكاليف هذه البنية. بعبارة أخرى، فإنه يعنى تأجيل الدفع فى البداية، إلى أن تبدأ - بعد ذلك - فى تحمل عبء تحويل الأرباح بالنسبة للمستثمر الأجنبى. وفى النهاية،

فإن الحكومة قد تجدد العقد، أو تدير مشروعات البنية التحتية بنفسها، فإذا كانت الشروط معقولة، فسوف يمثل ذلك خدمة كبيرة للحكومة، فهو لا يساعدها - فقط - على تفادى الإنفاق، وإنما يكفل لها التشغيل الكفء. وفى دولة مثل مصر، فإن مشكلة التشغيل هذه هى مشكلة فى غاية الأهمية لأننا تعودنا على إسناد مثل هذه المشروعات إلى إجهزة إدارية سواء فى الحكومة أو القطاع العام، مثقلة بأعداد مبالغ فيها من الموظفين، وليس فيها مخصصات كافية للتجديد والصيانة، وبالتالى تكون النتيجة الطبيعية أن هذه الأجهزة تفشل، لأنها غير قادرة على الأداء الكفء أو القدرة على التجديد أو الإحلال إلى آخره.

أما فى حالة BOT، فإننا نعطى للمستثمر الأجنبى عقدا فيه شروط، ويراقب تنفيذ هذه الشروط جهاز كفء. ومن هنا فإن الحكومة إلى جانب تجنبها الدفع، ستضمن التشغيل السليم، فالشركات الأجنبية - تعودت أن تعمل بكفاءة ، وهى غير مستعدة لتشويه سمعتها والتصرف بطريقة مختلفة، إنما كل شركة- مثل أى شخص عادى - تحاول أن تحقق أكبر قدر من المصلحة لنفسها، ومن ثم يكون الإشراف السليم على تنفيذ التعهدات، وعلى تخصيص المبالغ المخصصة للتجديد والصيانة.

فإذا توافرت شروط سليمة وإشراف سليم، فإن إدارة المرافق العامة عن طريق القطاع الخاص المحلى أو الأجنبى تكون شيئا محببا.

تحرير!

- **كان تحرير التجارة العالمية يقوم على فرضية أساسية، وهى أن هذا التحرير، فى صالح اقتصاديات الدول المتعاملة فى السوق الدولية، سواء كانت مصدرة أو مستوردة للسلع والخدمات، وأساس ذلك أن الدول ستتخصص فى إنتاج السلع والخدمات التى تتمتع فيها بميزة نسبية، وعليه فإن كل دولة تنتج سلعا وخدمات معينة تتفوق فيها على غيرها، وتستورد ما تنتجه دول أخرى من سلع تخصصت وتفوقت هذه الدول الأخيرة فيها.**

- **وبعيدا عن الآراء التى تعطى الانطباع أن التصدير قضية حكومية فقط، وبعيدا عمن يعتقد أن هناك قرارا حكوميا لا ترغب الحكومة فى إصداره، قادر على انعاش التصدير، فإننا يجب أن نتساءل عما تخصصنا فيه فى السوق الدولية، وما هى ميزتنا النسبية فيه؟**

○ التجارة بصفة عامة لصالح الدول النامية، والكلام عن أنها ضد مصالح الدول النامية لا أعتقد أنه صحيح، ولا أؤمن به، فمن مصلحة أية دولة أن يكون أمامها سوق مفتوحة، والتنافس سوف يتوقف على قدرتك على المنافسة.

وبالطبع، فإن الدول النامية لديها قصور أو عجز عن المنافسة فى مسائل معينة، ولديها مزايا نسبية فى مسائل أخرى، وقصور هذه الدول واضح إذ إنها أقل ـ كثيرا ـ فى التقدم التكنولوچى، وقدرتها على التسويق ضعيفة. وبالمقابل فإن لديها ـ فى الغالب ـ مواد أولية، وعندها عمالة، رخيصة، وهى تستطيع أن تستورد التكنولوچيا، أو أن تفتح أبوابها للاستثمارات الأجنبية من دول متقدمة تكنولوچيا.

وتجربة الدول التى أوصدت أبوابها أثبتت أنها تجربة فاشلة.. خاسرة!

أما الدول التى حاولت أن تستفيد من الانفتاح، وأدارت سعر عملتها وسياساتها الاقتصادية بحيث تعطيها مزايا نسبية، مثل رخص الأسعار، فقد استفادت من التجارة.

وبالطبع ـ كأى شيء آخر ـ هناك ضوابط معينة، وقدر معين من الحماية، ولكن من دون مبالغة.

فالمبالغة فى الحماية لا تفيد إلا بعض المنتجين المحليين غير القادرين على المنافسة فى السوق المفتوحة، ولكنها تضر بجمهور المستهلكين.

فقد يرفع أحد المنتجين المحليين صوته، وهو ينتج سلعة بسعر مكلف جدا، لكن تقفل الدولة السوق عليه، والدولة قد تستجيب لأن لديه ٥٠ أو ٦٠ عاملا

لا تريدهم أن يتحولوا إلى عاطلين، ولكن ماذا عن الستين مليونا الذين يشكلون قوام الشعب، ولماذا نحرمهم من البضاعة الرخيصة، إذ يجب على الحكومة أن تراعى أيضا حقوق المستهلكين.

وأنا أفهم حماية صناعة وليدة، ولكن صناعة عمرها مائة عام.. لماذا أحميها؟!

إما أنها قادرة على الاستمرار، وإما تقفل أبوابها، وإلا فإن المتضرر الحقيقى هو المستهلك، الذى يمكن أن يشترى هذه السلعة أو البضاعة بثمن أرخص كثيرا، لو لم تكن هناك الرسوم الجمركية المبالغ فيها.

فالرسم الجمركى الذى يصل إلى ١٠٠٪ هو مصادرة مثل الضريبة التى تصل إلى ١٠٠٪. أما الرسم الجمركى الذى يزيد عن ١٠٠٪، فهو بمثابة عقوبة بغير نص، أو عقوبة غير دستورية.

فعندما أشترى سيارة، وأدفع عليها ٢٠٠٪ جمرك، فهذه عقوبة.

والغريب أنك تفرض مثل هذه الضريبة لحماية مصنع سيارات ينتج ألف سيارة فى السنة!!

المفروض لكى نتكلم عن صناعة سيارات، أن تكون لدينا مصانع تنتج مائة ألف سيارة مثلا، لكى يكون حديثنا عن إنتاج اقتصادى.

وماذا سنفعل حين نتجه لتخفيض هذه الرسوم طبقا للاتفاقيات الدولية؟.. هل تستطيع مثل هذه المصانع أن تقف على قدميها!

المفترض أنهم يأملون أن تزيد المكونات الداخلية فى صناعة السيارات، ولكن هل هذا واقعى، وهل هناك رقابة حقيقية تؤدى إلى تحقيق معدلات معينة فى هذه المكونات الداخلية.

أنا ـ شخصيا ـ ضد المبالغة فى الحماية.

لقد رأيت مؤخرا ـ مناقشات طويلة فى مجلس الشعب، وكل ما يطالب به النواب، كان مزيدا من الدعم، ومزيدا من الحماية، والمفروض أن النواب يمثلون الشعب. والشعب هو مجموعة من المستهلكين، فهل من مصلحة الشعب مزيد

من الحماية وارتفاع الأسعار فى السوق المحلى؟! وهل من مصلحة الشعب مزيد من الدعم، على حساب الميزانية العامة، وعلى حساب الخدمات الأخرى التى تقدمها له الدولة؟!

لم يتكلم أحد عن أن استهلاك السكر عال فى مصر ولابد من تخفيضه ولم يتكلم أحد عن أن المزارعين لا ينبغى أن يتجاوزوا المساحات المحددة لإنتاج السكر والأرز، فالسكر والأرز هما أكثر زراعتين تستهلكان مياه، والمفروض هو الحد منهما وليس زيادتهما، وكانت هناك قرارات بهذا ولم يطبقها أحد، وترتب علي ذلك أن نزل سعر السلعتين فى السوق وتضرر الفلاحون، وعلى الرغم من أنهم أخطأوا لم يتكلم أحد ـ أبدا ـ عن أنهم أخطأوا، حتى فى رد الحكومة!

لابد أن نفيق!

ليس من المفروض أن يكون هناك كل هذا الاستهلاك وكل هذا الدعم للسكر، فحتى الدول الغنية لا تسرف فى استهلاك السكر، لأنه ضار جدا بالصحة.

كل الكلام عندنا عن واجبات الحكومة، ولكن لا أحد يتكلم عن واجبات الشعب.

كل ما أسمعه فى مصر عن زيادة الحماية وزيادة الدعم لا يسر، فلا يمكن أن يتقدم الاقتصاد بمثل هذه الأفكار.

إصلاح؟

- **بمناسبة ذكرك لمجلس الشعب.. لا يذكر الإصلاح الاقتصادى فى مصر، إلا ويذكر الإصلاح السياسى، وقد كانت انتخابات مجلس الشعب الأخيرة ـ فى نظر الكثير من المراقبين ـ خطوة إزاء الإصلاح السياسى، ولكنها اشتملت أيضا على ظاهرة، ربما يهمنا أن نعرف وجهة نظرك حولها، وهى نجاح عدد من رجال الأعمال فى الوصول إلى مجلس الشعب. ما تأثير هذه الظاهرة على برلمان مصر من وجهة نظرك؟**

○ رجال الأعمال الذين نجحوا قليلون جدا بالنسبة لمجموع الأعداد، فعندما ينجح عشرة من رجال الأعمال من ضمن ما يقرب من خمسمائة، فإن هذه النسبة لا تخلق اتجاها.

وأنت تلاحظ ـ فى موضوع السكر ـ أن أحدا من رجال الأعمال لم يتكلم تقريبا، وكان كل من يتكلم يمثلون فئات أخرى، ويطالبون بمطالب يعتقدون أنها فى مصلحة الشعب، على حين الزيادة فى استهلاك السكر ليست فى مصلحة الشعب، وتخفيض أسعار السكر ليس فى مصلحة الشعب، لأنه سيزيد الاستهلاك ويزيد العبء على الموازنة العامة، كما أن تشجيع عدم التزام المزارعين بالمساحات المنزرعة سكرا وأرزا ليس فى مصلحة الشعب.

فقط استمعنا لمن يرفعون أصواتهم بغية إحداث تغيير سياسى، على حين المفروض من مجلس الشعب أنه يمثل الشعب بجميع فئاته، فإذا كان هناك إناس يتكلمون عن مصالح الفلاحين فذلك شىء عظيم، وإذا كان هناك أناس يتكلمون عن مصالح العمال فهذا شىء عظيم، وكذلك رجال الأعمال، دعونا نسمع كل الآراء فى الموضوع الواحد، ونصدر فى النهاية قرارات توازن بين هذه المصالح، لا أن نتجاهل تماما مصلحة دون أخرى.

باختصار دور رجال الأعمال مازال ضعيفا فى مجلس الشعب.

● ما هو الدور الذى تتصوره لهم؟

○ حماية مصالح رجال الأعمال ومصالح المنتجين القادرين على المنافسة.

● هل نستطيع أن نجزم أن رجال الأعمال لهم مصالح واضحة فى مصر، وأنهم متفقين أو متراضين على أن هذه هى مصالحهم؟

○ بالطبع لا... فكلمة رجل الأعمال كلمة واسعة للغاية، ومصالحه تتنوع بحسب موقعه فى ساحة الاقتصاد، وما إذا كان مستوردا أو مصدرا أو وسيطا بين مصالح مختلفة، والطبيعى أن يتم التوافق بين هذه المصالح ويعبر عنها تعبيرا متوازنا فى النهاية، ولكن ذلك سيأخذ وقتا وسيمر بتجارب طويلة ومتنوعة.

تعليم!

- **قضية التعليم تشغل جزءا مهما من تركيزك، فكيف تقوّم التصورات التى تطرح فى مواجهتها ومعالجتها.. فقد كنا - فى وقت من الأوقات - نطرح المجانية فى مواجهة عدم المجانية. أما اليوم فنطرح التعليم الجامعى الخاص فى مواجهة التعليم الجامعى العام، وهذا - فى الحقيقة - ينتج قضية أكثر تعقيدا فى هذا الإطار، وهى قضية تمويل التعليم الجامعى، وما إذا كان هذا الجدل عن المجانية والتعليم الخاص دستورى أو غير دستورى؟**

○ قبل الدستورية والمجانية.. مستوى التعليم منخفض، وما يحدث من إصلاحات - فى أكثره - معنىّ بالكم (أعداد المدارس + أعداد الدارسين + أعداد المدرسين) ولا يعطى اهتماما كافيا للنوعية، وهذا أساس المشكلة الحقيقة، فالذى يصل إلى التعليم الجامعى، هو نتاج التعليم قبل الجامعى، وإذا كانت الأعداد الكبيرة تؤدى إلى ضعف المستوى، وإذا كان مستوى المدرس ضعيفا، فإن مستوى الطالب سيكون ضعيفا. والنتيجة.. إن فى مصر تعليما جامعيا، وهو - فى الواقع - غير جامعى، وفى نفس الوقت ما هى حاجة السوق؟ هل السوق محتاج لأعداد ضخمة من خريجى كليات مثل الحقوق والتجارة، أو إلى أعداد قليلة، ولكن على درجة عالية من الفهم والتخصص.

الشكوى فى جميع المجالات هى من عدم وجود كفاءات على درجة عالية من التخصص، وإن وجدت فهى مكلفة جدا، وفى نفس الوقت أعداد لا حصرلها من الذين يحملون شهادات، ولكن غير مؤهلين للقيام بعمل معين، وهذه مشكلة أساسية فى الجهاز الحكومى، وهذه المشكلة ستستمر إذا استمرت ظاهرة زيادة الأعداد (أى نفس النوعية).

فالاهتمام بالنوعية هو الأساس، فلو كان عندى موارد تمكننى من زيادة الأعداد، وفى نفس الوقت ترفع النوعية أو الجودة فهذا شىء عظيم جدا. أما إذا لم تك لدىّ هذه الموارد فلابد أن أختار، والاختيار - هنا - هو المشكلة، فهل نختار زيادة الأعداد ذات الميزة الرئيسية، وهى أنها (مرغوبة سياسيا) لأنها ترضى

أولياء الأمور، فكل واحد يريد أن يدخل ابنه الجامعة. والنتيجة أن خريجى هذا النظام لا يعملون، وهم بمثابة بطالة مقنعة حتى إذا تم تعيينهم!

أما عن المجانية، فالشخص المتفوق من حقه أن يتعلم مجانا فى جميع المراحل، ولا أحد يناقش هذا، إنما إذا كان الشخص خائبا وغنيا، فلماذا نعطى له المجانية؟!

الدستور يقول: «التعليم فى جميع مراحله بالمجان». وهذا شعار وليس حقيقة، الجميع يعلن أن ذلك ليس حقيقة لأن التلامذة القادرين يعتمدون إلى حد كبير على المدارس الخاصة والدروس الخصوصية، وهذا ليس تعليما مجانيا!

ثم إن بعض التعليم الجامعى معتمد على الدروس الخصوصية، وبعضه ليس تعليما جامعيا أصلا.

وقد أجريت دراسة على موقف الدساتير من التعليم نشرتها فى كتابى (وصية لبلادى)، وأثبت فى هذه الدراسة أنه لا يوجد نص ـ كهذا ـ فى دساتير العالم الأخرى، فهناك دساتير تقول: (التعليم بالمجان)، وهناك دساتير تقول: (التعليم الجامعى توفره الدولة للمتفوقين)، أو (تدعم الدولة التعليم فى جميع المستويات) ولكننى لم أجد مثل النص الموجود فى دستورنا حتى فى الدول الشيوعية السابقة.

وبالمنطق لو ذهب الناس كلهم إلى التعليم الجامعى، فمن ـ إذن ـ سيقوم بالوظائف الأخرى، وأين تذهب المهارات الأخرى التى يحتاجها الإنتاج.

لدينا فائض كبير من الخريجين، وفى كثير من مصانعنا نجد المهندس يقوم بعمل يؤديه عامل فى أى دولة أجنبية، فى الوقت الذى يجلس فيه آلاف الخريجين من دون عمل.

هذه هى مظاهر الوضع الحالى.

ولو قلنا فلنجعل التعليم بمصاريف، فإن هذا ـ وحده ـ لن يحل المشكلة، فالأزمة ليست بالمجان أو بفلوس.

- ٢٠٠١ -

❑ ❑ ❑



د. إبراهيم شحاتة (٢)

حكاية بنك!

● مصر ـ الآن ـ لاتريد وليست بحاجة إلى الاقتراض من البنك، ومع ذلك لنا مكتب فيها يقدم معونات فنية وخبرة، لأنها من الدول المحبوبة فى هذه المؤسسة!

● البنك كان ضحية للظروف السياسية التى صاحبت موضوع السد العالى، كما كانت مصر بالضبط!

● لماذا كانت أغنية «قلنا ح نبنى» أكثر تأثيرا فى الوجدان المصرى من حقائق التاريخ؟!

● البنك الدولى شركة مساهمة، وأكبر المساهمين هى الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالى هى صاحبة الدور الأكبر فى توجيهه!

● البنك لا يخضع للإرادة الأمريكية فى كل شىء، فقد وافق على قرض لإيران رغم المعارضة الأمريكية.

● الفلسفات والإيديولوجيات مكانها الكتب، ولا تصلح أساسا سليما للحكم!!

- المثقفون يتكلمون ويتكلمون، والرجل العادى الفقير هو الذي يدفع ثمن التجارب النظرية والإيديولوجية!!
- فى النظام الرأسمالى دور الدولة مطلوب جدا فى وضع القواعد ومراقبة تنفيذها.. بعبارة أخرى دور الدولة هو سيادة القانون!!
- بدون سيادة القانون لن يكون هناك سوى «رأسمالية المحاسيب»!!
- هذه شروط أن تكون التخصيصية هى الحل!
- ملاحظتى الأساسية على الطبقة المالكة الغنية فى روسيا، أن قوامها هو مدراء شركات القطاع العام السابقة!!
- الاقتصاد لا يمكن أن يسير بنصف كفاءة، ونقص نزاهة!!
- النهوض بمستوى المعلم هو الطريق الوحيد لتقدم التعليم فى مصر!
- التحفيظ أساس المشكلة المصرية فى البيوت والمدارس!
- ليس كل تمويل خارجى للجمعيات الأهلية.. استعمارى!
- من يقرأ مقدمة دستور ١٩٧١ يشعر أنه أمام موضوع إنشاء لطالب ثانوى!

«دارت وقائع هذا الحوار قبل وفاة د. إبراهيم شحاتة بعام كامل»:

الحوار مع الدكتور إبراهيم شحاتة نائب رئيس البنك الدولى، هو ـ واقعيا وفعليا ـ اكتشاف، أو إعادة اكتشاف لقارة علمية وفكرية وإنسانية مترامية الأطراف..

فالرجل فوق قيمته الأكاديمية الكبيرة، وفوق سمعته الدولية الممتازة، مشغول ومهموم بقضايا وطنه، وأحلام ناس هذا الوطن وهو لا يلجأ فى هذا إلى اقترابات التكنوقراط المعهودة، وإنما يشغل نفسه كثيرا بالبحث والتقصى، بالفهم والاستخلاص، لمنظومة معقدة ومتشابكة من عواطف وأعراف الناس وطرائقهم فى الحياة وفى التفكير، فيأتى فكره كما يأتى إسهامه من منابع صافية رائقة، حتى ليبدو غير مكترث بأية حسابات، أو تحسسات، لا يولى وجهه إلا شطر الحقيقة، . تلك الحقيقة التى نذر لها عمره وعلمه، وعبر من أجلها طرقا شائكة تعترف بالمعايير، وتنكر الخضوع لسلطة الشعار السياسى بدلا من سلطة العلم.

وفى حديثه تحدث د. إبراهيم شحاتة عن المنظمات الاقتصادية الدولية ودورها مع بعض دول منطقتنا (مصر ـ العراق ـ إيران)، ومعنى الإصلاح الاقتصادى، وفكر الحمائية واتفاقية الجات، ونظام التعليم، والإصلاح الدستورى، ووهم الترصد الاستعمارى لنا فى كل شىء.

وكان هذا الحوار:

- **قبل أن نقرأ وأن نكتب.. قبل أن نتكلم أو نسجل.. من ـ يا دكتور إبراهيم ـ الذى رسم البورتريه المخيف للبنك الدولى على هذا النحو الذى أصبح معروفا به فى مصر؟**

○ تجربة البنك الدولى مع مصر طويلة.

مصر ـ بالطبع ـ أحد الأعضاء الأصليين المؤسسين للبنك.

وقد اشتركت فى أعمال البنك منذ البداية، كما شاركت فى أعمال مؤتمر بريتون وودز.

ومع ذلك فقد كان أول قرض طلبته مصر من البنك وتم بحثه فى منتصف الخمسينيات، وهو القرض الشهير لتمويل مشروع السد العالى.. وقد تركت هذه التجربة ـ بالذات ـ أثرا غير إيجابى فى علاقة البنك بمصر.

كان الصدام بين مصر والبنك جزءا من إطار سياسى أوسع.

فمشروع السد العالى كان يعتمد ـ أساسا ـ على مرحلتين:

المرحلة الأولى: تمول بمنحة الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وهى مرحلة الدراسات والإعداد.

المرحلة الثانية: يقوم فيها البنك ـ إذا ثبتت جدوى المشروع ـ بتمويل العملة الأجنبية اللازمة، وكان من المقدر أنه إذا تم هذا التمويل فسوف يكون أكبر قرض قدمه البنك فى تاريخه حتى ذلك الوقت.

يعنى ـ من الناحية المبدئيه ـ كان البنك على استعداد لأن يقوم بخطوة كبيرة جدا، بتقديم أكبر قرض يقدم إلى دولة صغيرة فى ذلك الوقت.

فحتى هذا التاريخ كان عملاء البنك الأساسيين هم الدول الأوروبية، ولم يك مألوفا أن تطلب دولة صغيرة مثل هذا الحجم من التمويل.

ومع ذلك ـ فكما قلت ـ تغلبت الجوانب السياسية، بتطور العلاقة بين مصر والاتحاد السوفيتى ودول الكتلة الشرقية من ناحية، وتدهور العلاقة بين مصر والولايات المتحدة وبريطانيا من جهة أخرى.

وتسارعت الأحداث، لتنتهى بسحب تمويل المنحة من جانب الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، على الرغم من مجهودات البنك لتفادى ذلك.

وبالطبع إذا لم تك هناك مرحلة أولى، فلن تأتى المرحلة الثانية.

وقد سحب البنك تمويله بعد انسحاب الحكومتين من تمويل المرحلة الأولى.

ولاحظ أن الانسحاب من جانب الحكومتين جاء فى إطار سياسى أوسع (صفقة الأسلحة التشيكية والاعتراف المصرى بالصين الشعبية وشعور الحكومة البريطانية فى لندن وإيدن ـ بالذات ـ أن الرئيس عبد الناصر يمثل خطرا كبيرا جدا على الإمبراطورية.. أى أن إيدن بالغ فى تصوره ونقل هذا التصور إلى الحكومة الأمريكية).

كل هذه الأبعاد أدت إلى سحب المنحة، ثم سحب القرض.

والتاريخ معروف ـ بالقطع ـ بعد ذلك، إذ تم تأميم قناة السويس، ثم محاولة الغزو، وكل هذا ولد انطباعا لدى الشارع المصرى والرجل العادى فى مصر، أن البنك الدولى هو أداة للاستعمار وجزء من محاربة البلد.

ولقد بدأت الصورة تتغير ـ بعض الشىء ـ فى السبعينيات، وبالذات بعد حرب ١٩٧٣.

فقد كان أول قرض أعطاه البنك لمصر مخصصا لإعادة افتتاح قناة السويس، ولم يك هذا القرض يستهدف خدمة لمصر، بمقدار ما كان يستهدف خدمة للتجارة العالمية.

ولكن التوسع فى الإقراض لمصر بدأ بعد ذلك، وأيضا فى عهد الرئيس السادات، واستمر خط العلاقة بين مصر والبنك بشكل إيجابى جدا، لدرجة أن مصر لا تريد أن تقترض من البنك، أو ليست بحاجة إلى الاقتراض من البنك، ومع ذلك فإن لدى البنك مكتبا فى القاهرة، وهو يبدى ـ دائما ـ استعداده للإقراض ويقدم معونات فنية وخبرة، لأن مصر من البلاد المحبوبة لدى هذه المؤسسات الدولية.

● تقول لى إن العلاقة بين مصر والبنك إيجابية.. وهذا ـ بالطبع ـ صحيح على المستوى الرسمى، ولكن عند الناس ليس فى الذهن العام شيئا عن البنك الدولى سوى ملامح صورة نمطية شريرة، تؤكدها لقطه فى فيلم وثائقى لجمال عبد الناصر يشير فيها بيده ليوجين بلاك بشكل قاطع، وهى اللقطة التى أصبحت تصاحب أغنية مصرية شهيرة عن السد أحد مقاطعها يقول: «راح على البنك إللى بيساعد ويدى.. قاله حاسب قالنا ما لكمش عندى». وتأثير اللقطة وتأثير الأغنية على الذهن العام فى مصر مازال أكبر من كل الدراسات والكتب عن فكر البنك ودور البنك وحقيقة البنك. لماذا فى تقديرك كانت هذه الظاهرة؟

○ لأن اللقطة تعبر عن تاريخ، ووعى كامن لدى الفرد المصرى.

وعندما غنى عبد الحليم حافظ من أشعار صلاح جاهين: (راح على البنك إللى بيساعد ويدى)، كنا وقتها طلبة فى الجامعات، وظلت هذه الأغنية، كما ظلت اللقطة الوثائقيه جزءا من وجداننا وتفكيرنا.

والحقيقة أن البنك كان ـ إلى حد ما ـ ضحية (كما كانت مصر) للظروف السياسية التى أحاطت بموضوع تمويل السد العالى.

فأنا أعرف ـ مثلا ـ ومن وثائق البنك نفسها أن يوجين بلاك، كان فى رحلة إلى إيران (وقت تفجر أزمة سحب أمريكا وبريطانيا لتمويل منحة الدراسة)، وطلب أن يتوقف فى القاهرة ليبحث الموضوع مع الرئيس عبد الناصر فى أوائل يونيو١٩٥٦، وفعلا جاء (فى المقابلة موضوع اللقطة الوثائقية)، وسأل الرئيس عبد الناصر: «لماذا لا تعلن قبولك للشروط التى طلبتها أمريكا وبريطانيا، لأن ذلك سوف يسهل علىَّ مهمتى فى أن أحصل على الموافقة النهائية على المنحة، وبالتالى نسير فى المشروع؟».

وقد كانت الشروط كلها ذات طابع تنموى (لاتقترض مصر أكثر من حد معين ـ يدار المشروع بطريقة معينة).

وعندما عاد يوجين بلاك قابل جون فوستر دالاس، وقال له إن الرئيس عبد الناصر موافق على الشروط، فإذا به يفاجئه قائلا: «لقد سلمت السفير المصرى اليوم ـ صباحا ـ خطابا بسحب المنحة»!!

وبعد ذلك طلب وزير الخارجية، رئيس البنك تليفونيا، ولم يكن موجودا، فرد عليه نائب الرئيس وأخبره دالاس أنه سيقرأ عليه نص الخطاب الذى أعطاه للسفير، وقرأه ـ بالفعل ـ وكانت فيه جملة تقول: (عدم ثقة البنك فى قدرة المصريين على تنفيذ المشروع)، ولما قاطعه نائب رئيس البنك قائلا: «يا سيدى لم نقل ذلك»!، رد عليه: «إذن سنشطب هذا من النص المنشور»!!!

وقد وردت هذه القصة فى كتاب شهير صدر عام ١٩٧٤، اسمه: «البنك الدولى منذ بريتون وودز»، وهو كتاب طلب البنك من عدد من الأساتذة الكبار إعداده من خلال مطالعتهم لوثائق هذه المؤسسة الدولية المهمة.

واضح، أن البنك لم يكن جزءا من اللعبة السياسية، ولكنه وجد نفسه فى وضع لم يكن أمامه فيه سوى أن يسحب القرض.

ولما تغيرت الظروف السياسية.. تغير الوضع. ولابد أن نعرف أن البنك هو مؤسسة دولية، ولكنه فى ذات الوقت شركة لها مساهمون، وهؤلاء المساهمين لهم دور فى توجيهها.. مثل أى شركة.

وأكبر مساهم فى البنك هو الولايات المتحدة الأمريكية، إذ تملك حوالى ١٧٪ من مجموع الأسهم، ثم إنها (مع الدول الغربية الأخرى واليابان) تملك ما يساوى أقل بقليل من نصف رأس المال.

لا أحد يستطيع أن يتجاهل هذه الحقيقة.

ومع ذلك فليس معنى هذا، أن البنك يخضع للإرادة الأمريكية فى كل شىء،

فمنذ أسبوعين ـ مثلا ـ وافق البنك على قرض لإيران، على الرغم من المعارضة الشديدة جدا من جانب الولايات المتحدة، ولكن ما حدث أن الدول الأخرى وافقت كلها، على حين امتنعت فرنسا عن التصويت.

بعبارة أخرى إذا لم تستطع أمريكا تحقيق أغلبية مناسبة تصف خلف التوجه الذى تتبناه فلن تقدر على فرض شيء على البنك! ولكنها كأكبر مساهم لها دور كبير.

وصيتى!

- **فى الجزء الأول من كتابك: (وصيتى لبلادى) تعرضت إلى الخيارات المتاحة أمام مصر، وهى: (السير للخلف) وهو الخيار الذى يمثل ـ على حد قولك ـ الارتداد الفكرى، والتطلع إلى العيش فى القرن الواحد والعشرين وفق الممارسات والتفاصيل، بل والطقوس التى سادت فى عصور غابرة. والثانى (الحركات الواقفة.. محلك سر)، وهو المناداة بحتمية حل معين، والذى يتمثل فى الفكر الشيوعى أو الاشتراكى. والخيار الثالث وهو ما تنادى به كان (السير للأمام) وتبنى سياسة الإصلاح الشامل.. ألا يمكن القول أن هذا التصور الذى يتسم بالبراجماتية يفتقد الأساس النظرى والفلسفى اللازم لمواجهة تيارات فكرية أخرى وهى ـ وإن اختلفنا معها ـ لها طابع أيديولوچى معين تمثله مجموعة كاملة ومتناسقة من الأفكار والمبادئ؟..**

ثم إذا كان المقصود هو تبنى الفكر الرأسمالى، فهل هناك تعريف موحد له (فكرا وممارسة)؟

○ أرى أن الفلسفات والأيديولوچيات مكانها الكتب والمحاضرات، وليست أساسا سليما للحكم.

الحكم لابد أن يأخذ فى الاعتبار ظروف كل دولة، وظروف كل مجتمع، وما يصلح، أو لا يصلح لأيهما.

المشكلة ـ هنا ـ أن كل أيديولوچية لها جاذبيتها الفكرية، وكل دارس من شأنه أن يتأثر بأيديولوچية معينة ويدافع عنها حتى الموت، وهذا مقبول فى مجال المناظرات، ولكن عندما نتحدث عن الحكم، يجب أن نفهم أنه لا توجد حكومة فى العالم، حتى فى أكثر أنواع الحكومات الشيوعية أو الرأسمالية تطرفا، تلتزم بأية نظرية، ولكن ـ دائما ـ هناك تطبيقات تختلف عن التصنيف الأيديولوچى، لأن الواقع هو الذى يحكم.

مهما كانت الأيديولوچية قوية ومحكمة، فإنها لا تستطيع أن تفرض نفسها على الواقع، وإنما الواقع هو الذى يفرض نفسه.

وحتى فى الأيديولوچيات ذات الطابع الدينى، ستجد أن مفردات الواقع اختلفت مع بعض عناصرها.

من السهل جدا أن يجلس شخص ويكتب لنا نظرية، ولكن ليس هذا ـ بالضرورة ـ الذى سينفع الناس.

وعندنا فى مصر مفكرون كثيرون، منهم ذو الطابع الاشتراكى، أو الإسلامى، أو غيره.. وكلهم يقولون كلاما جميلا ومنسقا، إنما ساعة التطبيق، لا يستطيع هذا الكلام المنسق والجميل أن يصمد لحظة واحدة.

مصر أقدم دولة فى العالم، وقد جربت تطبيق كل الأنظمة، ولكن أجزم أننا لم نطبق ـ حرفيا ـ أية أيديولوچية أو نظرية، فحين أردنا أن نكون اشتراكيين، طبقنا ما يسمى (الاشتراكية العربية)!

● بالضبط ـ يا دكتور ـ وأسميناها (النابعة من واقعنا)!!

○نعم.. ولقد رأينا أشياء كثيرة للغاية، ولكن ـ فى الحقيقة ـ أن من يدفع ثمن كل هذه التجارب فى النهاية، هو الشخص العادى، المطحون، الفقير، الذى يريد ـ فقط ـ أن يعيش بشكل جيد، ولا يرغب فى نظريات أو «زفت»!!

السؤال المحورى هو: كيف يمكن تحسين مستوى المعيشة لمجموعة من الناس؟، فإذا وجدنا طرقا تؤدى إلى ذلك سواء كانت تتفق أو لا تتفق مع نظرية، فلابد أن نسير فيها.

المهم - فى النهاية - أن يعيش الناس بشكل أفضل ماديا ومعنويا.

ماذا يفيد أى دولة أن ينصرف جهد أبنائها الخلاق إلى الحديث والكلام والنظريات، فيما تتدهور أوضاعها بشكل متواصل؟!

. . . .

أما فيما يخص الجزء الثانى من السؤال المتعلق بأنواع الرأسماليات، وأيها أميل إليه، فأحب أن أوضح لك - يا دكتور عمرو - أن فكرة الرأسمالية - أساسا - تقوم على إتاحة الحرية للسوق، بمعنى أن يتحكم العرض والطلب فى الأسعار، وأن يحجم تدخل الدولة فى شئون الاقتصاد والتجارة.

و تحجيم دور الدولة - فى هذا السياق - لا يعنى اختفاءه، ولكنه يعنى التأكيد على دور اقتصادى قوى للدولة، ليس فى مجال الإنتاج، أو فى عملية الإنتاج، ولكن فى التقنين، ووضع القواعد، والالتزام بتطبيق القواعد على الجميع.. وهو ما يسمى بسيادة القانون.

وبدون سيادة القانون، فإن الرأسمالية - كنظرية - لن تكون الرأسمالية التى نعرفها فى العالم كله، ولكن ستكون ما يسميه البعض الآن «رأسمالية المحاسيب» أو «رأسمالية الفساد».

● يرى البعض تطبيقات مثل هذا النوع من الرأسمالية متمثلة فى (رأسمالية هدايا القروض)، و(رأسمالية هدايا التوكيلات) و(رأسمالية هدايا تخصيص الأراضى).. هل هذا ما تقصده؟

○هذه أنماط من إساءة استخدام الحرية الاقتصادية، لأن الحرية الاقتصادية ليس معناها الفوضى الاقتصادية، وإنما معنى الحرية الاقتصادية هو وجود القانون،

واحترام القواعد، ووجود جهات اختصاصها الإشراف على هذه القواعد، وهى جهات تتسم بالنزاهة والكفاءة.

وإذا لم يكن لديك قواعد، أو كان عندك قواعد غير سليمة وغير كافية، أو كان لديك قواعد سليمة وكافية ولكن لا توجد أجهزة لها القدرة والكفاءة والنزاهة لمراقبة تطبيق القواعد، فإن النتيجة ستكون ـ ببساطة ـ عدم وجود اقتصاد حر.

فى هذه الحالة سيكون لديك اقتصاد مستغل، من جانب الفئات الأذكى أو الأقدر على استغلال هذا الاقتصاد.

هذه هى الحقيقة اليقينية التى لا يجب التغافل عنها، ليس فى مصر ـ فقط ـ بل فى أى مكان فى الدنيا.

ولذلك، فإننى فى كتبى دائما ما أقول: إنه لا يجوز الانتقال من القطاع العام إلى القطاع الخاص قبل وضع القواعد، وإنشاء الأجهزة التى تلتزم بتنفيذ هذه القواعد، وإلا فإن أفراد المجتمع سيكونون ـ باستمرار ـ عرضة لأن يفترسهم الأكثر ذكاء والأكثر قدرة والأكثر قوة!!

سطر!

- **يا ليت نضع سطرا تحت الجملة الأخيرة ـ يا دكتور إبراهيم ـ وتفسر لى معنى إنشاء الأجهزة التى تلتزم بتنفيذ القواعد.. وهل تم ذلك على الساحة الاقتصادية المصرية؟**

○ ليس عندى فكرة كافية عن كل التفاصيل التى تجرى فى مصر، ولكننى أستطيع الحديث ـ منطقيا ـ عن بعض النقاط.

هناك ـ مثلا ـ شكاوى من خدمة التليفونات فى مصر زمان، وقد عادت هذه الشكاوى الآن، ولكن على نطاق أقل بكثير.

وهذه الخدمة عبء على الدولة، بدلا من أن تكون مصدرا كبيرا للربح، فهى من أكثر العمليات المربحة.

ولكن كيف نجحنا فى تحويلها إلى عبء مالى بدلا من أن تكون مصدر ربح.. الإجابة - طبعا - فى نوعية إدارة هذه الخدمة!

فمعنى كونها خدمة حكومية، هو أنها يمكن أن تكون عرضة لضغوط سياسية من أجل تعيين عناصر بعينها ليست - بالضرورة - الأكثر كفاءة، أو الأكثر استيفاء للمعايير، أو - حتى - بصرف النظر عن الحاجة إليهم.

وينتهى الأمر بخدمة حكومية كان يمكن أن تكون مربحة جدا، لتصبح عبئا ماليا على الموازنة، ويسود إدارتها عدم الكفاءة، وتحمل بأعداد كبيرة أكثر من اللزوم، وبالتالى يعمها الفساد!!

الحل يكمن فى الانتقال إلى القطاع الخاص، ولكن كيف ستدار هذه الخدمة من جانب القطاع الخاص؟ وماهى القواعد التى ستحمى الجمهور، وتضمن أسعارا معقولة، كما تضمن استمرار الخدمة؟

● وماذا عن قواعد الانتقال من القطاع العام إلى القطاع الخاص نفسها؟

○ العملية التخصيصية نفسها، لابد أن تخضع لأنظمة معروفة ومعلنة، ويستحسن أن تقوم بها جهة مستقلة، غير خاضعة لضغوط سياسية، ويكون هناك نوع من الشفافية يسود عملية التخصيص، بحيث يعرف الناس جميعا ماذا يجرى. وبمعنى آخر يتم الانتقال بطريقة منظمة Orderly، ثم تتم إدارة الخدمة فيما بعد بصورة تضمن مصالح الجمهور، ومصالح المستثمرين، وتحت إشراف شخصيات مقبولة من المجتمع وقواعد معروفة من هذا المجتمع.

إذا حدث ذلك، ستكون التخصيصية - فعلا - هى الحل.

وإذا لم يحدث ذلك، فليس هناك أى ضمان أن تصبح الخدمة أفضل أو أرخص، إذا ما انتقلت ملكيتها إلى القطاع الخاص.

بعض الدول ـ خصوصا ـ روسيا، انطلقت (لأسباب سياسية) فى التخصيص قبلما تنشئ هذا الإطار، أو البنية التحتية التنظيمية والقانونية، والنتيجة ـ فى الواقع ـ حدوث مشاكل كبيرة جدا.

كان لدى الروس أوضاع سياسية صعبة جدا، ويريدون أن ينقلوا السلطة بسرعة، ولكى تنتقل السلطة، لابد أن تنقل القوة الاقتصادية، فوزعوا ما يسمىVoucher ، بحيث يأخذ كل مواطن شهادة تعطيه الحق فى أن يشترى نصيبا من منشأة اقتصادية، ولكن ما حدث ـ عمليا ـ أن الأغنياء اشتروا الشهادات بسرعة من الفقراء، وتركزت القوة فى أياد قليلة، وسيطر الأغنياء واحتكروا، وملاحظتى الأساسية على الطبقة الغنية الجديدة فى روسيا أن قوامها الرئيسى يتكون من مدراء شركات القطاع العام السابق.

وبدلا من أن تذهب الأموال للدولة فى عهد الاشتراكية، أصبحت تذهب لجيوب أعداد قليلة من الأغنياء.

ولذلك أرى أن حكاية نقل الملكية للعاملين ـ هذه ـ هى خدعة.

فمن هم العاملون؟ . . إنهم ـ حتى ـ ليسوا العمال، ولكنهم الأفراد الذين يشتغلون فى مؤسسة بعينها، من مستوى مجلس الإدارة فأقل، ونقل الملكية إلى العاملين. يعنى ـ فى اعتقادى ـ الاستفادة من الوضع الإدارى الراهن، واستحالة التخلص من العاملين الزائدين عن الحاجة أو غير القادرين.

الاقتصاد لا يمكن أن يسير بنصف كفاءة ونقص نزاهة.

والنقطة الأساسية ـ كما أعيد وأزيد ـ هى: كيف نجعل الكفاءة والنزاهة أساسا للعملية الاقتصادية، وخصوصا العملية الإنتاجية؟

تدخل!

- **قلت مرة: «عندما يتكلم الناس فى المنطقة العربية عن البنك الدولى يفترضون أنه مؤسسة دولية واحدة، ويبنون تحليلهم خطأ**

على افتراض أن المؤسسات الخمس التى تنتمى إلى ما يسمى مجموعة البنك الدولى، هى كيان واحد، على الرغم من أن لكل منها بناء قانونيا وماليا مستقلا.. بل إن الكثيرين يخلطون بين مؤسسات هذه المجموعة وصندوق النقد الدولى، وهى مؤسسة مختلفة تماما»..

ومع التسليم بكل ما ذكرتم، ألا يمكن أن يكون سبب هذا الاختلاط هو انطباع سائد لدى البعض تؤيده حفنة من الأقلام أحيانا، مفاده أن الدول الكبرى تهدف إلى التدخل فى الشئون الداخلية للدول النامية، وأنه دائما ما توجد أهداف سياسية مستترة لهذه المؤسسات الاقتصادية الدولية، وأن أى تحرير اقتصادى يخدم مصالح الشركات دولية النشاط أكثر من تنمية هذه الدول؟.. مرة أخرى، ما هو سر الأساطير التى تنسج حول مثل هذه المؤسسات الدولية؟

○البنك الدولى، أو مجموعة البنك الدولى، وكذلك صندوق النقد الدولى، هى منظمات دولية بين الحكومات، يعنى الأعضاء فيها هم الدول.. ومن السذاجة السياسية أن نفترض أن الدول لا تتصرف بدوافع سياسية!!

طبيعة أى دولة أن تتصرف بدافع سياسى، وأن تحاول خدمة مصالحها الوطنية، وهذا ليس مقصورا على الدول الكبرى.

وإذا كانت مصلحة أية دولة تملى عليها استخدام منظمة دولية كأداة لسياستها الخارجية، أو لخدمة مصالحها الوطنية، فلابد أن تفعل ذلك.

الفارق الوحيد أن هناك دولا لديها القدرة، ودولا ليست لها هذه القدرة، وهذا هو ما يخلق التوتر فى العلاقات بين نوعى الدول.

إذن لابد أن نفرق ما بين إدارة هذه المؤسسات الدولية الداخلية (Management)، ودور الدول المساهمة فيها من أصحاب رأس المال.

الإدارة الداخلية تحاول بقدر الإمكان أن تتصرف على أسس فنية غير سياسية، ولكن هذا لا يمنع الدول من التصرف على أسس سياسية، عندما تملى مصالحها ذلك، ويكون هذا التصرف من خلال مجلس الإدارة، لأن أعضاء مجلس الإدارة تختارهم الدول الأعضاء، ويدفع البنك مرتباتهم ويعتبروا (رسميو البنك) ويتلقون تعليمات من دولهم، ومن ثم فمن الطبيعى أن تتأثر آراؤهم باعتبارات السياسة.

ولكن حينما يتم التعبير عن هذه الآراء، فإن ذلك يحدث بلغة فنية، فإذا كانت إحدى الدول تريد أن تعترض على أن يقوم البنك بإعطاء قرض لإيران، وكانت إيران مستوفية الشروط الفنية، فإنها لا تستطيع أن تعترض لعدم موافقتها على السياسة الإيرانية، أو لأى اعتبار سياسى فى إيران، وإنما يجب أن تبنى اعتراضها على أسس فنية، أو تعترض من دون إبداء أسباب.

نظام البنك مكتوب بهذا الشكل.

ومن هنا لا ينتظر من الدول أن تكون منعزلة عن اعتبارات السياسة، ولكن لا يجب ـ من جهة أخرى ـ أن تسود المبالغة تصوراتنا، فنتحدث عن أن البنك أداة للاستعمار.

هذا فلكلور.. ولابد أن نكون أكثر وعيا من هذا، وأكثر قدرة على التحديد.

تحدى!

- **كما كتبت من قبل، فإن التحدى الأعظم يكمن فى السكان والتعليم، وانطلاق القطاع الخاص.. بعد سنوات خمس من كتابة (وصيتى لبلادى).. كيف تقيم التجربة المصرية فى هذا السياق؟**

○ تقييم التجربة يختلف بحسب كل مجال من المجالات، فمما لا شك فيه،

أن هناك إصلاحات كبيرة جدا فى مصر، ولكن النقلة النوعية التى أطالب بها - خصوصا فى التعليم - لم تحدث بعد.

هناك خطوات كبيرة وجريئة يجب أن نأخذها للإصلاح، ولكننا ما زلنا أسرى فكرة امتصاص أعداد كبيرة فى الجامعات.

المشكلة أنه قد حدث توسع كبير فى بناء المدارس والجامعات، ولكن لم تتحسن نوعية التعليم.

هذه الحقيقة ترجع إلى زيادة الأعداد، ونوعية المدارس، ونظام وطريقة التعليم.

التمويل - فقط - لا يصنع تعليما جيدا، فمصر من أكثر الدول أو المجتمعات إنفاقا على التعليم (هذا لو جمعنا المبلغ المخصص للتعليم فى موازنة الدولة + التعليم الخاص + تكاليف الدروس الخصوصية)، ومع ذلك فنوعية التعليم فى مصر لا تعتبر - على الرغم من كل التصريحات - نوعية عالية.

المنتج البشرى المصرى فى التسعينيات لم يعد قادرا على المنافسة فى معظمه، لأن نوعية التعليم لم تؤهله للمنافسة.

مشكلة التعليم - مرة أخرى - فى نوعية المدارس، ومستوى المدرس. فالنظام التعليمى عندنا لا يدفع طالبا إلى دخول كلية التربية - عبر مؤسسة مكتب التنسيق - إلا إذا كان فاشلا بحكم التعريف.

ونشأت فى مصر ثقافة ترى أنه كى يصبح الإنسان محترما لابد أن يدخل إلى كلية الطب، أو الهندسة.. وفى نهاية السلم تقبع الكليات التى يتوقف عليها مستقبل البلد، مثل: القانون والتعليم، فأفشل خريجى المدارس الثانوية ينتهوا هناك.

وسأضرب لك مثلا، فهنا فى شيكاغو، وجدوا أنها وسط المدن الكبيرة، كانت من أقلها فى مستوى التعليم، فجمعوا أكبر العقول الأمريكية فى لجنة

تبحث مشكلة التعليم فى هذه المدينة، وتضم اللجنة بعض حاملى جائزة نوبل، وبعضهم فى تخصصات ليس لها علاقة أكاديمية مباشرة بعملية التعليم، وقد قابلت أحدهم وكان متخصصا فى الفيزياء.

وركزت هذه اللجنة على أن النهوض بنوعية المعلم هى الحل، كما أشارت إلى كيفية أن يُستقطب لكليات التعليم نوعيات أفضل من خريجى الثانوية العامة.

إذن مستقبل التعليم فى مصر يعتمد أولا على تخريج مدرسين أكفاء، ثم التعليم المستمر للمعلمين عن طريق دورات حقيقية، وتدريب مستمر، والمواءمة بين مستوى المعلم، والتقدم والتغير المستمر الذى يحدث فى العلم ذاته.

وهذه النقطة ـ فى الواقع ـ تدفعنا إلى مناقشة موضوع شديد الاتصال بها، وهو مرتبات المعلمين، فلا يمكن لمدرس بمرتب صغير، إلا أن يعتمد على الدروس الخصوصية، واعتماد المدرس على الدروس الخصوصية لا يجعل منه معلما، وإنما يخلق منه بقالا!!

هذا كله فساد!

وبداية إصلاحه الاهتمام بالمعلم كإنسان يعلم نفسه، وكشخص قادر على إعطاء العملية التعليمية وقته كله وحياته كلها.

وبعد الاهتمام بالمعلم يجب أن يتناول الإصلاح طريقة التعليم نفسها. وطريقتنا فى التعليم ـ أساسا ـ تعتمد على الحفظ (صم)، فإذا كنت حافظا ستكون الأول على دفعتك، وإذا لم تكن كذلك ستكون الأخير.

وأذكر أننى فى أول سنوات تدريسى فى الجامعة، وجدت تلميذا نجيبا وذكيا جدا، وأعطيته أعلى الدرجات فى فصله الدراسى، وفى نهاية السنة وجدته راسبا فى مواد أخرى كثيرة لأنه لا يعرف كيف يحفظ، ولأنه يعبر عن أفكاره!!

والمفروض فى أية جامعة محترمة أن من يعبر عن أفكاره يحصل على أعلى الدرجات والعلامات. لأن هذا هو ـ حقيقة ـ الذى سيصبح قائدا.

ولكن للأسف نحن نفعل العكس فنفرض على الناس كتبا معينة، ونعاقبهم إذا فكروا.. فكيف يكون هذا تعليما!!

ومن أكثر ما أحزننى فى الشهور الماضية، ما سمعته عن قانون جديد للتعليم الجامعى فى مصر، وقد فرحت ـ وقتها ـ بذلك جدا، وخصوصا أننى أثق فى الدكتور مفيد شهاب جدا.

وتابعت «الأهرام» والصحف الأخرى على الإنترنت، ووجدت أن كل الجدل، والنقاش العام حول القانون يدور حول نقطة واحدة، هى: هل يستطيع المدرس الذى وصل عمره إلى أكثر من ٧٠ عاما أن يقوم بتدريس طلبة البكالوريوس أم يقتصر عمله على الدراسات العليا.

أى أن الجدل كله دار حول مصلحة مالية للمدرسين.

أين نظام التعليم، أين أساسيات التعليم الجامعى.. لن تجد شخصا واحدا تذكرها.

ثم تعال إلى أعداد الطلبة، إذ لا يمكن لجامعة أن يتقدم فيها التعليم بالأعداد الموجودة (كلية التجارة فيها ٣٧ ألف طالب ـ كلية الحقوق فيها ٢٤ ألف شخص)، وللأسف هناك من يتبنى فكرة أن من يستطيع أن يعطى محاضرة لواحد، يستطيع أن يعطيها لألف.

لو كان التعليم بالمحاضرات، لكانت العملية سهلة جدا.

التعليم هو أن تجعل الطلاب يفكرون، وكيف يبحثون لأن هذا هو ما سيواجهونه فى المستقبل، ولن يكون ما يقابلوه هو ارتداد المعلومات التى حفظوها.

الخريج يواجه مشكلة عليه أن يبحث عن حلها، ولابد أن يعرف كيف يبحث.

للأسف، جاءنى ـ هنا فى البنك الدولى ـ طلبة للدكتوراه من مصر، يعنى حصلوا على الماجيستير، وعندما أقول لأحدهم: اذهب لتبحث فى المكتبة، يصدمنى بأنه لا يعرف، وحين أطلب منه أن يعمل على الكومبيوتر، يفاجأنى بأنه لا يعلم.

هذه أساسيات، إن غابت يكون هذا الغياب قرينة على عدم وجود تعليم جيد.

على أية حال.. مصر الآن، لديها فرصة أن تتخطى كل ذلك بقفزة تكنولوچية كبيرة، شريطة أن تنجح فى خلق الكادر البشرى الذى يعمل على الشاشات والكومبيوتر.

التعليم كان هو الذى ميز مصر عند نشأة الدولة الحديثة وبعدها، والجيل الذى علمنى كان من أساتذة فى غاية الاحترام على المستوى الدولى، ولكن العثور على مثل هذا المستوى هو ـ الآن ـ الاستثناء وليس القاعدة.

وكما قلت، فإن الحل هو القفزة التكنولوچية التى ستقدم لنا منتجا (بفتح التاء) بشريا قادرا على المنافسة.

لقد أصبحنا مجتمعا مفتوحا أكثر، وبالتالى أصبحت المنافسة عاملا رئيسيا، ولم نعد نستطيع الاعتماد على الحماية للأبد، ومع ذلك ففى مصر ألاحظ أن الحماية واسعة وكبيرة للصناعات وللمهن.

وسوف نضطر ـ رضينا أم أبينا ـ إلى فتح السوق أكثر، وهو ما سوف يؤدى إلى انهيار كثير من الصناعات القائمة التى لا تقوم على أسس اقتصادية، وإنما على أسس حماية مفرطة.

لاحظ أن السيارة فى مصر تدفع عليها ٢٠٠٪ جمرك!

وقد حضرت مؤتمرا غريبا فى مصر تحدث فيه مدير شركة چنرال موتورز وقدموه على أساس أنه مثال للتنافسية، ثم أعقبه ممثل شركة بيرة الأهرام، فقلت لهم: «يا جماعة.. هذا حرام.. ومن غير المعقول استغفال الحاضرين على هذا النحو.. إن هذه الشركات تقوم على الحماية والاحتكار.. ولايمكن أن نعتبرها بأى معيار مثالا للتنافسية.. ربما كانت مثالا للكفاءة أو للإدارة، ولكن لا تقولوا مثالا للتنافسية، لأن التنافس لا يكون فى ظل حماية من هذا النوع».

وكما أوضحت هذا الأمر بالنسبة للشركات والمنشآت الاقتصادية، فإن هذه الفكرة تنطبق تمام الانطباق على العنصر البشرى.

فعندما يتخرج الخريج فإنه يبدأ التنافس فى سوق العمل مع ناس من داخل مصر (وكذلك ـ وهذا هو الأهم ـ مع ناس من خارج مصر).

عندما ينفتح اقتصاد بلد، وينفتح سوقها، فلابد أن يتوقع العنصر البشرى الذى تنتجه أنه سيواجه منافسة، ليس فقط فى الداخل ولكن فى الخارج أيضا، فتزايد عدد المصريين يؤدى ـ تلقائيا ـ إلى خروجهم للعمل، أو هجراتهم الدائمة أو المؤقتة، فإذا لم يكن العنصر البشرى قادرا على منافسة الهندى أو الآسيوى، فإن فرصه فى العمل ـ حتى فى الخليج ـ تصبح محدودة وقليلة.

عالم!

- **الموارد المتاحة فى العالم لا تكفى لحاجة الناس، ولذلك فإنك تقول إن وجود دول فقيرة وأخرى غنية هو أمر حتمى، وإن هذه الموارد حتى إذا كانت تكفى كل شخص يعيش على هذه الأرض، فإن موقف الدول الغنية ومواطنيها لن يسمح بهذا، إذ إن أمريكا مثلا تستخدم لضروراتها ولرفاهيتها، قائمة معتبرة من الموارد المتاحة فى العالم.. هل تعتقد أن شكل العالم على هذا النحو يعبر عن فكرة عادلة، أو أنه قابل للاستمرار؟**

فى أى مجتمع، محلى أو عالمى، ليست هناك مساواة، ومن يقول غير ذلك هم الفلاسفة!!

هناك فوارق أصبحت ـ فيما يبدو ـ حتمية، والمشكلة أن الفارق هائل، ويتزايد، سواء كان فارقا فى الثروة، أو فارقا فى المعرفة.

الغنى أصبح أغنى، والمتعلم أصبح أكثر علما، والمتخلف أصبح أكثر تخلفا، والجاهل أصبح أكثر جهلا.

لابد أن ينطلق الطرف الضعيف عبر العلم، ليس ليصل ـ بالضرورة ـ إلى نفس درجة الغنى/ القوى، وإنما ـ على الأقل ـ يحسن أوضاعه ويضيق الفارق.

وليست هناك وسيلة إلى هذا سوى التعليم.

العالم كله يتحدث الآن عن أن الثورة التكنولوچية أهم من الثورة الصناعية فى نتائجها وآثارها فى المستقبل القريب، وكما يقولون الآن:

"The real difference is the digital difference".

إذ ـ كما قلت ـ المعرفة، والمعرفة التكنولوچية ـ بالذات ـ هى أساس الفارق فى عالم اليوم، فعلى حين يجلس الواحد فى مجتمعاتنا ليبحث مشكلة ما من يوم أن خلق ربنا الكون، فإن شخصا آخر، أو باحثا آخر، يستطيع فى ثلاث دقائق أن يستخرج المعلومات التى تلزمه.. وبالتالى إذا عجز طرف عن مواكبة هذه الحقبة، فإن الفارق سيأخذ فى الاتساع، حتى نصبح خارج المنظومة تماما، أو يصبح هناك حضارتان لا علاقة لإحداهما بالأخرى.

ولكى نواكب ـ أقولها للمرة الألف ـ يجب أن نحدث تطويرا حقيقيا وكبيرا فى نظم التعليم بمصر.

اجتماعى؟

- **كثيرا ما تتردد كلمة البعد الاجتماعى للإصلاح الاقتصادى، وأتصور أن الدلالة الحقيقية لها هى من زاوية توفيق أوضاع العمالة التى أضيرت من الخصخصة. ومن زاوية أخرى تعنى وجود ضمان اجتماعى وتأمين وبطالة، وعلاج، وتعليم سليم، وإعانات إعاقة وفقر. هل موازنات الدول النامية تتحمل تجديد البنية الأساسية، وتحديث الإدارة، وتطوير الموارد البشرية؟**

والحديث عن البعد الاجتماعى يردنى إلى ما كنت تذكره حالا ـ يا دكتور إبراهيم ـ عن تجهيز الهياكل للخصخصة، وللمثال الذى ذكرته ـ حالا ـ عن الشركات التى يقولون عنها تنافسية وهى تعبير عن الحماية والاحتكار، إذ إن هذه الشركات واجهت كما نعلم مشاكل كبيرة فى إعداد البنية التحتية الاجتماعية لعملية

الخصخصة (بما تشمله من توفير ضمانات للعاملين وإعادة صياغة حجم العمالة وتأهيلها).. وأعود وأسألك هل موازنات الدول النامية تتحمل تجديد البنية وتحديث الإدارة وتطوير الموارد البشرية؟

○ مسألة من يدفع ثمن الإصلاح، هى مسألة تعتمد على رؤية الدولة، ونظامها، وطبيعة هذا النظام.

فهذا النظام هو ـ عادة ـ الذى يملك السلطة الحقيقية للتغيير، أو القدرة الحقيقية للتغيير.

ففى كثير من الدول يحدث إصلاح، ولكن المستفيد الأول هو الطبقات الأغنى، وليس الطبقات الأفقر.

هذه الطبقات الأغنى هى التى تقرر وتنفذ، بالضبط مثلما حدث فى روسيا، كما حكيت لك.

الطبقات الأغنى، تفصل الإصلاح لمصلحتها، بوعى أو بدون وعى، من دون أن تعرف ـ بالضرورة أنها تضر بالآخرين.

كل واحد يتصرف بما يخدم مصلحته، فيزداد الغنى غنى، ويزداد الفقير فقرا.. أما إذا وعت الدول هذه المشكلة وكان اهتمامها بالطبقة الفقيرة، فإنها يمكن أن تنتهى إلى نتائج مختلفة تماما، وساعتها سيكتسب كل شىء مفاهيم مختلفة، فحماية العمال لن تعنى ـ حينئذٍ ـ إبقاء الأعداد الهائلة الزائدة عن الحاجة إلى الأبد، ففى رأيى أن هذا ليس حماية للعمال، وإنما ـ بالعكس ـ حماية العمال تعنى أن يزيد الإنتاج، وترخص الأسعار، وتزيد المرتبات. أما أن أدفع العامل إلى الاستمرار فى مشروع فاشل ليس له مستقبل، فإن هذا أمر غير مفهوم، إذ إن السؤال الذى يثور فى هذه الحالة هو: (أنا أحمى من؟!).

العامل المجتهد فى مثل هذه الحالات التى تقر فيها مفاهيم خاطئة، هو الذى

يدفع ثمن النظام الفاشل، لأنه محاط بأعداد كبيرة من العاملين غير المجتهدين. وبالتالى فإن الـ moral، أو روح العمل تنخفض، وتدفع المنشأة الاقتصادية ثمنا باهظا لهذا، بل ويدفع اقتصاد البلد كله ثمنا باهظا.

خذ عندك مثلا حديد حلوان (هذه الشركة ـ حسب معلوماتى ـ تخسر كثيرا ودعك مما يعلن، لأنه ـ محاسبيا ـ يمكن اللعب كثيرا فى الأرقام وبشكل شرعى!!)، آخر عدد رأيته للعاملين فى هذه الشركة هو ٢٣ ألف عامل، على حين من الممكن تسييرها بخمسة آلاف عامل فقط.

بقاء هذه الأعداد الهائلة مشكلة.

وهى مشكلة سياسية وليست مشكلة إنتاجية!!

وهل يكون الحل أن تبقى الأحوال كما هى عليه، لأنها مشكلة سياسية؟!

هذا نزيف مالى.. وله ثمن على الوضع الكلى للاقتصاد..

Some body is Paying the difference.

الحل هو أن نبدأ فى البحث عن طرق حقيقية نواجه بها مشكلة العمالة الزائدة.

ربما يكون الحل هو منح مكافأة كبيرة للعامل الذى سيترك العمل. وبالمناسبة، الذين سيتركون العمل فى البداية هم أفضل العمال، وربما لن يكونوا ممن نريد بالضبط أن يتركوه، لأن الشخص ذا القدرات الأفضل، له سوق، وعنده مجال آخر للعمل، والشخص الذى ليس لديه قدرة هو الذى يحب البقاء، ولكن بعد ذلك ـ وباستمرار الفرز فى سوق العمل ـ سيتغير هذا الحال.

ولسنا أول دولة تقوم بإصلاحات، ويجب أن نستفيد من خبرات من سبقونا، سواء كانت إعادة تأهيل للعاملين، أو إعطاءهم أصولا، أو أراضى، أو أسهما فى المشروع نفسه وإخراجهم من العمل.. هناك حلول بالقطع، وأنا ضد تعميم

الحلول، لأن الوضع يختلف من حالة إلى حالة. وأى تعميم، هو - فى الواقع - مؤسس على نظرية، وعودة إلى بداية حوارنا.. فإن النظريات لا تفيد.

وفى هذا السياق يهمنى التأكيد على أنه ليس من العيب إطلاقا الاعتماد على الأجانب، والاستفادة من الخبرات الأجنبية، فليس هناك أمة تخاصم خبرات الآخرين، وليس هناك أمة تعرف كل شىء عن كل شىء، وبالمناسبة نحن لا نعرف كل شىء!!

نظام التعليم - مرة أخرى - عندنا.. نظام تحفيظ، ولا يجعلنا مؤهلين لحل المشاكل، وهذا - للأسف - يظهر فى الأزمات، إذ تجد الذهن الإدارى وقد توقف، لأننا لم نتعلم القدرة على الابتكار، التى هى مفتاح الحل لأية مشكلة.

التحفيظ هو أساس مشاكلنا فى البيوت وفى المدارس، وهو الذى يمنع القدرة على الابتكار، فأى طفل فى بيت مصرى عادى، غير مسموح له أن يفكر أو يعبر، وإذا ذهب إلى المدرسة فغير مسموح له كذلك - بأن يفكر أو يعبر.

الوضع الاجتماعى ككل يفرض على الإنسان المصرى، ألا يفكر، وألا يبتكر، ومن ثم لم نعد جاهزين - بالضبط - للتعامل مع المشكلات، وبالتالى يظل اللجوء للخبرة الأجنبية واردا ومشروعا جدا فى هذا الإطار، ويظل اللجوء إلى الخبرة الأجنبية مشروعا وواردا جدا فى موضوع الإصلاح الإدارى للشركات وللمنشآت الاقتصادية.

دستورى!

- **فى الجزء الثالث من كتابك «وصيتى لبلادى» تناولت موضوع التغيير الدستورى، وتعرضت فيه إلى العديد من الأمور الأساسية والحساسة.. وبالمناسبة، فإن هذا الكتاب - فى تقديرى - هو نقطة البداية لأى تغيير دستورى.**

واليوم، فإن الرأى العام فى مصر أبدى اهتماما وتركيزا لحكم

المحكمة الدستورية حول قانون الجمعيات الأهلية. ماهى ـ فى تقديرك ـ تبعات هذا الحكم من وجهة نظر الإصلاح الدستورى؟

○لاحظ أن ما يسمى قانون الجمعيات الذى صدر عام ١٩٦٤، كان فى عز «هوجة» الإرهاب والإخوان المسلمين، وكان المقصود منه التحكم فى هذه الظاهرة، ومازالت العقلية الرسمية السائدة متأثرة جدا بموضوع الجهات التى تستغل إطار الجمعيات الأهلية لأغراض سياسية لها علاقة بالإرهاب.

ومادامت هذه هى طريقة التفكير، كان من الطبيعى أن يكون القانون الجديد معمما لكى يحاصر، ويسوده فكر مقيد.. ومن هنا كان حكم المحكمة الدستورية.

وفى اعتقادى أن هذه طريقة سيئة فى التفكير، فالإرهاب لابد أن يحارب، ولكن هل معنى محاربة الإرهاب، هو حرمان كل الناس من الحريات بصفة عامة!

ما أفهمه هو أنه إذا ارتكب بعض الأفراد جريمة معرّفة فى القانون، فلابد أن يعاقبوا طبقا للقانون، وعبر التحقيق والنيابة والقضاء.

أما الموضوع الذى يثار ـ دائما ـ كمبرر لصدور قانون الجمعيات، وهو الحصول على أموال المساعدات من الجهات المانحة، فهو ـ فى رأيى ـ يدخل فى نطاق التفكير فيما وراء القانون.

فعندما صدر قانون ١٩٦٤ لم يكن التمويل قد بدأ بعد، ولكن طريقة افتراض الخطر، ثم (التقييد) على أساس هذا الافتراض، جعلت من التمويل الأجنبى عندما حدث بعد ذلك بكثير، قرينة جديدة على الخطر، ومبررا جديدا للتقييد!!!

ليس كل تمويل أجنبى للجمعيات الأهلية، هو تمويل استعمارى!!

ربما كان بعضه كذلك، ولكن ـ بالقطع ـ فإن الجزء الأعظم منه يقصد الخير، وكما تعلم ـ يا دكتور عمرو ـ هنا فى أمريكا أو فى الغرب، هناك العديدون الذين

يتبرعون بمبالغ مذهلة للمساعدة، من دون أن يتحققوا ـ بالضبط ـ من أغراض الجهات التى يتبرعون لها معلنة أو خفية!

ولكن هناك حقيقة ينبغى أن نتعامل معها بتفهم، وهى أن الكثير من الجهات الأجنبية تفضل الاعتماد على الجمعيات الأهلية فى دعمها لمجتمع من المجتمعات لأنها تجدها أكثر كفاءة، وأقل فسادا.

وقد كانت وزيرة التنمية الهولندية ـ هنا ـ فى زيارة، وهى صديقة، وقالت لى: أنا أفضل أن أعطى المال فى أية حالة إلى الجمعيات الأهلية، لأنها أقل فسادا. أما حين تُعطى المعونة للمؤسسات الحكومية، فإنها تذهب إلى موظفين، ولا نكون متأكدين ما الذى سيجرى لها. وهى فى ذلك لم تكن تتحدث عن دولة بعينها. أما الجمعيات الأهلية ـ من وجهة نظرها ـ فهى أسهل وأسرع، واحتمالات الفساد موجودة فيها، ولكن أقل كثيرا.

وفوق هذا، فإن مفهوم خدمة الجماعة Community Service غير موجود فى مصر، وبالتالى فإن التمويل الداخلى، عبر أن يستقطع الإنسان جزءا من دخله يعطيه لجمعية، هو استثناء غير شائع، ولما كان هذا التمويل الداخلى محدودا أو معدوما، فمن الطبيعى أن تلجأ الجمعيات الأهلية إلى التمويل الخارجى، وإذا لم يكن الاثنان موجودين.. فكيف يتم تمويل الجمعيات الأهلية إذن؟!

ثم افرض أن غرض الجمعية الأهلية نبيل جدا، وغير سياسى بالمرة، وليكن بناء أرصفة للشوارع، وجاءت جمعية فى هولندا وقالت لهذه الجمعية سوف نمنحك مليون دولار لبناء الأرصفة، فهل يمكن أن يغضب هذا أحدا!

إن البنك الدولى نفسه يحاول تشغيل جمعيات أهلية فى مشروعاته، لنفس الأسباب (السرعة وتجاوز البيروقراطية وقدر أقل من الفساد).

ونرجع لما ورد فى سؤالك عن علاقة ذلك بالإصلاح الدستورى.

هذا القانون ـ بالذات ـ أثار ضجة خارج مصر، أكثر منها داخل مصر.

وأنا - شخصيا - وصلتنى عشرات الرسائل حول الموضوع من جهات وأشخاص يعرفون أننى مصرى، وأنا متأكد أن المسئولين فى مصر وصلتهم مئات الرسائل ضد هذا القانون المقيد، ومن ثم لا أستغرب صدور حكم المحكمة الدستورية.

وعلى أية حال، فإن تلك الحالة، وحالات أخرى، تفتح موضوع الدستور المصرى، الذى هو خليط من مبادئ اشتراكية عام ١٩٧١، ومحاولة إدخال الشريعة عام ١٩٨٠.

ومن يقرأ مقدمة دستور ١٩٧١ يشعر أنه أمام موضوع إنشاء لطالب ثانوى، وهو ملىء بالأحكام التى تؤكد أن الاشتراكية هى أساس الدستور، وأساس القاعدة الإنتاجية، وأساس الحكم، وأساس كل شىء.

ثم - مع بقاء كل هذا من دون تغيير - تضاف الشريعة الإسلامية كمصدر رئيسى للتشريع عام ١٩٨٠، وأن مساواة المرأة والرجل هى فى حدود الشريعة الإسلامية.. يعنى أصبح عندنا كائن دستورى غريب هو مزيج من الاشتراكية والإسلام، وهذا الكائن كان محاولة تلفيقية، وليس محاولة توفيقية.

المجتمع المصرى، والعقل المصرى تخطى هذه المرحلة، وقد أصبحنا أكثر وعيا وأكثر تقدما، وليس عيبا أو حراما، أن نبدأ محاولة أن يكون دستورنا أفضل.

ومسألة أن يكون دستورنا أفضل لا يجب أن تتعثر كثيرا فى قضية المغالاة فى النص على حقوق فى الدستور، هى ليست - بالضرورة - حقوقا.. فإذا نص الدستور على أن (العمل حق) وكنت متبطلا، فماذا أفعل بهذا الحق الدستورى، وعلى من أرفع قضية لإثبات حقى؟!

وعندما ينص الدستور على أن التعليم بجميع مراحله حق مجانى.. يجب أن نصيغ هذا الدستور صياغة منطقية، فلا توجد دولة فى العالم أقرت مثل هذا الحق بتلك الإطلاقية!

لماذا لا نكتب فى دستورنا ـ مثلا ـ «لا يحرم شخص من حقه فى التعليم، إذا كانت لديه الكفاءة والقدرة»!

فإذا كنتُ غبيا وأرسب أربع مرات فى كل فصل دراسى، فلماذا آخذ تعليما مجانيا. . ثم لو كنتُ غنيا لماذا أحصل على تعليم مجانى!

ما أطالب به أن نبدأ التفكير فى مسألة الإصلاح الدستورى.

● كيف نبدأ التفكير ـ يا دكتور إبراهيم ـ عمليا؟!

○ الأفضل أن تأخذ القيادة زمام المبادرة، بأن تشكل مجموعة من أنبه المصريين، وأكثرهم علما وخبرة واطلاعا على ما يحدث فى العالم، وتطلب منهم إعداد مشروع لتعديل الدستور، ثم يناقش المشروع ـ علانية ـ ونسمع فيه رأى الناس كلهم (اشتراكيون ـ ليبراليون ـ إخوان مسلمون. . الجميع)!

● من ملاحظاتك على شكل الجدل العام.. هل تتصور أن يكون مثل ذلك النقاش منتجا، أم يتحول إلى ساحة للتشاتم وتصفية الثأرات التاريخية، وسحق الآخر، وإعلان الانتصار عليه؟

○ يمكن أن يكون الجدل فى مصر منتجا إذا كان جادا.

المشكلة أن الناس فى مصر ليس لديها ثقة كافية فى جدية الجدل. ومن هنا تعزف عنه، وترى فيه مضيعة للوقت. أما المخربون فيودون ـ دائما ـ استغلال الجدل للوصول إلى أغراضهم، وليس للوصول إلى نتيجة وطنية معينة.

أما إذا كان الناس جادين، فأؤكد لك أن مثل هذا الجدل سوف يكون إضافة كبيرة لمصر، فنحن بلد ـ على الرغم من سوء نظام التعليم فيه ـ يخرج منه عباقرة حقيقيين، لأنه بلد له وضع خاص وتاريخ خاص، وأحيانا أتعجب لبعض المصريين الذين لم يتلقوا تعليما، حين يصدر منهم كلاما تستغرب له، من حيث درجة ذكائه ووعيه.

إذن لدينا خبرات يمكنها المشاركة، ولدينا وعيا عاما فطريا لدى الناس، ولكن كما قلت - فإن الكبار المتعلمين يعزفون عن المشاركة لشعورهم بعدم الجدوى.

● دكتور إبراهيم شحاتة.. كيف ترى موقع مصر ضمن الاقتصاديات الناشئة فى العالم؟.. فالمشكلة أننا - أحيانا - نغالى فى نقد الذات فنتصور أننا أسوأ اقتصاد ناشئ، وفى أحيان أخرى نغالى فى مدح الذات، فنعطى لأنفسنا انطباعا بأننا فى أحسن الأحوال، ووسط هذا تضيع الأرقام والحقائق، أو تفقد معناها..

○ سؤالك يتضمن الإجابة.. فلسنا الأسوأ، ولسنا الأحسن، فقد حصلت بداية جدية فى الإصلاح منذ عام ١٩٩١.

وهذه البداية لم تتصف بالكمال، ولكن يمكن تعميقها وتحسينها إذا أردنا (وهذا هو المطلوب الآن).

ومن جانب آخر، فمن عدم الإنصاف أن نقول إنه لم يحدث تقدم على وجه الإطلاق.

التهوين مكروه والتهويل أيضا، فنحن لدينا قدرة هائلة على المبالغة (نحن أكبر.. أعظم.. أجمل)، وهى صفة موجودة فى الثقافة العربية بصفة عامة.

● كيف نعمق - إذن - محاولة الإصلاح التى جرت ونوسعها؟

○ الإصلاح لابد أن يتعرض للمشاكل التفصيلية فى إطار الفكر العام الذى طرح فى بدايته.

فمثلا فى موضوع التخصيص، حدث تقدم كبير، ولكنه مازال بطيئا، ومازال هناك تخوف من العمالة الزائدة، وفى نفس الوقت ليست هناك حلول واضحة لهذه المشكلة، لأن الحل ليس الإبقاء عليها إلى الأبد.

فإذا قال البعض نبتعد عن التخصيص، فإن ذلك يجافى المنطق، إلا إذا استطعنا تحسين القطاع العام، ولكن هل هذا حل دائم ومتوازن ومستمر؟!

مشكلة القطاع العام أن السياسة تدخل فيها.

لو أنا مدير قطاع عام، وعندى سلطات مطلقة فى تعيين وعدم تعيين الناس، ربما استطعت أن أديره بشكل جيد، ولكن أن يرسلوا لى مائة فى كل سنة لتعيينهم إجباريا، وأنا لا أحتاج إلى تعيين شخص واحد ـ أصلا ـ فكيف سأديرها إذن.

الحل الوحيد هو نقل الملكية للقطاع الخاص مع اقتراح حلول للعمالة الزائدة.

وبالطبع ستكون هناك حلول للعمالة الزائدة وستحدث تكاليف اجتماعية.. من الذى سيدفعها؟ وكيف نقلل العبء على الفقراء ونحن نقوم بهذا التحول؟

من يريد الإصلاح يجب أن يدفع الثمن.

مريض السرطان لا يمكن أن يشفى من دون ألم، ومن دون ثمن!!

هناك دواء مر، ودواء أقل مرارة، ولكن ليس هناك أدوية للتحول محلاة بالسكر والعسل!!

وصفة!

● **هل صحيح أن مصر نجحت فى تكييف وصفة مع البنك والصندوق تختلف عن أى مكان فى العالم؟**

O غير صحيح.. لقد حدثت مفاوضات كما يحدث مع أية دولة.

وكل دولة تحاول أن تخفف الثمن، وتخفف الألم.

هذا شىء طبيعى.. وفى نفس الوقت، فإن العاملين فى المؤسسات الدولية يحاولون ـ من ناحيتهم ـ الإسراع فى برامج الإصلاح، حتى يروا نتائج جيدة، بأسرع وقت ممكن، والنتيجة تكون compromise أو (توفيق) بين الهدفين أو المحاولتين!

● **هل يعتمد هذا على مهارة المفاوض؟**

○ لا.. ولكنه يعتمد على الظروف.. فمصر ـ لحسن الحظ ـ دولة محبوبة فى البنك والصندوق، وأنت تجد تأييدا كبيرا فى مجلس الإدارة للمطالب المصرية. ومن هنا تتساهل معها هذه المؤسسات الاقتصادية الدولية.

وبالمناسبة أحيانا لا يكون التساهل أمرا جيدا أو لصالح البلد.

فالسؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا فى البداية: هل هناك مشكلة أم لا؟

وحالة الإسكان فى مصر، تعد مثالا عمليا واضحا فى هذا السياق، فعندما جمدت الحكومة الإيجارات فى الخمسينيات والستينيات، حدث أن اختفى الإيجار، وقرر الملاك أن يبيعوا الوحدات السكنية.

فلو كنت فقيرا لن أستطيع الشراء، فضلا عن عدم وجود الأجهزة المتمثلة فى البنوك العقارية، التى تستطيع منحى قروضا تسدد على ٢٠ ـ ٣٠ سنة كما هو موجود فى الدول المتقدمة.

إذن، فالسياسات المطبقة فى هذا المجال لا تحل شيئا، فلم تعد هناك بيوت للإيجار، والبيوت القديمة أصبحت محتاجة لخلو رجل، والبيوت الجديدة أصبحت محتاجة لأموال كثيرة للتمليك.

إذن، فمن الذين خدمتهم بالقوانين وبالتشريعات التى أصدرتها للإسكان؟

لم أخدم سوى المستهلك القديم وهو أقلية، على حين أن الملايين تخرج إلى الحياة كل سنة من دون أن تجد مكانا تسكن فيه.

السذاجة فى تقديم حلول المشاكل أفضت بنا إلى مشكلة أكبر.

موقف البنك كان واضحا فى هذا الموضوع ويطلب بإلحاح الوصول إلى حل.

وقد كتبت فى (الأهرام) ١٩٩٣ مذكرا بأن أحد الحلول يمكن أن يكون بترتيب البيوت من حيث تاريخ بنائها، فالذى تم بناؤه قبل ٤٠ عاما يزيد إيجاره ٢٠٠٪

أو ٣٠٠٪ والذى بنى قبل ٤٠ ـ ٥٠ سنة يزيد إيجاره ١٠٠٪، ويذهب نصف الزيادة للمالك، والنصف الآخر لصندوق يخصص ـ فقط ـ لبناء مبان للفقراء الذين ليس لديهم دخل، وبالتالى أكون قد قربت أجور السكن للحقيقة، ومن ناحية أحل هذا المشكلة بعض الشىء.

وبعد ذلك أُعِد مشروع قانون بهذا المعنى، فصرخ أصحاب المصالح ورفعوا عقيرتهم بالاحتجاج، وعلى الفور تراجعت الحكومة وقالت «لامساس»!!

والنتيجة هى أن القانون الجديد صيغ للمبانى الجديدة فقط!

وهذا كله يكرس أوضاعا من شأنها حل مشكلة الغنى وتعقيد مشكلة الفقير.

خطط!

● **أغلب خطط الإصلاح المالى والإدارى، هى خطط طويلة المدى، بطبيعة الحال، فجسامة المشاكل، والتخطيط العلمى السليم يستتبع النظر على المستوى البعيد، إلا أننا فى مصر فى حاجة إلى تغيير حالى وسريع ـ كما قلت حضرتك ـ على أرض الواقع، فتنفيذ اتفاقيات الجات على الأبواب، والاقتراب بشكل ما من اتفاق بشأن عملية السلام، سوف يؤدى إلى منافسه تجارية إقليمية، لا مكان فيها لمن يعانى من صعوبات اقتصادية ومالية، فانظر ماذا ترى؟**

○ الحل طويل الأجل يصبح أطول أجلا إذا أجلته، أو أجلت البت فيه!

لابد أن نبدأ الآن كى نصل إلى الحل.

الحماية ليست هى الحل.

وللأسف، فإن أصحاب المصالح مازالوا يؤثرون فى الرأى العام، والآخرون ليست لديهم وسائل للتعبير.

من مصلحة الاقتصاد أن يدفع تكاليف حقيقية مهما كانت مصالح أصحاب المصالح!

الإنتاج غير القادر على المنافسة، الذى تبذل جهدا كبيرا فى حمايته ودعمه- سيأتى وقت لا يقبل العالم منك إجراءاتك تجاهه.

اتفاقية الجات أعطت مهلة لاستيفاء المعايير مدتها ثمانى سنوات، فماذا سيحدث بعد ٨ سنوات (وبخاصة أن المتبقى منهم ثلاث سنوات فقط)؟..

لو كان لدينا صناعات يمكن أن تقف على قدميها كان بها، وإذا لم يكن فلن تكون هناك حماية، بمعنى أن السيارات المستوردة من الخارج سيدفع المواطن عليها ١٥٪ جمرك فقط، بدلا من ٢٠٠٪، وبالتالى سيدفع اقتصادنا الثمن (الذى رفضنا أن ندفعه بطريقة منظمة ومدروسة)، ولكن بطريقة غير منظمة وغير مدروسة.

ستكون أمامنا ـ حينئذٍ ـ معضلة كل الشركات الموجودة عندنا وكل العمالة التى تشتغل فيها، والتى لم نلزمها بالاعتماد على نفسها والإنتاج وفقا للقواعد والمعايير المتعارف عليها دوليا، عن طريق تخفيض (الحمائيه) تدريجيا (يعنى ٢٠٪ كل سنة مثلا).

اللجوء إلى الحل السياسى بوصفه حلا سهلا هو فى الواقع أصعب بكثير.

وما تقوله عن المدى الزمنى القصير، أو المدى الزمنى الطويل، لا يهمنى فى هذا الإطار.. ولكن ما أعرفه هو أننا يجب أن نبدأ اليوم، ونتدرج فى الإصلاح، ونبتعد عن التواكلية التى تجعلنا نتصور أن شخصا آخر، أو جهة أخرى ستحل مشاكلنا.

ربما يجىء هنا دور الإعلام الذى ينبغى أن ينصرف إلى توعية الناس بحقيقة مشاكلهم، ويبتعد عن الحديث المزمن عن الذات بوصفنا أروع وأجمل وأعظم بلد وشعب ونظام!

فالتعرف الحقيقى على المشاكل هو بداية طريق الإصلاح، بدلا من الكلام الخائب عن أن البلد بخير، وأن ربنا سيحل مشاكلنا، وأن الجهات الاستعمارية الخارجية هى التى تتدخل فى شئوننا وتعوق تقدمنا!!!

عودة!

● **تقول: (الجهات الاستعمارية الخارجية) هذه عودة لمعنى السؤال الأول من هذا الحوار فى السؤال الأخير، فقد حرص الكثيرون على إعادة إنتاج الصورة النمطية الشريرة للبنك الدولى أو المنظمات الاقتصادية الدولية فى إطار الحديث عما يتعرض له شعب العراق من حصار وضغط.. هل لديك تصور ـ يا دكتور شحاتة ـ لطبيعة العلاقة بين البنك الدولى والعراق، وجهوده للتنمية، ومحاولات إنقاذ شعبه.. وكيفية التعامل مع هذه الدولة فى ظل ما ذكرته فى ثنايا الحديث من أن هناك دولا محبوبة، ودولا غير محبوبة؟**

○ مشكلة العراق أنه لا توجد دولة أخرى ـ تقريبا ـ ترغب جديا فى مساعدة العراق، طالما بقى نظام الحكم السائد فيها.

وحتى إذا تقدم الجهاز الفنى للبنك الدولى بمشروع ما لمعاونة العراق، فإن احتمال قبوله غير وارد فى الوقت الحاضر.

الثمن لا يدفعه الجهاز الحاكم فى العراق، وإنما يدفعه الشعب العراقى، ولكننى أحكى لك عن مواقف الدول داخل البنك.

وأضف إلى ذلك أن أحدا لا يريد أن يغضب الكويت، وهى دولة محبوبة، تساعد الآخرين طوال تاريخها، ودورها ـ فى العالم العربى بالذات ـ دور إيجابى من يوم أن استقلت.

وبالتالى، فإن أى تدخل لمساعدة العراق سياسيا سيبدو وكأنه إساءة للكويت، خصوصا قبل حل مشكلة الأسرى الكويتيين، وهى مشكلة كبيرة جدا عند الشعب الكويتى.

ومن جانب آخر، فإن رأيى أن أى تخاذل فى مساعدة الشعب العراقى

جريمة عربية، فالشعب العراقى ضحية الحكم العراقى، والمنظمات الدولية ليس لها ذنب فى هذا. وقد يعتقد العراقيون أن حكومتهم هى أفضل حكومة فى العالم، لكن ـ فى النهاية ـ هو الذى يدفع الثمن. والحقيقة أن الموضوع محير، ففى ظل هذا النظام لاتصل أموال المساعدات إلى الشعب العراقى أو فقراء النظام، وبالتالى فإن أية جهة مانحة للمساعدات تتردد كثيرا فى إعطاء النظام العراقى أية أموال، لأنها تعرف أنها لن تصل إلى الناس.

ووضع العراق هنا يدفعنى إلى شرح وضع إيران مع البنك الدولى، إذ ربما كانت المقارنة مفيدة.

فقد أعلنت ـ أكثر من مرة ـ أن عدم تقديم قروض إلى إيران هو خطأ كبير.

فإيران دولة عضو، تقدمت بطلبات قروض، وليس هناك سبب فنى لعدم مساعدة إيران.

المشكلة كانت ـ أساسا ـ أن البنك يعتمد على مساعدات الدول الغنية، ومؤسسة I. D. A (مؤسسة التنمية الدولية التابعة للبنك، التى تقدم قروضا من غير فوائد للدول الفقيرة تسدد على ٣٥ عاما) تطلب كل سنوات ثلاث تبرعات ضخمة بالملايين من الدول الغنية، وهذه التبرعات هى أساس مساعدة الدول الفقيرة.

والحقيقة أن عددا كبيرا من الدول المانحة، وليس فقط الأمريكان، قالوا لن نعطى أموالا لإيران إلا بعد حل المشاكل السياسية التى تتعلق بهذا البلد.

لكن الإيرانيين جادلوا فى هذا، وقالوا لن ننتظر إلى أن يتم حل هذه المشاكل السياسية، نريد أن يساعدنا البنك ـ ولو حتى فى المسائل الإنسانية.

وقد اتفقنا كجهاز فنى أن نقدم لمجلس الإدارة مشاريع قروض لإيران ليس لها أى طابع سياسى إطلاقا ولا يمكن أن تأخذ طابعا سياسيا. . وقد وافق المجلس.

هذه السابقة قد تعقبها ظواهر مماثلة، وربما يكون لذلك تأثير على العراق، ولكن المشكلة ـ كما قلت ـ إنه لا توجد أية مساندة للعراق فى مجلس إدارة البنك، ليس فقط من جانب الدول الغنية ولكن ـ أيضا ـ من جانب الدول الفقيرة!!

- ٢٠٠١ -

❑ ❑ ❑



الطيب صالح فى حوار على حافة السلفية والتحريض والعولمة.. والسخرية:

(١) موسم الهجرة إلى التراث!

● أهم ظواهر الأدب العربى المعاصر هو الحوار مع التراث!

● التراث ليس كراكيب الأنتيكة فى غرفة مهجورة من بنائنا الحضارى المعاصر، ولكنه جزء مهم جدا من ذواتنا!

● ثلاثية نجيب محفوظ أغنت الناس عن قراءه موسوعات فى التاريخ والسياسة.

● لم أفهم فرنسا إلا بعد قراءة بلزاك.

● الجانب الإبداعى فى الأمة مهم جدا، ولعلنا فى العالم العربى - إلى الآن - لم نفهم تماما قيمة هذا الإبداع.

● فى التراث السياسى للاستبداد ما يغرى المتطرفين بالالتصاق به: مثل مقولة زياد بن أبيه: «والله لنخوض إليكم الباطل خوضا حتى نصل إلى الحق فيكم»!!

- حدث انقطاع فى ذهننا، وفى تاريخنا، وفى مساهمتنا الإنسانية، فضلا عن إحساس عميق بالدونية، جعلنا ننظر إلى كل شىء وكأنه هابط علينا من السماء!
- الحوار مع ماضينا واجب، ولكن حرية الرأى واجبة كذلك، ولا يوجد ما يجعل حسن الترابى أفضل من العبد لله الطيب صالح!!
- الإعلام التليفزيونى ألهى الناس عن الاستمتاع بالكتاب، والموسيقى، وحتى الاستمتاع بالحوار أو بالكلام.
- الفرد العربى - الآن - غير قادر على التركيز، من فرط ما يتعرض له من تشويش تليفزيونى.
- الإعلام التليفزيونى العربى يحير الناس.. والتطرف ينجح عند الحائرين!
- إعطاء المعلومات الصحيحة للناس - عبر الإعلام - ليس خطرا على الدولة، ولكنه يقوى دعائم الدولة!

أردت هذا الحوار مع الأديب الطيب صالح لزوما لما يلزم، ولم أشأ كما لم يشأ الرجل، أن نجعل منه (تساوقا مع العادة أو التقليد الإعلامى والصحفى العربى) لزوما لما لا يلزم.

ولذلك ستجد خطا دراميا واحدا ينتظم هذا الحوار، كما ستجد سلاسل من تبادليات نشطة بين حوافه ومجراه.

هواللقاء الثانى على الورق معه.

وبين اللقاءين عشر سنوات، وعشرات اللقاءات الشفهية.

وحين قررنا ـ معا ـ أن يجمعنا لقاء ثان مكتوب، كان قرارنا يصدر عن إيمان عميق، بضرورة الحوار، واقتناع كبير بأن المثقف إذا كان مهموما ـ بالفعل ـ بقضاياه التى يثيرها مع رموز ونجوم وأقطاب محيطه الاجتماعى والثقافى والسياسى، لابد أن يضع على سلم أولوياته واهتماماته وهمومه الانخراط فى مراجعات مستمرة، لفكره، ولمواقف الأقطاب من القضايا التى تقاسموا إثارتها!

وعلى الضفة الأخرى لهذا الموضوع، فإن قرارنا كان يصدر عن إيمان عميق، واقتناع كبير، بأن الصحفى إذا كان مرتبطا بمشروع حوار كبير، فإنه يجب أن يتجاوز علاقة التقيؤ المرضية بينه وبين المصدر، وبين جهاز التسجيل والقارئ، إلى علاقة تفاعل صحية بين الأطراف الأربعة، لا تدخل إلى ساحة حوار إلا بمبرر موضوعى محترم وكبير.

. . . .

هكذا أردناه.. وهكذا كان.. أو نأمل فى أن يكون.

. . . .

وهنا نص الحوار:

● يا طيب.. يبدو لى ـ أحيانا ـ أن مساحة (الفعل) فى الأدب العربى

الجديد أصبحت محدودة، وأنه أصبح معنيا بإشاعة طقس تغريبى غامض، أو ببناء تراكيب شكلية أو لغوية، عوضا عن توخى مقتضيات الدراما، وبدلا من إعطاء الأولوية للفعل التغييرى، أو للتحريض عليه.. فى تصورك من أين جاء هذا العارض بالضبط؟!

○ أولا ـ يا دكتور عمرو ـ دعنا نناقش ما إذا كان هذا العارض صحيح أم لا!

مع كل الاحترام، أنا أعتقد أن هذا الافتراض قابل للجدل.

خلاصة سؤالك أن الأدب العربى الحديث هو مجرد لعب بالصور والألفاظ، ولا يحض أو يحرض على التغيير.

بينما أنا أعتقد أن الرواية العربية ـ على سبيل المثال ـ تطرح أسئلة كبيرة، وقضايا كبيرة، ولا تقبل بالمسلمات والثوابت، وهذا واضح عند الأستاذ نجيب محفوظ، وعند غيره. ثم هناك حفر قام به الأدب، وقامت به الرواية وصولا إلى التعبير عما أسميه (النهر الجوفى) من الأفكار والفلسفات، الموجودة فى الوجدان العربى، وفى التاريخ الإسلامى.

التحريض على التغيير ـ طبعا ـ فى الأدب ـ كما تعلم ـ لا يأتى بالطريقة المباشرة، أو التقريرية التى تحدث فى الصحافة أو فى السياسة، وربما هذا هو سبب خفوت هذه الصفة، أو عدم وضوحها.

وفى تقديرى، فإن الأدب العربى فى الخمسين سنة الماضية كان يدفع إلى التغيير.

ولكن ربما أرى أن كلمة (تحريضى) ليست هى الكلمة الصحيحة فى وصف ما تريد، وأنا أفضل استخدام كلمة (راديكالى)، التى تعنى أن يفكر الناس فى مجتمعاتنا بعمق أكثر فى حياتهم وأهدافهم.

● **أستاذ طيب.. كلمة (راديكالى) مشتقة من لفظة لاتينية هى**

(راديكالوس) أو الجذور.. ثم صارت تطلق ـ فى إطار العلوم السياسية، على التغيير أو الإصلاح الجذرى.. ومن ثم، فأنا أعتقد أنها متقدمة كثيرا ـ من حيث العنف ـ عن استخدام لفظ (تحريضى).. فماذا تريد بالضبط؟

○ أنا معك إذا ذهبنا للمعنى الاصطلاحى واللغوى للكلمة، وليس المعنى المجازى أو المفهومى. . ومن هنا أرى أن كلمة راديكالى مازالت أقل استفزازا من كلمة تحريضى، فالتحريض يقترن ـ دائما ـ بأنك تريد دفع الناس إلى القيام بثورة أو انقلاب!

وهذه ليست مهمة الأدب عموما.

● وما هى مهمة الأدب ـ عموما ـ إذن؟

○ أعتقد أن مهمة الأدب ـ كما قال السابقون وهذا كلام ليس من عندى ـ أن يقدم لأى شعب أو أمة أو حضارة، نوعا من الانعكاس لذاتيتها أو لوجدانها.

الناس ـ عادة ـ لا يدركون خصائص عملهم وحركتهم وحياتهم، إلا إذا وجدوا هذه الصور، وهذه الخصائص، منعكسة فى مرآة الفن والأدب.

ثم إن الأدب هو عبارة عن حوار داخل ذاته، إذ إن من أهم ما يفعله الأدب العربى المعاصر ـ مثلا ـ أنه يحاور التراث العربى والإسلامى كله.

لدينا شعراء يتمثلون بامرئ القيس والمتنبى وأبى العلاء ويستدعونهم ويحاورونهم، وكأن كل هؤلاء النجوم المبدعين التاريخيين، قد أصبحوا معاصرين لنا.

والمحاكاة والحوار، وتناول أفكار هؤلاء الأدباء الكلاسيكيين، وإعادة صياغتها، وطرحها. . هى أمور مهمة جدا ـ فى تقديرى ـ للأدب.

وعبر مثل هذه المداخل تبرز أهمية العنصر التراكمى، الذى يأمل فى إحداث التغيير على مدى طويل، وليس على مدى قصير.

قطيعة!

● **ولكن يبدو لى أن الأدب العربى أصبح فى كثير من أجزائه يخجل من تراثه، ويخضع لعلاقة صراع، أو تقاطع مع الموروث، بعضها يأتى من منبع مواجهة قوى سلفية، أصبح هذا الموروث يرتبط بالمناخ الذى تشيعه عن العودة إلى الماضى.. وبعضها يأتى من منبع الخضوع والتسليم المطلق ـ بلا قيد أو شرط ـ لطغيان تأثير الغرب، الذى يبشرنا ـ فيما يبدو ـ بزوال وتآكل «السيادة الثقافية»، كما بشرنا بزوال وتآكل «السيادة السياسية» فى عصر النظام العالمى الجديد. كيف ترى أبعاد هذه الإشكالية؟**

○ سأحاول تناول عنصرين أو ثلاثة، لأن سؤالك ـ فى الحقيقة ـ عميق، ومعقد، وملم جدا، بل ولعله السؤال المهم فى هذا العصر ـ بالنسبة لنا ـ حينما نلمح بوادر قطيعة مع التراث.

أنا ـ شخصيا ـ أرى أن هناك سوء فهم للتراث فى الساحة الفكرية والثقافية العربية.

نحن ـ كثيرا ـ ما نتحدث عن التراث بوصفه شيئا قديما فحسب.

نحن نراه عفشا قديما، أو كراكيب أنتيكة فى غرفة مهجورة من بنائنا الحضارى المعاصر، وقد نفتح هذه الغرفة أحيانا، لنأخذ منها كرسيا مازال صالحا للاستعمال!!

الموروث ـ فى حقيقته ـ يعيش فى ذواتنا، فكل فرد هو عبارة عن امتداد ـ كما نعلم ـ للتاريخ، الذى يتضمن فيما يتضمن (السلالة ـ الجينات ـ الموروث الفكرى والروحى.. إلخ).. قد تطغى أشياء على أشياء فى هذه المنظومة، طبقا للسياق أو المحيط الزمنى أو الجغرافى الثقافى أو الاجتماعى الذى ندرسها فيه.

نحن نعيش ـ الآن ـ فى لندن.

وأنا سودانى قادم من منطقة الوسط فى شمال السودان.

وأحيانا أنسى أننى قادم من هذا المكان، وأتصرف كإنجليزى لكى أتواءم مع المجتمع.

ولكننى ـ الحق.. الحق ـ أحمل تراثى داخل نفسى!!

الذين يحاولون القطيعة مع التراث يفعلون ـ ذلك ـ بأن يدفعوا ثمنا غاليا جدا، فهم يكبتون شيئا أو أشياء فى ذواتهم، على حين لا يستطيع أحدهم الادعاء بأن هذا الشىء معدوم أو غير موجود.

من جهة أخرى، فإن هناك من يفسرون التراث تفسيرات قد لا تصلح للعيش فى هذا الزمان!!

نعم.. هناك من يغالون فى تفسير هذا التراث.

ومع ذلك فهو (موجود)، وهناك ـ بسبب هذا الوجود ـ نوعا من الديالكتيك (الجدل) بين الحاضر والماضى.. والأدب والفن هما ساحة مثالية لوجود هذا الجدل.

إن رواية واحدة قد تختصر أطنانا من الورق والحبر، يسطر فيها المؤرخ أو الأكاديمى علمه التاريخى والسياسى.

وهى تفعل ـ هذا ـ عبر الحدس الموجود عند الفنان، وعبر حواره مع الحاضر والماضى، ومحاولته الإجابة على أسئلة المستقبل.

ثلاثية نجيب محفوظ، أغنت الناس عن قراءة موسوعات تاريخية وسياسية كاملة.

وكذلك أرى فى قراءة بلزاك استغناء عن قراءة الكثير من كتب التاريخ. وبصراحة، فأنا لم أفهم فرنسا المعاصرة إلا بعد أن تعمقت فى قراءة بلزاك!

الجانب الإبداعى فى الأمة مهم جدا، ولعلنا فى العالم العربى ـ إلى الآن ـ لم نفهم تماما قيمة هذا الإبداع.

● سأستعيدك ـ الآن ـ إلى نص السؤال مرة أخرى، لإكرر أن التعرض للتراث يسحبنا ـ أحيانا ـ للمواجهة معه فى أثناء رفضنا للسلفية. كما أن انجرافنا إلى التأثر بالغرب، أو التفاعل مع الغرب، أو الانجذاب إلى الغرب، يدفعنا إلى زوال السيادة الثقافية.. هل تؤمن بمثل هذه المقولات؟

○ فى هذه المقولات جانب صحيح لا ينكر.

نحن نرفض التطرف فى السلفية، بفهمنا نحن للتراث، وليس بمواجهة المتطرفين بشىء غير موجود.

النصوص المقدسة، تتعرض ـ أحيانا ـ لأن يفسرها الناس بطرق مختلفة، قد لا تمثلها!

ونحن نعلم أن هناك أناس برروا القتل والإرهاب باسم القرآن الكريم، وهذا خطأ تماما.

يجب أن نواجههم بهذه الحقيقة، ونقول: إن آيات القرآن الكريم تنكر هذا النهج نكرانا شديدا، فمن أين أتيتم بفكرة الدمار والقتل والإرهاب، وتصورتم أنها وسيلة مشروعة لإقامة مجتمع فاضل؟!

هذا قياس منطقى مرتبك وفاشل تماما، يقوم على أن المجتمع الفاضل، يمكن أن يولد وينمو، عبر كل هذه الشرور والآثام التى يرتكبها التطرف.

وتحضرنى ـ فى هذا السياق ـ مقولة لزياد بن أبى سفيان، أو زياد بن أبيه، عندما عين واليا على أهل الكوفة، فقال لهم: «والله لنخوض إليكم الباطل خوضا، حتى نصل إلى الحق فيكم».

هذه الجملة تعبير بليغ جدا عن الاستبداد، ولعل التطرف قد وجد ضالته

المنشودة فيها. . وقد كان عبد الملك بن مروان هو أستاذ هذه السياسة، إذ كان هذا الخليفة يبرر أى شىء فى سبيل تدعيم المُلك، هذا ـ بالضبط ـ مثل التطرف يبرر أى شىء فى سبيل الوصول إلى المُلك.

● وماذا فيما يتعلق بالغربنة Westernization ، وعلاقتها بزوال السيادة؟

○ لقد جعلنا من قضية الغربنة مشكلة.

وإذا نظرنا ـ مثلا ـ كيف تعامل اليابانيون مع هذه القضية، سنجد أنهم لم يأخذوا ما يسمى الصفقة على بعضها (Pacage Deal) من الأمريكيين، وإنما أخذوا ما يناسبهم فقط.

التكنولوچيا هى معرفة إنسانية تراكمية وعلمية.

اليابانيون، والإنجليز، والفرنسيون، والأمريكان. . استفادوا منها، وأضافوا اختراعاتهم الجديدة، ونحن ـ أيضا ـ استفدنا منها، ولكننا نسينا.

حدث انقطاع فى ذهننا، وفى تاريخنا، وفى مساهمتنا الإنسانية، وأصبحنا ننظر إلى كل شىء وكأنه هابط علينا من السماء، بالإضافة ـ طبعا ـ إلى إحساس عميق بالدونية.

نحن مساهمون فى الحضارة المعاصرة، وإذا رجعنا إلى تاريخنا، سنجد إسهامنا واضح. . فى العلوم، والفلسفات، والرياضيات. . وكل هذا.

لقد ساهم العرب فى النهضة وعصر الإحياء الأوروبيين مساهمة كبيرة جدا، ولكننا نسينا كل هذا، وأصبحنا متلقين ومستهلكين فحسب.

وهنا، فإن من الأشياء المهمة جدا، التى يفعلها الفن والأدب إيقاظ الذاكرة الجماعية للأمة.

لابد أن تتذكر الأمة أنها ليست بهذه الدونية أو بهذا التأخر، وأنها ـ بالقطع ـ

صاحبه اكتشافات، ومغامرات علمية، ووجدانية وذهنية!

نزوع!

- **«حديثك ممتع فيه فطنة وذكاء»، على رأى شكسبير، ولكن ما تحدثت عنه فى شأن السلفية، وما تحدثت عنه فى شأن المتغربنين، كان ـ فى حقيقته ـ حديثا عن التطرف.**

ليست ـ بالضرورة ـ هذه الصورة الذهنية النمطية للتطرف الدينى (إسلاميا ـ كان ـ أوغير إسلامى)، ولكنها قد تكون مجرد الارتكان العصبى إلى مقولات قديمة، حتى لو كانت هذه المقولات القديمة، تنتمى إلى نصوص ليست مقدسة ـ بطبيعتها ـ (نصوص أيديولوچية مثلا).. العودة إليها، والخضوع لمرجعياتها فيه نزوع للسلفية، ونزوع للحديث عن الماضى والحنين إليه.. وأخشى ما أخشاه أن يكون ما تحدثت عنه ـ الآن ـ عن (تذكير الناس بالماضى) هو التصاق بمشروع سلفى، حتى وإن لم يكن دينيا.. ما رأيك؟

○ لا.. لا.

عندما توقظ ذاكرة الناس بشأن الجوانب المضيئة والإيجابية فى حضارتنا، فأنت لست سلفيا.

أنا أريد إذكاء وإفشاء حالة حوار بيننا وبين ماضينا.

حتى هذا الماضى، لم يكن وحدة واحدة، وإنما كان يموج بحوارات كثيرة، ونحن نعلم أن ابن رشد فى الأندلس دخل فى صراع مع الفقهاء، على حين كان هو نفسه فقيها.

والحوار مع هذا الماضى، قد يكون خلقا لحالة وصل مع تلك التعددية التى كانت موجودة فى بعض جوانبه، وقد يكون إعادة إنتاج للمواجهة مع الإرهاب.

الإرهاب ليس فقط ماديا بالذبح وبالدماء، ولكن الإرهاب قد يكون فكريا ـ كذلك.

هناك من يخيفون الآخرين عن أن يقولوا ما يظنون أنه الحق.. لابد من إيجاد مناخ، يقول فيه كل إنسان رأيه بأمانة، حتى نصل إلى كلمة سواء، وإلا سوف يجيء فصيل ما، أو زمرة ما، ويفرضوا علينا وجهة نظرهم، فى حين هى ليست أكثر من (وجهة نظر).

وعلى سبيل المثال.. لا يوجد شيء يجعل الدكتور حسن الترابى أفضل من العبد الفقير إلى الله تعالى الطيب صالح.

لدى اجتهادات مثله!

قرأت الكتب التى قرأها.

بل وهناك فى السودان ناس أفضل منى كثير، ولديهم وجهات نظر جديرة بالاحترام.. فكيف يأتى واحد لديه وجهة نظر معينة، ويشهر السيف، ويقول للناس: «والله لنخوض إليكم الباطل خوضا حتى نصل إلى الحق فيكم»، مثلما قال زياد بن أبيه، ومثلما أرسى عبد الملك بن مروان قواعد هذه المدرسة السياسية.

ربما يكون الترابى أذكى من أن يقول هذا علانية، ولكنه ـ فى النهاية ـ ينفذه على الأرض.

نقلة!

- **أستاذ طيب.. ما سأطرحه عليك ـ الآن ـ ليس نقلة بعيدة عن موضوع حرج، فسوف نعود إليه حالا، ولكننى أراه ملتصقا بموضوع الثقافة البديلة، التى ـ نظريا ـ ستواجه التطرف.**

إذ يبدو مشروع القراءة أو الكتابة فى أزمة حقيقية مع سيادة عصر ثقافة التليفزيون.. ما رأيك؟

O صحيح، هذه الوسائل الجماهيرية، والتى يسمونها الحديثة ـ خصوصا التليفزيون، ألهت الناس عن الاستمتاع بالكتاب، والاستمتاع بالموسيقى، وحتى الاستمتاع بالكلام أو بالحوار.

نحن نشأنا، وشخصياتنا تبلورت، فى زمن ليس فيه تليفزيون، وحتى لم تكن هناك إذاعة، فكنا نحب القراءة، ونسعى بمجهود كبير حتى نحصل على الكتاب، وكنا نستمتع بالجلوس إلى العلماء، ونستمع إلى أساتذتنا.

كان هناك نوع من الهدوء الوجدانى.

الوسائل التى يقال عنها الحديثة، شوّشت وجدان الناس.

الفرد العربى ـ الآن ـ غير قادر على التركيز من فرط ما يتعرض له من تشويش تليفزيونى!

لابد أن نعود فى عالمنا العربى إلى إذكاء حالة احترام للكلمة المكتوبة، وهى موجودة بالفعل.

وقد فرحت فى العام الماضى، عندما أعيد نشر رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» فى سلسلة كتاب الأسرة، حيث نفدت مائة ألف نسخة، فى أقل من أسبوع.

صحيح كانت النسخة رخيصة وسعرها جنيه واحد، ولكن الظاهرة أبانت أن الناس يحبون القراءة، ومن ثم يجب أن نفكر جديا فى تحويل أنظار الناس عن الأدوات الإعلامية التى تقوم بالتشويش عليهم.

وأحب أن نقول: إن هذا يحصل ـ أيضا ـ بأن الوسائل مثل: التليفزيون، والقنوات الفضائية لا تترك هملا، وإلا تمكنت ـ عبر مداخلها واقتراباتها الحالية التى لا تخدم الثقافة فى شىء ـ أن تنتج بشرا غير قادر على التفكير، وغير قادر على اتخاذ أية قرارات، وهذا شىء خطير جدا يجب أن ننتبه إليه.

● نعود إلى ما أجلناه مرتين على أجنده هذا الحوار، المرة الأولى عندما كنا نتكلم عن القضايا الكبرى، والأسئلة الكبرى التى يثيرها

الأدب، والمرة الثانية عندما كنا نتكلم عن المواجهة مع السلفية، والمواجهة مع الغربنة.. وهما قضيتان مهمتان.

فى تصورك.. هل يؤدى هذا الإسهام والتراكم الذى تقوم به وسائل الإعلام الإليكترونية عبر الأطباق والكوابل، وبتفاهة وسطحية مضمونة، إلى تجفيف منابع هذه الأسئلة الكبرى.. أم أن هذا الخفوت لصوت الأسئلة الكبرى والإجابات الكبرى يرتبط بمدى الحيوية الاجتماعية والثقافية الجماعية فى العالم العربى؟

○ هل يمكن أن توضح لى ما تقصده (بالتجفيف)؟

● **الفكر المسير لأدوات الإعلام الإليكترونية، والإعلام الفضائى، قليل الاهتمام بما هو جاد، وأصبحت هذه الأدوات، هى أدوات تستخدم فى «سياسة» الناس وإلهائهم، كما كان الرومان يسوسون الناس بإلهائهم بالخبز والسيرك!!**

○ أنا معك فى هذا.

والأخطر أن مثل هذه الوسائل، تخلق نوعا من الإحساس بالبلبلة والحيرة، وعدم السكينة أو الاطمئنان.

ولذلك يكون الجمهور قد أصبح مهيأ لقبول آراء متطرفة!

التطرف ينجح عند الحائرين.

إذ يأتى التطرف حاملا مقولات ومواقف تبدو حاسمة وقاطعة (بغض النظر عن خطئها)، فيظن الناس أن هذا ما يحتاجون الارتباط به، وخاصة أن التليفزيون يخلق منهم كائنات متخبطة مشوشة بين الإعلان الزاعق، والسطحية، والاستعانة بكوادر بعيدة عن الثقافة العميقة، والإدراك الدارس.

وفى هذا الإطار، فإن إعطاء المعلومات الصحيحة إلى الناس، يجب أن تكون أولوية أولى لدى هذه الجهات الإعلامية.

إعطاء المعلومات الصحيحة ليس خطرا على الدولة، بل هو يرسخ دعائم الدولة؛ ثم إن تحصين المواطن فوق ذلك بمعارف محترمة عن التاريخ والثقافة، يساعد على أن يوازن بين الأشياء، ويكون له رأيه، وليس ـ فقط ـ أن يستمع إلى رأى متطرف ويسير وراءه.

أقول هذا وقد عملت لزمن فى اللجنة الدائمة للإعلام، التابعة للجامعة العربية.

ودرسنا كثيرا، وتكلمنا كثيرا فى وظيفة وسائل الاتصال الثقافية، وحتى القنوات العربية الفضائية، والقمر الصناعى العربى، وأجمعنا على أن يُعد له إعدادا صحيحا، ويستغل استغلالا صحيحا، ولكن للأسف فإن ذلك لم يحدث.

الفضاء العربى ملىء بأشياء، على أحسن الفروض تشوّش عقل المواطن، وعلى أسوأ الفروض تثبت فى ذهنة سموم قاتلة!!

المدينة!

● **فما هى القضايا الكبرى التى يثيرها ـ إذن ـ الأدب المكتوب، فى مواجهة هذه القضايا الفارغة التى يثيرها الإعلام الإليكترونى؟**

○ الأدب المكتوب يثير جميع هذه القضايا التى تحدثنا عنها بطريقته، وإذا انتبه الناس إلى الكتب وقرأوها بإمعان فسوف يجدوا فيها أشياء كثيرة.

● **وماذا وجدت حضرتك من قضايا كبرى ـ فى السنوات الأخيرة ـ أثارها الأدب العربى؟**

○ فيما أكتب ـ شخصيا ـ أكتب منذ فترة ليست قصيرة فيما يمكن تسميته (المدينة)، بمعنى إنشاء المدن بالمعنى الصحيح، والعيش فى إطارها، ليس بمعنى مجرد تجمع من الناس يقيمون فى مكان، ولكن بمنطق وجود فكر وراء هذه المدينة، التى يجب أن تكون ـ فى نهاية الأمر ـ رمزا مستمرا لطموحات الأمة ومثلها العليا.

● صديقك، وصديقى عبد الرحمن الأبنودى، وصف لى مرة مشهد المدينة ليلا فقال: «صوت الأنين الصادر من هذه المدينة عال يا خال»!.. هل تعتقد أن ما يصدر من المدن العربية الآن هو ـ فقط ـ هذا الأنين الذى يصدم القلب ويشرخ الصدر؟.

○ نعم هذا وصف دقيق للمدينة العربية الآن.

ولكن إثارتى لسؤال المدينة العربية لا يقف عند قواعد الإنشاء، وطرائق العيش، وإنما يمتد لمناقشة قضية الحكم، إذ عندما تقيم المدينة يجب أن تعرف ما هو نوع الحاكم الذى سيحكم هذه المدينة، وما هى علاقة هذا الحاكم ببقية الشعب.

فكر الانقلاب مثلا، يخلق شكلا آخر للمدينة ولمعاملات الارتباط بين ناسها، التى تجعلهم مختلفين جدا عن نظرائهم فى ظل فكر الاستقرار والاستمرارية.

● تتكلم عن المدينة، وكأنها الجمهورية، أو كأنها المدينة الفاضلة.. أليس كذلك؟

○ إذا كانت فاضلة فهذا جيد جدا، ولكن المهم أن نقترب من أن تكون فاضلة بقدر الإمكان، وربما تكون هذه ساحة من ساحات العودة إلى التراث، إذ يطرح بعض السلفيين العودة إلى نمط المدينة المنورة..

ياريت يعيدوا نمط المدينة المنورة!

● تقصد.. أو يقصدون النمط الأخلاقى، إنما تحميل هذا النمط الأخلاقى بما ليس فيه من نظريات سياسية وطرائق معقدة للحكم.. فهذا موضوع آخر.

○ هذا صحيح. لكن الأدب عندنا مثل أشياء كثيرة، ليس حلقة ضمن حلقات مترابطة فى حياة الأمة.

وهذه التفرقة التى تطرحها، لا يمكن أن تظهر وتتضح إلا من خلال حالة حوار، ومن خلال تبادل الوسائل مناقشة القضية الواحدة من زوايا مختلفة.

فى بريطانيا - مثلا - عندما يظهر عمل كبير، تجد القواعد أو التيار العام Main stream قد استوعبته وشاركت فيه نتيجة تبادل الاقتراب منه عبر الوسائل المختلفة، بحيث تشارك البنت الصغيرة - مثلا - فى مناقشة أفكار جراهام جرين.

ومن هنا، حين أطرح فكرة المدينة، فأنا أقصد أن تشارك فيها التيارات المختلفة والوسائل المختلفة، عبر حالة حوار محتدمة وصاخبة.

● تواصلت دوائر الحوار هنا فى بريطانيا حول قضايا حساسة مثل ما أثاره الكسندر فريدمان وآبى چورچ ليمايتر فى العشرينيات وطوره چورچ جامو فى الأربعينيات تحت عنوان: Big Bang، أو نظرية الانفجار العظيم وكيف ظهر الكون، وهى - بطبيعتها أمر يفترض وجود حواجز وحوائل تمنع الاقتراب منه ببساطة. ما الذى يخلق هذه الحالة؟

○ الحوار الفكرى عندنا يأخذ شكل واحات منفصلة، ويسير كل خط وحده، وإذا لم تترابط هذه الخطوط فلا يمكن أن نقيم تقدما أو حضارة.

- ١٩٩٨ -

❑ ❑ ❑



الطيب صالح فى حوار على حافة السلفية والتحريض والعولمة.. والسخرية:

(٢) موسم الهجرة إلى التراث!

(حتمية الكتابة!)

- عندنا تراث صناعى.. نسيناه!
- التقدم ينمو، حيث ينمو مناخ التقدم!
- الحكومة فى الخرطوم لا تدرك حجم تبديد الطاقات، الذى تتسبب فيه وهى لا تفهم مهمة الحكومة أصلا!!
- أنا لست أديب العمل الواحد.. ولا أؤمن بثرثرة الغزارة!
- لا تتناولونى (كأنا).. ولكن خذونى (كتيار)!
- أنا جزء من السيمفونية الإبداعية العربية!
- لا يوجد نظام عالمى جديد، ولا توجد سوبر باور واحدة، وأمريكا نفسها ليست شيئا واحدا، حتى توصف بهذا الوصف.
- لا أشغل نفسى بالنقد مهما زعل علينا البعض!

- النقد الجيد هو إبداع مواز للعمل الأدبى وليس مكملا له.
- حضرت مؤتمرا عن الحدا ثاوية، فلم أفهم شيئا!
- فوكو ولاكان وبارت يلعبون بالأفكار طبقا لتركيبة حضارتهم ومصيبتنا أننا أخذنا لعبهم جَدا!!
- ننيخ مثل الجمل إلى جوار إبداعات العالم!
- على المبدعين العرب أن ينتجوا ليملأوا الفراغات التى تنفذ منها سيطرة أفكار لا تخص بناءنا الحضارى فى شىء!
- لا يراودنى شك فى أن القاهرة هى عاصمة الثقافة العربية!
- كون مصر هى المركز فى الثقافة وغيرها لا يعنى أن المصريين فقط هم المبدعين!
- الأبنودى شاعر بالمعنى المطلق للكلمة، ولا يمكن تسكينه فى خانة (العامية)!

وفى هذه الحلقة من حوار الطيب صالح الأديب السودانى. . العربى الكبير، والذى جرت وقائعه فى نادى السيارات الملكى فى العاصمة البريطانية. . خضنا معا إشكاليات الإبداع وتقنياته، فكان حوارا فى فلسفة الكتابة، التى لخصها الطيب واختزلها فى كلمة/ حكمة هى: (حتمية الكتابة).

وعبر هذه الحتمية راح يطرح فى بساطة هائلة، وجم تواضع، حدود رأيه ورؤيته، حدود نظرته ونظريته!

فقط ـ ربما أستميحكم عذرا ـ فى استخدامنا بعض الكلمات الإنجليزية، التى رأيت أن أبقى بعضها، لدلالاته على طريقة تفكير الكاتب بعد غربة طويلة، وهى قضية احتلت مكانا بارزا فى هذه الشهادة الحوارية المكتوبة.

وهنا نص الجزء الثانى من الحوار:

● **طالما ذكرت ـ يا طيب ـ موضوع المدينة، وطالما ذكرت هذه الخيوط والواحات التى تسير بالتوالى أو بالتوازى، من دون أن تعشق بعضها مع بعض أو تتداخل، ألا ترى أن هذا التركيب أو التعقيد هو من سمات المجتمع الصناعى؟.. كيف تتحدث عنه فى مجتمعات تحت الصناعة بحكم التعريف؟**

○ معك حق إلى حد ما.

ولكن أود أن ألفتك إلى أن لدينا تراثا صناعيا، فأنتم فى مصر عندكم تاريخ من التطور الكبير فى صناعة المنسوجات، وصناعة الزجاج.

وحتى فى صناعة السينما. . لقد بدأتم مع هوليوود تقريبا فى نفس الوقت.

فى السودان كان عندنا مروى فى المملكة القديمة، وكان فيها مركز لاستخراج الحديد يغذى إفريقيا كلها، وهى موجود حتى الآن، ولكننا نسينا كل هذا.

وفى العراق وفى سوريا، كانت هناك صناعات متقدمة.

وإذا قمنا بالارتداد إلى الماضى مرة أخرى، سنجد أن المسلمين (بعد هزيمة بيزنطة) أخذوا كل التطورات العلمية منها، كما فعلوا ـ بالضبط ـ حين هزموا الفرس.

ولكن ما حدث ـ بعد ذلك ـ معروف، ولا يمكن وصفه إلا بالانقطاع، ونحن ـ الآن ـ نحاول أن نصحو، أو بمعنى آخر كنا نياما، والآن نريد أن نستيقظ.

وعندما قلت إن الأدب يوقظ الذاكرة فقد كنت أعنيها بالفعل، لأنها ستدلنا على مناطق فى تاريخنا تشكل أساس الانتقال لعصر الصناعة.

الصناعة هى التى ستجعل مجتمعنا يسير على أسس عقلانية.

وفى هذا السياق، أرجو ألا ننشغل كثيرا بالغرب، بمقدار ما ننشغل بتراثنا وتاريخنا.

فهؤلاء الناس مروا بظروف أسوأ مما مررنا به، وأنت تعلم أنه كانت عندهم حروب دينية استمرت ثلاثين سنة.

وفى اعتقادى أن أوروبا لم تبدأ فى التنمية الحقيقية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، ولو أخذنا مثلا كألمانيا، سنجد أنها بدأت ـ تقريبا ـ من الصفر بعد عام ١٩٤٥، فقد دُمرت المدن ـ تماما ـ كما تعلم، لقد بدأوا وقتها، وهى نفس اللحظة، التى بدأنا نستيقظ فيها، فإذا فهمنا بأننا مثل بقية البشر نستطيع أن نفكر ونبدع ونخترع، فلن نشعر بالدونية أو العجز عن القيام بمثل ما قاموا به، وبخاصة إن ما ترسخ فى يقيننا أننا استطعناه ـ بالفعل ـ من قبل.

التقدم ينمو حيث ينمو مناخ التقدم!

ينبغ عندنا عالم ذَرة أو طبيب، فلا يجد له مكانا فى بلادنا، حتى يأخذوه فى الخارج.

عندما تجىء حكومة وتجلس على مقاعد السلطة فى الخرطوم، وهى لا تدرك الضياع والتبديد لهذه الطاقات، وفرحانة بنفسها لأن لديها علم، ونشيد، ووزارة خارجية، ويزورها سفراء، ولديها جيش. فهذه الحكومة ـ فى تقديرى المتواضع ـ لاتفهم مهمة الحكومة.

الأدب!

● هذا ـ بالضبط ـ نمط القضايا الكبيرة والأسئلة الكبيرة، التى يثيرها الأدب وهى الفكرة الحاكمة التى بدأت بها هذا الحوار.. وأنا أعود ـ الآن ـ إلى التنويع على هذه النغمة، التى وضعتها على النوتة الموسيقية لحوارنا معا.

فأقول: إن هذا التأثير الذى يحدثه الأدب بإثارته للقضايا الكبيرة، والأسئلة الكبيرة، مرتبط بعاملين.. (عامل الكيف الإبداعى.. ومرتبط بعامل الكم الإبداعى أيضا).. وعلى ضوء هذا الطرح، ما رأيك فى المقولة النقدية المزمنة التى تطرح بشأن أدبك، حين يقال إنك أديب العمل الواحد الذى يبدو معجزة كبيضة الديك؟.. هل توافق على معيار الغزارة أو معيار الكم حين نكون بصدد تقويم النتاج الأدبى والفكرى للمبدع؟

○ أولا: أنا لست أديب العمل الواحد. . ولقد كتبت أربع روايات، وكل عمل منها، طرح وجهة نظر كبيرة للناس كيما يفكروا فيها.

ثانيا: أنا لا أؤمن بثرثرة الغزارة، أو بأن هذه الغزارة هى ـ بالضرورة ـ المقياس حين نكون بصدد تقييم عمل أدبى، وأنت تعلم ـ لأنك رجل مثقف وقارئ ـ أن بعض الكتّاب فى الأدب العالمى، كتبوا كتابا واحدا، وانتهى أمرهم بعد ذلك!

ثالثا: نحن ـ دائما ـ نفكر بطريقة فردية.

لا تتناولنى (كأنا). . ولكن تناولنى (كجزء من تيار)، خذنى كجزء من مجموعة كبيرة تنتج.

المهم أن يكون لدينا تيار، وليس فردا مهما بلغ من العبقرية.

عشرة.. مائة.. ألف يشتغلون، أصوات فى سيمفونية، وأنا جزء من هذه السيمفونية العربية.

لا أشعر بالتقصير تجاه قارئ، ولا تحتل قضية أن أنتج عشرة أو خمسة عشر عملا أهمية كبيرة عندى.

أنا أفرح جدا، عندنا يجىء كاتب من سوريا، أو تونس، أو العراق، أو المغرب، أو مصر ـ بالضرورة ـ ويقول ما كنت أريد أن أقوله، وأرى أن فى هذا الكفاية!!

جماعة!

● أتريدنى ـ إذن ـ أن أنظر إلى أدبك فى إطار الجماعة، وليس فى إطار الفرد؟

○ أى نعم!

● حاضر..!

نحن ـ يا طيب ـ فى عالم يدعى أن له سيدا واحدا.. كيف ترى حدود القسمة فى هذا العالم، هل أصبح الأدب والإبداع من (نصيبنا) أو من (نصيبهم).. وهل أصبحنا عبيد الزمن الجديد ننتج مشغولات فكرية وأدبية، من أجل أن يضحك الملك ويُسرى عنه؟

○ إذا كنت تقصد حكاية النظام العالمى الجديد، والقوة العظمى الوحيدة. فأنا أؤكد أنه لا يوجد نظام عالمى جديد، كما لا توجد سوبر باور وحيدة، وأنت تعلم هذا.

توجد مظاهر قوة وقتية، ونحن نعلم من تاريخ الإنسانية الطويل أن قوى كثيرة وردت على البشرية، وزعمت كل منها أنها الوحيدة.

حتى العرب كانوا فى يوم من الأيام، سوبر باور.

وكل هذه موجات زائلة، ويجب ألا نتهيبها.

أمريكا نفسها شيء واحد، حتى يتصور البعض أنها سوبر باور واحدة!

هل يمكن أن تدلنى أين موقع الأمريكى الأسود فى هارلم، أو المهاجر المكسيكى، أو الهندى الأحمر الذى تحول إلى لاجئ فى بناء هذه القوة العظمى؟!

القوة العظمى، توجد فى واشنطن فقط،وتتمثل فى النخبة الحاكمة-Rullig El-lite

وميكانيكية التاريخ ـ أكيد ـ لا تقبل سيطرة سيد واحد، . . هؤلاء ليسوا ملائكة نزلوا من السماء، ولكنهم بشر مثلنا، ونحن يجب أن نزداد ثقة بأنفسنا، ونعزز قوانا الذاتية، وننتج، ونعمل مثلنا مثل غيرنا.

حداثاوية!

● سأعاود النظر إليك فى إطار الجماعة الثقافية.. كما طلبت، وأسألك عن ساحة النقد العربى، التى يخيل لى أنها تحتاج إلى تأمل طويل، فقد أصبحت من وجهة نظرى ساحة لإنتاج الضجيج، وغابت فيها المعايير بشكل واضح، بحيث أصبحت السمة الغالبة عليها هى تسييد المعايير السياسية، والأيديولوجية، بأكثر من تغليب المعايير الفنية والإبداعية، فصار كتّاب التيار يكتبون لنقاد نفس التيار، ثم صار نقاد التيار يكتبون عن كتّاب نفس التيار وهكذا.. كيف ترى ساحة النقد العربى الآن؟

○ أنا لا أعيش ـ بصفة مستديمة ـ فى العالم العربى، فلا أستطيع أن أحكم على الاتجاهات العامة للنقد العربى.

وفى الأصل، فإننى منذ زمن بعيد لا أشغل نفسى بالنقد، وبعض الناس يزعلون علينا بسبب هذا الرأى.

أنا لا أتصور أن أقرأ لناقد، ثم أكتب معدلا، أو مغيرا طريقة كتابتى، لأنه أعطانى نصائح!!

لايوجد كاتب يفعل هذا أبدا.

حتمية الكتابة، هى كل تركيبتك الذهنية والوجدانية، واتجاهاتك، ومدى موهبتك.

وعندما تكتب، فأنت ـ بالقطع ـ لا تفكر فى أن الدكتور فلان قال كذا أو كيت.

ولكن عندما يكون النقد جيدا، فهو إبداع مواز للعمل الأدبى، وليس مكملا له.

ولذلك أنت تستطيع أن تقرأ مقالا نقديا كما تقرأ رواية، لأنه جميل، وفيه فكر، وهذا معروف فى ساحة النقاد الإنجليز كما تعرف.

أنت تقرأ للواحد فيهم، بوصفه مبدعا، أمامك كولاريدج، وهارليت وليفز كأمثلة على ذلك.

ولذلك أن لا أشغل نفسى بالنقد فى ذاته، ولكنى أقرأ ما تقع يدى عليه للمتعة، وإذا وجدت ناقدا ظننت أنه متحيز أو مجحف فى حقى، فهو حر.

● **سأعيد تذكيرك بمدخل سؤالى، الذى كان عن مدى تأثير الحالة النقدية الراهنة، فى العالم العربى على الإبداع الجديد، هذا ما بدأنا به فى هذا الإطار، وهذا ما ننتهى به، كدائرة آخرها يسلمك إلى أولها.**

○ كما يجب على الأديب أن يهتم بالأسئلة الكبرى، فإن الناقد والأكاديمى، والمخرج السينمائى، ومعد برنامج الراديو أو التليفزيون.. يجب أن يهتم ـ كذلك ـ بهذه الأسئلة الكبرى.

الاهتمام بالأشياء المعقدة يقدم نتائج غاية فى الأهمية.

ولكى نكون منصفين، فإنه من حسن الحظ، يوجد نقاد مخلصون وأمناء ومدركون.

ولقد أفرحنى - شخصيا - أن اهتم بى فى مصر نقاد يكتبون فى الصحف مثل: صديقنا الأستاذ رجاء النقاش، أو أكاديميين مثل: الدكتور على الراعى، والدكتور عبد القادر القط، وهذا معناه أن هؤلاء الناس مهتمين.. كل هذا حدث وأنا أعيش بعيدا، والمفترض غير معروف،، وهذه ظاهرة إيجابية للغاية.

● يا أستاذ طيب هؤلاء مترافقين أو مجاورين للحالة الإبداعية التى تمثلها، ويمثلها جيلك، ولكننى أتحدث عن نقد جديد، يتعامل مع إبداع جديد.

○ هذه قضية ثانية.

● بل هى قضية أولى فى تصورى؟

○ قضية أولى، ولكننى لست ملما بحيثياتها!

● هل تريد الهروب من الإجابة؟

○ لا والله.. أنا أقرأ أحيانا أن هناك نقادا يروجون لنوع معين من الأدب!!

دعنى أقولها لك بصراحة أكبر. هناك - مثلا - الحساسية الجديدة، والحداثة، وما بعد الحداثة، التى أصبح لها مبدعيها، كما أصبح لها نقادها.. والتوكيل التجارى لا يخرج عن الطرفين.

هذا هو التيار الموازى، وليس ما وصفته من لحظات عن أن النقد هو إبداع مواز.. إذ إننى أظن أن هناك (حالة إبداع جديدة + حالة نقد جديدة) موازية (لحالة النقد التقليدية + حالة الإبداع التقليدية)!

○ هذه ظاهرة المفروض أن ندرسها، وأنا شخصيا، حضرت ندوة منذ ثلاث سنوات فى مراكش، وكانت كلها عن الحداثة، والحداثاوية، وحقيقة كان بعض الأخوة وفيهم أساتذة كبار، كانوا يقولون كلاما أنا لم أفهمه، فرجعت إلى بعض المصادر باللغة الإنجليزية للناس الذين يهتمون بهم، فى إطار الحداثة مثل: فوكو، وبارت، ولاكان، فلقيت أن هؤلاء المفكرين الفرنسيين فى الغالب، لهم تركيبة حضارية يستهويها اللعب بالأفكار، فيخترعون شيئا ويلعبون به، ثم يتركونه! وبالطبع لا يوجد شىء كهذا عندنا، من حيث المرونه الفكرية، وبالتالى فقد أخذنا لعب بعضهم على أنه جد!!

أو بعبارة أخرى، ليس عندنا معنى اللهو الإبداعى العقلى، وبحيث أصبح استقبالنا لمرونة الآخرين ولهوهم على أنه عقيدة فكرية أو إبداعية ينبغى تبنيها!!

ننيخ كما ينيخ الجمل إلى جوار إبداعات العالم.

وقد أصبحوا ـ بالنسبة لنا ـ أو بطريقتنا فى فهمهم، جحيما، مثلما كان جان بول سارتر يردد: (الجحيم هو الآخرون).

● هل تعتقد أنه نزوع نحو الاكتئاب أكثر من أى شىء آخر؟

○ معك حق.. حيث يوجد عنصر دينى كبير جدا، عند الفلاسفة الحداثاويين الفرنسيين، فهم يبحثون مشكلة أن واحدا كاثوليكيا ـ مثلا ـ تحول إلى مذهب آخر أو أن أحدهم ترك دينه.

هذا لا يخصنا فى شىء.

إذا كانت الأمة ليست حية أو متحركة أو منتجة، تكون عرضة لأى أفكار تأتيها من الخارج، ولا تكون فى وضع التسلح فى مواجهتها بمقاييسها أو معاييرها الخاصة.

عندنا شباب مندهشون بالأفكار الجديدة، لأنها تبدو لهم جذابة. ومن هنا يجب على الكتّاب والمبدعين العرب أن ينتجوا لكى يملأوا الفراغات التى تسيطر منها هذه الأفكار التى لا تخصنا فى شىء.

حتى الأرض، التى نعيش عليها من آلاف السنين، افترضنا أنها قد صفت لنا، كما يقول العرب، وأنه لا يوجد من يستطيع أن يأخذها منا.

ولكننا نعلم أن الكوكب ـ الآن ـ أصبح صغيرا جدا، والعالم يزيد بملايين البشر.. عندك ـ الآن ـ الهند وصلت مليار، والصين وصلت مليار ومائتى مليون، على حين نحن كل تعدادنا وصل إلى ٢٢٠ مليون من العرب نعيش فى مساحة شاسعة، فإذا تصورنا أن هذه الجموع من البشر سوف تتركنا فى حالنا، فنحن مخطئون.

هناك من سوف ينازعنا..

وزهير قبل ألفى سنة قال: (ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم).

لابد أن نحمى حياضنا بسلاحنا، وبطريقة إيجابية، وإلا سنؤكل.

● **وفى إطار النظر إليك داخل جماعة، فإن من الملاحظات على الساحة العربية الثقافية فى اللحظة الراهنة، أن هناك قدرا لا بأس به من الضغط والتضاغط فى هذه الساحة، والتنابذ بالألقاب، والتدافع بالأكتاف حول موضوعات أصبحت كوميدية جدا مثل: (أى العواصم العربية هى عاصمة الثقافة فى العالم العربى؟).. فى تصورك هل لهذا الجدل أساس؟**

○ هذا الجدل لا قيمة له إطلاقا.

وبالمناسبة، فإن هذا التعبير ظهر لأن اليونسكو، ابتدعت تقليدا باختيار إحدى العواصم كعاصمة ثقافية للعالم.

ولكن ـ من دون أية مجاملة للمصريين ـ فأنا لا يراودنى أدنى شك أن القاهرة، هى عاصمة الثقافة فى العالم العربى، ولابد أن نقبل هذا، وألا «نناكف»، إذ إن هذا لا يغض منى كسودانى، أو لبنانى، أو سعودى، أو عراقى.

القاهرة ـ بالتراكمات التى حدثت فيها، هى عاصمة الثقافة فى العالم العربى، وتدعيم هذا المركز هو من مصلحتنا جميعا.

نحن ـ دائما ـ نتحدث عن الوحدة، والوحدة لابد لها من مركز. وإذا كان هناك مركز قائم بالفعل، فلماذا نبحث عن مركز غيره.

ولكن كما أقول لإخواننا المصريين، كونكم ـ أنتم المركز ـ وفى أشياء كثيرة وليس ـ فقط ـ فى الثقافة، فهذا لا يعنى أن المبدعين هم من المصريين فقط!!

وقد قلت مرة لأخ مصرى: «مصر هى الزعيم فى العالم العربى ـ ولكن هذا لا يعنى أنك زعيم علىّ»!!!

مصر دائما كريمة، وتحتفى بالمواهب (أحدهم جاء من شنجيط فى موريتانيا ليصبح إماما للأزهر).

مصر تحسن هذا الدور، ولعبته على أحسن وجه.. طوال تاريخها ونحن نريد أن نعززه ونجعله أكثر ثراء.

ثورة!

● أريد أن أستعيدك ـ يا طيب ـ من العام إلى الخاص، ومن الجماعى إلى الفردى مرة أخرى!

ونحن نعرف أن اللغة كائن حى، ينضج ويتطور ويكبر، هل تشعر بتطور اللغة ـ عندك؟.. وماذا عن تطور الفورم.. هل ترى أنك فى حاجة إلى التمرد أو الثورة على الفورم التقليدى للإبداع الروائى، أو حتى إن هناك ضرورة للتمرد على الشكل الذى أبدعت أنت فيه قبلا؟

○ طبعا، كل من يمارس البيان العربى، هو فى واقع الأمر، يمارس جدلية مستمرة مع اللغة.

اللغة العربية واسعة، وهى من أغنى لغات العالم.

وبالمناسبة، لقد أدركت كم أن اللغة العربية منطقية حين بدأت، أتعلم الفرنسية على كبر، عندما كنت فى اليونسكو فى باريس، ووجدت أن قواعد ونحو اللغة الفرنسية ليس له أى منطق

عندنا فى اللغة العربية تبدأ الكلمة مثل هذا: (كتب ـ يكتب ـ كتابا ـ مكتوبا ـ ومكتبات)، ولكن الفرنسى يبدأ شيئا، وينتهى شيئا آخر!

ولكن الفرنسيين حولوها، رغم صعوباتها إلى لغة جميلة.

وعندنا بعض الناس الذين يستهويهم التغيير فى حد ذاته، أو الضيق بالشىء الذى يملكونه أو يريدون ما فى أيادى الآخرين، يقولون إن النحو العربى صعب، ولابد أن نغير. ونكتب بالحروف اللاتينية.

أقول لهؤلاء اتعبوا قليلا، واعرفوا لغتكم.

نحن ـ أحيانا ـ نحاول أن نوسع الإناء باستمرار، ولكن لابد أن نعرف أنه إذا ضاقت الكلمات عن التعبير، حتى عندى شخصيا، فليس ذلك لأن اللغة عاجزة، ولكن لأننى جاهل باللغة، ولست عالما بها كما يجب، وعندنا تجارب هائلة فى مزج العامى بالفصيح.

ولقد ذكرت عبد الرحمن الأبنودى ـ مثلا ـ منذ دقائق، وهذا يطرح قضية مهمة.

فما يسمى بالشعر العامى عندنا سواء فى مصر أو السودان أو لبنان أو الجزيرة العربية، ستجده مرات أفصح من الشعر الفصيح.

وإذا نظرت إلى شعر الأبنودى أو صلاح جاهين أو فؤاد حداد أو عندنا فى السودان سيد أحمد الحردلو أو الشعر النبطى للأمير خالد الفيصل من السعودية، ستجد أن المعانى هى أقرب لروح الفصحى من بعض القصائد الموزونة المقفاة، التى تكتب هذه الأيام.

لدينا تجارب فى اللغة، ولدينا كنز لغوى كبير، يجب أن ندرك قيمته.

عبد الرحمن الأبنودى شاعر بالمعنى المطلق للكمة، ولا يجب تسكينه فى خانة (العامية)!

وإحساسنا بقيمة هذا الإبداع، وبقيمة لغتنا، إنما يكمن فى رغبة الأمة وعزيمتها على إيجاد حلول.

المبدع مثل رجل السياسة والمؤرخ يريد الوصول إلى حلول وإلى فهم.

● **هذا عن اللغة.. فماذا عن الفورم؟**

○ الفورم ـ فى نهاية المقام ـ يحدد المعنى، ويحدد قدرة الشخص على التعبير، والمبدع يُوسع، ويضيق فى الفورم، حسب قدرته على التعبير.

غربة!

● **فى منطقة ما من هذا الحوار، قلت لى إنك حملت تراثك من السودان إلى هنا.**

أى نعم.. وكيف ترى بعد ذلك تأثير الغربة على أدبك؟ ثم هل نستطيع من الوجهة النقدية أن نفرق بين الغربة المادية بحياتك ـ هنا ـ فى لندن، وبين الغربة المجازية، بينك وبين العصر، بينك وبين موروثك، بينك وبين هذه الترسانة من المفاهيم والأفكار التى حملتها يوما على ظهرك من الخرطوم إلى أوروبا؟

○ فى هذه السن، لم أعد أبالى بشأن قضية البعد عن المكان.

أبو الطيب المتنبى وهو الإكسيلنس (المغترب) الكبير فى تاريخ الإبداع العربى له بيت يعجبنى جدا يقول فيه:

غنى عن الأوطان لا يستخفنى

إلى بلد سافرت عنه غياب

(غنى عن الأوطان)، لأنه أصبح عبارة عن عالم قاتم بذاتة، متحرك.

وأنا لم أبلغ هذه القيمة ـ معاذ الله ـ ولكننى بدأت أحس بعض المعاناة، وفقد الأهل والوطن والأشياء التى ألفتها.

المكان الجغرافى، ليس مهما فى نهاية الأمر، فالاتصالات الحديثة وارتباط العالم ببعضه البعض وتقاربه ألغى هذا.

لو ذهبت وعشت فى الخرطوم، ربما أشعر بالغربة، لأننى لست من الخرطوم، ولكننى من قرية فى شمال السودان.

ومادمت أحمل هذه القرية فى ضميرى، وما دمت قادرا على السفر إليها، والعودة منها.

هنا يوجد من الإنجليز ما يسمى Commuter، وهو الذى يقطن الضواحى، ويعمل فى المدن.

وإذا صح التعبير أنا Commuter من حالة ذهنية إلى أخرى، ومن حالة فى العيش إلى أخرى، وأصبح الوطن ومعناه موجودين فى ذهنى. ومن هنا فإن كونى لا أعيش فيه بجسمى أصبح أقل ألما مما كان زمان.

● هذا عن الابتعاد والاقتراب الجغرافى.. فماذا عن الابتعاد والاغتراب عن العصر؟

○ أنا من الناس الذين يمارسون ـ بلا فخر ـ هذا التنقل بين التراث والفكرة، ومن الممكن أن يستهوينى شاعر صعب، قليل من الأكاديميين يهتمون به مثل ذى الرمه، وقد كتبت عنه كثيرا، بمقدار ما استهوانى مثلا شاعر إنجليزى اسمه «إمبسون»، وممكن أقرأ فى العلوم، وأقرأ فى التاريخ.

القضية قضية وقت، وقضية سن يتقدم.

ياريت يعيش المرء ٣٠٠ عام، حيث توجد أشياء كثيرة لابد للإنسان أن يعرفها.

● إذن أصبحت لك أسئلتك الكبرى، وقضاياك الكبرى التى لها الصفة الكونية، أكثر بكثير من أن تكون لها صفة وطنية أو صفة شخصية.

○ أرجوك..

عندما قلت إن الرواية تطرح الأسئلة الكبرى، أرجو ألا تنسب هذا إلى أدب شخصى الضعيف.. أنا قطرة من هذا البحر.. ترس فى العجلة.. وأعتقد أننا سنصل إن شاء الله إلى طرح هذه الأسئلة الكبرى!

● تصل إن شاء الله،ولكن قطرة فى البحر، أو ترس فى العجلة، لابد أن يتسم بسماتها، ويتكون من نفس مكوناتها.. فهل يعنى هذا أن أسئلتك الذاتية أصبحت أسئلة كونية وليست أسئلة محلية؟

○ حكاية أنها محلية أو كونية هى فكرة قابلة للجدل.

● هل تقبل Commutation أو التنقل بين ما هو محلى، وما هو كونى، كما قبلته بين التراث والمعاصرة؟

○ أنا أقوم بالتنقل بين معارف مختلفة.. ومن جهة أخرى، فمن الجائز أن تجىء معرفة تنسب لنفسها الكونية، فى حين هى محلية، يعنى كل شىء مرتبط بزمان ومكان..

وقد يجىء فيلسوف ويزعم بأنه يخاطب الوجود بمعناه الواسع، وتجده فى نهاية الأمر متأثرا ـ ربما ـ بحياته الشخصية.

الآن يكتبون عن ماركس، ويشيرون إلى أن حياته الخاصة كانت فيها مشكلة، وأن هذا ربما أثر على فكره وكتابته.

وهذا الكلام يغضب الجادين تماما، ويعتبرون أننى أمازح، ولكن الحقيقة أننا لا ندرى ما هو الكونى وما هو غير الكونى.

● لقد تقاسمنا فى هذا الحوار الكثير مما هو مازح، ولكننى أزعم أننا كنا أكثر جدية من معظم هؤلاء الذين يدعونها.. أشكرك ياطيب.

❑ ❑ ❑



د. على الدين هلال:

التعليم موتور التنمية، وثقافة الاعتراف بالآخر هى موتور الديمقراطية!

- ٦٦,٥٪ من شعب مصر ولدوا من عام ١٩٦٥ وحتى اليوم، والشباب ـ بذلك ـ هو أكبر حزب أغلبية على الساحة المصرية!
- أبرز جوانب التناقض فى الرسائل الموجهة من مؤسسات الدولة إلى الشباب يدور حول: (جواز تداول الموضوع السياسى)!!
- تيارات التطرف عملت لفترة من دون منافس بسبب ضعف الحياة السياسية فى مصر!
- كل الأحزاب السياسية فى مصر متواضعة ودورها محدود فى عمليات التنشئة أو التعليم السياسى!
- نحاول من خلال تطوير سياسة ومناهج التعليم فى المرحلتين الابتدائية و الإعدادية، أن نزرع الإيمان بوجود (الآخر) قبل أن نتحدث عن قبول الرأى الآخر!

- لن نكون قادرين على النهضة مهما أوتينا من مال أو تكنولوجيا إلا حين يسرى روح جديد فى عروق الناس يجعلهم يرتبطون بالمستقبل!
- أحزاب المعارضة تهاجم نواقض النظام الديمقراطى الحاكم، فى حين تفتقر ـ تماما ـ إلى الديمقراطية داخلها!
- عين الأحزاب المصرية على كرسى الحكم، وليست على كسب ولاء الشعب وحبه!
- عندما يسجل عهد الرئيس مبارك بعد عشرات السنين، فسوف تكون إحدى الفقرات المضيئة فى تاريخ هذا العهد هى النقله الكيفية المذهلة فى التعليم.
- مصر أرسلت البعثات إلى الخارج لتعليم المدرسين لأول مرة منذ عهد محمد على!
- للمشتاقين نقول: ليست العبرة بالطموح إلى المنصب، ولكن العبرة بالكيفية التى تصلون بها إلى هذه المناصب!!
- بحوث التسويق لصابونة أو زجاجة عطر فى مصر متقدمة جدا، وبحوث الرأى العام ينظر إليها باعتبارها موضوع سياسى

ربما لا يوجد فى جيل الدكتور على الدين هلال، عميد كلية العلوم السياسية والاقتصاد، ومدير مركز البحوث السياسية فى جامعة القاهرة(وقت إجراء الحديث) من يجمع بنفس القدر فى جنبات روحه، وجوانب شخصيته، خصال الخوجة، بيقينه الداخلى عن نبل رسالته، والسياسى بحنكته وإدراكه لعلاقات القوى، وإدارته لحركته فى إطار هذه العلاقات، أو باستعمالها.

بل وربما لا يوجد من يجمع ـ بنفس القدر ـ فى جنبات روحه أو جوانب شخصيته، حكمة الشيوخ، وفوران الشباب فى آن واحد، وبحيث لا يزيد حجم أو وزن أحد العنصرين على الآخر!

لقد كنا نتحدث كثيرا ونحن طلبة، أو حين سلكنا سلك التدريس عن «كاريزما» على الدين هلال، وكنا نضحك كثيرا على بعض زملائنا الذين سقطوا أسرى انبهارهم بشخصيته، فأصحبوا يقلدونه فى كل شىء، من التعبيرات واللزمات الدائمة، إلى طريقة الكلام وحتى طريقة المشى.

ومازلنا ـ حتى اليوم ـ نتهامس ضاحكين على البعض منهم فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية أو فى كلية الإعلام.

وحين دخل د. على الدين هلال إلى ساحة هذا الحوار عبر زيارته لدار الأهرام الجديدة فى لندن، فإنه لم يتخل لحظة واحده عن كل هذه القسمات والسمات التى تحدد خطوط شخصيته وملامح عقله وروحه.

وهنا نص الحوار:

- **بمقدار ما نتحصل نتائج مفزعة لغياب التعليم السياسى فى مصر، وضعف الثقافة السياسية لفترة سابقة طويلة، بمقدار ما نستشعر قلقا كبيرا إزاء الفهم المختلط والمتباين، وهو الذى يسود بعض عمليات التعليم السياسى الحالية، والمعتمدة على التلقين بأكثر من الحوار، والمرتكزة على التعبئة بأكثر من ارتكازها على دفع تيارات**

حية تساعد على خلق رأى عام إزاء القضايا الكبرى، وتساعد على القضاء على السلبية، وتساعد على تنمية وتدعيم قيمة الاختيار.

فى تصورك لماذا نتراوح فى مثل هذه المسائل بين الحدود القصوى للأشياء، من دون أن نسعى إلى خلق نموذج متوازن للتعليم السياسى، وللتنشئه السياسية؟

O هذا موضوع له جوانب كثيرة، ولكننى أريد أن أدخل إليه من زاوية معينة، وهى: (التقويم الديمغرافى لمصر اليوم)، فهى بلد تتكون من ٦٦مليون نسمة، ولكن ٦٦,٥٪ من ناسها، أو من شعبها أقل من ثلاثين سنة، ومن هم فوق الثلاثين عاما لا تتجاوز نسبتهم ٣٣,٥٪ من الشعب المصرى.

هذا معناه أن ٦٦,٥٪ من الشعب المصرى ولد فى آخر ثلاثين سنة، أى فى الفترة من ١٩٦٥ - ١٩٩٥، وهذا يظهر لنا حجم الشريحة الشبابية التى نتعامل معها.

هذه الحقيقة الإحصائية حين نأخذها من خلال الإجابة على سؤالك، تضعنا أمام علامة استفهام أخرى، ملخصها: (ماذا نريد من هؤلاء الناس. . من هؤلاء الـ ٦٦,٥٪؟).

وبعيدا عن الشعارات الرنانة والصاخبة التى ليس لها معنى، فأنت تريد منهم (الانتماء للوطن) بمعنى أن يعرفوا حجما معقولا من تاريخ بلدهم، ويعرفوا حدا أدنى من حقائق الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر، بمعنى أن يدركوا ماهية بلدهم! وأنها قد تكون محاطة بمشاكل كثيرة، ولكنها بلد له مستقبل، وأن هذا المستقبل لن تنشق عنه الأرض، ولكنه ينبع من خلالهم، باعتبارهم أغلبية فى شعبهم.

ثم نحن نريد منهم ـ ثانيا ـ (المعرفة السياسية بالحقوق والواجبات)، بحيث يعرفون ما هى الواجبات التى يلتزمون بها إزاء هذا الدستور، وهذا القانون.

وكذلك نحن نريد منهم (أن يكونوا قوة فى صف الممارسة الديمقراطية) وهذا يتطلب منهم أن يسجلوا أنفسهم فى قوائم الانتخابات، وأن يعرفوا مجموعة القيم التى تحقق الحياة الديمقراطية، ولا يعرفونها ككلمات أو شعارات فحسب، وإما يمارسونها بوصفها واقعا حقيقيا، بما يخلق حقائق جديدة على الأرض.

فإذا ما دخلنا من هذه البوابة إلى ساحة الإجابة على سؤالك، فإنها تسلمنا ـ عمليا وتلقائيا ـ إلى التساؤل من جديد ـ عن المشاكل التى تحول دون أن يحتل حزب الأغلبية المطلقة هذا (أى الشباب الذين يمثلون ٦٦,٥٪ من الشعب) مكانه ومكانته الطبيعيين على الساحة المصرية.

أولى هذه المشاكل هو (إدراك حجم المسئولية)، فأى إنسان يستطيع بسهولة أن يكتشف أن هناك هوة كبيرة ما بين حجم المسئولية، وحجم الموارد المخصصة لتعليم الشباب سياسيا وتنشئتهم سياسيا.

وثانية هذه المشاكل هو عدم وجود جهاز واحد تقع عليه المسئولية.

وثالثة هذه المشاكل هو (تفاوت وتباين الرسالة السياسية الموجهة إلى الشباب من جهاز لآخر)، سواء تحدثنا عن التعليم أو الإعلام أو الثقافة، فإننى لا أستطيع أن أقول ـ بضمير مستريح ـ إن الرسالة التى تخرج من هذه الهيئات هى رسالة واحدة ذات قوام متماسك، بل ـ فى كثير من الأحيان ـ هناك تناقض بين الرسائل الصادرة من هذه المؤسسات أو الهيئات، وأبرز جوانب هذا التناقض يدور حول (جواز تداول الموضوع السياسى من عدمه)!!

ففى فترة من الفترات سادت فكرة عجيبة عند بعض المسئولين مؤداها أننا لو جعلنا الناس تهتم بالكورة، وتنشغل بها، فإن ذلك يصرفهم عن الكلام فى السياسة، وكأن أحد الموضوعين يمكن أن يكون بديلا للآخر.

وقد أدت مثل هذه الطرق فى التفكير ـ فى واقع الأمر ـ إلى أن أصبحت

الساحة السياسية مفتوحة للتيارات المتطرفة، وقد عملت هذه التيارات من دون منافس، لفترة من الفترات، بسبب ضعف الحياة السياسية فى مصر.

فعملية التعليم السياسى، أو التدريب السياسى، أو التنشئة السياسية، تقوم بها - إلى جوار أجهزة الدولة - مؤسسات المجتمع المدنى، مثل: الاتحادات، والنقابات، والجمعيات، والأحزاب السياسية.

وكل الأحزاب السياسية فى مصر ضعيفة، وأداؤها متواضع خصوصا فى هذه العملية، ولا يوجد من هذه الأحزاب - فى الواقع - سوى جرائدها، وهكذا تحتل موضوعات الخصخصة ومصير القطاع العام وزيادة الصادرات الأولوية على الأچنده السياسية والإعلامية والاجتماعية للدولة، وللأحزاب، فى حين يتواضع مكان التعليم السياسى والثقافة السياسية على هذه الأچندة، ولا يوجد إدراك لحجم هذه المشكلة فى المجتمع، كما لا يوجد تنسيق بين الهيئات التى تمارس هذا الدور.

ولنأخذ كمثال سياسة التعليم فى تطوير المناهج الدراسية.. هذه السياسة - كانت، ومازالت - تستحق أن تكون موضوع اهتمام، ومناقشة، ومؤازرة من كافة مؤسسات الدولة، ومن كافة الأحزاب.

فهذه السياسة تعتمد - بالدرجة الأولى - فى مناهج المرحلتين الابتدائية على زرع فكرة (الغير)، أو إدراك وجود (الآخر)، بما يعد مدخلا للتسامح، وهو القيمة التى تنطلق منها الديمقراطية ابتداء.

نحن نحاول أن نعلم الأولاد قبول (وجه الآخر) قبل أن نتحدث عن (قبول الرأى الآخر)!!

نحن نرغب فى أن ينمو يقين داخلى عند أفراد هذا الحزب ذى الأغلبية المطلقة (حزب الشباب أو حزب الـ ٦٦,٥٪)، بأن هناك (آخر) فى السياسة، وفى أمور الدين، وفى مجال الرأى، وفى مجال العلاقة مع الدول الأخرى. ففى الحياة السياسية الديمقراطية، ليس من حق أى طرف أن يعلن احتكاره للحقوق

السياسية، بل ولابد من عدم وجود حقيقة سياسية مطلقة، إذ إن الحقيقة تظل نسبية فى هذه الأمور.

بناء نهضة الأمم، لا يكون إلا ببناء بشر مدرك وفاهم لهذه الركائز للديمقراطية وللحوار، فقد ينبنى التقدم على التكنولوچيا أو رأس المال، أو التدريب والإعداد، ولكنه لا يتم ولا يكتمل إلا بالاستثمار فى البشر.

لقد كتب نجم الدين ثاقب سفير باكستان فى اليابان فى فترة من الفترات، كتابا عن نهضة اليابان، وهو الكتاب الذى ترجمه ونشره مركز الأهرام للترجمة والنشر، وفيه قال: «إن الحقيقة الجوهرية فى التقدم هى الروح، فالأمم لا تنهض إلا بإرادة وعزيمة وروح صلبة حقيقية».

بل إننا حين نتأمل بعض التجارب الناجحة فى مصر ـ ذاتها ـ سواء فى القطاع العام أو القطاع الخاص، سنجد أن أساسها لم يك تكنولوچيا أو رأس مال، وإنما بشر له روح وإرادة.

فهناك مشاريع صرفت عليها ملايين الدولارات، ولكنها أقرب ما تكون إلى (سلة بدون قاع)، كلما وضعنا فيها رأس مال طلبت المزيد، ولكن حين غيرنا قياداتها ـ فقط ـ أصبح هناك تدبير وتوفير وحسن إدارة.. إلخ.

هى «الروح» التى يجب أن تسرى فى عروق الناس وتجعلهم يرتبطون بالمستقبل ويؤمنون به، فما لم يكن هناك إيمان بأننا قادرين على النهضة، فلن تتحقق هذه النهضة مهما أوتينا من موارد اقتصادية أو تكنولوچية، فالتقدم يحدث ـ أولا وأخيرا ـ فى عقول وقلوب البشر، وحب الوطن يبزغ من ذات القلوب والعقول.

أحزاب مستقبل!

● حين نلمس هذا (الروح الجديد)، فلابد لنا أن نتساءل عن كيفية انتصاب عمود فقرى اسمه الإرادة فى جسد الوطن، وقد لمست

فى كلامك ـ حالا ـ مسألة الأحزاب المصرية، التى نفترض منذ نشأتها فى ١١ نوفمبر ١٩٧٦، أن تكون أوعية للتربية السياسية، أو التعليم السياسى، أو ـ بمعنى آخر ـ ستكون مدارس للسياسة فى مصر، فما الذى علمته هذه الأحزاب للناس عبرها أو من خلال صحفها، وما الذى أفشته وكرسته من قيم وأفكار فى المجتمع المصرى؟

○ وجود التعددية السياسية فى المجتمع هو أمر إيجابى، وأى نقد لهذه التعددية، لا ينبغى أن يفهم على أنه مدخل للنكوص عنها، وإنما لتطويرها ودعمها.

لا يمكن عمل نظام ديمقراطى بدون أحزاب سياسية، فمهاجمة الفكرة الحزبية ـ فى حد ذاتها ـ هو فى واقع الأمر هجوم على الفكرة الديمقراطية.

والمتابع لحالة الساحة الحزبية فى مصر سيكتشف عجبا، فحين تعمد أحزاب المعارضة إلى انتقاد النظام السياسى الحاكم، فإنها ترتكز على فكرة وجود نواقص فى هذا النظام من الناحية الديمقراطية، ولكن نظرة بسيطة إلى أحزاب المعارضة من الداخل تؤكد أن التنظيم الداخلى لهذه الأحزاب يفتقر إلى الديمقراطية تماما وهى تنتقد انتخاب رئيس الجمهورية لفترة ثالثة محددة المدة (٦ سنوات)، على حين هذه الأحزاب لم تشهد، وربما لن تشهد فى الأمد المنظور تغييرا يذكر فى قياداتها ذات الوضع الثابت بأفرادها، وبسلطات هؤلاء الأفراد.

بل من جانب آخر، فإن نمط صناعة القرار فى هذه الأحزاب يعتمد على التركيز فى هيئات علوية بعض الأحيان، وفى يد رئيس الحزب فى معظم الأحيان.

وقد كنا نتصور أو نتوقع أن تعطى هذه الأحزاب قدرا أكبرا من الاهتمام للتعليم السياسى، وأن تراهن على المستقبل، ولكن أغلب هذه الأحزاب لا تهتم بهذا الموضوع، وإنما عينها على كرسى الحاكم، بدلا من أن تكون على كسب ولاء الشعب ومحبته، أو تغيير الرأى العام وخلق اتجاهات محبذة ومؤيدة

لفكرها، فهى تجتهد من أجل طرح فكرة حكومة ائتلافية، لأن جوهر الفكرة هو (المشاركة فى اقتسام كعكة السلطة) وليس (الوصول إلى السلطة من خلال الناس).

وهناك بعد آخر مهم وهو (السلفية السياسية)، فعندما تقرأ برامج هذه الأحزاب تجدها تنتمى إلى الماضى، بأكثر من انتمائها إلى الحاضر، أو المستقبل، وهى تهتم بالإثارة، وأحيانا بالتحريض أكثر من اهتمامها بتعليم القارئ مبادئ أو أفكار أو ممارسات أو قيم.

كل هذا لا يعنى الهجوم على تجربة مصر الحزبية، وإنما يعنى الإقرار بحقيقة أننا مجتمع يتطور نحو الديمقراطية، وأن إحدى الركائز الأساسية لتطوره، هو تغير هذه الأحزاب، ومزاولتها لدورها الطبيعى والمفترض فى التعليم والتنشئة السياسيين.

أمن قومى!

● **نعتقد كثيرا ـ يا دكتور على ـ فى فكرة الدكتور حسين كامل بهاء الدين باعتبار التعليم مشروعا قوميا لمصر، أو مكونا رئيسيا من مكونات أمنها القومى.. فى تصورك ما هو الشرط الذى قطعته عمليه تطوير التعليم فى مصر؟ وما الذى نتصوره من مهام يجب أن توضع على جدول هذه العملية؟**

○ أريد أن أقول: إنه بعد عشرات السنين، حينما نؤرخ لعهد الرئيس حسنى مبارك أو نسجله، ليس عندى شبهة فى أن إحدى فقرات هذا العهد الأساسية هى النقلة الكيفية المذهلة فى التعليم، ولم يكن ممكنا لأى وزير أن يحقق هذا، لولا دعم القيادة السياسية.

فى عام ١٩٩٠ كان وضع التعليم فى مصر كالتالى:

الجزء الأكبر من المدارس المصرية يعمل ثلاث فترات، فترة من ٧ إلى ١١،

والأخرى من ١٢ إلى ٣، والثالثة من ٤ إلى٧، معنى هذا الكلام أن تكون الحصة ثلاثين دقيقة، والفصل مائة طالب، ومعناه أيضا ألا توجد فسحة أو حصة ألعاب، ومعناه أن تصبح المدرسة مكانا منفرا للطالب، ومعناه ـ من الناحية العملية ـ انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية.

والدروس الخصوصية ليست انحرافا مطلقا بحكم القانون، ولكنها انحراف أفرزه المجتمع نتيجة التدهور فى مستوى أداء التعليم الأساسى، فالدروس الخصوصية هى (السوق السوداء للتعليم) كما كانت التجارة بالعملة هى السوق السوداء للنقد قبل الإصلاح الاقتصادى.

إستراتيجية التعليم فى مصر ـ منذ خمس سنوات ـ تنفذ محاور أربعة، أولها ـ وأخطرها ـ هو محور: (بناء المدارس)، فاليوم يبنى فى مصر ميزانية الدولة المصرية ومن أموالها ١٥٠٠ مدرسة كل سنة، ومدة هذه الخطة عشر سنوات. أى أنه فى عام ٢٠٠٠ سيكون عدد المدارس التى بنيت فى هذه السنوات العشر أكثر من عدد المدارس التى بنيت فى مصر منذ بداية القرن العشرين وحتى عام ١٩٩٠، معنى هذا أن يطبق نظام اليوم الكامل، وتأخذ الحصة مداها، وفوق هذا فإن الموضوع ليس كمّا فحسب، وإنما تحديد شكل المدرسة أو نمطها بحيث تبنى على ثلاثة آلاف متر مربع على الأقل، وتحتوى كل المرافق اللازمة للنشاطات الطلابية.

أما المحور الثانى لإصلاح التعليم فى مصر، فهو: (المناهج الدراسية)، وقد عقد مؤتمر قومى للتعليم الابتدائى، ومؤتمر للتعليم الإعدادى وأشرفت عليها السيدة الفاضلة والشعراء والسياسيين والكتاب ، انطلاقا من أن قضية التعليم ليست قضية حزبية ولكن قضية قومية، وأنها ليست قضية فنية ولكنها قضية عامة تتكامل بها الرؤى وتتداخل التخصصات.

الحكومة لا تعلم أبناء أسر أعضاء الحزب الوطنى فقط، ولكنها تعلم أبناء الشعب المصرى كله.

لقد اهتمت هذه المؤتمرات بإعادة كتابة كل الكتب للصف الابتدائى، وصلنا فى العام الماضى إلى كتب الصف الثالث الابتدائى، ووصلنا هذا العام إلى كتب الصفين الرابع والخامس، لقد اختفت قيم التطرف من هذه المناهج، وحل محلها قيم احترام البيئة وحقوق الإنسان، وفكرة الغير، والتسامح، وقواعد المرور.

والمحور الثالث يقوم على: (ابتعاث المدرسين)، فلأول مرة منذ عهد محمد على ترسل الدولة المصرية بعثات من مدرسيها إلى الخارج، فتقوم وزارة التعليم ـ سنويا ـ بإرسال ألف مدرس إلى عدد من البلدان الأوروبية ضمنها بريطانيا لمدة تتراوح ما بين أربعة وستة أشهر، والهدف من هذه البعثات ـ باختصار ـ هو معرفة كيف تدار مدرسة متقدمة، وما هو شكلها، وما هى طبيعة العلاقة بين الأستاذ والتلميذ فيها.

أما المحور الرابع فيتلخص فى: (رفع مستوى معيشة المدرسين) فحدثت طفرة فى المرتبات والحوافز وغيرها.

إذن منظومة التطوير التعليمى فى المستوى قبل الجامعى تكتمل عبر هذه المحاور، لتكتمل معها البنية التحتية للتعليم.

وبدأنا ـ أيضا ـ الربط بين الجامعات والمدارس، بحيث بدأت معظم الجامعات، تنظم دورات تدريبية إدارية للنظار، تهتم بتطوير الإدارة المدرسية، كما قامت بعض الجامعات بتنظيم دورات خاصة للمدرسين فى بعض التخصصات مثل: الكيمياء والطبيعة والرياضيات.

وإضافة إلى ذلك، فإن أحد الأمور التى سوف تؤثر على تطوير التعليم فى مصر هو إدخال تكنولوچيا المعلومات فى المدارس، فمع نهاية العام الحالى ستزود عشر آلاف مدرسة عبر القطر كله بحاسبات آلية ومعامل كومبيوتر، وترتبط بشبكة معلومات تربط المدارس ببعضها البعض، وبالإدارات التعليمية، وبشبكة الإنترنت.

التعليم الأساسى هو رهان على المستقبل، وتحقيق لمفهوم الاستثمار البشرى، بحيث يتأكد وضع التعليم بوصفه (موتور التنمية).

. . . .

وعلى المستوى الجامعى توجد أيضا ـ عملية تطوير كبرى للتعليم، ومن أهم معالم هذا التطوير، التركيز على شيئين، أولهما: تطوير المناهج بحيث لا ندرس للطالب كتابا وضع من ربع قرن دون اختلاف. ثانيهما: إلغاء بعض المواد التى لم تعد موجودة، وليس من المفروض على الطالب أن يتعامل معها.

وقد تبنى المجلس الأعلى للجامعات هذا التطوير، ودفع إلى عقد عدد من المؤتمرات العلمية تستهدف تغيير المناهج، وربط الجامعة بالمجتمع، بما يؤكد وضعها كأكبر بيت خبرة وطنى، وأصبح هناك مسئول للبيئة والمجتمع بكل جامعة يعمل على تطوير البيئة المحيطة بالجامعة. كما أنشأنا فى الجامعة مركزا تسويقيا للخبرات الجامعية بما يساعد على حل مشاكل كل المجتمع، ويحقق موارد إضافية للجامعات لأعضاء هيئات التدريس، أو لتحديث الجامعة نفسها.

وأخيرا (تقويم الجامعات) بخلق جهاز يتابع طبقا لمعايير ثابتة أداء الجامعات المختلفة، وقد تشكلت لجنة عليا لتقويم الجامعات وأدائها فى هذا العام وعقدت أول اجتماع لها فى فبراير ١٩٩٦، وتعمدنا فى أول اجتماع لهذه اللجنة أن تضم عددا من الوزراء السابقين للتعليم، وعددا من رؤساء الجامعة السابقين، وعددا من قدماء الأساتذة العاملين فى الجامعات المصرية، من ذوى الإسهامات العامة مثل: د. مصطفى سويف، والدكتور يونان لبيب رزق، والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله.

ويعتمد مفهوم التقويم على دراسة مدى حسن استخدام الجامعة للإمكانيات المتاحة لها، ومدى تطبيقها للقانون.

وسوف يعقد ـ هذه الأيام ـ مؤتمر آخر بين اللجنة ورؤساء الجامعات، لتبدأ عملية التقويم مع بداية العام القادم، وتوضع المؤشرات الموضوعية لتقويم كل تخصص، وخلق التنافس بين الأقسام، والتنافس بين الكليات.

دكاكين!

● **أصبحت دكاكين البحوث السياسية فى مصر، متعددة كثيرة، يمارس فيها وعبرها، الكثير من التحيزات والتمييز الفاضح، بل وحرصت كل قوة سياسية، وكل تجمع حزب، على اقتناء مركز بحوث «ملاكى» يُنظر له (بضم الياء)، ويهندس مواقفه بشكل شبه أكاديمى.. ما هو تقويمك لفوضى مراكز البحوث السياسية فى مصر، وتأثيراتها على الحياة العامة، وعلى إهدار قيمة الموضوعية والمنهجية بشكل واسع النطاق؟**

○ لن أستخدم فى إجابة هذه اللهجة الساخرة والحادة، التى تعد سمة من سمات الدكتور عمرو عبد السميع، ولكننى أقول: إن الظاهرة موجودة، وسببها أن مصر ـ تاريخيا وموضوعيا ـ تخطو إلى ساحة ثورة أخرى، وأى مرحلة انتقال يمكن أن يلخصها تعبير جميل هو: «عندما تفتح النوافذ.. فلابد أن يدخل بعض الذباب»!

أى أننا ـ بمنظور ديمقراطى وليبرالى ـ لابد أن نقبل، حينما نسمح بالحريات، وممارسة هذه الحريات، أن تحدث تجاوزات سواء من جانب السلطة، أو المعارضة، أو الصحافة، أو بعض المراكز البحثية.

لذلك فإن تفكيرى أن الخطر ليس فى حدوث الأخطاء، ولكن الخطر فى غياب آلية التصحيح، وآليات المحاسبة.

لابد أن يكون هناك رأيا عاما يتابع، وأن يكون هناك قانونا يردع ويعاقب الخوارج الذين يخرجون عليه!

يستطيع أى حزب أن ينشأ مركزا للبحوث السياسية سواء فى داخله أو خارجه، ، ولكننا لسنا مجتمعا من السذج أو الغفل، ويخطئ من يعتقد أن الشعب المصرى هو شعب ضعيف الذكاء، فهذا غير صحيح.

ونظرة الناس إلى هذه المراكز البحثية ستكون دقيقة وعارفة أكثر مما يتصور أصحابها، فصدقية أى مركز تبدأ من الأشخاص الذين يتصدرون عيادته، ثم من نوعية العمل الذى يخرج منه.

ظاهرة الدكاكين موجودة، ولكن لا أعتقد أن تأثيرها كان كبيرا على الرأى العام، ويظل ما تفتقده مصر ـ فى هذا السياق ـ هو التصدى بالقانون للتجاوزات، سواء فيما يتعلق بمصادر الأحوال، أو كيفية استخدام هذا الأموال، أو التأكد من أن هذه الأموال قد استخدمت فى مصارفها، لأن هذا الأموال التى تعطى لمركز بحوث خاص، أو لهيئة خاصة، هى جزء من معونة دولة أجنبية لمصر، فالدول الأجنبية تشترط أن يكون جزءا من معونتها للحكومة وجزءا للهيئات الخاصة، ومن ثم يجب على الهيئات المخصص لها هذا الجزء من المعونة أن ترعى وتتأكد من تطبيق القانون، بشأن حسن استخدام المال و إنفاقه.

وفى هذا الإطار ينبغى أن نعيد النظر فى مفهوم (الخاص) و (العام) لدينا، ففى فترة من الفترات سيطرت على المصرى، بعض الصور النمطية التى رسمت ملامح (الخاص) بوصفه مجموعة من الأشرار، والقراصنة، واللصوص والسفاحين، ورسمت ملامح (العام) بوصفه مجموعة من النبلاء والملائكة والأطهار والمثاليين.

هذا كله ليس صحيحا، فكلاهما معمل لخدمة الشعب، وينبغى أن يكون كذلك.

نحن نرحب بمراكز البحوث الخاصة، ونقول لها: أهلا وسهلا، وأنا لا أحبذ ـ على الإطلاق ـ منع هذه الأنشطة التى تعد مظهرا من مظاهر التطور الديمقراطى، ولكننا ـ فى ذات الوقت ـ نقول إن أى مركز بحوث إذا قام بجهد إعلامى أو دعائى، فإنه ـ عمليا وواقعيا ـ يلغى شرعيته كمركز بحوث، المهمة الأصلية لمركز البحوث هى أن يخلق حوارا علميا وسياسيا راقيا، وبأدائه لهذه المهمه يكون قد أكد مكانه ومكانته كجزء من الثورة الديمقراطية.

● أحد المرتكزات الرئيسية للبحوث السياسية، هو بحوث الرأى العام، هل تعتقد أننا وصلنا إلى مشارف عمليه تمكننا من قياس الرأى العام، أو الرأى القطاعى، متبوعا أو تباعا بطريقة دقيقة فى مصر؟ وما هى العقبات التى تحول دون ذلك؟

○ موضوع الرأى العام من الموضوعات الحرجة، والتى لا يوجد اتفاق عام بشأنها فى مصر، وهو من الموضوعات التى أصبح الاقتراب منها ينبغى أن يكون محسوبا.

وتوجد ـ الآن ـ فجوة كبيرة ما بين بحوث التسويق، وبحوث الرأى العام، فبحوث التسويق للسلع سواء للترويج لصابونة أو لزجاجة عطر، أو لخلق طلب على سلعة لم تك موجودة قبلا، أو لدراسة اتجاهات الرأى عند المستهلكين هى بحوث متقدمة جدا، ولا تقل عن نظيرتها فى أكثر الدول تقدما، ولكن عندما ينصرف الأمر إلى بحوث الرأى العام السياسية نجد أنفسنا فى مرحلة أولى من التقدم فى هذا المجال.

توجد وحدة رأى عام فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وهو مركز من مراكز الدولة، وقام مرتين بقياس رأى عام على نطاق واسع، كما أنشئت فى كلية الإعلام ـ مؤخرا ـ وحدة قياس رأى عام، ولكن لا أستطيع أن أتعامل بقدر كبير من الثقة فى قدر هذه المراكز على تحقيق المستهدف لصعوبات علمية عديدة تتعلق بالمستوى التعليمى والثقافى السائد، وسيطرة فكرة الخوف على المبحوثين، وظهور هامش كبير للتحيز فى هذه الدراسات.

مواسم الحلم!

● تسهم العديد من الرموز السياسية والفكرية معكم مثل د. أسامه الباز، ود. حسين كامل بهاء الدين، ود. عمرو موسى، ود. مصطفى الفقى، فى إحياء مواسم تثقيفيه كشباب الجامعات.. فى تصورك،، هل واجه هؤلاء صعوبة فى الحوار مع الجيل الجديد؟

أو بمعنى آخر، هل وجدوا صعوبة فى نقل هذا الجيل من خانة (الحلم فى المطلق) إلى خانة (العمل فى حدود الممكن)؟

○ أنا من المؤمنين إيمانا كاملا بوطنية الإنسان المصرى، وبأن القطاع الأكبر من الشباب المصرى، إذا وجد من يحدثه حديثا صادقا ومحترما، فسوف يستجيب، ولكن المشكلة أنه لا يجد ـ أحيانا ـ من يحدثه من التيارات المستنيرة المرتبطة بوطنها وبشعبها، وبالتالى يجد نفسه فريسة لتيارات أخرى.

ومن هنا، فقد أقمنا معسكرات التعليم السياسى والحوار فى فترة الصيف، فى كل جامعة، ثم معسكرا مركزيا لكل الجامعات فى حلوان، وهو الذى تصل طاقته إلى استيعاب خمسة إلى ستة أفواج. وتختتم هذا النشاطات عادة ـ بمعسكر فى الإسكندرية يتحدث إليه رئيس الجمهورية.. التقى فيه بالطلبة من عام ١٩٩٢ وحتى الآن سبعة عشرة مرة، والتقى ـ أيضا ـ بالمدرسين العائدين من الخارج، وكان الرئيس مبارك ـ فى هذا ـ يعطى رسالة مؤداها أن قيادة الدولة ـ على أعلى مستوياتها ـ تهتم بالتعليم السياسى للشباب، وهى حريصة على التخاطب مع الجيل الجديد.

وأنا مازلت أذكر اليوم الأول لانعقاد لجنة الحوار الوطنى، التى تتكون من رجال كبار هم من خيرة أفراد المجتمع، وقد استمر لقاء مبارك معها ساعة، ثم إستقل الطائرة إلى حلوان، ليجتمع بالطلبة ويستمر حواره معهم ثلاث ساعات ونصف ساعة، أى أن هذا ـ بالضبط ـ هو حجم ارتباط مبارك بالشباب الذين يعرف جيدا أنهم يمثلون المستقبل.

لقد اشترك فى التعليم السياسى كل الأسماء المهمة التى ذكرتها فى سؤالك، ولكن الأهم فى التجربة، كان مراقبة وتأمل أداء الشباب ومسارات فكرهم، فهم يسألونك أسئلة فى غاية البراءة والصدق، وينخرطون معك فى حوار جاد وحار، إذا تأكدوا من صدقك، ومن أنك راغب فى الحوار معهم ـ بالفعل ـ وأنك لم تأت إليهم لمجرد أنه عمل سياسى كلفت به، فلو شعروا ـ بذلك ـ لحظة واحدة

فإنهم يتجنبون الحوار معك، وينفذون تعاقدا غير مكتوب بعدم الإحراج، وبحيث يخرج كل طرف سعيدا من (القعدة) ويعود إلى قواعده سالما!!

المشتاقون:

● **عرفت مصر أنماطا من ذوى الطموح السياسى، وضعوا ـ فى معظمهم ـ منصب الوزير باعتباره غاية عظمى، وهدفا يتجاوز فى قيمته كل الأهداف، هل ترون أن هذا المنصب هو التتويج الوحيد الذى يمكن أن يتخيله أى مزاول للعمل السياسى لمشواره العملى والسياسى؟**

○ بداية لا يوجد عمل: أفضل من عمل آخر!

ونحن نرى أن الدول الكبرى نهضت لأن كل عمل له قيمة.

عامل النظافة مهم، وهو جزء من منظومة المجتمع، لو سقط فى عمله تسقط المنظومة كلها والتى تتعدد فيها المناصب والسلطات.

وأيضا، فإننى مؤمن بأن قيمة أى إنسان مستمدة من ذاته، وأن أسوأ البشر هم الذين يستمدون مكانتهم من وظيفتهم، ففى كثير من الأحيان يكون حجم الكرسى الذى يجلس عليه الشخص أكبر من حجم طاقاته واستعداده، والعبرة بالنسبة لأى إنسان هى بما يقدمه للمجتمع فى إطار الموقع الذى يشغله، وبحيث يصبح التقييم الحقيقى للبشر مرتبط بحجم عطائهم فى إطار الموقع الذى وصلوا إليه من خلال تطور مهنتهم أو عملهم.

● **وماذا ـ يادكتور على ـ عن تلك الطائفة الواسعة التى نعرفها فى مصر ـ شعبيا وفلكلوريا ـ باسم: «المشتاقين»؟!**

○ كل إنسان من حقه أن يطمح، وإذا تصور بعض الناس أن طموحهم يتأتى بشغل منصب معين فهذا حقهم، ولكن العبرة هى: كيف يصلون إلى هذا المنصب؟

المفترض أن يصلوا بالإجادة فى العمل، ومن غير المعقول أن يوكل للإنسان منصب أعلى، إذا لم يمارس بكفاءة منصاب أدنى.

هذه هى المبادئ الأساسية التى تحكم رؤيتى لهذه القضية بصرف النظر عن اشتياق كل المشتاقين، ومع خالص احترامنا لهم!

-١٩٩٧-

❑ ❑ ❑



د. صبرى الشبراوى:

عالم القوة التنافسية.. وخطيئة تأميم الحلم!

● نحن نواجه حربًا تسويقية وليس حربا اقتصادية.

● مصر من أغنى بلاد العالم إذا قاومت فقر الفكر، وفكر الفقر.

●طاقة مصر البشرية فى الخارج، هى قوتنا التنافسية التى لا نستخدمها ، ،ولكن نغربها!

● المخزون الحضارى المصرى لم يكتشف بعد ، ومن هنا إسرائيل لا تهددنا، ولا يمكن أن تهددنا.

● لابد أن يتوقف المصريون عن مخاطبة الدولة قائلين: «إنت بابا... وانت ماما... وانت كل شىء فى حياتنا»!

● اخترعنا نسقا إداريا اسمه: (الإدارة بالأطفال) يعتمد على اعتبار الإنسان طفلا يستوجب الحضانة، وليس طاقة تقتضى إطلاقها عبر التنافس!

● إذا فكرنا تفكيرا بسيطا سننتج مشاكل على شكل بشر ، ولن ننتج بشرا يحل المشاكل!

● أحد مشاكلنا أننا نفهم الثقافة بوصفها (ثقافة أدب) ، وليست (ثقافة حياة).

● يجب أن تعيد الأحزاب السياسية فى مصر النظر فى القيم السائدة فيها!

●لابد أن ننتقل - عبر الوعى - إلى (ثقافة المشاركة)، بدلا من (ثقافة المشاهدة)!

● كل فرد فى مصر.. هو سهم فى مصر!

● يجب أن تتعلم الأحزاب من درس القوات المسلحة عام ٧٣!

الدكتور صبرى الشبراوى رئيس لجنة التنمية البشرية فى الحزب الوطنى، وعضو مجلس الشورى والأستاذ بالجامعة الأمريكية، هو واحد من الذين احترفوا إيقاظ المجتمع، وإزعاجه، وإفاقته، وتعليمه عدم الركون إلى خدر النعاس اللذيذ فى الظلال الوارفة لما هو (سائد)، و (تقليدى)، و (ممكن).

وعلى الرغم من كل ارتباطاته الرسمية، إلا أنه يمثل نمطا آخر يتجاوز الكثير من الحدود، بل والأعراف الرسمية السائدة، حين يبدى رأيا أو يناقش قضية.

وهو يرى أن وظيفة المنورين المتنورين، هى أن يمثلوا الصدمة اللازمة للإفاقة، ودفع المجتمع لتلبية نداء القيادة بتحقيق الانطلاقة!

وهو يرى أن الاستثمار فى البشر، هو ما يثبت أن مصر بلد من أغنى بلاد العالم.

وهو يرى أن الطاقة الكامنة فى مصر تؤكد أن إسرائيل لا تهددها، ولن تهددها بالمعايير التنافسية.

وهو يرى أن الوقت قد جاء لتحل (ثقافة المشاركة) محل (ثقافة المشاهدة)، وتحل (ثقافة الحياة) محل (ثقافة الأدب)!

وهو يرى أننا يجب أن نتعلم ضرورة التوقف عن مخاطبة الدولة قائلين: «إنت بابا.. وإنت ماما... وإنت كل شىء فى الوجود».

....

وهو يرى غير هذا أفكارا كثيرة، كانت جميعها موضع حوار، كما كانت موضع اختبار، حين جاء ليزور دار الأهرام الجديدة فى لندن، ويناقشنا ويحاجينا ويختلف معنا.. ونختلف معه..

وهنا نص الحوار:

- **مصر الآن، جزء من إقليم تكتحسه بعض المقولات المقدسة التى لا نعرف مصادر قدسيتها، والتى تتحدث عن شرق أوسط جديد، ومستقبل اقتصادى يتحصل كل طرف نصيب منه وفق تصوراته عن ذاته أو خيالاته عن ذاته، وليس وفقا لمعطيات واقعية يمكن التحقق منها بالنظر واللمس. وفى هذا الإطار ذاعت وشاعت بعض مقولات أسطورية عن تحجيم مصر، وحصار الدور المصرى، وتهميش التأثير المصرى.**

ما هى ملاحظاتك على مثل هذا الجدل العجيب.. وكيف تقوّم رد فعل الجماعة الثقافية أو الجماعة السياسية بمختلف اتجاهاتها إزاء هذا الفلكلور السائر الدائر؟

○ العالم كله يموج بتيارات وتغيرات خطيرة، سواء فى أوروبا، أو آسيا، أو إفريقيا.

نحن نرى تجمعات أوروبية لها أهداف، وكذلك تجمعات آسيوية ذات أهداف مغايرة، وتجمع آخر من الولايات المتحدة والمكسيك وكندا، وبعض دول أمريكا اللاتينية، وعلى الجانب الآخر فإن الصراع الداخلى أضعف روسيا خارجيا، ولم تعد القوة التى تحدث التوازن فى العالم سياسيا أو عسكريا، فى حين تجتاح المشاكل إفريقيا بين أمراض اجتماعية وبيولوچية، أوحكومات ضعيفة وديكتاتورية.

الدنيا تتغير... بشكل درامى مثير.

ولا يوجد ـ الآن ـ من يلعب دورا واحدا، أو يحصر نفسه فكريا وثقافيا واقتصاديا فى تجمع واحد.

ونحن فى مصر لابد أن نكون مع التجمع العربى، ومع التجمع الأوروبى، ومع تجمع الشرق الأوسط، ضمن عملية تبادلية مع كل طرف، تحكمها حسابات

جيدة فى عالم يكشف بعضه بعضا تماما، إذ يظل العنصر الحاكم فى هذا الوضع هو القوة الذاتية، التى تحدد قوتنا فى العالم، بحيث كلما قلت هذه القوة أصبحنا تحت تأثير الغير، وكلما زادت هذه القوة أصبحنا أكثر استقلاليه، وأكثر تأثيرا فى الآخر، وما يصدق ـ طبقا لهذه المعادلة على (مصر والعالم) يصدق على (مصر وأى من التجمعات التى تكون طرفا فيها).

وإذا استخدمنا التعبير الأصح فى وصف ما يجرى فى العالم، فإنه عالم (القوة التنافسية)، وإذا حددنا اللعبة التى تحكم هذا العالم فهى (لعبة التسويق الدولى)، سواء كان تسويق أموال، أو تسويق بضائع، أو تسويق أفراد، أو تسويق نظم.

نحن نواجه حربا تسويقية شاملة وليس حربا اقتصادية.

الحرب الاقتصادية يمكن لمسها، أما الحرب التسويقية فهى حرب تتعلق بتبادليات القيم، فحين تتعلق الحرب الاقتصادية بسيارة، فإن الحرب التسويقية تتعلق بالقيم التى تمثلها هذه السيارة (سرعة ـ تصميم ـ لون . . . إلخ).

- **ولكن هذه الفكرة عن تبادلية القيم، فى ساحة ما كنا نتحدث عنه حالا بخصوص مستقبل المنطقة التى نعيش فيها، وفى ضوء هذه الأفكار عن حصار دور مصر.. هذه الفكره تتحول فى الواقع من (تبادل) إلى (إملاء)!**

○ كلما كانت قوتك التنافسية ضعيفة، استطاع الآخرون الإملاء عليك، وعلى سبيل المثال نحن نقدم أحسن كفتة فى العالم، ولكن الأطفال والكبار يقبلون على شراء ماكدونالد التى تقل فى مواصفاتها عن كفتة أى حاتى مصرى. لأننا توقفنا عن إنتاج السلعة، ولم نضعها فى نسق فيه جو خاص، وموسيقى، وألوان، وفروع فى كل مكان.

سنظل تحت التأثير طالما لا نتفهم احتياجات الناس ولا نقوم بإشباعها، بما يفتح الباب أمام الآخرين لإشباعها.

أسمع ـ كثيرا ـ من يرددون أن مصر (مستهدفة)، وهذا صحيح ـ بالقطع ـ فمصر مستهدفة، وأنا مستهدف، وأنت مستهدف، ولكننا نسمى (التنافس) استهداف، فى حين أن التنافس عملية صحية تحدث ـ حتى ـ بين الأشقاء، والطبيعى أننا ننافس كل دول المنطقة، وتنافسنا كل دول المنطقة.

إذا قعدنا نولول، ونلطم الخدود، ونقول إننا مستهدفون، ولا ننظر إلى بلدنا من الداخل، وندعم قواها، نسوف نسقط فى وهم أن العالم كله يتآمر علينا.

إذا لم ننتج الصابون، ومعجون الأسنان، والسيارة، وجهاز التليفزيون بمواصفات عالمية، فسوف تدخل إلينا السلع الأجنبية، ونصبح فى وضع من يملى عليه!

● **د. صبرى.. لقد أسمعت الإسرائيليين لهجة شديدة فى الندوة التى نظمتها هارفارد فى لندن فى مطلع يوليو الجارى، وكانت لهجة تعتمد على رفض الإملاء، ولكن لغتك الشديدة هذه لابد أنها كانت تستند إلى قوة، فلا يمكن أن تكون معلقة من جذورها فى الهواء. ما هى عوامل القوة التى تتمتع بها مصر اليوم فى عالم متغير؟**

○ هناك فارق بين أن تكون قدرتك التنافسية ضعيفة، فيملى عليك الآخرون، وبين أن تكون قدرتك التنافسية عالية، على حين يخلق الآخرون عندك «عادة» أن يملى عليك. . ونحن يجب أن نكسر العادة. وهذا ـ بالضبط ـ ما يفعله الرئيس مبارك على محورين، فهو يزيد من القدرة التنافسية لمصر، ثم يرفض الإملاء، ويكسر محاولات خلق الاعتياد.

حين تريد الحديث عن مصر، فلا تنظر للأرقام الصماء، ولكن انظر إلى الطاقة الكامنة.

مصر من أغنى بلاد العالم، إذا اعتمدت إستراتيجية بناء ترتبط بمفاهيم ومحددات عملية، وليس بأفكار تنظيرية وفلسفية، وأمامنا أمثلة جلية لبلاد فقيرة أصبحت غنية فى آسيا وغيرها، حين استخدمت أدوات معروفه تعالج أوضاعا عملية، ولا تغرق فى بحر الفلسفة.

مصر لديها إمكانيات بشرية رهيبة، ليس فقط فى الداخل، ولكن فى الخارج أيضا، وهؤلاء المصريين فى الخارج يعرفهم العالم بوصفهم مهنيون يبعثون على الفخر، وعقول تبعث على الاحترام، وهم لم يتغربوا، ولكنهم غربوا (بضم الغين)، ولم يهاجروا، ولكن هجروا (بضم الهاء)، وهم ـ جميعا ـ يمثلون قوة مصر التنافسية.

نحن مستهدفون. . . نعم. . ولكن فى هؤلاء بالذات، ونحن لا نستفيد بهم، وإنما نمعن فى تغريبهم.

رأس المال البشرى أهم وأندر رأسمال، لأن الاقتصاد مبنى على نظرية اكتساب القيمة عبر الندرة، وهؤلاء هم الندرة.

المخزون الحضارى فى مصر لم يكتشف بعد، وهو طاقة رهيبة كنت أشعر بها وأنا أتحدث إلى الإسرائيليين فى ندوة هارفارد.

نحن أقوياء جدا، وقد أثبتنا هذا عدة مرات، فحين يتوافر لدينا الحافز والنية والنظم، فإن يدنا تكون العليا بلا منازع. أما حين يكون هناك تراخ فى استخدام مواردنا، فإننا نكون فى وضع آخر.

مرة أخرى. . نحن أقوياء جدا، ومن هذا المنطلق، فإن إسرائيل لا تهددنا، ولا يمكن أن تهددنا.

فقر الفكر!

● **(بلد غنى.. وفكر فقير) جملة سمعتها منك، وأظن أنها تستبطن**

داخلها معان كثيرة ومركبة، كيف يمكن أن يستقيم معنى (فكر الفقر... أو فقر الفكر) مع المخزون الهائل للطاقة البشرية فى مصر الذى تتحدث عنه دوما؟

○ المحك الأساسى فيما تسأل عنه، هو فرز وإبراز قيادات تؤمن بأن الفكر الغنى، وغنى الفكر يتحققان من خلال تنمية البشر واحترامهم، والاستثمار فيهم.

فحين يكون الهدف هو تحريك جميع طاقات المجتمع، فإن المحك يرتبط بمن يدير هذه العملية على المستوى التنفيذى.

لابد أن نمحو اللغة القديمة، والمفردات القديمة، ونعتمد لغة مجتمع غنى.

فقر الفكر، وفكر الفقر يرتبط بمعنى: (أنا أريد أن أكون غنيا والناس كلها فقيرة)، ونحن نشاهد عشرات الأمثلة على هذا فى كل يوم، فصاحب المصنع الذى يريد أن يربح، دون أن يعتنى بتعليم عماله وصحتهم، أو يلوث البيئة فيضر صحة المجتمع كله، هو ـ على هذا النحو ـ واحد من قادة فكر الفقر.

وحين يرى مدير مصلحة، أن قوته تتحقق بضعف العاملين معه، أو بمعنى آخر يريد أن يصبح قويا على حسابهم فهذا فكر/ فقر، لأن المفترض أن يقويهم، حتى تصبح المؤسسة قوية، ويصبح هو ـ بالتالى ـ قويا.

وعندما أصنع منتجا معينا، لابد أن أحرص على توافر قيم الذوق والحضارة والفائدة، وإلا فسوف أصبح مفقرا لذوق المستهلك، وبالتالى واحدا من قادة فكر الفقر.

وحين تحتكر الإدارة، أو الحكومة بعض الخدمات مثل: المياه والتليفونات، فإن هذا يضعف المستهلك، ويضعف توقعاته فى الحياة، وتكون الحكومه ـ هنا ـ منتجة لفكر الفقر، حين تسلبه الاختيار بين بدائل متنافسة.

وهكذا، فإن عدم احترام قيم المستهلك واستغلاله، أو غشه، أو عدم إعطائه معلومات، أو حجب حقه فى المعرفة يمثل فكر الفقر عند نقطة حده الأقصى،

والتى ترتبط ارتباطا عضويا بمعنى الاحتكار، تتساوى فى هذا رأسمالية الفرد أو رأسمالية الدولة.

● **فإذا ما باعت مشاريعها الإنتاجية والصناعية.. ثم كسرت احتكارها فى كل الخدمات أيضا.. فما الذى سيتبقى لها من حدود دور فى المجتمع؟**

○ دورها هو أهم الأدوار.

دور الدولة القوية هو أن تضع مستويات للأداء، سواء كانت مستويات لأداء المجتمع، أو مستويات لأداء الشركات الخاصة، وتكون هى القائدة فى صياغة التوازن داخل المجتمع ومنع الاحتكار، ولعلها سارت خطوات فى هذا السياق بقوانين منع الاحتكار. لأن دور الدولة هو الحفاظ على الفرد، ورفع مستوى حياة البشر، وتحقيق أعلى مستويات المعيشة (Quality of life)، مستوى جندى الشرطة واحد من قيم الحياة، ومستوى الرصيف فى الشارع واحد من قيم الحياة، ومستوى صحة الناس، أو معدلات الأداء، هى ـ كلها ـ من قيم الحياة.

الدولة هى عين وضمير المجتمع، وهذه قوة فى حد ذاتها.

وهناك رابطة قوية بين احتكار النشاط المالى والاقتصادى، واحتكار النشاط السياسى فى بعض الدول.

فالإحتكار يهندس فلسفة دولة، بحيث تدير الأمه على أساس مجموعة من الافتراضات الخالدة، فإذا رأت الدولة إنسانها بوصفه جاهلا، فإنها تقيم أنظمه تتعامل معه بحسب جهله.

أما إطلاق القدرة التنافسية، وإدراك حدود الطاقة البشرية، فإنه يخترق ـ بطبيعته ـ حدود هذه الافتراضات الخالدة، ويرى فى الإنسان الذكاء، والقدرة على التعلم، واستحقاق الحقوق.

إذا لم يعرف الناس حقوقهم، فسوف تعاملهم الدولة كأطفال، وتصادر قدرتهم على النمو، فيهبط مستوى البشر، وينزل مستوى المجتمع.

ولقد هاجمت ـ كثيرا ـ فكرة اسمها: (الإدارة بالأطفال)، تسود سلوك بعض الأنظمة مع ناسها، حين تدير حركتهم وكأنهم يحتاجون طوال الوقت إلى حضانة، وليسوا طاقة تقتضى الإطلاق عبر التنافس.

إذا ما حدث هذا ينساق الناس إلى مخاطبة الدولة: «إنت بابا. . . وإنت ماما. . وإنت كل شيء فى حياتنا»!

أما حين تطلق الدولة عمليات التنافس، فإن الوضع يكون مختلفا. ولنأخذ مثلا هنا بعمليات التعليم، فهى ساحة تنافس بين أكثر من جهة (الإعلام والمدرسة والمسرح. . وغيرها). فإذا أطلقنا التنافس إلى النهاية، فإن النتيجة ستكون تعليم البشر كما ينبغى، ومن ثم إضافة قوة جديدة إلى بدن المجتمع أو بدن الدولة.

وكذلك فى ساحة الصحافة، ستجد صحفا قومية وصحفا حزبية، وهذا احتكار، لأن هناك صحفا ليست هذه وليست تلك، والأساس فى الموضوع هو حق الإصدار.

الأساس ـ فى كل شيء ـ هو أن يحلم الفرد ويطمح، لأن الدول تتقدم بطموح أبنائها وقدراتهم، فإذا ربيت ابنك على أساس أن يكون خائفا، وليست له طموحات فلا داعى للتعليم أو التربية.

«هوندا» صنعها شخص بدأ من أول السلم فى الجراج، ولكنه كان يحلم، «وآبل» كومبيوتر صنعها شاب بدأ السلم من أوله، ولكنه كان يحلم.

حين يفصّل لك الآخرون «جاكيت أحلام»، ويقولون لك لا تخرج منه أو تتجاوزه، فإن ذلك يقتل قدرتك على الحلم والابتكار والاختراع، وهذه هى أسس التقدم.

ونظرة واحدة إلى القطاع الخاص المصرى تقول بأنه ـ أيضا ـ احتكارى، والحكومة واجبها أن تحمينى من المحتكرين، أو الذين يحترفون إخافتى، ويغلقون السكك، ويمارسون خطيئة تأميم الأحلام!

مصطباوى!

- **كنت أول من طرح مفهوم التنمية البشرية فى مصر، وجعلته عملة متداولة، وقد لاك البعض هذا التعبير ـ فيما أظن ـ بطرق ـ جد ـ خاطئة ومبتذلة، حتى تاه المعنى، وضاعت دلالة الكلمات.. هل أصبحنا نحتاج أن نحدد معك المفهوم مرة أخرى؟.. أظننا نحتاج!**

○ عندما كنت طالبا فى جامعة كاليفورنيا، ترافقت مع جيل من الدارسين، أصبحوا اليوم علماء مبرزين فى الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس، والإدارة، والفيزياء، والطاقة النووية.

وكنا نحلم بأن تكون مصر عظيمة. . ولم لا؟!

لقد كان الإحساس الذى ينمو لدىّ، والعلم الذى أتلقن يفضى بى إلى طريق وحيد هو أن الطريق إلى مصر عظيمة هو: الاستثمار فى البشر.

ولكن عندما رجعت الى الوطن، وجدت الناس يتكلمون فى الفلوس، وفى الحديد، وفى الزلط، وفى أى شىء آخر ما عدا البشر!!

ولم يكن واردا فى العالم لفظ التنمية البشرية، ولكن المستخدم هو التنمية الاقتصادية، فهندست هذا التعبير لأصوغ فكرة تمثل الطريق إلى مصر عظيمة، فإذا كانت (التنمية الاقتصادية) هى التعبير الأكثر شيوعا فى العالم، فلابد أن نسأل: ومن الذى يصنع الاقتصاد، أليس هم البشر؟

البشر هم الذين يضيفون إلى السلعة الذوق والفكر والفلسفة، إذن فهم صانعو الاقتصاد، وهم صانعو التقدم. والحديث عن التنمية يكون بتنمية الموارد البشرية بالدرجة الأولى.

البشر ليسوا السكان، فهم أصحاب أى بلد، وليسوا سكانا.

والفرد هو صاحب المصلحة، وهو أساس كل شىء فى وطنه، وليس مجرد تعداد أو سكان (كما أسمينا مرة إحدى وزارتنا: وزارة السكان)!

لقد طرحت الأمم المتحدة ـ بعدى بعشر سنوات ـ مفهوم التنمية البشرية، على حين مازلنا ـ برغم تبكيرى فى الدعوة ـ لا نفهم معالم المصطلح.

التنمية البشرية، هى علم وفن التبادليات بين خيوط النسيج البشرى فى مجتمع بعينه، وهذه التبادليات هى قوة المجتمع المحركة.

الإنسان له معايير مثل أى شىء، لأنه ـ فى ذاته ـ منتج بشرى (له صفات فكرية ـ وله عادات وقيم ـ وله سمات سلوكية)، وهو ينافس ـ بالطبيعة وبالضرورة ـ منتجات بشرية أخرى.

العملية معقدة، ولو فكرنا فيها بطريقة بسيطة أو مفلطحة، سننتج مشاكل على شكل بشر، ولن ننتج بشرا يحل المشاكل.

التفكير البسيط، لا يعترف بالتميز وبالندرة، ويعتبر الناس جميعا مثل بعضهم بعضا، وهذا تفكير ريفى، فلكورى، ضحل، يجعلنا فى موقف أضعف، حين نتجاهل تميز المتميزين وندرة النادرين، وهو يقلل من قدرتنا التنافسية، ومن اتسامنا بالدولية، فهو فكر قروى مصطباوى (!) يهدر القيمة البشرية.

● ما هى ملاحظاتك ـ يا دكتور صبرى ـ على أمر الجماعة الثقافية فى مصر، وهل تعتقد أن هذه الجماعة مؤهلة ـ على إطلاقها ـ لأن تكوّن رأيا عاما متبوعا، أو تشكل حجر زاوية فى حوار وطنى بناء، يلتحق بالمستقبل بأكثر مما يستغرق فى تفسير عناصر الماضى، ويرتبط بالتعبير عن مصالح أوسع قطاعات الناس، ولا يعكس انتهازية التعبير عن مصالح شخصية وفردية فحسب؟

○ والله هذا سؤال معقد.. ولكنه جميل على أية حال!

الجماعة الثقافية فى مصر مطالبة ـ قبل أى شىء ـ بأن تعيد النظر فى مفاهيمها.

وإذا فهمت هذه الجماعة ـ مثلا ـ فكرة التحالف الإستراتيجى بين المؤسسات المتنافسة، فإنها تكون قد أقرت بمفهوم التبادليات الذى يرتبط بفكر التنمية البشرية، فإذا كنا نرى شركتين متنافستين فى الكومبيوتر ـ مثلا ـ تريان أن هناك نقطة ضعف فى إنتاجهما لا تمكنهما من مواجهة المنافسة اليابانية، ثم قامتا بالاشتراك فى عمل منتج يتخطى نقطة الضعف هذه، وتستطيعان به منافسة السلع النظيرة من أيه جنسية، فهذا إقرار لمفهوم التبادليات، الذى نتجاهله فى مصر حين نعمل على أساس (أُخَسرك لكى أكسب أنا) لا (أكسب أنا وأنت)!

إذا فهمت الجماعة الثقافية مثل هذه المفاهيم، فإن نظرتها للثقافة سوف تتغير بدون شك، فهذه الجماعة ـ حتى اليوم ـ تتبنى مفهوما عتيقا للثقافة ـ ربما استقته من فرنسا ـ يقوم على أن الثقافة هى (ثقافة أدب)، وليست (ثقافة حياة)، أو (ثقافة مؤسنسات).

المثقفون اعتادوا، وهذه خطيئة كبرى، أن يخاطبوا المالك للمؤسسة الثقافية، التى يعملون بها، سواء كان الدولة، أو كان الفرد.

هم ينتظرون ليتبينوا اتجاه المالك، ثم يعرفون ما يريده من نغمات. ومن هنا تحدث عملية أخرى سلبية جدا، هى كبت الفكر الجديد، وحجب إمكانية اكتشافه.

نحن فى حاجة لإطلاق قوى الابتكار عند المثقفين، ونحن فى حاجة إلى البحث عن المنورين المتنورين، وتنظيم إسهامهم، لأن هذا هو الذى يواجه فساد

الفكر، ويقضى عليه، حين يقر قواعد (ثقافة المشاركة) بدلا من قواعد (ثقافة المشاهدة) عند الناس.

وهنا سيصبح هَم الجماعة الثقافية الأول، ليس انتهازيا يخاطب مالك المؤسسة، ولكنه سيصبح ملتصقا ومرتبطا بثقافة الحياة فى أوسع معانيها.

أنا لا أستطيع أن أعتبر الطبيب مثقفا، مهما بلغت كفاءته أو تأهيله، إذا ما كانت عيادته قذرة، ولا أستطيع أن أعتبر المدير مثقفا، إذا أضعف موظفيه.

الثقافة مفهوم متكامل، ولن نكون مثقفين إذا كنا أغنياء بعقلية فقر، وإذا كنا متعلمين بعقلية فقر، وإذا كنا سياسيين بعقلية فقر!

أحزاب!

● د. صبرى.. درجنا على اعتبار الحياة الحزبية فى بلد ما بمثابة مرآة عاكسة لمجمل العلاقات السائدة فى هذا البلد، سواء على محور الصراع أو على محور التعاون.. كيف تنظر إلى مفردات الحياة السياسية الحزبية فى مصر؟ وماذا تعكس هذه الأحزاب؟.. وهل تتصور أن زمر القيادة فى هذه الأحزاب يمكن أن تكون معنية بمفهوم من طراز (التنمية البشرية)؟

○ أتمنى أن تعيد الأحزاب النظر فى القيم السائدة فيها، وأن تحترم حق الجمهور فى أن يعلم عن مصادر دعمها وتمويلها، وأن تعيد النظر فى قيم اختيار قياداتها، أو التعامل البينى للقيادات.

يستوى فى هذا الحزب الوطنى وأحزاب المعارضة.

لابد من إطلاق القوى التنافسية داخل كل حزب على حدة، ثم إطلاق هذه القوة التنافسية بين الأحزاب جميعا.

وظيفة العمل الحزبى هى تدريب الكوادر لكى يكونوا قادة للعمل العام، وفقا لأچندة سياسية حزبية معدة بدقة وتستهدف تنمية الأمة، بحيث يصبح أى تجمع سياسى جاهزا لإدارة جزء من هذه الأمة.

إذا لم تقتنع الأحزاب بأن وظيفتها هى خلق صفوف من المتخصصين فى كل مجال، فلن يكون لدورها أى ثقل، وسوف تهدم قيمة العمل، وقيمة التخصص، وقيم التقدم فى المجتمع، وتتحول الساحة الحزبية إلى متاهة لا أول لها ولا آخر.

المفترض أن تكون الأحزاب قدوة فى التربية السياسية، وفى تمثيل أهداف المجتمع، وفى مناقشة مشكلاته، وأن تسود الشفافية عملها، وأن تحترم ذكاء الناس.. لكى تسهم - بجد - فى التنمية البشرية.

أنا أرأس لجنة التنمية البشرية فى الحزب الوطنى، وهى لجنة محترمة جدا، بحثت وناقشت الانطلاقة والنهضة الحضارية، التى تدفع القيادة من أجلها، وتحدثنا فى هذه اللجنة عن أسس ديمقراطية مهمة، ولكن لا أحد يدرى بنشاطنا، لأن الحزب الوطنى محتاج لأن يطلق طاقات لجانه، ويخلق الحوار بينها، ويطلق التنافس داخله، كما - بالضبط - باقى الأحزاب، والتى تحتاج فوق هذا إلى النظر لبعض الكوادر النادرة، بوصفها كوادر قومية لاحزبية.

يجب أن تتعلم الأحزاب من درس القوات المسلحة عام ١٩٧٣، فلقد اهتمت القوات المسلحة بتنمية البشر فيها بعد الهزيمة ورفعت مستويات الأداء، وتوخت مواصفات معينة فى الجندى، ووضعت معايير لاختيار القيادات، وخاضت ماراثون تدريبى مخيف، وتسلحت بنوع المعدات المناسب لخططها، فانتصرت، وأدت أداء رفيعا.

لابد أن تتعلم الأحزاب، وكل المؤسسات المدنية عامة أو خاصة من هذا الدرس، وحين تستوعبه فإن مستقبل الأمه يصبح أمامها أفقا بغير حدود.

● أعتقد ـ يادكتور صبرى ـ أن تدهورا أصاب اللغة فى مصر، ليس بالمعنى الحرفى للكمة، ولكننى أقصد باللغة التعريفات، والمفاهيم والدلالات، والمنطق.. فى وصف معاصر (للمصريين المحدثين). كيف ترى آثار هذا التدهور؟

○ لابد ـ قبل أى شىء ـ من توحيد التعريفات لتتمشى مع ما هو سائد فى الدنيا كلها، فنحن نكتب على أى بقال (سوبر ماركت) أو (سوبر ستور) وهذا غش لغوى.

عندما يكون تعريفنا للأشياء مائعا، وغير مرتبط بحركة التقدم، فإن ذلك يعنى أننى أستطيع أن أسمى التليفزيون.. غسالة.

نحن نرى ـ مثلا ـ أن كلمة «Aggressive» معناها «عدوانى» فحسب عندنا، وهذا لا يتمشى مع معناها السائد فى نظم الإدارة فى العالم، فهى تعنى (حازم ـ حاسم ـ قادر على مواجهة المواقف)، أى أن لها معنى إيجابيا فى الدنيا، ولها معنى سلبيا عندنا.

تعريف الوقت يحتاج إلى تحديد بدلا من سيادة قيم الريف التى تتحدث عن (أول النهار)، و (آخر النهار) ، و(المغربية)، و (الضهرية)!

أى سلعة تحتاج إلى تعريف جديد، فمعظم تعريفاتنا تنصرف إلى ما هو مادى ملموس، ولا ترى غير المادى الذى ينتظم عملية إنتاج هذه السلعة، ويسبقها.

وأى علم يحتاج إلى تعريف يتمشى مع ما هو سائد فى الدنيا، فلو عرفنا هندسة الإنشاء بصفاتها المادية، سيكون تعريفنا ناقصا، يقتصر على الحديد والأسمنت والمكن. أما إذا تداخلت العلوم الاجتماعية وفكر المثقفين فى صياغة تعريف الهندسة، فإنها ستعنى على الفور (النمط المعمارى السائد ـ والكتلة والفراغ ـ والشكل الجميل ـ والبعد الحضارى والبيئى).

وترتيبا على ذلك ـ ووفقا لهذا المفهوم ـ فإنه ليس بالضرورة أن يكون مدير شركة الهندسة مهندسا، لكى يشغّل المهندسين، وإنما يكون مديرا صاحب رؤية، وعلى خبرة بعلوم الإدارة.

إذا صححنا التعريفات، فسوف نقدر على إطلاق طاقاتنا التنافسية مع العالم كله.

لوبى!

● **وأظن ـ كذلك ـ أن أقوى لوبى معارض فى مصر، يتشكل ـ الآن ـ من رؤساء الحكومات والوزراء السابقين الذين خرجوا من مناصبهم، أو المشتاقين إلى المناصب الحكومية الذين يعانون الإحباط أو خيبة الأمل.. لماذا ـ فى تصورك ـ يقترن أداء المثقف المصرى (تأييدا أو معارضة) بالموقع الذى يحتله فى قمة الهرم الحكومى من عدمه؟**

○ لأن الحكومة كانت المسيطرة على كل شىء لمدة ثلاثين عاما، كانت بابا، وكانت ماما، وكانت كل شىء فى الوجود.

ووصول أى إنسان إلى هدفه، كان لابد أن يقترن بمنصب حكومى. وإذا لم تكن حكوميا فيمكن أن تكون محلا للشك، لأن الأجهزة الحكومية، ثقافتها حكومية، لا تعترف بوجود ناس محترمين غير حكوميين، يمكن أن يكونوا سندا للدولة.

ولكن حين أطلقت الطاقات، فإن بقايا الثقافة الحكومية ما زالت لها بالمرصاد، وتشكل طبقة عازلة فوق هذه الطاقات، تمنعها من أن تحتل مكانها الملائم.

الطبيعى أن يطمح الإنسان فى اختراق هذه الطبقة، والطبيعى أن يبحث عن (متعته) التى ترتبط بتحققه، وإذا بحث عن (ألمه) فهو مريض!

الطبيعى أن يمتلئ الإنسان المتميز الموهوب النادر بالآمال والتوقعات.

أما هؤلاء الذين ينتمون للثقافة الحكومية، فهم حين يخرجون من مناصبهم، لا يعترفون بتسليم العصا إلى جيل آخر، وكفاءات أخرى فى سباق التتابع، فهم مدركون - جيدا - للقوة التى منحها لهم وجودهم فى السلطة، خاصة مع فكر الفقر الذى اخترعوه، والذى يمنح الوزير أنظف حجرة، وأنظف حمام، وأنظف سيارة، على حين المؤسسة كلها غير نظيفة، وبالتالى حين يخرج هذا المسئول من منصبه فإنه يفقد توازنه، نتيجة فقدانه للسلطة، ويحارب كل جديد، ويعارض كل أداء الدولة فى مصر، طالما ليس جزءا من بلاطها يستأثر - وفقا لفكر الفقر - بكل عناصر القوة التى توفرها له.. وله وحده فقط!

● لديك - كما أعرف - أفكار وصياغات عن النخبة أو الصفوة، وقد طرحت الكثير منها فى هذا الحوار، إلا أننى - فى الواقع - أميل لأن أتوقف معك - قليلا - عند نقطة بؤر التكوين للنخبة المصرية المعاصرة، فهى لم تنبت فى رحم نضال وطنى ضد المستعمر، كما لم تنبع من عملية تغييرية ثورية ومتمردة، وهى - بالقطع - فى معظم حالاتها لا ترتبط (بالناس الكثير) على أى درجة أو مستوى. من أين - إذن - طلعت علينا النخبة الجديدة فى مصر؟ ما هى شرعيتها؟ وما هى مرجعياتها المعتمدة فى التعاطى مع أمور الوطن؟ ما هو قوامها؟.. من هم هؤلاء؟

○ أنا لا أستطيع أن أسمى كل الموجود على السطح صفوة أو نخبة. النخبة الحقيقية المصرية غير مستخدمة، ومعظمها خارج مصر.

النخبة لا تعنى أن يكون عندى فلوس، أو لدى اتصالات.

أنت يمكن أن تكون رجل أعمال مميز فى الصناعة، ولكن هذا لا يعنى أن تكون مميزا فى كل شىء.

ولكن حين أكون رجل أعمال، ولدى منظور سياسى/ إنسانى/ حضارى، فأهتم بعمالى، وأنقل التقنية المتقدمة، فأنا ـ حينئذٍ ـ من النخبة.

النخبة هى التى تعبر من المحلية إلى الدولية، وترفع مجتمعنا إلى المقاييس العالمية فى كل شىء.

وعالمية المواصفات ـ كما بدأنا ـ هى التى ستطلق قدرتنا التنافسية مع الدنيا بأسرها.

أما الذين ينادون بالاستسلام للظروف والركون إلى السائد، فهؤلاء محليون، وغير وطنيى الفكر!

❑ ❑ ❑





أحمد زكى:

«السادات».. رحلة أخرى إلى أمريكا!

● الفيلم التسجيلى يقدم وقائع حقيقية مسلسلة بغية عرض معلومات، والفيلم الدرامى يدخل أعماق الشخوص التاريخية بغية تحقيق المعايشة!

● تمثيل خالدبن الوليد أو صلاح الدين الأيوبى أسهل ألف مرة من عبد الناصر أو السادات!!

● حين قررت تمثيل شخصيات زعماء مصر أدخلت نفسى فى أتون حقيقى!!

● الممثل كالطبيب النفسانى فى دراسة الشخصية، ولكن العلاج الذى يصفه الممثل هو علاج جماعى!!

● الممثل هو الممثل، سواء كان الضابط فى (زوجة رجل مهم) ،أو كان من المهمشين فى (كابوريا)!

● كاد قلبى أن يتوقف وأنا أؤدى خطاب الأزهر، فكيف كان عبد الناصر يحس وقتها؟!!

- دخلت بطن ودماغ السادات كى أقدم قصة المقاومة فى مصر!!
- اختارنى السادات لأمثل «البحث عن الذات»، فمثلت شخصيته بعد أكثر من عشر سنوات!
- أحببت السادات فى حرب أكتوبر، ولم أفهم أبدا لماذا اعتقل هيكل!!
- عملية الردح على القنوات الفضائية بين أحباء وخصوم عصر السادات مبنية - فى معظمها - على رؤى شخصية ومصلحية مع كثير الأسف!!
- كونى ناصرى الهوى لم يمنعنى - ولا يجب أن يمنعنى - من إنصاف السادات!
- قالت لى جيهان السادات: إذا لم يتضمن الفيلم نقدا للسادات، فلن يكون فيلما!!
- السادات قال لجيهان عن أحداث سبتمبر: «لقد أبعدتهم ولم أعتقلهم، حتى أتمكن من استعادة سيناء»!!
- سألت حلاق السادات عن رأيه فى المقاطعة!
- قلت لمجلة أمريكية: إن إسرائيل هى التى تعطل فيلم السادات!

هذا الحوار مع أحمد زكى، هو ـ بمعنى أو بآخر ـ وثيقة عن فن (التمثيل) (التشخيص)، وإن كان فيلم «السادات» هو بوابته، فإنه امتد ليشمل كل جوانب الساحة السينمائية، وكل إنتاج أحمد نفسه!

عبر إجاباته صاغ تجربته الفنية، فاستحالت سطورا أشبه بالقوانين والمعادلات الإبداعية، التى فيها الواحد زائد واحد يساوى اثنين!!

أهمية هذا الحوار/ الوثيقة ليست فى آراء أحمد زكى عن فن التمثيل، ولكن فى أنها تظهر إلى حد كبير نوع المعاناة التى يمر بها النجم وهو يستقطر آراءه فى كل ما يدور حوله، ويراكمها لتصبح فى التحليل النهائى ما يسمى «الرؤية». بعبارة أخرى.. هذا الحوار صورة فوتوغرافية لمبدع لا يتوقف عن التفكير والتأمل، والحديث إلى نفسه، والحوار مع الناس، صورة تأتى فى نهاية مشوار طويل من العناء، فى لحظة الشعور بالسعادة والرضا، ولحظة يضحك فيها (والصورة تطلع حلوة)!!!

تحدث أحمد زكى عن الفارق بين الفيلم التسجيلى والشخصية التاريخية فى وعاء الدراما، وشرح بالتفصيل تجربته فى تمثيل عبد الناصر والسادات، ومزج بوعى بين آرائه السياسية وتعبيره الدرامى عن كل منهما، وتناول أزمة الاشتباك السياسى بين خصوم ونجوم كل عهد سياسى فى مصر على شاشات قنوات التليفزيون العربية.. تكلم عن اختيار السادات له لتمثيل دوره، وطرح أزمة اقتصاديات صناعة السينما فى مصر، وتكلم عن أسلوبه الخاص فى التشخيص، وموجة النجوم الكوميديانات الجدد فى مصر، وفكر المنتجين المدمر لمقتضيات الفن فى صناعة السينما المصرية.

وقبل هذا وبعده طرح مسأله تسويق وتوزيع فيلم السادات فى أمريكا، والذى بدأ أول خطواته بالاتصال بالدكتور شبلى تلحمى أستاذ كرسى مركز السادات للتنمية والسلام فى جامعة ميرلاند، عن طريق «الأهرام/ واشنطن)، والذى وعد بأن يطلب من بعض أصدقائه فى هوليود أن يشاهدوه ويرون ما يمكن عمله، بعد أن يشاهده هو فى عرض خاص عند نزوله إلى القاهرة فى أبريل المقبل آنذاك.

وفيما يلى نص الحوار:

● السينما هى عناق الصناعة مع الموهبة، كيف ترى مدى تحقق أى من النسقين فى فيلم السادات؟ وما هو تقديرك لنوع الآراء التى ترى أن فيلما كالسادات أو حتى كغاندى، هو إعلاء للقيم التسجيلية على القيم الدرامية؟

○ التسجيل ، هو لقطات تاريخية، أو رص وقائع حقيقية مرتبة ـ بطريقة ما ـ بالتسلسل، حادث وراء آخر، وأن تخرج من هذه العملية ـ فى النهاية- بمعلومات.

أما الفيلم حين يبتغى التوثيق أو التعرض لشخصية تاريخية بعينها، فهو يعلى مقتضيات الدراما على مقتضيات التسجيل.

أنت تدخل إلى ساحة الدراما ليس لكى تأخذ معلومات، وإلا كان الحصول على كتاب مصور يحقق غايتك، ويشبع الاحتياج الداخلى عندك.

أنت فى الدراما تدخل داخل الشخوص نفسها، كيف كانت تفكر، وكيف كانت تحلم، وكيف تعاملت الشخصيات التاريخية مع المآزق التى تعرضوا لها، وكيف شكل كل منهم قراره.

الدراما تدخل رؤوس ونفوس الشخوص التى تدير الحدث، وتتلقى أو تتعرض للحدث.. بعبارة أخرى، التى تقوم بصناعة الفعل ورد الفعل.

ولكن ليس معنى هذا أن ترسم خطا قاطعا فاصلا بين التسجيل والدراما،

وتتصور أنه لا يمكن حدوث أى تداخل بين المربعين، فأنت أثناء صناعة دراما تتعلق بشخصية تاريخية، تجد التوثيق والتسجيل أصبحا لزاما لرسم الخلفية التى تتحرك أمامها الشخصية محل التركيز.

وما بين التوثيق والمعايشة تدور اللعبة بحيث يظهر الاثنان فى العمل الدرامى، ولكن كل بمقدار!!

الموضوع ليس أن أحمد زكى يقوم بتقديم شخصيات زعامات تاريخية عاصرناها، عاكسا أنماط سلوكها وتصرفها فى أدائه لدوره.

ولكن الفكرة هى المعايشة والاستلهام، التى يمكن أن تتم حتى حول شخصيات لم نشاهدها أو نرى صورها بالضرورة.

فعلى سبيل المثال: لو تناولت صلاح الدين الأيوبى، أو خالد بن الوليد، أو- حتى - أية شخصية معاصرة لم نشاهدها أو نراها على ذلك النطاق الواسع الذى رأينا فيه السادات أو عبد الناصر، فإن ذلك يعنى أن يقوم الممثل بدراسته الشخصية، أو «بتحقيق» هذه الشخصية - إذا جاز التعبير - بحيث يقرأ عنها، ويعرف كيف كانت تفكر، من هى؟، كيف تطورت طبيعيا فى حياتها، كيف اتخذت هذا القرار أو ذاك.

كل هذه التفاصيل الداخلية يأخذها الممثل ويعكسها فى أدائه الفنى، ولكن فى نفس الوقت يحافظ على الخطوط التى قرأها ودرسها، ويثبتها، ويؤديها بالصوت الذى يعجبه، والإحساس الذى يعجبه!

ومن وجهه نظرى أنا، أن الحالة الثانية التى يقدم فيها ممثل شخصيات مثل: خالد بن الوليد، أو صلاح الدين الأيوبى، أسهل ألف مرة من الحالة الأولى التى يقدم فيها شخصيات مثل: عبد الناصر أو السادات.

ففى حالة صلاح الدين يتفرغ الممثل لتوصيل المشاعر والأفكار التى سمع عنها، أو قرأ عنها، أو أجمع الناس عليها واتفقوا. أما عندما يقوم الممثل بتناول

شخصية معروفة ملموسة، محسوسة، عاصرها الجمهور، ورآها، وبعضه مازال يعيش معها أو تحت تأثيرها، فإن الضرورة تحتم أن يضيف هذا الممثل على أفكاره عن الشخصية، وليدة الدراسة والقراءة، مجموعة من الأنساق التى تمثلها هذه الشخصية المعروفة. ومن ثم يحاول الممثل أن يقترب من الصوت، ومن الشكل، وبعض التفاصيل الخارجية مثل أن أحلق شعرى بالموس لأبدو مثل السادات.

فبعد المعاشرة الداخلية، والإحساس بالشخصية، يأتى عامل المحافظة على الشكل الخارجى مع هذا الإحساس الداخلى.

هذا التزاوج «يوصلك»، ويستدعى عندك - كممثل - فى لاشعورك، الشخص الذى كنت تراه، وتلامسه.

ما يصدر عن القلب يصل إلى القلب.

وإذا كان الممثل يشعر تماما بالشخصية ويؤديها من قلبه، فسيصل - من دون شك - إلى قلوب المشاهدين، سيلقى - دفعة واحدة - بكل الحقائق والخيالات إلى قلوب وعقول الناس، المآزق والانتصارات والانكسارات، وكيف يشعر بمرحلة الشباب أو الطفولة، رغباتها وأحلامها، إحباطاتها، وعذاباتها .. كل هذا لابد سيشكل رؤية الممثل كما الطبيب النفسانى.

والطبيب النفسانى بعد دراسة الملف، يلخص رأيه فى بعض المصطلحات العلمية المتوالية، حين يقول هذه شخصية هستيرية، عصابية، انبساطية.. ويقرر العلاج سواء الدواء مثل: تفرانيل أو غيره، أو الأشياء التى سيتقرر على ضوئها العلاج النفسى أو المعنوى.

الممثل يقوم بنفس عمل الدكتور النفسانى، إذ يجرى وراء الشخصية، ويعمل على الوصول إلى تفسير لكل شاردة وواردة فيها، ولكن الممثل لا يفعل مثل الطبيب الذى يقرر عند إغلاق الملف ما هو الدواء الذى يجب أن يتعاطاه المريض، الممثل يبدأ مشواره حين يغلق الملف. بعبارة أخرى.. يقوم بتلبيس أو إسقاط ما قرأه فى الملف على جهازه العصبى، بحيث يتوحد مع الشخصية،

ويبدأ التحرك بها أمام عدسة الكاميرا، أو على شاشة السينما، ويسحب معه جمهورا عريضا يراقبه، ويتلقى منه، ويشاركه بعض الأحيان!

أنا أعتبر هذا هو العلاج الجماعى!

الجمهور كله يتلقى الشخصية وينفعل معها، ويرفض، ويقبل، ويخرج فى نهاية الفيلم بأحاسيس مختلفة، متباينة، ويرصدها، ويحكم عليها.

● فإذا ما أسقطنا عناصر هذا التنظير المحكم فى فلسفة التمثيل أو فى فلسفتك أنـت الشخصيـة للتمثيـل، على موضـوع السـادات، لتتحدث عن أرجحية الصناعة أو الموهبة فى هذا الفيلم.. فماذا تقول؟

○ الصناعة تظل محكومة باعتبارات مادية ملموسة، ومنظورة، ولكننى هنا بصدد الكلام عن الموهبة، عن الممثل!

من يقولون أن أحمد زكى يتجه لتمثيل أدوار رؤساء الجمهوريات، يرددون كلاما خائبا فى الواقع.

الممثل ـ اليوم ـ يرصد حركة الشارع الذى يمر فيه، والذى يعيش فيه، ومروحة واسعة جدا من الموضوعات قد يكون فيها البطالة، أو العمالة الزائدة، ومن الممكن أن يدخل مناطق حساسة مثل تلك التى دخلت إليها فى (زوجة رجل مهم)، أو الضابط فى (أرض الخوف)، أو شخصية كتلك التى دخلت إليها فى (الباشا).

نحن لسنا بصدد الحصر.

ثم قد أتناول شخصية من الهامشيين الذين يعيشون على حواف المجتمع مثل: (كابوريا)، أو الشخصية التى مثلتها فى (الإمبراطور).

بل وقد يذهب الممثل بما فهمه عبر المراقبة أو الرصد، أو بما أحس به عبر التتبع والتقصى، إلى الدخول على شخصيات اجتماعية إنسانية مثل دورى فى (اضحك الصورة تطلع حلوة)، أو أدخل على تعقيد العلاقة بين الرجل والمرأة، نصفا

الكرة الأرضية، مثل دورى فى (الراعى والنساء). . أين الممثل ـ هنا ـ من غرائز حب التملك والأنانية والحب والكراهية؟!

الممثل فى كل هذه «المعجنة» الاجتماعية ـ إذا جاز التعبير ـ ينتقل مما هو خاص إلى ما هو عام، ومما هو اجتماعى إلى ما هو نفسى، ثم يعبر الاثنين إلى ما هو سياسى، أو يقدم كل هذا معا فى ضفيرة واحدة، أو ينتقل مما هو شخصية متعلمة مثقفة أو محتلة لقمة الهرم الاجتماعى فى البلد، إلى شخصيات هامشية انقطع التراسل بينها وبين هذا المجتمع، إلا بالرفض، أو بالتعايش!!

الممثل إذن، وهو عنصر الموهبة فى السينما، طوال مسيرته الحياتية أو الفنية، يرصد شخوص وظواهر، ويعبر عن هذه الشخوص والظواهر، فى إطار من تطور العصر، وتطور المجتمع!!

مابالك حين يتناول هذا الممثل شخصية مهمومة بوظيفتها، وانعكاس وظيفتها عليها، وعلى الآخرين المحيطين به، وعلى أهل بيته، وعلى أهل وطنه.

رئيس الجمهورية هو موظف ـ مثل أى موظف فى الدولة ـ ولكن بدرجة رئيس جمهورية، التحميل عليه أكثر، والانكسارات أو الانتصارات عنده يتضاعف حجمها إلى حد كبير، بمقدار اتساع المساحة التى يتحرك فيها هذا الموظف أو يؤثر.

لقد كنت مشغولا جدا وغارقا جدا فى الشخصية التى أديتها فى (ضد الحكومة) وكيف انكسرت، وكيف انحرفت، وهى فى النهاية تمثل شخص واحد. . فرد واحد!

فما بالك حين أمثل شخصية رئيس جمهورية، مهموم بشعب، وأى قرار يتخذه يؤثر على هذا الشعب. . هذه شخصية ثرية وصعبة بالنسبه للفنان.

فى حالة عبد الناصر، كنت لا أجسد شخصية جمال عبد الناصر، وإنما كنت أبلور شخصية الرجل فى مائة يوم فقط من تاريخ مصر، حين رفضت الولايات

المتحدة والبنك الدولى إعطاءنا مالا، وكان ناصر يريد أن يصنع تنمية، وبحث فى دفاتره، فوجد قناة السويس فى أرضنا، وحفرناها حين استحل دمنا فيها، والشركة المالكة تعطينا الفتات.

وقرر عبد الناصر أن يؤمم شركة قناة السويس، ويعبئ العالم كله سياسيا معه.

كيف أدار هذا الرجل المعركة السياسية، وكيف كان انعكاس كل خطوة عليه، وكيف أصدر كل قرار، فأى خطأ فى الحسبة السياسية وقتها كان من الممكن أن يدمر الدولة، لقد كان هناك من رفاقه من يقول له اذهب وسلم نفسك إلى السفارة الإنجليزية، فذهب ـ ولكن ـ للناس فى الأزهر، ليصنع ثورة شعبية ويعبئ البلد.

من هو هذا الرجل الذى أصبح علىّ أن أحيط بشخصيته، وأعبر عنها؟.. الإلمام به كان مشكلة فى حد ذاته.

وعلى الضفة الأخرى للنهر، فإننى قد أكون فى مواجهة شخصية أخرى علىّ أن أقوم بتمثيلها لرجل آخر، يريد أن يدفع مصاريف بيته، وابنه مريض، وقد يموت.

كل من الرجلين لديه مشكلة.

وإذا مثلت هذا أو مثلت ذاك فسيكون الفرق أو حجم الفجوة بين الأداءين، هو بحجم الفجوة بين الرجلين.

يا شيوخ السياسة، يا من تتكلمون عن عبد الناصر بشكل انطباعى، الممثل يتحدث عنه حديثا مختلفا.

لقد كاد قلبى أن يتوقف حين أديت دوره وهو يخطب فى الأزهر، ويهتف: سنقاتل، والناس تكبر من حوله: الله أكبر.

عندما انتهيت من تمثيل المشهد أحسست بقلب هذا الرجل، لأن قلبى كان مع

قلبه، ووجدت ساقاى لا تقويان على حملى. وأحسست بتعاطف شديد مع هذا الشخص، ومرت بى نفس الأعراض التى كانت تمر به (الصداع ـ جفاف الريق)، لأننى توحدت بقوة معه.

أما فى حالة أنور السادات، فالفيلم يحكى قصة المقاومة فى مصر، حتى قبل تنظيم الثورة والضباط الأحرار.

الفيلم يرينا الشارع السياسى والاجتماعى فى مصر، وكيف نشأ تنظيم الضباط الأحرار، ثم كيف كانت إنجازات الثورة، وانكساراتها فى ١٩٦٧، ثم كيف أصبح نائبا، وكيف أدار الخداع التعبوى والإستراتيجى قبيل حرب أكتوبر، وكيف فكر فى زيارته للقدس.

دخلت بطن ودماغ السادات، لأعرف كيف كانت قراراته، وانعكاساتها على المجتمع، وأسباب الحملة ضده، ومن الذين كانوا معه.

ووجدت نفسى بصدد التعبير عن إنسان كتب عليه أن تكون حياته سلسلة من المواقف المستمرة، وفى ذات الوقت- كما ذكرت لك فى استفتاح هذا الحوار المهم- كانت الخلفية وراء الشخص هى التاريخ والتوثيق، وهى التى تحتاج إلى الرصد.. وإلى الصدق.

● تقول إنك تدخل فى بطن ودماغ شخصية من الشخصيات لكى تعرضها فى سياقها الزمنى وسياقها الاجتماعى ـ ومن هنا فأنت تبدو فى تخليقك لمساحتك الإبداعية، وليس فى أفلامك ذات الطبيعة التاريخية فقط، ساعيا لتشكيل وعى جديد لدى المتفرج، سواء بالشخصية التاريخية، أو الشخصية الروائية الدرامية. ومن هنا لابد أن أسألك عن حجم (المقصود) فيما تبدعه، وبالتالى حجم (التلقائى) فيما تبدعه أيضا؟

○ اتفقنا أن من حق الممثل أن يتعرض لأية شخصية، لأن هذه مهنته.

ولذلك حينما يتصور أحد أننى بأدائى للسادات بعد عبد الناصر، اخترت نموذجا سهلا، من فئة الإبداع سابق التجهيز، لمجرد أن الاثنين رؤساء جمهورية، فهذا هزر وكلام فارغ.

لقد قدمت ثلاثة ضباط بوليس ـ على سبيل المثال ـ ولكن كل واحد منهم كان شيئا مختلفا للغاية، على الرغم من أنه تخرج من نفس الكلية، ويحمل نفس الشارة.

كل منهم درس القانون، ولكن الاختلاف بينهم هو فى كيفية تعامله مع القانون.

نفس الشيء بالنسبة للصحفى، فالعنوان الذى يعلوه هو: (السلطة الرابعة) أو (فارس القلم)، ولكن كيف يمارس هذا الصحفى عمله كسلطة رابعة، أو يقترف من الأفعال ما يحاول تكييفه ليصبح فارسا للقلم.

وهكذا، فإن أداء شخصية السادات مختلف تماما عن أداء شخصية عبد الناصر.

● **أنت تطرح علىّ (المقصود) هنا فى الاختيار فقط للشخصية، ولكننى أسأل عن حجم (المقصود) فى الأداء.. فى التجسيد؟**

○ أنا أعطيك الحقيقة. فما الذى تقصده بحجم المقصود؟!

● **ما تفعله عامدا متعمدا مثل تبديل الملامح، أو حلاقة الرأس بالموسى، ولكن أنا أتحدث عن الأداء نفسه، ما هى نسبة العمد فيه؟**

○ الأداء ـ فى هذه الحالة ـ هو التوحد مع الشخصية، وبمقدار ما تتوحد مع ما يدور داخل هذه الشخصية، بمقدار ما يكون الأداء كبيرا ومهما.

التجسيد أو التقمص يعنى تلبس طرق الشخصية، فى الفعل، ورد الفعل، فالسادات ـ مثلا ـ وضع فى مأزق مراكز القوى، فكيف تعامل مع هذه

الشخوص، وكيف رآه هؤلاء الناس، وكيف نظر إليهم هو.. الصراع وكيف أداره بتركيبته السيكولوچية والشخصية.

التوحد مع هذه الشخصية هو الخطوة الأهم للإجادة، وذلك فعل مقصود فى بدايته، ثم تلقائى بعد ذلك، بمعنى أننى أسعى لأضع نفسى فى حالة توحد مع السادات، ثم أجدنى فى المشاهد التى أمثلها أتصرف بتلقائية كما لو كنت السادات.

هذا هو شغل الممثل، بل هذا هو الممثل نفسه!!

تصالح!

● **لكى تتوحد مع شخصية ما أو تصبح identified معها، هل لابد أن تكون متصالحا من الناحية السياسية مع الشخصية التى تلعبها فى فيلم (السادات)؟ وهل دخلت فى أى جدل ذاتى، أو جدل موضوعى، أو جدل مع الآخرين لتحقيق هذه المصالحة؟**

○ فى يوم من الأيام اختارنى الرئيس السادات لكى أؤدى دوره فى مسلسل، يعد عن كتاب «البحث عن الذات» (مذكراته)، وما دفع إلى هذه الفكره فى ذهنه، أننى كنت ـ وقتها ـ أجسد شخصية الدكتور طه حسين فى مسلسل «الأيام»، فقال: «هاتوا ابننا اللى عامل الأيام يمثل دورى.. أصله يشبهنى»!

وقد نقل المحيطون بالرئيس السادات الصورة لى، وقالوا إن الريس يريدنى أن أمثل دوره، وقد فرحت بهذا جدا، ولما قرأت (البحث عن الذات) فرحت أكثر لأننى وجدت الشخصية غنية جدا، والنقلات التى مرت بها سواء كانت اجتماعية أو نفسية، تفتح شهية أى ممثل جدا، ليبدأ فورا فى فك شفرة هذه الشخصية، ويتوحد معها، ثم يترجم هذه الأحاسيس.

لقد أحببت السادات كمواطن، وبالذات فى المناطق الواضحة، الساطعة من مسيرة زعامته، مثل حرب أكتوبر.

شيوخ السياسة دخلوا فى مخاشنات وتضاغطات مع السادات. أما أنا، فعلى

الرغم من كونى ممثلا متعلما، فإننى غير متبحر فى السياسة، وأفهم السياسة بوجدانى، ربما لم يكن لدى المواطن العربى المتعلم (كمتوسط حسابى) وقتا كى يفهم كل الأحداث التى مرت بنا أيام السادات، أو هكذا أنا، كنت معه فى المناطق الواضحة من تاريخه.

الأحداث كانت متلاحقة، والرئيس لم يكن لديه وقت لكى يوضح كل شىء باستمرار.

ثم جاءت اعتقالات سبتمبر، وسجن فيها رموز كنت أحبهم، أسماء شكلت عقلى، وأفهمتنى أصول السياسة، وما يجرى فى البلد. ومن هنا نشأت فى ظل هؤلاء، أحبهم وأتعلم منهم.

وفجأة.. وجدت هؤلاء وقد اعتقلوا!

على أية حال، فهذا التقلب ـ من الناحية الفنية ـ يزيد من فرحتى بالشخصية كممثل يبحث عن مواقف يبرز فيها قدرته على أداء انفعالات ومشاعر متضاربة، ومتقاطعة!

● **ما هى تلك الأسماء التى ارتبطت بها واعتقلها السادات؟**

○ أسماء كثيرة، على رأسها الأستاذ محمد حسنين هيكل، فقد كنت أنتظر صفحة الجمعة التى يكتبها (بصراحة) وألتهمها، كيما أفهم.

وكنت أسأل نفسى عندما اعتقل، لماذا جرى هذا؟!

ولا ينفع أن تلازمنى مثل هذه الحيرة وأنا أمثل، لابد أن أعرف أسباب أشياء كثيرة، حتى يتحقق التوحد الذى كنا نتكلم عنه، فكيف أعبر عن شىء لا أفهمه؟!

كان لابد أن تنجلى مناطق ضبابية كثيرة حول الشخصية حتى أفهم.

ومرت الأيام وبدأنا فى دراسة قصة وسيناريو فيلم السادات، وخططنا،

وبدأت أفهم ـ عبر هذا التخطيط ـ أن هناك أشياء عندما أبعد عنها أراها بشكل أفضل، وبدأت أدرك بعض العلاقات السياسية والدرامية داخل ظاهرة السادات بشكل أكبر.

ثم عندما بدأ انتشار القنوات الفضائية العربية، بدأت اقترابا أكثر من السادات عن طريق مشاهدة خصومه، وأقول لك الحق لقد بدأت أستشف بداخلى وقتها إحساسا بأن الرجل تعرض لشىء كبير من الإجحاف، فمعظم هؤلاء تعرضوا لخسائر اجتماعية أو سياسية فى عصر السادات، تبدأ من العزل وتنتهى بالسجن، ومن ثم كانت أحكامهم كلها تظهر وكأنها تسقط أزمة كل منهم الشخصية على العصر وتحولها إلى حكم إدانة لحقبة بأكملها!

ما بين سابع أرض إلى سابع سماء تجد أحكاما إطلاقية شديدة الفظاعة يتبناها الجميع فى مواجهة الجميع، وكلها مبنية على فوائد حققها البعض من العصر، أو خسائر مُنى بها البعض فى العصر.

أنا ناصرى الهوى، وأحب عبد الناصر، لأننى من بسطاء الشعب وفقرائه، وظللنا إنجاز الثورة، وأدخلتنا المدارس، وفتحت لنا أكاديمية الفنون التى تعلمت فيها.

وتشكل وجدانى فى ظل معارك القناة، والسد العالى، وجلاء الإنجليز.

أحب الثورة حتى بانكساراتها، حتى بهزيمة ١٩٦٧!!

ولكن لا يمكن أن أدخل هذا فى حكم سياسى أو تاريخى، فالحكم التاريخى يعنى أن نرصد ما لنا وما علينا.

وعندما أتناول سيرة أى إنسان أحبيته لابد أن أحاسبه، وأقول له فى ماذا أخطأ، وفى ماذا لم يخطئ!

استقطاب

● وكيف تغلبت على فكرة أن يكون حبك لعبد الناصر سببا فى

الاستقطاب مع السادات، مثلما يحدث فى تلك المعركة المنصوبة بين أحباء السادات وخصومه على القنوات الفضائية العربية؟

○ عبد الناصر كان أبى، وعندما رحل كنا نقول: ياعينى على من سيأتى بعده، فالشعب لن يقبل أى اسم بعد عبد الناصر.

أى كان من سيجىء بعد عبد الناصر كنا سنصدر له ـ أولا ـ هوانا فى حب عبد الناصر، أو كان رد الفعل الثانى هو الرفض لأى إنسان يجىء.

ومن ثم، فمقدرة السادات على أن يتجاوز هذا الوضع، نقطة حسبت له داخلى بدون شك، كما أنها كانت أحد جوانب الإجحاف التى تعرض لها مبكرا، وهو الآخر يستدر تعاطفا كبيرا معه!

لقد أحببت السادات حتى حرب أكتوبر، وبعد ذلك أصبحت الرؤية ضبابية جدا بالنسبة لمواطن متعلم عادى مثلى، ولكننى بدأت أعيد قراءته مرة ثانية، وبعد مدة كبيرة أعيد تشكيل رأيى فى جوانب كثيرة.

رحل الرئيس السادات قبل أسبوع من موعد تحدد لى معه ليحدثنى عن رغبته فى أن أمثل شخصيته!

ومن ثم تركت الموضوع، وأغلق التليفزيون موضوع عمل مسلسل عن حياة السادات.

ولكن صدى صوت تردد كثيرا فى جنبات نفسى، ولسنوات، يقول: (أريد أن أمثل هذا الرجل).

أنا أبحث ـ كما قلت ـ عن شخصية مركبة، وليس هناك أبدع من هذه الشخصية من الزاوية الفنية.

وقابلت السيدة چيهان السادات لأسألها عما غمض علىّ، وعرضت عليها سيناريو أولى، وقلت: أنا آسف فبعد موقف أكتوبر العظيم هناك أشياء ضده فى اعتقالات سبتمبر، فحسمت السيدة چيهان السادات هذا الكلام قائلة: الفيلم لن

يكون فيلما إذا لم يحتو بعض النقد. ووجدت نفسى أمام سيدة فاهمة، ومدركة، ومثقفة، وقالت لى: إنها بنفسها سألت الرئيس حول أحداث سبتمبر لأنها لم تك راضية عنها، ولكن السادات أجاب السيدة چيهان وحكى لها أشياء لم يحكها لنا، قال: «يا چيهان إسرائيل «بتتلكك» ضدنا مستغلة ديمقراطية الشارع الإسرائيلى، وديمقراطية الشارع الأمريكى، وهناك أصوات فى إسرائيل لا تريد اتفاقية السلام التى أبرمناها، وأنا أريد أن آخذ بقية سيناء، فقد أخذنا العريش ونريد أن نأخذ بقية سيناء، وأخشى أن «يتلكك» بيجن، ويقول إن شعبك لا يريد السلام، ومن ثم فأنا أبعدتهم ولم أعتقلهم، ولم يهن أحد منهم. آخذ أرضى فى ٢٤ أبريل بالليل، فأفرج عنهم فى الصباح، وتكون الفرحة فرحتين».

ولقد لقيت هذه الحكاية ارتياحا عندى، فسألت بعض الذين كانوا معتقلين، كيف كانوا يعاملون، فوجدت ـ فعلا ـ أن أحدا منهم لم تسأ معاملته.

لقد سرت وراء كل الحقائق متسائلا كصحفى، حتى إننى سألت محمود لبيب حلاق الرئيس السادات عن كل ما كان يحكيه أمامه من أمور سياسية، فقال إنه سأل الرئيس فى مسألة مقاطعة الفلسطينيين لاجتماعات ميناهاوس، فأجابه الرئيس السادات: محلك إيجار أو تمليك يا محمود، فأجابه: «تمليك ياريس»، فعاد السادات إلى السؤال: «كم كرسى؟» فأجابه محمود لبيب: «ستة كراسى يا ريس؟!»، فقال الرئيس: «افترض أنك استيقظت فى الصباح فوجدت هذا المحل وقد صودر منك بوضع اليد، بخطأ فى الأوراق أو الإجراءات، أو بأى ظرف من الظروف، ولكى تثبت أن هذا حقك ستدخل فى قضايا ومحاكم، ولكنك وقفت يا محمود تصرخ فى الشارع.. وقد نجحت فى أن أحصل لك على كرسى من الكراسى الستة داخل المحل، فهل من المعقول أن تقول لى إما أن أحصل على الكراسى الستة وإلا فلا!!

أليس المنطق يقول خذ الكرسى الأول، ثم احصل على الباقى بمجهودك، لقد

نقلتك داخل المحل وليس في الشارع. . هذه هي المفاوضات»، هذا هو السادات حين يتحدث إلى مصفف شعر، ولو جلس مع سياسى سيتكلم معه بلغة أخرى.

واستمريت في البحث، أسأل كل من له علاقة بالسادات، جوانب العظمة فيه، وجوانب الخطأ أيضا، فالسادات مثل بطل تراچيدى، له أخطاء قاتلة، وبالذات عندما توهم أنه يجب أن يواجه الشيوعيين، أو من كان يطلق عليهم: لابسى قميص عبد الناصر، بأن يصعد التيار الدينى بمواجهتهم.

على أن هناك جوانب أخرى فى سياسات السادات ، يمكن أن تكون مجالا لمراوحات شعبية، بحيث تأخذ أشكالا مختلفة مع تطورات الأحداث ، وعلى رأس هذه السياسات موضوع السلام مع إسرائيل.

لقد سألونى فى مجلة أمريكية: ما الذى يعطل فيلم السادات؟ فأجبت أن إسرائيل هى التى تعطل الفيلم!! ودهش صحفيو هذه المجلة من الإجابة، فقد سألوا سؤالا فنيا، وجاءت الإجابة سياسية.

وتفسير ذلك أن إسرائيل أقامت مع مصر سلاما منذ حوالى ٢٥ عاما، وفتحت سفارة فى مصر، ولم تشهد من مصر أية منغصات حول موضوع السلام، وكان يمكن أن ينتهى الأمر لدى الشعب المصرى، لو أن إسرائيل وقعت اتفاقيات سلام واحترمتها مع الفلسطينيين وسوريا، كان من الممكن أن تنتهى سلسلة المخاوف القاتلة. إن أية خطوة إيجابية تأخذها إسرائيل فى اتجاه السلام، تجعل الناس تترحم على السادات وتشعر بفضله، وأية ممارسات وحشية وعدوانية وغير سلمية لإسرائيل، تجعل الشعب المصرى يتساءل: لماذا فعل السادات هذا، وتركنا لهؤلاء المتوحشين.

سياسة إسرائيل تعذبنى حتى فى فيلمى!!

أمريكا!

● توزيع الفيلم فى أمريكا.. لماذا.. وكيف؟

○ لقد ظهر فيلم عن السادات فى أمريكا، ولم يعجبنى إطلاقا، وربما كان من الأشياء التى استفزتنى لكى أقدم على تمثيل فيلم السادات.

تم تصويره فى تونس على أنها مصر، والناس فى الفيلم تسير فى الشوارع مرتدية العباءة التونسية والطاقية التونسية، والجمال تسير حول الناس فى الأزقة.

هذه ليست مصر، ويبدو أن كاتب السيناريو كانت لديه خصومة كبيرة جدا مع عبد الناصر، فأظهره رجلا فجا وغريبا، وليس عند كلمته، وغريب الأطوار بشكل منفر!!

أردت أن أقدم السادات من خلال منصة حكم فنية وتاريخية محترمة ليس فيها هذا الهزل الخاضع للأهواء والمزاجات، وتخليص الحسابات على القهوة!!

إذا شعر القاضى أن لديه هوى، يجب أن يتنازل عن القضية فورا.

هذا - بالضبط - مثل حالتى حين قدمت عبد الناصر، كان هناك بعض من يصرخون فى وجهى: «منك لله نحن لا نحب عبد الناصر لماذا قدمته بهذا الشكل؟» وقد فعلت سيدة فى المنتزه معى هذا الأمر، وزوجها كان باشا قديم.. بعبارة أخرى لو خضعت لأهواء هؤلاء، أو أهواء من يحبون ويعشقون عبد الناصر، لفقدت حيدة القاضى!

وهكذا أعيش بعد بدء تمثيلى فيلم السادات، هذا الانقسام الشعورى - إذا جاز التعبير - يصدر نفسه لى، حتى على مستوى صغار.. كزملاء ابنى (١٥ عاما) فى مدرسة مصر للغات، كل واحد يتبنى موقفا قاطعا ضد أو مع عبد الناصر أو السادات، فى حين أن أيّا منهم لم ير هذا أو ذاك بحكم العمر! إذن فقد صدر الآباء مواقفهم، وخصوماتهم، وأفكارهم إلى جيل جديد، هو بطبيعته ليس طرفا.

(عبد الناصر - السادات - الملك) التفضيلات - هنا - قد لا تجعلنى أنتج فيلما حقيقيا، ولذلك يجب أن أكون قاضيا بجد.

أحسست بمسئولية تدفعنى للرد على الفيلم الأمريكى الذى أنتج فى تونس،

وقد أحضرت الفيلم (من جزئين) وطلبت أن أعرضه فى الحزب الوطنى، وحزب الوفد وجميع أحزاب المعارضة، وأسألهم ـ جميعا ـ أيرضيكم أن يشوه تاريخكم على هذا النحو؟ بالطبع لا، كما لا يمكن أن نتناول سيرة السادات بمراهقة مخرجين أو كتّاب سيناريو يريدون أن ينتصروا لهذا العصر على حساب ذلك العصر.

نفس الشعور هو الذى دفعنى لأقدم عبد الناصر، حين توقفت عن تقديم أى سينما أو مسرح أو تليفزيون، ولمدة عامين عشت متفرغا لتمثيل عبد الناصر، وما صرفته فى العامين، يساوى سبعة أضعاف الأجر الذى حصلت عليه من التليفزيون.

وعندما عملت فيلم السادات جلست أربعة أعوام فى البيت أعتذر عن أفلام ومسلسلات، وبالطبع كمنتج، كنت مدينا للبنك، وعندما أفعل ذلك، فإنما أفعل وأنا لا أعرف ما إذا كان الفيلم سيكسب أم لا، لا يوجد منتج اليوم يدخل فيلما بحر ماله، لابد أن يأخذ سلف توزيع، ويكون لديه كيان كبير لا يتأثر من إنتاج فيلم. أى نعم دخل معى التليفزيون بثلاثين فى المائة، ولكن المخاطرة الأكبر أنا الذى أتحملها.

ليس لى مكسب سوى التعبير عن نفسى كمواطن يحب بلده، ويحب عبد الناصر والسادات ومبارك، ويرى أن كل واحد منهم كان يحب بلده حتى النخاع، ويريد أن ينجز لبلده أشياء عظيمه، وإذا اختلفنا فى وجهة النظر مع عصر بعينه فليس معنى ذلك أن نخون هذا العصر.. مرة أخرى ليس لى مكاسب سوى التعبير عن شعورى كمواطن!!

أما لماذا أمريكا، فلأننى أتمنى أن يروا مصر، مصر الحقيقية والسادات الحقيقى، لقد قدموا فيلما، وأنا أريد أن أرد على الفيلم الذى قدموه فى أكبر دول العالم، فى أم السينما، فى المساحة التقليدية التى كان السادات يتحرك عليها، ويقول إن له بها علاقة إستراتيچية.

أريد «السادات» الفيلم أن يقوم برحلة أخرى إلى أمريكا، مضافة إلى رحلات «السادات» الرجل، الذى كان يبحث لبلده عن الأفضل، من خلال هذه الرحلات!!

● كيف مع كل الذى ذكرت.. سيعبر فيلم مثل السادات من محاكمات يمكن أن تعقد له من شيوخ السياسة الناصرية بمنطق الاختلاف والخلاف السياسى؟ ثم كيف سيعبر من محاكمات يمكن أن تعقد له على منصة ساداتية بمنطق التوحد السياسى معه؟ ما هى توقعاتك لنوعية المقولات التى ستواجه بها بعد الفيلم، فأنت تقول كل هذا الكلام والفيلم لم يعرض بعد؟

○ لقد أخذ البعض مواقف على مجرد الفكرة، قبل أن أدخل للتمثيل فى الفيلم كان مجرد ذكر السادات يعرضنى لهجوم فظيع جدا، لدرجة أننى كنت فى الحزب الناصرى، أحضر احتفالا بنا لتقديمنا ناصر/٥٦، وقامت سيدة فاضلة وهاجمتنى هجوما شرسا، قائلة: «كيف تقدم السادات؟».

فقلت لها وأنا فى الحزب الناصرى: «قد كان السادات رئيسا لدولتى، وعمل قرار العبور فهل تستطيعين أو تستطيع أية جهة أن تنكره عليه، أنت لم تشاهدى هذا الفيلم كى تحكمى عليه»، ما يسيئنى ـ حقيقة ـ هو الذين يهاجمون الفيلم قبلما يروه، وكان الفريق فوزى ـ رحمه الله ـ يجلس على يمينى، وسامى شرف يجلس على يسارى، والاثنان كتبا لى كلمتين رقيقتين حين قدمت فيلم ناصر، إذ كتب لى الأول: (أيها المقاتل الشرس) إشارة إلى الفرد فى وحدات القوات الخاصة الذى يكلف بمهمة انتحارية، وقد رأى أن تعرضى للرئيس عبد الناصر مهمة انتحارية!! أما سامى شرف فكتب لى: (دخلت الفيلم غير مقتنع.. وخرجت مقتنعا)!

. . . .

وعندما حضرت الندوة فى الحزب الناصرى، ودافعت عن السادات، ربت الفريق فوزى كتفى بيد حانية وقال: (لقد كنت أحبك وأحترمك).

● ولكن فيلم السادات لم يك عن لحظة مضيئة وغير مضيئة، وإنما كان عن امتداد زمنى طويل جدا؟

○ ومن ثم سترى فيه معالجة مختلفة جدا، وفيه هذا الصعود والهبوط الإنسانى المغرى لأى كاتب دراما، ولأى ممثل بالقطع.

● ننتقل من فيلم السادات إلى أشياء أخرى، صناعة السينما أزمة، واقتصاديات هذه الصناعة فى أزمة. ماذا أثمر هذا الوضع فى ساحة السينما المصرية اليوم؟

○ لى وجهة نظر، فى هذا السياق، وهى أننا شئنا أم أبينا فإن السينما المصرية الأم، شكلت وجدان العالم العربى كله، وهى ذاكرة الأمة.

إذا شاهدنا فيلم «العزيمة»، وهو فيلم اجتماعى، ستتعرف على كيف كانت مصر فى هذا الزمان، وكيف كانت مفاهيمها، وحركة الناس فيها، وشكل الشوارع، وكيف كانت حالتها السياسية، ونوع التيارات الفكرية الفاعلة فيها.

السينما ترصد واقع.

قد تلخص الأربعينيات فى سطر فى كتاب، ولكن الفيلم يجسد هذا السطر ويفصله ويريك الحركة، حركة الزمن نفسه.

أعيد وأزيد أن السينما المصرية شكلت وجدان العالم العربى كله.

«اجتماعية». . «غنائية». . «سياسية»، التف العالم العربى حول السينما المصرية، ولابد أن يعرف الجميع قيمة هذا.

لقد عرض «ناصر ٥٦» فى معهد العالم العربى فى باريس، بترجمة فرنسية، وبعد العرض جاء أحد الصحفيين وقال: «لقد كان لدى عبد الناصر حقا فى تأميم

قناة السويس. إن هذه الوقائع سقطت من كتب التاريخ الفرنسية.. لابد أن نعيد النظر فى هذه الحقبة من تاريخنا».

إذن استطاع شريط سينمائى أن يغير من وجهة نظر صحفى فرنسى عام ٢٠٠٠ بعد ٤٥ عاما من تأميم القناة!

نفس الشىء حدث فى فيلم (الرسالة)، وفى فيلم (عمر المختار)، بل وأسأل نفسى لم لا نقدم فيلما عن القضية الفلسطينية.

لقد كنت أحضر مهرجان أيام قرطاج فى تونس وقتما كان الرئيس عرفات يعيش هناك، وقلت لإخواننا الفلسطينيين، أنتم تصدرون كتبا كالمطر، وتلقونها فى السفارات، من دون أن يفتحها أحد، أو يطالع ما فيها، لو خصصتم جزءا صغيرا من هذه الأموال، أو حتى طائرة من الطائرات التى سقطت فى حرب الخليج، وأنتجتم فيلما عن القضية الفلسطينية بممثلين عالميين أو عرب، وبتقنية عالية سيكون أجدى وأفيد مائة مرة.

الجمهور فى الخارج يشاهد (قائمة شندلر) ويتعاطف مع ما يطرحه (بغض النظر عن صحته التاريخية أو السياسية من عدمها)، فلماذا لا يشاهد هذا الجمهور فيلما عن قضية فلسطين.

أنا رجل صنعته الفن، ومدفعه هو فنه، والسينما ـ كما قلت ـ تنقل حياة كاملة للمتفرج، وهى أكبر كثيرا جدا من أن تقدم غنوة، يسمعها العرب فيبكون، وينهنهون ويلطمون الخدود!!

أول نقطة فى اقتصاديات السينما، وصلا بسؤالك، هى أن أستغل الثروة المتراكمة لدىّ من أصول وستوديوهات وأفلام.

نحن نرى الأفلام المصرية فى «أوربيت» «وإيه. آر. تى»، وقد تم العناية بها، وتنظيفها، وترميمها بشكل يحافظ عليها. فلماذا لا نحاول نحن الحفاظ أيضا عليها، بوصفها رقما يدخل فى نطاق اقتصاديات السينما؟!

وعندما تشاهد ستوديو مصر فى بعض الأفلام بمساحته الفسيحة وحدائقه، ثم تشاهد ما وصل إليه هذا المكان التاريخى الآن، تصاب ـ من دون شك ـ بصدمة كبيرة، ولا أحد يصلح هذا المكان، ولا يتم بيعه إلى القطاع الخاص ليصلحه، هذا أيضا رقم يضاف إلى اقتصاديات السينما.

أنا ـ كفنان ـ لى عمر افتراضى، وبعده سأموت. أنا أريد أصنع فنا بشكل جيد، وأريد أن أدخل ستوديو مجهزا بشكل محترم، أريد أن أصنع فنى وتاريخى، وأكون منارة ثقافية للكل.

هذا ليس تنظيرا سياسيا ولا اقتصاديا، ولكنه محاولة للحفاظ على العنصر البشرى، الذى يدخل ـ هو الآخر ـ ضمن اقتصاديات السينما.

لقد أشاد النقاد فى مهرجان كان فى المسابقة الرسمية بفيلم (الحب فوق هضبة الهرم)، واسأل يوسف شاهين وسمير فريد، ولكنه رُفض لرداءة الصوت والصورة، ومن ثم دخل(شهر المخرجين) وهو فعالية أخرى من فعاليات مهرجان كان.

ماذنبى؟.. ماذنب نجيب محفوظ؟.. ما ذنب عاطف الطيب؟

أنا ـ فقط ـ أريد فيلما صورته وصوته جيدان.

وما حدث فى (الحب فوق هضبه الهرم) هو هدر لفرص ولإمكانية تألق ولمعان ودعاية للفيلم المصرى، وهذا ـ أيضا ـ يدخل فى اقتصاديات السينما.

ابنوا ـ كذلك ـ دورا للعرض، وامنحوا الجميع فرصا لذلك، شريطة أن يكون الذى يبنى دارا للعرض محبا للسينما، لأنه لن يبنى دار العرض بشكل جيد، إلا إذا عرف السينما وعرف قيمتها.

أتمنى أن تكون هناك خطة للشركات الكبيرة، وليس ـ فقط ـ البيع والشراء.

زمان كان المنتجون من أمثال آسيا وصبحى فرحات، ورمسيس نجيب، وچان خورى ينتجون فيلما مثل إسماعيل يس فى الأسطول، عارفين بأن هذا الفيلم الكوميدى البسيط سيأتى لهم بأموال، ولكن إلى جواره ينتجون أعمالا أدبية

يعرفون أنها لن تأتى بأموال كدعاء الكروان، والحرام، والناصر صلاح الدين الأيوبى، حيث كانت آسيا فى هذا الفيلم تخيط ملابس الممثلين بنفسها هى وأولادها، هذه أمثله مذهلة عن عشق السينما، وهى التى كانت تجعل من الصناعة مجالا حقيقيا يتحرك إلى الأمام، وله شكل وقوام واضحين.

أما الآن فالمنتج لا يدخل فيلما بحر ماله، وإنما بسلف توزيع، يعنى المنتج يأخذ مالا من الموزع بناء على أسماء فريق العمل. بعبارة أخرى.. المنتج «يشحت» بأسمائنا لدى الموزع، وبعد أن كان الموزعون يأتون من البلاد العربية ليجلسوا فى مكاتب المنتجين يريدون أفلاما، أصبح المنتجون يذهبون إلى مكاتب الموزعين يريدون سلفا!!!

وزارة الإعلام تشكر على الإنتاج السينمائى الإعلامى، وعملت ستوديوهات والنية سليمة، لكن الحكم على هذه التجربة معلق على أشياء أخرى، أتمنى أن يبنوا دور عرض وينشئوا هيئة توزيع، ولا يجروا وراء قوانين وأحكام السوق التجارية فقط، لأن ذلك سيهبط بمستوى الإنتاج، والهبوط بمستوى الإنتاج سيؤدى إلى تدهور الصناعة، وتشويه سمعتها الفنية، وتقليل مرتبة تميزها، ومن ثم فهذا أمر سيصب ـ فى النهاية ـ فى اقتصادياتها، وسوف يحصرها فى سوق ضيق وصغير بعيد كل البعد عن مواصفات التوحيد القياسى الفنية العالمية!

أتمنى أن تنجح أيضا شركة نهضة مصر الجديدة، شريطة أن يضع أصحابها نصب أعينهم كل ما كنت أقول إلى جوار عناصر السوق وأركان التجارة.

فجــــوة!

● لأن لك طريقة أو سمتا خاصا جدا فى طريقة الأداء، قد لا نستطيع وصفه، أو تفصيله فى هذا السياق، كيف تعالج الفجوة بين أدائك وأداء المشاركين معك فى أى عمل فنى؟

○ لا أعرف ـ حقيقة ـ ولكن أنا لست مطربا منه للميكروفون، ومعه عازفين

يؤدن عملهم وفقا لمقاييس دقيقة مكتوبة فى النوتة الموسيقية، ومن ثم فليس لى تحكم كامل فى مفردات العمل حولى.

بالمناسبة فى يوم من الأيام تمنيت أن أكون مطربا، ولكن صوتى ليس جيدا ومع ذلك فإن أحمد فؤاد حسن قال لى: إن الأستاذ محمد عبد الوهاب، طلب منه غنوة (كابوريا) على شريط، وقال: «هذا الولد يعرف كيف يكح وينف ويتف وهو يغنى!! مع محافظة على الجمل الموسيقية وبالتزام بمتقضيات العمل الموسيقى»، فى أغنية كابوريا كنت أغنى بصوت ولد صنايعى نجار، ولم أحاول أن يكون صوتى حلوا، بالضبط مثلما غنيت بصوت البواب فى فيلم (البيه البواب)، أنت لن تأتى بعبد الحليم حافظ ليغنى لكِ فى هذه الحاله أو تلك.. أنا آخذ بناء الشخصية الدرامية معى وأنا أغنى، على حين عبد الوهاب ـ مثلا ـ لن يقف «ليطجن» ويقول: «أنا فى اللابوريا» مثل حسن ودود، الأغنية فى الفيلم يجب أن تكون بديلة لمشهد تمثيلى كامل، وهذا لا يقدر عليه إلا ممثل.

أما فى التمثيل، إجابة على سؤالك، أحيانا كثيرة تجد الممثل أمامك، يدفعك لأن تكون (أوفر) أو متصاعدا فى أدائك عن النغمة الصحيحة والشكل الصحيح.. وأحيانا أخرى أجد الممثل أو الممثلة أمامى هم الشخصية بالضبط فيأتى الأداء من الجانبين طبيعيا جدا، فمن وجهة نظرى أن التمثيل هو اللاتمثيل، والإخراج هو اللاإخراج، والموسيقى هى اللاموسيقى، ولو زاد أحد هذه العناصر فى الظهور أربك كل المعادلة، وشوه الرسالة التى يجب أن تصل إلى المتلقى.

عندما أقرأ فى سيناريو: (وصرخ فيه محمد فارتعدت فرائصه)، فطبعا سأكون أنا الذى ترتعد فرائصه، ولابد أن تكون صرخة محمد من النوع الذى يؤدى إلى ارتعاد الفرائص، فإذا جاؤنى بممثل يلعب دور محمد وصرخ صرخة خافتة هينة، فسوف ترتعد فرائصى بمقدار صرخته (يضحك)، يعنى بدلا من أن يسقط منى الورق والأشياء التى أحملها، سأنفعل بجرعة متواضعة تختلف عن الانفعال المطلوب فى السيناريوا

هذا بالقطع شىء من العذاب!!

- **العقيدة الفنية لدى المبدعين، وربما لدى الجمهور اهتزت تحت وطأة ظهور أفلام العشرين مليون فأكثر، ونجوم الكوميديا الشبان، هل تعتقد أن تغييرا ما يجب أن يوضع فى الحسبان ونحن نتحدث عن سينما القرن الواحد والعشرين بعد هذا الاختلاف البادى الذى أحدثته هذه الظاهرة؟**

○ كما كنا نقول، السينما كصناعة فيها أفلام كوميدية، واجتماعية، وتاريخية، وبالضرورة فإن الكوميديا هى لون من ألوان الدراما، وحتى الكوميديا نفسها مقسمة، ما بين كوميديا اجتماعية، وكوميديا سوداء، وكوميديا سياسية، وهناك فوارق فى هذا السياق ـ بين ما يقدمه لويس دى فينيس وبيتر سيلرز، وما يقدمه شارلى شابلن وإسماعيل ياسين، وبين ما يقدمه نجيب الريحانى وعادل إمام.

أفلام الكوميديا مطلوبة، وهى تحتل مكانها فى أولويات العمل السينمائى، ولكنها شق من عدة ألوان.

هناك أولاد يقدمون أفلاما كوميدية، وأدواتهم ممتازة وليس فيهم عيب، لماذا نهاجمهم؟ إن الأطفال يحبونهم، وهناك قوة شرائية ضاربة تعترف بهم وتبحث عنهم وبالذات فى الصيف (فصل الإجازة). أما حكاية الكلام عن سينما (شبابية) فهذا كلام خائب، وإلا لو كانت أفلامهم هى أفلام الشباب،فما هى الخانة التى يمكنك أن تصنفنى، فيها هل تكون (سينما الرجاله)؟!!

شبريط السينما يشاهده مَن عمره فى عمر الرجال أو الشيوخ أو الأطفال، وهل يعنى وصف السينما بالشبابية، أن يموت أى واحد يبلغ سن الأربعين قبلما يصبح رجلا ـ ونعتبر أنه ليس من حقه أن يكون له سينما أو غناء أو حياة!!

هذه الأفلام وهذا الإقبال وليد تغير اجتماعى وثقافى كبير حدث، فقد كان

لدينا ـ فى يوم من الأيام ـ طبقة متوسطة، كانت قوة ضاربة شرائية، ومن أولويات حياتها الذهاب إلى السينما فى أحد أيام الأسبوع، ولكنها لم تعد تدخل السينما، وأصبحت تكتفى بمشاهدة التليفزيون، أو شريط الفيديو، ولا ينزلون للخروج كما كان يحدث، وأصبح أولادهم قوة شرائية وأصبحوا هم جمهور السينما.

ومن جهة أخرى، اكتفت طبقة الحرفيين بالدش، إذن فلكى تدفع أولئك المثقفين للنزول والذهاب إلى السينما، لابد أن تحلف لهم على المصحف أن الفيلم جيد، ويستأهل النزول من أجله.

أنا سعيد بسنى الحالى، لأننى عندما كنت فى سن الأولاد الكوميديانات كنت أقدم (الحب فوق هضبة الهرم) و (النمر الأسود) و (طائر على الطريق)، إنما لم يكن أحد يقدم لى أفلاما أو سيناريوهات مثل (ضد الحكومة) أو (اضحك خللى الصورة تطلع حلوة) أو (ناصر) أو (السادات)، فقد كانوا يرون أننى صغير على أداء مثل هذه الأدوار، أما اليوم فسنى مناسب، ومن ثم فإننى سعيد بما بلغت من العمر.

هم يؤدون أدوارا تليق بسنهم فى قسم من أقسام الكوميديا وبالمستوى الذى يتناسب معهم، وأنا أؤدى أدوارا تليق بسنى فى المساحات التى تعودت الإبداع فيها، وبالمستوى الذى تعودت الإبداع فيه، سواء عندما كنت فى سنهم أو بعد ما أصبحت فى سنى.

كل الأساطير التى قيلت حول هذا الموضوع (لخبطة) أشاعها المنتجون الذى يكسبون من وراء هذه الظواهر.

لم أك أستطيع تقديم شخصية مثل عم السيد غريب فى (اضحك الصورة تطلع حلوة) إلا إذا مررت بمخاض تاريخى طويل، المسائل موصولة، والمعادلة الفنية والإبداعية لها قوانينها، لا يجوز العبث بها، أو الخضوع لقانون ومعادلة الخلل التى يود البعض إحداثها الآن.

حصل عم السيد غريب على جائزة من شنغهاى، وعملوا لى احتفالية فى وزارة الثقافة، وفرحت كثيرا لأن الذى حصل على الجائزة هو التراكم الطويل لعملى.

سعدت لأن هذا دور ما كنت أستطيع أن أقوم به زمان.

المعادلة عندنا مضبوطة، والعيب ليس فينا، والعيب ـ أيضا ـ ليس فى الأولاد الكوميديانات الموهوبين، ولكن العيب هو تحويل نجاح فيلم إلى ظاهرة، بل يريدون أن يحولوها كذلك ـ إلى الشكل المعتمد الجديد للسينما!

يارجل.. هناك سيناريوهات عند بعض المنتجين بطلتها سيدة اسمها أنعام، فإذا بهؤلاء المنتجين يحورون هذا الاسم ويحولوه إلى نعيمة، لكى يصبح الفيلم مناسبا فيما يلعبه أحد الأولاد الكوميديانات الجدد.

لا يجب أن ندينهم، ولكن ندين من يعبثون بمعادلة السينما، ويحولونها إلى مجرد تجارة.

بعضهم يهاجم النجوم القدامى، وهو يدفع بهؤلاء إلى الظهور، كأن الهجوم على النجوم القدامى هو سلم لصعودهم، فأولا هذه إهانه لحق النجوم الشبان، فهم يصعدون لأنهم موهوبون، وليس بسبب الهجوم على النجوم الكبار، وثانيا سيقعون فى الفخ نفسه حين يكبرون، وتصعد الوجوه الجديدة على سلم الهجوم عليهم.

والبعض يبرر هذا الهجوم بارتفاع أجور النجوم الكبار، فهذا الوجه الجديد (ياعين أمه) يسندوا إليه البطولة بمليم وهو يرضى بالمليم، وبعد فترة يطلب عشرة مليمات، ثم يطلب ٢٠٠ قرش، فهل هذا مبرر للانقلاب.. المنتجون أصبحوا يبحثون عن الأجر الرخيص فيأتون بوجوه جديدة، لو (ضرب) أحدها كان بها، وإذا لم يضرب، قالوا نحن نقدم وجوها جديدة، ولكن فى الواقع ما يحركه ليس هذا الهدف النبيل!!

ضرب النجوم وضرب الرموز، هى نغمة غير بريئة إطلاقا، حتى لو تدثرت بغطاء من نوع (اتساع المجال للوجوه الجديدة).

● ما تقوله فى الفن أشبه بما كنت تقوله فى السياسة، ويقوم على إلغاء قيمة التراكم، بحيث يصبح السادات بدلا من عبد الناصر، وعبد الناصر بدلا من الملك؟

○هذا صحيح كلية.

وأنا أحمد ربنا أن الأدب العظيم قدم فى السينما بالفعل، بحيث تجسدت روائع نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، وغيرهما.

أما الكتاب الجدد فهم يستعملون الرمز، وأقلامهم جيدة للغاية، ولكن نحن لا نعرف ماذا يكتبون، ولا نقرأ (وهذا تقصيرمنا) حتى أعمالهم

لو لم نكن قد قدمنا زقاق المدق، وبداية ونهاية، والقاهرة ٣٠، ثم ظهرت موجة التجارة الحالية التى يمكن أن يقول أحد رموزها أن مثل هذه الروايات لا تبيع ولن تكسب، لكنا ـ بالفعل ـ نعيش مصيبة كبيرة.

فى العالم كله تجد الشركات الكبيرة مثل مترو ويونيفرسال تقدم أفلاما لجاك نيكلسون والباتشينو وروبرت دى نيرو، ويحصل كل منهم على ٣٥مليون دولار، ولكنها تقدم بتقنية عالية جدا أيضا أفلام سيلفيستر ستالونى وأرنولد شوازنجر، الذين يحصلون فوق أجورهم على نسبه من الشباك.

هذه الشركات تخاطب شباب هارلم، الذى هو شباب الهوشيه، الذى هو شباب عماد الدين وتحصل على مكاسب خرافية من خلال أفلام ستالونى وشوازينجر، ولكنها ـ أيضا ـ تقدم أفلام القيمة المعنوية لآل باتشينو ونيكلسون ودى نيرو، وبمالمناسبة فإن أبطال كمثل ستالونى يعرفون قيمة هؤلاء جدا، ويتمنون لو كانوا فى مثل موهبتهم وأدائهم ليقدموا تلك الأعمال الرفيعة!

عندنا خلط أوراق مرعب، فمن يكسب دخلا أكبر يكون هو الأحسن.. وهذه ليست بالضرورة معادلة صحيحة.. أبدا... ليست صحيحة!







الكاتب المسرحى لينين الرملى:

عن الستينيات والتخلف وعطيل والشىء والفاشية والاختناق!

- فى عام ١٩٦٧ انتهت أسطورة توافق كتاب المسرح مع النظام!
- جيل آباء المسرح فى الستينيات تكون قبل ١٩٥٢، وتم شتله صناعيا فى أرض لم تك أرضه!
- إحدى مآسى المسرح فى مصر أن القطاع العام كان (خاصا)!!
- كانت الكتابة لمسرح القطاع الخاص ـ وقتما بدأت ـ تبدو وكأنها عمل فضائحى!
- رفضت تغيير اسمى كموقف وجودى!
- قاومنى جيل الآباء، مقاومة ساذجة من خلال الأدوات التى يملكونها مثل مجلة (المسرح)!
- أزمتنا ليست أزمة مسرح.. ولكنها أزمة تخلف!!
- دخلنا العصر الحديث بقدم، وظلت القدم الأخرى متجمدة فى الخلف!!

- العلم يمنح النظرة الشاملة، وهى من ألزم اللزوميات للفن!
- المقهى جزء من تكوين الشعب العربى، لكن المسرح ليس كذلك!
- غياب المنهج العملى أدى إلى استشراء الفاشيتين الدينية والسياسية!
- صعب على الفاشى أن يكون مبدعا لأن الفاشية ترتبط بالماضى والإبداع يستشرف المستقبل!
- أنا دون كيشوت وجودى لا أحارب معركة خيالية!
- تفاصيل الحياة اليومية أصبحت أشبه بمسرح اللامعقول!!
- أعترف أن مساحة الإبداع تضيق جدا!
- مصر غير كل الدنيا.. فكتائب الإيدولوجيا تدين ما يقدمه المسرح التجارى حتى لو كان جيدا، وتحتفل بمسرح الدولة حتى لو كان رديئا!

لينين الرملى

هو (حالة) مسرحية لوحده!

والحالة المسرحية، هى شىء يتجاوز كثيرا وصف أو صفة، أو وظيفة (كاتب المسرح).

الكاتب المسرحى، هو القائم بفعل الإبداع المسرحى، المعبر عما يجيش بصدره من انفعالات أو يموج بعقله من أفكار.. وهو يعكسها سطورا على الورق، ليؤديها المشخصون فى مواجهة الجمهور، بغية إحداث تأثير بعينه، سواء كان تحريضا على فعل، أو تعديلا، أو تغييرا لنمط الفكر أو الشعور السائد عند الجمهور، أو خلقا لطلب على سلعة شعورية وفكرية جديدة لدى هذا الجمهور.

أما الحالة المسرحية، فهى حزمة من العناصر تخضع لتبادليات نشطة بين تكوين كل منها، وتأثير أى منها، سواء السياق الزمنى والمكانى والشعورى للإبداع، أو علاقة المبدع بالنظام السياسى والقيمى والثقافى السائد، أو مزاج الجمهور فى زمن ظهور العمل المسرحى، أو عناصر الإنتاج المتاحة، أو مستوى العناصر الفنية الوسيطة الناقلة للعمل المسرحى.

لينين ينتمى إلى الوصف الثانى، وهو بذلك ـ عملة نادرة جدا، ربما يكون أفضل شرح لها هو هذا الحوار المسهب، حول المسرح الذى تناول فيه ديكتاتورية جيل الآباء، والصعوبات التى تحاصر الكاتب، ومعنى النظرة العلمية لحقائق الحياة، وتأثير كتائب الإيديولوجيا على مساحة الإبداع الممكنة، ونوع الواقع العربى والمصرى الحالى.

وفيما يلى نص الحوار:

● **دعنا يالينين ـ نبدأ بداية غريبة لهذا الحوار، فأنا لا أظن أن ساحة**

أخرى فى مصر خضعت لهذا اللون من الوصاية البطريركية المطلقة ممن يسمون أنفسهم بجيل الآباء قدر ساحة المسرح.. أى نعم كانت هناك وصايات نسبية فى كل مجال، ولكن فى المسرح كانت الهيمنة كاسحة، وبدت الأعمال العظيمة والجديدة وكأنها تمرق لتعانق الناس ـ فجأة ـ فى غفلة من الديدبانات الحارسة التى تمنع الاتصال بالناس من دون إذن، أو التأثير فى الجمهور من دون موافقتها، أو التشارك فى الحلم من دون رعاية، أو اقتسام الأمل من دون وصاية.. هل شعرت بهذه الأزمة.. وكيف أدرت معركتك مع هذه الهيمنة البطريركية؟

○ أنت تتكلم عن جيل آباء الستينيات..

الستينيات ظرف زمان، له ملابسات خاصة جدا، وهذا الزمان شهد نهضة حقيقية كان المسرح أحد ملامحها جوانبها، ولكنها كانت نهضة مصنوعة وليست طبيعية.

فهذه النجوم والرموز التى ظهرت فى الستينيات، تبدو لى كأنها ولدت فى بلد، وهاجرت إلى بلد آخر، أو أنها شتلة أخذتها من أرض ووضعتها فى أرض أخرى.

إذا تكلمنا عن هذا الرعيل ستجد أنه قد تكون قبل ١٩٥٢، ولكن البيئة التى ترعرع فيها ـ وبالذات رجال المسرح ـ كانت فيما بعد ١٩٥٢، فى أوائل الستينيات.

يستوى فى هذا د. يوسف إدريس، أو نعمان عاشور، أو عبد الرحمن الشرقاوى، أو الفريد فرج.

الجميع كانوا أبناء تكوين الأربعينيات.

وجاء النظام الجديد، فأنشأ عشرة مسارح للتليفزيون، ودعم المسرح، وأصدر كتابا كل ست ساعات، وجعلوا السينما مؤسسة قطاع عام، وأمموا الصحافة،

فكانت هذه ـ هيمنة مقصودة من الدولة على الثقافة والإعلام، مواكبة للهيمنة الاقتصادية والسياسية التى سادت فى هذا السياق.

وعندما عمل جيل الآباء هذا ـ كما تسميه ـ فى الإطار الذى رسمه النظام وقتها، كانوا موافقين جدا عليه، أو تصوروا ذلك، وارتبطت أغلبيتهم ـ بشكل أو بآخر به ـ (رأسوا تحرير مجلات أو تبوأوا مناصب، أو أصبحوا رؤساء لبيوت المسرح ذاتها).. هكذا كان سعد الدين وهبة، ورشاد رشدى ونعمان عاشور وعبد الرحمن الشرقاوى.

وزقزق الجميع وشقشقوا كما يريدون، لأن هناك توافقا كان حادثا بينهم وبين النظام، حتى هذا الحين.

ولم تكن هناك تقاطعات بينهم وبين النظام، ومن ثم ـ نادرا ـ ما كنا نسمع عن حجب عمل مسرحى أو منع آخر.

مسرحية سعد الدين وهبة (المحروسة) كانت تسخر من الملك فاروق بعد خروجه من البلاد بسنوات عشر، ومن ثم فإنها كانت فى الإطار الدى يريده النظام الجديد فى مصر، لأنها تهاجم خصومه، حتى بعد ما لم يصبح لهؤلاء الخصوم أى حضور أو خطورة.

تم منع (المخططين) ليوسف إدريس، و(سبع سواقى) لسعد الدين وهبة، بالإضافة لمسرحيتين أخريين، و (ست الكل) لنعمان عاشور، و (باب الفتوح) لمحمود دياب، و (الحسين) لعبد الرحمن الشرقاوى.

فجأة حدث الطلاق!

وحدثت ظاهرتان متلازمتان فى هذا السياق:

أولاهما: رفض النظام لما لا يتوافق مع خطه أو إطاره، فضلا عن زيادة حساسيته بعد الهزيمة.

وثانيتهما: أن المستوى الفنى ـ حتى ـ لما أنتجوه بعد الهزيمة كان أضعف، وهذا ليس حكم لينين الرملى، ولكنه حكم الزمن، فلعبة الإسقاط والحشد وراء

مفاهيم يومية ومعاصرة، لا تصمد، ولا تخلد، وإذا أردت إعادة أية مسرحية لهؤلاء اليوم، فلن يفهمها أحد.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنهم ـ حال خلافهم أو فلنقل عدم تساوقهم مع النظام، فقدوا جزءا كبيرا من أسباب نجاح مسرحهم قبل ١٩٦٧ ، الذى كان مستمدا من ترويجهم لمفاهيم كانت بطبيعتها شعبية وقتها، فأسبغت من شعبيتها على تلك المسرحيات.

أما فى السبعينيات، فلم تك السلطة تريد أو تحتاج وجود المسرح، ولكنه ظل موجودا، ليصبح الرجل المريض فى ساحة الثقافة المصرية، لأنه كان من الصعب إعلان انتهاء دور المسرح تماما.

وقد أدركت هذه المعادلة، لأننى كنت من جيل آخر تماما، ورأيت أن الرجل المريض كان فى حالة أسوأ، مما كان عليها فى عقد الستينيات (عقد المناصب لكتاب المسرح والترويج لمفاهيم النظام).

فالقطاع العام ـ فى نظرى ـ كان قطاعا (خاصا)!!

كان خاصا بمديريه، وبالشلل التى يخدمها ويروج لأفرادها.

ولما كنت خارج هذه المنظومة، وجدت أننى لن أستطيع تقديم مسرحياتى عبر القطاع العام، لأن أحدا هناك لا يعرفنى فأنا لست ضمن شلة، ولست جزءا من مثل هذه التجمعات.

وعلى الفور قررت أن أعمل أعمال قطاع خاص، وربما يسأل أحدكم نفسه وهو يقرأ هذا الكلام. وما هى البطولة فى هذا؟ وبالطبع ليس فيها بطولة الآن، ولكن هذا الكلام فى السياق الزمنى الذى فكرت فيه أن أقدم أعمالى فى القطاع الخاص كان عيبا، وكان سُبة!!

لقد هاجمتنى زوجتى وقتها، وقالت إننى لو قدمت عملا فى القطاع الخاص، فسوف تتركنى، ولكن ما حدث أننى عملت فى القطاع الخاص، واشتغلت ـ هى ـ فى الثقافة الجماهيرية، وكان رفاق عملها يذلونها، ويعايرونها بذلك، مؤكدين لها أن زوجها يشتغل فى مجال رايته الاسفاف، وأنه مرتبط بالقطاع الخاص وبالرأسمالية!!

كان المشهد كله أشبه بأغنية عبد الحليم حافظ التى تصور الخروج عن الخط الثورى على أنه عمل فضائحى (ياعديم الاشتراكية. . يا خاين المسئولية. . ح حنطبل لك كدهه)!!

على أية حال فإن معظم زملاء زوجتى هؤلاء، كتبوا للقطاع الخاص بعد ذلك!

الموضوع كان ـ بالنسبة لى ـ يبدأ وينتهى بأننى لم أك أستطيع أن أعرض عملى على مسئولى القطاع العام، وأنتظر منهم أن يقيمونى، وربما بدأت عقدتى هذه منذ أن كنت فى الثامنة عشرة من عمرى، عندما قامت أمى (وكانت تعمل صحفية فى روز اليوسف) بأخذ إحدى قصصى القصيرة، وقدمتها لرئيس تحرير روز، فقال لها إننى موهوب، ولكن إذا كنت أنوى الاشتغال بالكتابة، فلابد أن أغير اسمى!

وجاءت أمى لتقول لى: لينين غير اسمك!

وقتها كنت أقرأ ـ كثيرا ـ فى الوجودية والرومانسية، وبعض الماركسية، ووجدت أنه شىء غير إنسانى، أن يطلب منى أحد تغيير اسمى لأن الناس لا يعجبها هذا الاسم، وحتى من الناحية العملية لو أسميت نفسى خالدا، سيقال ـ هذا هو (خالد) الذى كان اسمه (لينين)، وستجد من يطالبنى بأن أتخلى عن هذا التخفى، وبخاصة بعد أن انكشفت!!

لم يك رفضى له علاقة بلينين أو بالاشتراكية، ولكنه كان موقفا وجوديا. . فأنا الذى أصنع هويتى وليس أى إنسان آخر.

فإذا بدأت حياتى بتغيير اسمى، إذن فيمكن أن أغير أى شىء آخر، فلأغير بلدى مثلا!

وهكذا رفضت تغيير اسمى، ومن ثم الكتابة فى الصحف، ثم رفضت مسرح القطاع العام الذى يسيطر عليه المديرون مثل عزب خاصة، وضياع يملكونها.

وهكذا قدمت مسرحيتين للقطاع الخاص هما (الحمير) و (انتهى الدرس يا غبى).

وكانتا شيئا غريبا جدا بالنسبة للسياق الإبداعى والفكرى السائد فى مسرح القطاع الخاص.

وبعد ذلك قررت تشكيل فرقة مسرحية فى الثمانينيات مع الممثل محمد صبحى، وعرفنا الناس من خلال هذه الفرقة التى قامت على أن يحصل كل منا على نسبته عن عمله، إذا غطى هذا العمل تكاليفه، ولكن المهم - بالنسبة لى - أننى أصبحت سيد نفسى.

وبعد ذلك أعمل فى القطاع الخاص أو العام ليس مهما، لأننى كنت قد تكونت وأصبح عندى - باستمرار - طريق آخر أستطيع أن أسلكه.. ولهذا عندما طلب المسرح القومى منى مسرحية عام ١٩٨٩ قدمت (وداعا يابكوات)، وقدمت مسرحيتين فى المسرح الكوميدى آخرهما (اللهم اجعله خير).

قاومنى جيل الآباء هذا.. ولكن مقاومة عبيطة، فلا أحد يستطيع أن يقاوم الإبداع، لقد حاولوا إعاقتى من خلال الأدوات التى يملكونها مثل مجلة (المسرح) مثلا، فأنا كاتب لى ٣٣مسرحية، وحتى المسرحية العاشرة لم تذكر هذه المجلة مسرحياتى - وكأنها غير موجودة، وعندما بدأت الكتابة بعد ذلك كانت تهاجم مسرحى، يستوى فى هذا مجلة (المسرح) أو غيرها من المجلات المتخصصة التى تصدر عن وزارة الثقافة، ويتولى أمرها هؤلاء الآباء المسرحيون الذين ذكرتهم فى سؤالك.

لم يكن هجومهم - حتى - يتعرض للفكر الذى أقدمه عبر مسرحى، ولكنه كان ينطلق فى أحكام عامة، وغائمة، وعائمة مثل: (هذا إسفاف).. (هذا مقتبس).

لقد وصلت هذه المقاومة إلى حد أن أحد دارسى المسرح المصريين فى ألمانيا، كان يعد رسالته للماچيستير، وجاء وقابلنى ثم فاجأنى بأنه سأل عن مسرحياتى فى مكتبة أكاديمية الفنون، فقال له أحد الأساتذة: «من هو لينين الرملى نحن لا نعرفه»!

. . . .

على أية حال ـ مرة أخرى ـ لقد أصبحت سيد نفسى، وفرضت وجودى، وحصلت على التقدير حتى من خلال مؤسسات الدولة التى يعمل هؤلاء فى إطارها، فكرمونى فى مهرجان المسرح التجريبى عام ٢٠٠٠.

لقد استفدت جدا من التجاهل، فالمديح والإطراء مضران إنسانيا.

التجاهل يتحدى المبدع ويستفزه، ويكون بمثابة حافز له يذكره ـ باستمرار ـ بأنه لم يقنع كل الناس.

أزمة!

● هل هناك أزمة مسرح بالفعل؟.. ومن هو صاحب المصلحة فى مناخ الأزمة الذى شاع وذاع وبولغ فيه عن قصد وتدبر، حتى أصبح فعل (الأزمة) بديلا عن فعل (الإبداع)؟!

○ لم نبدأ عصر النهضة إلا فى عهد محمد على.. وهناك فجوة واسعة بيننا وبين العالم المتقدم.

لماذا تريدون مسرحا متقدما، إذا كان المجتمع متخلفا!

الأزمة كما فى الزيت والصابون، كما فى الكتاب والجريدة، كما فى العلم والاختراع.

جوهر الأزمة أننا نشعر بأن إمكانياتنا أكبر مما هو حاصل أو حاضر فى واقعنا.

هذا ربما يعكس أزمة إدارة، وهى على الأقل الشىء الذى ينبغى الاعتراف به فى هذا السياق، فإمكانياتنا أكبر من واقعنا.

لدينا أزمة (حياة) فى مصر، أو فى المنطقة!

لقد احتككنا بالعالم المتقدم، وهذا العالم فيه أناس اخترعوا وصنعوا نهضة، اكتشفوا النجار، وبنوا سفنا كبيرة.

حملتهم المخترعات الحديثة ليحتلونا، ويبقوا فى بلادنا

جاء نابليون بالسفن، وجاء الإنجليز بالأسطول، وقبل ذلك كان سقف تصوراتنا هو ما كان سائدا أيام مراد بك، حين نظروا ـ وفق رواية الجبرتى التى عكستها فى مسرحيتى أهلا يا بكوات ـ إلى الفرنسيس بوصفهم مائعين، رقعاء، وما إن نزلوا إلى الإسكندرية حتى أصبحت تصوراتنا عنهم أنهم ذوى أنياب، وأن الواحد منهم يبلغ من الطول ما يعلو أية بناية من بنايات الإسكندرية.

الفارق بين التصورين هو فارق الفجوة بين العلم والتخلف، فحينما نكتشف أن العلم يجعل غيرنا أقوياء جدا، نخاف من هذا العلم الذى يحمل فى طياته هذه الطاقة والقوة الكبيرتين.

وهذا هو ما حدث ـ بالمِثْل ـ فى موقفنا مع إسرائيل، فكنا نرى أن إسرائيل هذه لا شىء، وأننا يمكن أن ندفعها فى المياه، وكيف نخاف من بضعة ملايين ونحن أكثر عددا وتعدادا، وأننا أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط.

وبين عشية وضحاها، أصبحنا ننظر لإسرائيل على أنها لا تقهر.

نعم كما حدث مع نابليون ـ حدث مع إسرائيل.

المبالغة فى التهوين أو التهويل هى سمة من سمات التخلف.

وسبب التخلف أننا دخلنا العصر الحديث مرغمين بقدم واحدة، وظلت القدم الأخرى فى الخلف من ساعتها!!

وحتى هذه اللحظة والمعركة دائرة ما بين قِدم ندفعها إلى الأمام، ثم تضغط عليها عوامل متشابكة لتعيدها إلى الخلف.

● كلامك من خلال هذا المنظور العلمى يدهشنى. لأن فوارق الزمن، هى من لوازم الصناعة، والكومبيوتر والميكروشيبس من نتاجها، والصناعة وحقائقها العلمية يمكن أن تفقدك الخيال، أو تسلبك القدرة على الإبداع.

○ العلم يمنح صاحبه النظرة الشاملة وهى من ألزم اللزوميات للفن!!

بعض الناس يقول لى: (أنت تكتب مسرحا سياسيا)، ولكن ما أكتبه هو أبعد ما يكون عن السياسة، لأن السياسة هى فن الممكن، والفن بطبيعته يخترق الممكن والعادى.

كل فن يحتوى على فكر، كونه ينظر نظرة فيها شمول، والعلم يمكن الإنسان من استشراف المستقبل عبر هذه النظرة الشاملة.

وهذا لا يمنع ـ مطلقا ـ أن يتكلم هذا الفن عن واقع الناس، وعن شخصية ـ مثلا ـ تجلس على الرصيف، ولكنه يرى ـ عبر نظرته المفكرة ـ جزئية فى هذه الشخصية أعمق وأكبر مما يرى غيره.

الفن ليس مجرد محاكاة للواقع.

ليس نقلا فوتوغرافيا لشخصية تجلس على القهوة تدير حوارا مع شخصيات أخرى، كما ليس نقلا لحادثة فى جورنال.

العبرة هى أن التفاصيل يراها المبدع فيما يرى، والعبرة هى إلى أين يأخذك ـ عبر عمله الإبداعى ـ من خلال تعرضه إلى هذه التفصيلة.. ما هو هدفه.. ما هى فكرته التى يريد أن يوصلها من خلال العمل.

الفن هو الخروج من الخاص إلى العام.. فأنت عندما تتكلم عن عطيل فأنت تقصد البشر، وعندما تتكلم عن هاملت، فأنت لا تحكى حكاية رجل عاش بين الخيانة والحب ثم مات، المفروض أننا انتهينا من مجرد الحكاية البسيطة التى عرفنا عناصرها منذ زمن طويل، وشاهدناها، أو قرأناها لعشرات المرات.

بخيل موليير، وكل أعمال شكسبير، على الرغم من بعد الزمن، وعلى الرغم من بعد اللغة، وعلى الرغم من بعد المجتمع، يشتركون فى نظرة بشرية عامة. ولعلك تتأمل معى قليلا، حقيقة أن شكسبير لم يكتب عن أبطال إنجليز ولكنه كتب عن أبطال أجانب.

● **نعم.. هاملت ـ مثلا ـ كان أمير الدانمارك!**

○ ليس هاملت فقط، ولكن معظم شغله، فروميو وچوليت كانا من فيرونا. . وهكذا.

الفن هو الخروج من الخاص إلى العام، ولذلك لابد للفنان من أن تكون لديه الرؤية التى تسمح بهذا الخروج، والعلم لا السياسة هو الذى يسمح بالنظرة الشاملة، أو بالرؤية الشاملة.

ولهذا يصيبنى غيظ، بل وغضب كبير حين يقولون لى: إن مسرحك سياسى، لأن هذا يختزل الرؤية إلى مساحات صغيرة، فى حين الأصل أن المسرح فكر، والفكر يحتوى على زوايا سياسية وثقافية، واجتماعية، وإنسانية.

الأزمة هى تخلفنا. . الأزمة هى انعدام الرؤية.

والسؤال عن الأزمة يشبه ألغاز الحواة، سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة، فأنا يمكن أن أسألك سؤالا: (أتحداك ـ يادكتور عمرو ـ ماهو اسمى؟)، وبالطبع. لا يمكن أن ترد وتقول: لينين، لأن سؤالى يحدد الإجابة!!، أما إذا قلت لك: (سوف أدفع لك مليون جنيه لو عرفت ما هو اسمى) فستذهب إلى تخمينات كثيرة، وتسأل آخرين إلى أن تعرف أن اسمى لينين.

وبالمثل من هو المسئول عن أزمة السكر (التى قد تكون حدثت قبل أن يوجد وزير للتموين)؟ ومن هو المسئول عن أزمة الإعلام؟ ومن هو المسئول عن أزمة الكتاب؟!.

ربما يقول لك بعضهم إن فلانا هو المسئول، فتذهب إليه بطلب، فيقول لك: «إننى غير مسئول».

وبهذه المتوالية المنطقية حين تسألنى عن المسئول عن أزمة المسرح، فسأقول لك: المسئول هو المسئول.

المسئول هو المجتمع كله!

بعبارة أخرى هناك حزمة من العوامل . . من الاحتمالات يدفعنا إليها سؤال لا يحدد الإجابة، وهذه العوامل أو الاحتمالات هى التى تخلق وضع الأزمة.

لدينا أزمة حضارية، لأن عندنا نسبة كبيرة من المتعلمين. ونسبة كبيرة من المثقفين، ولُدينا نهر، وعندنا صناعة، فلماذا نحن لسنا أحسن!!

الإدارة. . . .

هناك فارق ما بين إدارة العصر الحديث، وإدارة العصور الوسطى، وهذه الفجوة هى التى تخلق الأزمة.

المجتمع ـ عندنا ـ ليس داخلا فى جو المسرح.

المقهى جزى من تكوين الشعب العربى، لكن المسرح ليس كذلك.

المسرح دراما. . صراع داخلى، ومنطقتنا كلها لا تعترف سواء كأنظمة أو كمجتمعات بالصراع الداخلى.

المسرح ظهر فى اليونان، لأن الديمقراطية ظهرت فى اليونان، وفى المسرح يصرخ هاملت: (أكون أو لا أكون) أو يعتصر الجدل عطيلا وهو يفكر فى قتل أم عدم قتل ديدمونة. . هنا يظهر الصراع الداخلى. . الرأى والرأى الآخر، وهكذا يجب أن يكون المجتمع، وإلا لن تكون هناك دراما.

ولذلك عندما نعود إلى ما بدأنا به الحوار عن مسرح الستينيات، ستجد أنه ـ حتى ذلك المسرح ـ لم يك تعبيرا عن دراما حقيقية، وإنما كان انعكاسا للشعار السياسى السائد، أو للقضايا السياسية اليومية السائدة، فكان يصور ـ على سبيل المثال ـ فلاحا لم يأخذ حقه يكافح إقطاعيا. . هذه دراما خارجية، ولكن ما أتحدث عنه هو الصراع الداخلى (الصراع الدرامى داخل الفلاح نفسه) أو (الصراع الدرامى داخل الإقطاعى نفسه). . الصراع الخارجى هو بطل فى مواجهة واحد، ولكن ما أتحدث عنه هو الدراما داخل الناس.

الصراع الداخلى يمكن أن يقترن بالصراع الخارجى، ويخلق أرضية أكثر تشابكا

وترابطا، سواء فى صراع الإنسان ضد الآلهة، أو ضد القدر أو ضد نفسه، الصراع الذى يكشف عذابه وبطولته فى آن!!

الحيوان لا يعانى.. فهو إما يأكل وإما يؤكل، لكن الإنسان هو الذى عرف الضمير، ومن ثم كانت لديه مشكلة (أكون أو لا أكون)، رجل يقتل المرأة التى أحبها، وهو لا يعرف ما إذا كان يقبلها أو يقتلها. هذا هو البنى آدم.

تحدثنى عن أزمة المسرح!.. ويقولون إن هناك أزمة نصوص، ولكن هل هناك تمثيل؟.. هل هناك إخراج؟!

نحن نتحدث فى الفراغ عن أزمة، وأنا أصلا ليس عندى عناصر الوجود، لأتحدث بعد ذلك عن الوجود المأزوم!!

لايوجد مسرح فى الجامعة، كما لا يوجد ملعب، وربما لا يوجد معمل!!

وهناك ثقافة جماهيرية تفترض أن هناك مسارح فى الريف وفى القرى، ولكن إذا تأملت حالها ستجد كتلا من الموظفين، وناسا تتشاجر على قرش صاغ، ولا إنتاج مسرحى حقيقى.

نحن مجتمع بعيد.. وربما بعيد جدا عن المسرح.

فاشية!

● **خصوم فكرك المسرحة هم نجوم الفاشيتين الدينية والسياسية. ما هى الساحات المستمدة فى مسرحك للصراع معهم؟ وتحت أية عناوين يمكن أن يستكمل الصراع فصوله ومشاهده؟**

○ كما كنت أقول لك، فإن السياسة هى فن الممكن، وتتكلم على واقع قائم، هذا الواقع يمكن أن يتغير بشكل أو بآخر

أما المسرح ـ كما أراه ـ فهو مختص بقضايا اكبرى، أو قضايا مطلقة، أعيشها مع بنى البشر جميعا، على الرغم من اختلاف المكان، واختلاف الزمن، مع الإقرار بخصوصية الشكل أو التفاصيل عند كل مجتمع من المجتمعات.

معركتى كانت جزءا من معركة الإنسان عموما ضد الفاشيتين الدينية والسياسية، والمنطق الذى تفرزه كل منهما.

ولقد عبرت عن ذلك فى يونيو الماضى فى مسرحية اسمها (الشىء) عرضتها فى المركز الثقافى الفرنسى.

حكاية هذه المسرحية بسيطة، وهى من فصل واحد، وقدمتها مجموعة من الهواة.

وتقوم الحكاية على (شىء) وجده فلاح وابنه، ثم نظر كل من الشاعر، ورجل الأعمال، والطبيب، ومهندس الرى، والشيخ، والمحافظ والعمدة، إلى هذا (الشىء) من زاوية قد تكون معه، أو ضده، يستفيد به، أو لا ينتفع به، يؤممه أم لا، هل هو نذير شر أو نذير خير، هل هو عمل وضعه الكفار أو وكالة المخابرات الأمريكية (CIA)، أم أن فيه بركة ـ أم فيه نقمة..!!

ولكن أحدا لم ينشغل بسؤال ماهية هذا الشىء!

إذا عرفنا ما هية الشىء، يمكن أن نختلف ـ بعد ذلك ـ حوله.

كان طالب العلوم هو الوحيد الذى لم يدر حول الشىء، وطلب أخذ عينة منه، فلم يوافق أحد، ورجل الأمن جاء وصنعت قوات الشرطة كوردونا حول (الشىء)!

قام الضابط بالتحقيق مع رجل العلم، (ما هى علاقتك بالشىء؟ قال: ليس لى علاقة. ولما أنت ليس لك علاقة لماذا ألصقت نفسك به، هل تعرفه؟ فقال: لا، فعاود: لماذا إذن نزلت له مادامت ليست لك به علاقة؟!، فقال له: من غير ليه. ومن الذى حرضك؟ قال له: عقلى. وماذا يعنى عقلك؟، عقلى هو مخى.. والمخ لابد أن يشتغل..

المهم ـ بعد لجاج كثير جدا، جاءتهم الأوامر،بعدما تداول المسئولون بردم الشىء، ويادار ما دخلك شر!!

وأنا لم أقصد أن أحكى لك المسرحية، ولكننى أريد أن أوضح لك إلى أى مدى تعكس هذه الرؤية أزمة الواقع حولنا، فكان كل من يوجه إليه سؤال ما هو الشيء، يرد - مثلا - قائلا: (حلال)!! وهذا ليس رد السؤال، وقد فات هذا حتى - على مشاهدى المسرحية، والوحيد الذى سأل كان رجل العلم، الذى ابتعد عن الحكم الأخلاقى، ليرى ما هى مكونات (الشئ).

منهج التفكير الذى اتبعه الناس فى مواجهة الشيء، هو - بالضبط - ما يؤدى إلى الفاشية الدينية، أو الفاشية السياسية.

ومثال آخر لعملية استيلاد الفاشية، يأتى من شيء آخر فى مجتمعنا هو - مثلا - الخلط بين الرأى والخبر فى الصحافة، فالرأى شيء يحتمل الاختلاف، أما الخبر فلا يحتمل الخلاف، ولا يمكن أن تخلط بين الاثنين، فمن غير المتصور أن يأتى واحد وينشر أخبارا غير صحيحة باعتبارها رأيى.

مثل هذا المنهج فى التفكير هو الذى يستولد الفاشية الدينية، والفاشية السياسية، لأنه يلغى التفكير.

أما أصل المنهج العلمى فهو أن ترى الشيء على حقيقته من دون غرض، كما كنا ندرس فى المدارس والكليات، فنحن نفترض الفرضية، ونحاول إثباتها بنوع من التجرد المطلق.

ولكن الفاشية السياسية والدينية، تخلق تيارات من الديماجوجية، التى لا تعنى سوى التضليل.

فقد كان الإرهابيون يحملون السلاح ضدنا، يعرفون أنهم غير قادرين على قلب النظام، فما هى قوتهم لكى يقلبوا النظام؟ بالطبع لا شيء، ولكن كان لديهم تصور يقول بإحداث قلاقل فى لحظة معينة، يطلقون فيها صيحة: (الله أكبر)، فتخرج الناس - لامحالة - خلف النداء، مدفوعين - فى بعض الأحيان -

بالخشية من الاتهام بالكفر!!

هذا الحق الذى يراد به باطل، يطلق طاقات من الغوغائية التى تصعب مقاومتها، والتى تلغى - حتى - الحق فى الاختلاف داخل إطار أو صيغة أو مظلة (الله أكبر).

ومن الناحية السياسية سنجد أن منبع الفاشية السياسية هو - أيضا - تلك الديماجوجية!

فأنت تستطيع أن ترفع أى شعار وتقول: (الوطن) أو (من أجل مصر) أو (الشعب تحت الوطن)!، أو غيرها من الشعارات والأفكار التى يسودها التعميم وليس التفصيل.

لا أحد يقول ماذا سيفعل لمصر، ولكن يمكن - فقط - أن نرى واحدا يبكى، أو يصرخ قائلا: (مصر)، فيتعاطف الناس معه.

● تقول إن الاتجاه الفاشى ينبع من الغوغائية والتعميم، ومن غياب الرؤية العلمية، كما بينت فى مسرحية (الشىء)، ولكننا رأينا فاشيات لنظم هتلر وستالين متقدمة علميا جدا.

○ هذا سؤال وجيه جدا.

الفارق بيننا وبينهم، أن المنهج العلمى دخل حياتهم بشكل عام، فاستطاعوا أن يحققوا تقدما فى بعض النواحى، فقد كان هتلر على وشك أن يصنع القنبلة الذرية، وستالين بدأ مشروع الصواريخ التى حققت السبق فى دخول عصر الفضاء.

نعم كانوا فى المعمل وفى المصنع يتعاملون بمنهج علمى، ولكنهم فى السياسة تعاملوا بمنهج غير علمى قائم على التضليل.

نحن لم نخضع أنفسنا للمنهج العلمى، فأصبح مجتمعنا مزرعة لتربية جميع أنواع الفاشية.

لم نخضع للمنهج العلمى حتى فى الجامعة، فمنذ سنة ١٩٥٤، حين قررنا تطهير الجامعة، قضينا على حرية البحث العلمى، وأصبح التطهير ـ حتى كرمز أو شىء معنوى ـ سيفا مسلطا على رقاب الناس، واختفى المنهج العلمى القائم على التفكير الحر من مدارسنا.

وتصدر الصفوف من نافق، ومن داهن، ومن خاف، ومن وضع عقله فى صندوق القمامة!! على الرغم من أن القضايا التى تم تطهير الناس فيها لم تك متعلقة بالدين أو بالوطن، ولكنها كانت متعلقة بوجهة نظر سياسية، فلما تم إلقاء وجهات النظر هذه فى الزبالة ومن البداية، أصبح الكادر المعلم فى جزء كبير منه، ولفترة طويلة غير قادر على الابتكار أو الاختراع، ومن ثم غير قادر على تعليم تلامذته القدرة على الابتكار ، أو ملكة الاختراع.. وفى مثل هذه الأجواء تنمو الفاشية وتترعرع بغير ما حدود!

أنا ـ الآن ـ لا أتكلم عن قضايا سياسية.

ولكننى أتكلم عن عباءة أو أفق فكرى يشغلنى بشكل عام، وتحته يمكن أن أتكلم عن أى قضايا فرعية، قد تكون هى فى ذاتها ساحات مواجهة جديدة مع الفاشيتين السياسية والدينية، مثل قضايا العدل، وقضية نسبية الحقيقة، وعلاقة الدكتاتور بالوطن، وعلاقة الرجل بالمرأة.

أنا أتكلم عن منطق الفاشية.

فى مسرحية(الحادثة) خطف رجل بنتا، وحبسها ولم يعتد عليها من وجهة نظره بدنيا، أو جنسيا، ولكنه قال لها: «اجلسى هنا، وخذى وقتك، وسوف تحبيننى عندما تعرفيني.. هناك خارج هذا المكان رجال غيرى سيخدعونك، ولن يحبوك مثلى، أنا لا أعرف أن أقول كلاما معسولا، فهم كاذبون وأنا صادق»!!

....

هذا هو منطق الديكتاتور، يفعل، ويسوى، ويسجن، ويعذب.. ولكنه فى نظر أتباعه رجل وطنى، كأن بقية الشعب ليس وطنيا!!

لقد سلمت فى المسرحية بأن الزعيم يحب وطنه، يحب الفتاة، إلى درجة البكاء، إلي درجة الركوع تحت قدميها، وتقبيل يدها، لكنه ـ فى الواقع ـ يسجن القتاة، ويأخذ روحها، ويحتجز حريتها.

هذا تناقض درامى على المستوى الإنسانى.

● **أنت تتعامل مع قضية الفاشية القادمة من رحم التفكير غير العلمى، أو المنهج غير العقلانى، من منطق الاشتباك والانحياز إلى التفكير العلمى/ العقلانى... ألم تواجه أثناء عملك الفكرى ـ المسرحى هذا مقاومة، يقوم بها مبدعون يتبنون فكر الفاشيتين؟**

○ من يرسم لوحة أو يكتب قصيدة، أو يضع لحنا أو ينشد قصيدة ليس ـ بالضرورة ـ مبدعا!!

المبدع هو من يأتى ببدعة أو يخترع شيئا غير موجود من قبل. . بعبارة أخرى، يرسم لوحة أو يكتب قصيدة أو يضع لحنا، أو ينشد قصيدة لم يتطرق أحد من قبل إلى معانيها الكامنة.

الفاشى، من الصعب جدا أن يكون مبدعا، لأن الفاشية شىء ينتمى إلى الماضى. أما الإبداع فشىء ينتمى إلى المستقبل.

سارتر له جملة عبقرية تقول: (الكتابة دعوة إلى حرية القارئ)، والمفروض أننا لا نعيد إنتاج ما قيل من قبل، وإلا نكون قد عطلنا الأمة. . ليس المهم أن نقول نثرا أو شعرا، أو بأى شكل من أشكال التعبير، ولكن المهم المضمون.

الفاشية ـ بالضرورة ـ تعتبر أى جديد ضد أمنها، وضد احتكارها لإنتاج المقولات، وتلبيسها على الواقع. ومن هنا فهى ضد حرية المبدع، وضد حرية القارئ.

فالمبدع ينتج ما يريد أن ينتجه، ثم يقومون هم بإحراق الكتب، ومصادرة حرية المبدع وحرية القارئ..

كيشوت!

● ثمة قراءات مختلفة، لدون كيشوت فى المسرح والسينما، بعضها تراچيدى، وبعظها كوميدى، وبعضها تراچيكوميدى.. أى نوع من الدون كيشوتات أنت؟

○ أنا دون كيشوت وجودى!

أنا لا أحارب طواحين الهواء، ولا أحارب معركة خيالية.

أنا أحارب معركة مع شيء حقيقى وهو نفسى، وأرى أن أكبر المعارك التى ينبغى للفرد أن ينتصر فيها هى معركته مع نفسه.

أنا رجل دراما، لا أرى الإنسان قطعة واحدة، أو شيئا واحدا، ولكننى أراه شظايا، وأراه منقسما، إن لم يكن فى هذه اللحظة فربما فى لحظة أخرى، ينقسم فيها هذا الإنسان، ونضع يدنا عليها، ونقول هذا موقف درامى، أو هذا اختيار تراچيدى.

يمكن للإنسان أن يعيش حياة طويلة، ولكن فى لحظة ما، ربما بعد ٥٠ أو ٦٠ سنة، تأتى له هذه اللحظة، التى نسميها الاختيار الإنسانى/ التراچيدى.

هذا يحدث للإنسان الذى يملك ضميرا، ويحاول تحقيق التوزان النفسى.

أما إذا كنا أمام حالة إنسان عنده بارانويا أو جنون عظمة، فلن تكون لديه مشكلة مع نفسه، وبالتالى لن يكون لديه صراع درامى، لأنه يرى نفسه بوصفه كائنا لا يخطئ!!

هذه حالة ليس لها مشكلة أصلا. لكن أى إنسان يحاول أن يصنع موازنة

لتصرفاته وتفكيره وأفعاله، وهى الأشياء التى يكون للضمير جانب فيها، هو إنسان يعانى من صراع درامى.

أما كيف ينتصر هذا الإنسان على نفسه؟

فإن ذلك يكون بإدراك حقيقة أن هذا الإنسان ارتقى ـ أصلا ـ من الدرجة الحيوانية، لأنه حاول أن يطور أو يعدل من غرائزه، فأنت طول الوقت فى حالة صراع مع دوافعك كلها وأحاسيسك كلها.

فلو أردت أن تكره، فلأى مدى، وإذا أردت أن تحب فلأى مدى، ولو أردت أن تأكل فماذا تأكل ولأى مدى، وبخاصة إذا كان لديك مرضا يمنعك!

طوال الوقت أنت أمام اختيارات، وتعيش صراعا، حتى على أبسط مستوى.

الصراع الذى أعيشه هو محاولة تحقيق انتصار فى الشىء الذى أحبه.. وهو الكتابة.

الفن هو اتصال بالآخر، ومن ثم يهمنى رأى هذا الآخر، ولكن يهمنى جدا وعلى نفس المستوى، رأيى ـ أنا ـ فى نفسى.

أريد أن أكون أفضل على المستوى الإنسانى، وعلى مستوى الكتابة (وقد تكون هناك رابطة بين الاثنين) هذه هى المعركة التى أخوضها!

لقد تعودت الكتابة منذ كنت طفلا، قبل أن يقرأ أحد ما أكتبه.

الكتابة عندى عادة، أو فعل، وأنا لا أكلم البشر الآخرين، من خلال الكتابة فحسب، ولكننى أكلم نفسى فى صورة هؤلاء البشر الآخرين.

أنت تعلم بالمقولة التى تقول إن (القاتل يكره نفسه)، فطالما قتل إنسانا على صورته، فإنه ـ فى الواقع ـ يكون قد احتقر نفسه، ولا يعطيها هذه الأهمية التى تقتضى الاحتفال بها!!

ولهذا فإن المحب للبشرية يصعب عليه أن يرى قطًا يقتل، أو كلبا يصرع، وليس بنى آدم.

أما لو وافق على قتل بنى آدم، فإن نظرته لنفسه تكون نظرة دونية.

إذن أنا أرى نفسى فى الآخر الذى أتصل به، وهناك علاقة بين الاثنين.

تعودت أن أكتب وأنا صغير.. هذا فعل متصل، ليس له علاقة بأن أنشر أو لا أنشر.

الهدف أن أستمتع بما أكتب، وأشعر أنه مهم، وأعيش الخلق والصراع.

ومن قال إن الرأى العام لابد أن يكون صحيحا أو سليما؟! لكى أهتم إذا قال أحد أننى أفضل من غيرى، أو أن أهبط وأنهزم لو قالوا إننى أقل!

القضية هى احترامى لنفسى من خلال ما أكتب!

تمسرح!

● مسرحياتك لوحات غنية بالتفاصيل، على المستويات الشعورية والنفسية، والعقلية.. ما هى المناطق التى تراها أجدر بالتركيز، فى الحياة المصرية العربية اليومية، والتى ترى أن تفاصيلها تستحق أن تمسرح، وأن تفشى قدرا من الحوار حولها؟

○ تفاصيل الحياة اليومية أصبحت أشبه بمسرح اللامعقول، فالمسرح يحتاج تكثيفا، ويحتاج مبالغة، فما يستغرق ٥٠ يوما، تصنعه فى ٥٠ عاما، فيظهر الموقف على أنه موقف مسرحى فيه تضخيم، وفيه مبالغة.

الموقف فى الشارع العربى، كأنه قد خرج من إحدى مسرحيات يونسكو، فيه لا معقول بجد!

اليوم إذا سألت شخصا سؤالا، وليكن مثلا - (هل هذه السلعة موجودة فى هذا المحل بعشرة جنيهات؟) فإنه يجيبك بإعادة الجملة نفسها، وكأن ما قاله إجابة!!

كل ما فى الأمر أنك تضع فى نهاية كلامك علامة استفهام، ويضع هو فى نهاية كلامه نقطة!!

الموضوع أصبح كاريكاتيرا، واللغة ـ فى مصر بالذات ـ فقدت معناها تماما.

وتفاصيل ما يجرى فى الشارع أصبح مسرحية تماما، إلى درجة أنها ـ أحيانا ـ يصعب أن تعلو عنها، ولكى تصنع مسرحا بالمعنى الفنى، لابد ـ حينئذٍ أن تلجأ للفنتازيا الصريحة، لأن التعامل مع الواقع يصبح مستحيلا على المستوى الفنى، لأنه أكثر (مسرحة)!!

هذا عن اللغة اليومية ـ أما عن المواقف، فإن كل ما يحدث فى الشارع يستحق أن يمسرح، وأن تعلو عليه وتعيد صياغته وتقدمه.. ولقد فعلت هذا فى مسرحية (سعدون المجنون)، على الرغم من أنها تتعلق بالماضى، فالبطل يحكى ما جرى فى الخمسة وعشرين عاما الماضية (وقت ظهور المسرحية) وبخاصة بعد ١٩٦٧.

وكان البطل يحكى محرد أخبار، مثل مانشيتات الصحف، ومع ذلك كانت الناس تضحك، على الرغم من أن ذلك هو ما حدث.

الرجل يقول: إن إسرائيل احتلت أجزاء من مصر وسورية والأردن، فيرد عليه آخر قائلا: ولكن عبد الناصر كان يقول سنشرب الشاى فى تل أبيب، فيضحك الجمهور، على الرغم من أن ذلك ما حدث، ثم يقول: بعد ما مات عبد الناصر عينوا أنور السادات، فيضحك الجمهور أكثر، رغم أن ذلك ما حدث، ويقول البطل: عبد الناصر تنحى وترك الحكم، فيسأله البطل الآخر: وهل ترك الحكم؟ فيقول له: لا لقد تنحى فقط، فيضحك الجمهور أكثر، رغم أن ذلك ما حدث، ويقول البطل: عندما استقال عبد الناصر عين لنا زكريا محيى الدين، فيسأله البطل الآخر: وهل جاء زكريا محيى الدين إلى الحكم به؟ فيجيبه: لا.. عبد الناصر هو الذى عاد للحكم، فيضحك الجمهور ويضحك، على الرغم من أن ذلك هو ما حدث بالفعل!

ويقول البطل: بعد ذلك قال السادات، أريد أن أوقع معاهدة مع إسرائيل، وتضايق العرب من أنه وقع معاهدة السلام، فيسأله البطل الآخر: وهل هاجم العرب إسرائيل؟ فيجيب الآخر: لا.. هاجموا السادات، فيضحك الجمهور.. رغم أن ذلك ما حدث.

أنا لم أفعل سوى أننى وضعت المانشيتات وراء بعضها، وأدرك الناس ـ من خلالها ـ التناقض والمفارقة بين الأفعال والأقوال.

الشارع المصرى والعربى مزدحم مكتظ، تسوده أخلاقيات الزحام، والتدافع الرهيب.

كل فئة تخترع دستورا خاصا بها، وحتى هذا الدستور لا أحد يرجع إليه.

أى فئة (النقابات المهنية، تصدر لوائح تتعارض مع دستور الدولة، والدولة لديها جيش مستشارين، يصدرون لها قوانين تتعارض مع الدستور، ثم تأتى الدولة بنفس هذا الجيش ليجد حلا، حين تحكم المحاكم بعدم دستورية القوانين!!

الشوارع مليئة بالقوانين التى لا يعرف أحد من أين جاءت، والتى تتعارض وتعترض حركة الناس، ومصالح المجتمع.

والناس مشغولون فى اختراع هذه القوانين ومخالفتها!

هذا هو الشارع الذى تكلمنى عنه.

زحام غير معقول.. ولغة لم تعد تعنى شيئا، والناس تتدافع بجنون، من دون أن تعرف ما هو الهدف الذى تتدافع من أجله.

إنفوميديا!!

- **المنتج البشرى product الذى استولدته، ثم استنسخته ثورة الإنفوميديا Infomedia يجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل جذبه إلى ساحة خيال جامح، أو إلى التمرد على الحياة**

اليومية، أو اختراق سقوف المعقولية الواطئة، وهذا ضد المسرح، أو بعبارة أخرى هو من النوع الذى يكسر الإيهام، ثم يعاود كسر ما انكسر.. كيف يمكن تصور تعاملك مع متلق كهذا، أو متفرج يحترف تكسير كل ما تبنيه على الورق، من شخوص وعلائق صراع، أو تصاعد للتناقضات بينها؟

○ حين نقول إن المسرح أو الفن هو خيال، فإن معنى مثل تلك العبارة، يحتاج ـ وبقوة ـ أن يفسر، لأنها غير واضحة تماما.

نحن عندما نقول إنه خيالى نقصد أن نفرقه عن الواقع وليس مقصودا بالخيال أى شيء يبعد عن الواقع، ولكنك تستطيع أن تقول إنه إعادة صياغة للواقع.

يعنى الخيال مربوط بالواقع وإلا أصبح شيئا آخر، وهذا بالضبط هو الفارق بين الخيال الروائى المبنى على آلة الزمن، أو على ما يسمى الخيال العلمى، وبين الخيال المبنى على الجنى والقمقم، والطلسم الذى نراه فى ألف ليلة وليلة!

المتلقى يجب أن يشعر بالصدق، وأن يشعر أن ما يراه فى إبداعك هو صورته، وصورة أخته، ومديره، حتى لو استخدمت فى نقل هذه الصورة أدوات الفنتازيا، وركبت لمديره فى العمل ذيلا.

سواء كتبنا مثل شكسبير أو يونسكو أو بريخت، فإن الصدق يظل المدخل الأساسى للتأثير.

وهو يعنى تلك المرآة التى ينظر فيها جمهورك إلى نفسه فيرى عينيه الحمراوين، أو شكله غير الجميل، بعد أن ظل الآخرون يقولون له لعقود طويلة: أنت حلو.. أنت جميل.. أنت عبقرى!

● **هل تعتقد أن هناك تناغما بين مستويات أى عمل مسرحى مصرى، هل تؤمن أن الممثل يمكن أن يستوعبك، ويفهم ما ترمى إليه، ويؤدى على مستوى من الفهم يؤكد رسالتك ويدعمها؟**

○ هذا الذى تتحدث عنه، هو عملة نادرة، لأن الممثل يجرى من عمل إلى عمل، وليس لديه استعداد أن يفهم، حتى إذا توافرت له إمكانية الفهم، فليس كل مؤدّ - بالضرورة - يفهم.

الكثيرٌ منهم، يكون لديه استعداد بالفطرة، ولكن بناءه العقلى والثقافى ليس على هذا المستوى.. كما لا يوجد النظام الذى يسمح بإنتاج هذه الكوادر بمستوى حقيقى.

الممثل مجهد وليس عنده وقت، وإذا وجد مساحة ليس فيها شىء يقتضى الفهم، فإنه يترك الأمر فيها لاجتهاده، حيث إنه الشخص الذى يملأ هذا الخواء الموجود!

- **أشعر وكأن حولنا - فى هذا الزمان - عددا من البيهموتز Behe-moths الضخمة الكبيرة، التى تدب حولنا لتمنعنا من التفكير والحركة، واحدة منها يمثلها العقائديون الأيديولوچيون، الذين يؤطرون حياتنا بما يجعلها زنزانة قضبانها الشعارات، أو قلعة علمها الجمود.. وهناك قمع المستويات المختلفة من السلطات، بدءا من السلطة السياسية، إلى سلطة مؤسسة الجهل، إلى سلطة القهر، أيا كان نوعه، وأيا كانت درجته، وهناك حول هذا ظواهر التسربل بأردية تبدو أخلاقية، وهى تناقض فى كل دقيقة من دقائقها كل ما هو أخلاقى.. وهناك كتائب المدعين من أصحاب الصعود السريع الغامض والمضبب، الذى يصعب تفسيره، ويستحيل فك تشفيره!**

كل هؤلاء يزاحموننا الهواء الذى نتنفسه. فما هى المساحة التى تبقت لك لتبدع، ولتفكر؟

○ أعترف أن المساحة تضيق شيئا فشيئا، مثلما تكون محبوسا فى غرفة، ويتناقص الأوكسيچين فيها شيئا فشيئا، فتختنق تدريجيا،

وأنا أحاول أن أفتح ثغرة ينفذ منها الهواء لكى تواصل التنفس، لكن الاختناق وارد فى أية لحظة.

أحاول ـ أيضا ـ أن ألتف حول كل هذا، فأعمل بفنانين هواة، خارج أطر الإنتاج السائدة مثلا، وفى نفس الوقت أحاول أن أجد ممرا للعمل داخل الأطر هذه ولو على المستوى الفردى!

لقد قدمت (الشىء) على مسرح المركز الثقافى الفرنسى، ولم أتقاض أى أجر على النص، واخترت مع المخرج ٣٠ ممثلا من الهواة، وشاركت فى تدريبهم، وحضرت كافة البروفات.

وهذه طريقة للالتفاف لأنك تخرج بها عن إطار المحترفين، وفى هذا الإطار قمت بتقديم مسرحية بالاشتراك مع صندوق التنمية الثقافية اسمها: (كلنا عايزين صورة).

هذه محاولات للخروج من زنازين الطرق السائدة فى الإنتاج، وهى أقسى من كل الكائنات التى تدب حولنا بغلاظة.

فلو خضعت لسلطة ديكتاتورية بشعة، فأنت تستطيع كتابة قصيدة ضدها وتهريبها، أما طرائق الإنتاج السائدة فهى موضوع آخر.

ففرق مسرح القطاع العام محدودة، وتسيطر عليها عقليات.. قد تكون جيدة أو غير جيدة. أنت وبختك!

أما القطاع الخاص فغير مستعد أن يفعل غير ما تعود على فعله.

ماذا يعنى القهر على المستوى السياسى؟

● ألا تعانى مثلا من الرقابة؟

○ لا.. الرقابة لا تمنعنى، ولا أستطيع الافتراء والقول بذلك.

● ألا يمثل المجتمع سلطة قهر اجتماعية عليك؟

○ أنا نفسى. لابد أن أراعى المجتمع.

● يعنى.. أنت حر؟؟!

○ لا.. لست حرا!!

● إذن فَهِمنا يالينين؟

○ أنا أوافق على حدود الرقابة لأنها متوافقة مع رقابة المجتمع.

فلو عملت مسرحية فيها ممثلات ترتدين المايوهات، فإن المجتمع سيعترض، حتى لو صرحت الرقابة!

أنا متفهم هذا، ولكن مالا أتفهمه هو لو كانت الرقابة متخلفة عن حدود المجتمع!!

الرقابة المزعجة هى رقابة التليفزيون، لأنه جهة احتكارية، ولها معاييرها المختلفة، فمسرحية (العربى الفصيح) أجازتها رقابة المسرح، ورفضتها رقابة التليفزيون، لاعتبارات تتعلق برأى بعض الدول العربية فى هذا العمل، يعنى معايير رقابية أخرى لا تمثل مجتمعنا بالذات.

تجارية!

● حكاية الثقافة التجارية، والثقافة الحكومية فى مصر، لمحتها ـ غير مرة ـ فى هذا الحوار، ولكنها تترك فى مصر معلقة من جذورها، أو من شواشيها فى الهواء، ومن دون أن تكون لها علاقة معروفة بين طرفى هذه المعادلة، وفقا للصيغ الدولية.. فمسألة المسرح الحكومى، أو المسرح التجارى فى مصر مختلفة جدا عن مفهومها فى بريطانيا (المسرح القومى/ شركة شكسبير الملكية.. على سبيل المثال).. ما هى حدود الخلط ـ كما تراها ـ فى هذه المسألة؟

○ مصر غير كل الدنيا، ففيها إدانة من جانب كتائب الأيديولوچيا لما هو مسرح تجارى، أو مسرح قطاع خاص، حتى لو كان يقدم مسرحا عظيما، وفيها احتفال بمسرح الحكومة حتى لو كان رديئا أو هابطا.

القطاع الخاص والقطاع العام، طريقتان فى الإنتاج، لا يجب أن نفرق بينهما. . فصلاح عبد الصبور نشر عند مدبولى، ونشر فى هيئة الكتاب. . هل يعنى هذا أن شعره قد تغير من هنا إلى هناك؟!

مسرح القطاع الخاص فى مصر الآن (لأنها حالة فريدة) يصعب أن يقدم مسرحيات جيدة، لأنها تقدم Show، مثل عرض سيرك ليس بالضرورة متعلقا بالدراما.

ومسرح الدولة يتلقى كل الأموال التى خصصتها الدولة لدعم المسرح (لأننا حالة فريدة) على حين فى العالم كله يذهب الدعم لفرق القطاع الخاص، مثلما يذهب لفرق القطاع العام. أما عندنا فما عدا مسرح الدولة ينظر إليه من قبل أجهزة الثقافة الرسمية بوصفه من الأعداء!!

- ٢٠٠١ -

❑ ❑ ❑



❑ ❑ ❑

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٥٦٧٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 01 - 8139 - 0



لقد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عادة القراءة، وحب المعرفة، وأن المعرفة وسيلتها الأساسية هى الكتاب، وأن الحق في القراءة يماثل تماماً الحق فى التعليم والحق فى الصحة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك

السعر ٤ جنيهات